



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الوادي



كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
مخبر بحث التاريخ الاقتصادي والإجتماعي للجزائر
أطروحة دكتوراه

مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الطور الثالث (LMD)
الشعبة: التاريخ
التخصص: تاريخ المغرب الحديث

الحياة الاقتصادية والإجتماعية لقبائل الجنوب القسنطيني 1710-1848م

إعداد الطالبة : حياة شيباني
إشراف: أ.د لزهرة بديدة

نوقشت أمام لجنة المناقشة : يوم الأثنين 10 نوفمبر 2025

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
محمد السعيد عقيب	أستاذ	جامعة الوادي	رئيساً
لزهرة بديدة	أستاذ	جامعة الوادي	مشرفاً
نجوي طوبال	أستاذ	جامعة الوادي	مناقشاً
حفيظة معمر	أستاذ محاضر - أ	جامعة الوادي	مناقشاً
تلمساني بن يوسف	أستاذ	جامعة البليدة 02	مناقشاً
ستار أو عثمانى	أستاذ	جامعة بجاية	مناقشاً

السنة الجامعية: 1446-1447 هـ / 2024-2025 م



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الوادي



كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
مخبر بحث التاريخ الاقتصادي والإجتماعي للجزائر
أطروحة دكتوراه

مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الطور الثالث (LMD)
الشعبة: التاريخ
التخصص: تاريخ المغرب الحديث

الحياة الاقتصادية والإجتماعية لقبائل الجنوب القسنطيني 1710-1848م

إعداد الطالبة : حياة شيباني
إشراف: أ.د لزه بديدة

نوقشت أمام لجنة المناقشة : يوم الأثنين 10 نوفمبر 2025

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
محمد السعيد عقيب	أستاذ	جامعة الوادي	رئيساً
لزه بديدة	أستاذ	جامعة الوادي	مشرفاً
نجوي طوبال	أستاذ	جامعة الوادي	مناقشاً
حفيظة معمر	أستاذ محاضر - أ	جامعة الوادي	مناقشاً
تلمساني بن يوسف	أستاذ	جامعة البليدة 02	مناقشاً
ستار أو عثمانى	أستاذ	جامعة بجاية	مناقشاً

السنة الجامعية: 1446-1447 هـ / 2024-2025 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

الى والدتي الغالية حفظها الباري ، وبارك فيها
والى روح والدي البشير
مرحمه الله عليه، الى قرّة عيني زوجي سندي في الحياة،
والى قطعة من روحي
ولديا العزيزان ، أحمد النجاني وياسين

أهدي ثمّة جهدي

حياة

شكر وعرفان

أحمد الله وأشكره على توفيقه لي، في إنجاز هذا العمل المنوَّاع.
كما أقدم بخالص الشكر والتقدير إلى المشرف على الأطروحة
أسناذي الفاضل:

الأسناذ الدكتور لزهى بديعة الذي

وقف بخبابي دون كلل أو تعب وأفادني بنوجهاته ونصائحه القيمة

طوال إنجاز هذه الدراسة. جزاه الله كل خير

كما لا يفوتني أن أقدم بالشكر الجزيل إلى لجنة المناقشة التي تكبدت

عناء مراجعة الأطروحة وتسجيل ملاحظاتها القيمة

إلى اللذين ساعدوني في جمع المادة العلمية

أو اللذين وقفوا بخبابي خلال هذه المرحلة. أقول لهم شكراً جزيلاً.

مقابلة

يُعدُّ بايلك الشرق، بمساحته الشاسعة المترامية الأطراف، من أهم بايلاكات الجزائر في العهد العثماني. فقد جمع هذا الفضاء الجغرافي بين البحر وسهولة الاتصال مع المنطقة الأوروبية من جهة، وحدوده الشرقية مع تونس، التي كانت معبرًا للمؤثرات المشرقية، من جهة أخرى، وصحرائه الشاسعة المتصلة بالفضاء السوداني وحضارته العريقة من جهة ثالثة. شكلت أقاليمه الجنوبية نقطة التقاء بين العديد من الحضارات والثقافات عبر العصور، وشهدت تأثيرات متنوعة من مختلف الأنظمة السياسية والاقتصادية. خلال العهد العثماني، شهدت هذه المنطقة تحولات كبيرة في مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية، خاصة في الفترة الممتدة من عام 1710 إلى عام 1848م، وهي الفترة التي تميزت بالاستقرار النسبي أحيانًا، وبالنزاعات المستمرة أحيانًا أخرى، سواء على المستوى المحلي أو نتيجة للتأثيرات الخارجية.

يستعرض هذا البحث تفاعل الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبائل صحراء قسنطينة في أواخر العهد العثماني وبدايات الاحتلال الفرنسي، وذلك خلال الفترة الممتدة من عام 1710 إلى عام 1848م. ويهدف إلى إبراز دور هذه التشكيلات القبلية المختلفة، والمستوطنة في هذه المنطقة الجغرافية، في الأنشطة الاقتصادية المتنوعة كالزراعة والرعي والتجارة. كما يسلط الضوء على البنية الاجتماعية لهذه القبائل، وعلاقاتها المتعددة فيما بينها من جهة، وتفاعلها مع محيطها الخارجي والسلطة العثمانية الحاكمة ممثلة في بايات قسنطينة، ثم سلطات الاحتلال الفرنسي خلال هذه الفترة الزمنية من جهة أخرى. إضافة إلى ذلك، يتناول البحث التحديات والصراعات التي كانت جزءًا من الحياة اليومية لهذه القبائل في تلك الحقبة.

شهدت الحياة الاقتصادية في هذه الحقبة تطورات مهمة في تاريخ هذا الجزء من بايلك الشرق، خاصة في القطاعين الزراعي والتجاري. تأثرت القبائل القاطنة في صحراء قسنطينة بالتغيرات التي طرأت على النظامين الاقتصاديين العثماني والفرنسي بعد احتلال البلاد. شكلت الأراضي الزراعية المصدر الأساسي لمعيشة القبائل، مع ظهور بعض الأنشطة التجارية التي ربطت المنطقة ببقية أنحاء الجزائر والمناطق المجاورة، كالأقاليم التونسية شرقًا، وليبيا، وأقطار السودان الغربي جنوبًا.

اجتماعيًا، تميزت قبائل صحراء قسنطينة بنظام اجتماعي قوي ومعقد، يمزج بين التقاليد المحلية والعادات العثمانية، وإن لم تكن هذه الأخيرة بارزة في حياتهم اليومية كما هو الحال في مجتمعات المدينة. لعبت هذه القبائل دورًا مهمًا في الحفاظ على استقرار المجتمع، وتأثر هيكلها الاجتماعي بعوامل متعددة كالدين والعادات والروابط العائلية. كما ساهمت التحولات السياسية والعسكرية والصراعات المحلية التي شهدتها المنطقة خلال تلك الحقبة التاريخية، مثل سياسة البايات في تسيير الحملات العسكرية لجباية الضرائب أو تأديب القبائل المتمردة، والحروب والنزاعات بين القبائل والأعراش على النفوذ والمكانة والقرب من السلطة المركزية، بالإضافة إلى سياسة الاحتلال الفرنسي والتوسع في المنطقة، في إعادة ترتيب وتشكيل الحياة الاقتصادية والاجتماعية لهذه المنطقة الجغرافية والبشرية.

ولأهمية هذه المرحلة في تاريخ بايلك الشرق وصحرائه وتفاعل قبائله مع الوجود العثماني والفرنسي، جاءت هذه الدراسة الموسومة بـ **الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبائل الجنوب القسنطيني 1710-1848م**.

-دواعي اختيار الموضوع:

تكمن دواعي اختياري لهذا الموضوع في النقاط الآتية:

- الرغبة الذاتية في خوض غمار البحث في المواضيع الاقتصادية والاجتماعية.
- قلة الدراسات الاقتصادية والاجتماعية المتخصصة التي تطرقت لهذا الإقليم ولهذه الحقبة بالذات، وإن وجدت فهي غير كافية وركزت جُلها على التفاعل السياسي حسب اطلاعي المتواضع.

- تسليط الضوء على مجتمع صحراء فسنطينه وتفاعلاته الاقتصادية والاجتماعية خلال هذه الحقبة التي شهدت المرحلة الأخيرة من الوجود العثماني، وبداية الاحتلال الفرنسي للإقليم في ما بعد.

- إمطة اللثام على العلاقات المختلفة لمجتمع صحراء بايلك الشرق مع الأقاليم المجاورة والسلطات الحاكمة للبايلك خلال هذه الحقبة.

- ابراز التحديات المختلفة التي فرضت على المجتمع في هذا الأقاليم والأساليب التي اعتمدها في مواجهة هذه التحديات.

- أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق ما يلي:

- إثراء المكتبة الوطنية بدراسة تاريخية اقتصادية واجتماعية لمجتمع صحراء قسنطينة في أواخر عهد الدايات وبداية الاحتلال الفرنسي.

- توضيح العديد من القضايا الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها المنطقة، وإبراز تفاعل المجتمع في هذا الإقليم من الأيالة، استنادًا إلى المصادر المتاحة.

- الكشف عن الأحداث السياسية التي شهدها إقليم بايلك الشرق، والتي كانت الأسر المتنفذة المحرك الأساسي لها.

- تسليط الضوء على مرحلة مفصلية في تاريخ صحراء بايلك الشرق، وهي الانتقال من الحكم العثماني إلى الحكم الفرنسي، مع إبراز الآثار الوخيمة لهذا التحول على المنطقة.

- تبيان التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدها الإقليم بعد زوال الحكم العثماني وبداية الحكم الفرنسي.

- إشكالية الموضوع

انطلاقاً مما تقدم، جاءت الإشكالية العامة على النحو الآتي:

كيف أثر نظام الحكم العثماني والفرنسي على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع القبلي لصحراء قسنطينة خلال 1710-1848م، وماهي طبيعة التفاعل بين هذه القبائل ومحيطها المجاور، وعلاقتها بالسلطات الحاكمة؟

و يتفرع عن الإشكالية العامة للموضوع تساؤلات فرعية نذكرها على التوالي:

-كيف اتسمت العلاقة بين المجتمع القبلي ومختلف مكوناته مع الأسر المنتفذة من جهة، ومع السلطات الحاكمة من جهة أخرى؟.

-كيف أثر النظام الإداري والضريبي العثماني والفرنسي على الاقتصاد المحلي لهذه القبائل؟ .

-ما هي طبيعة الأنشطة الاقتصادية التي مارستها قبائل الجنوب القسنطيني خلال هذه الحقبة؟ .

-كيف تفاعلت قبائل صحراء قسنطينة مع التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي فرضتها المرحلة آنذاك؟ .

-ما تأثير الأوضاع الأمنية والصراعات المحلية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبائل صحراء قسنطينة خلال هذه الحقبة؟ .

حدود الدراسة:

يشمل مجال الدراسة جغرافيا جنوب عاصمة بايلك الشرق، قسنطينة، وتمتد حتى منطقة وادي ريغ جنوبًا. وتضم الأقاليم الجغرافية التالية: الزيبان، وادي سوف، وتوقرت عاصمة إقليم وادي ريغ. أما الفترة الزمنية للدراسة فتتحدد بين عامي 1710 و 1848م. يمثل التاريخ الأول المرحلة الثانية من عهد الدايات في الجزائر والاستقلال شبه الرسمي للإيالة، بالإضافة إلى التحولات المختلفة التي شهدتها الجزائر محليًا وخارجيًا. بينما يمثل التاريخ الثاني نهاية مقاومة الشرق بقيادة الحاج أحمد باي، آخر بايات قسنطينة وآخر ممثل للوجود العثماني في الجزائر، إضافة إلى مرور ثماني عشرة سنة على الاحتلال الفرنسي للبلاد.

- المنهج المتبع:

تقتضي طبيعة الموضوع اتباع المنهج التاريخي واعتمادنا أداة الوصف و التحليل، لعرض ووصف الأحداث التاريخية التي شهدتها مجال الدراسة، مع مراعاة تسلسلها الزمني، وتحليل الوقائع ونقدها لاستخلاص النتائج. كما استعنت بالمنهج الإحصائي من خلال عرض أرقام وإحصائيات تتعلق بتعداد السكان، أو الأنشطة الزراعية أو الصناعية أو التجارية التي عرفتها المنطقة، مع تحليلها واستخلاص نتائجها.

- الدراسات السابقة:

تطرقت العديد من الدراسات إلى تاريخ بايلك الشرق، إلا أنه بعد الاطلاع على أهم هذه الدراسات، تبين أن أغلبها ركز على الأبعاد السياسية والاقتصادية لعاصمة البايك أو المناطق الريفية القريبة من مقر السلطة الحاكمة. أما الأقاليم البعيدة المتمثلة في صحراء قسنطينة خلال الفترة الزمنية 1710-1848م، فلم أعر على دراسة بهذا العنوان. إذن، الدراسات قليلة، وإن وجدت فهي شحيحة وغير كافية لرصد مجال دراستنا. ورغم ذلك، نجد بعض الدراسات تلامس وتتقاطع مع بعض جزئيات الموضوع، ولعل أهمها:

- دراسة للباحثة جميلة معاشي حول: الأسر المحلية الحاكمة لبابلك الشرق الجزائري. وهي قيمة جدا أمدتنا بمعلومات وافيه حول أهم الأسر المحلية الحاكمة ببابلك الشرق، وأهم مجالاتها، وانشطتها وعلاقاتها المختلفة.
- ودراسات ناصر الدين سعيدوني حول تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ومن هذه الدراسات نذكر ما يلي: ورقات جزائرية، الجزائر في التاريخ، النظام المالي للجزائر في الحقبة العثمانية 1800-1830م، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، كلها دراسات قيمة أفادتنا في موضوع بحثي. ودراسة لارزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009. وهي من الدراسات الهامة التي استعنت بها في عديد محاور من دراستنا.
- دراسة في مصادر ومراجع البحث:

اعتمدت في بحثي على جملة من المصادر والمراجع العربية والمعرّبة والأجنبية التي نذكر منها ما يلي:

-أولا : الوثائق الأرشيفية:

أثناء إعدادي للدراسة، اعتمدت على وثائق من الأرشيف التونسي، والمكتبة الوطنية الجزائرية، والأرشيف التركي. وقد تنوع استغلالي لهذه الوثائق بين تضمين محتوياتها في متن الدراسة أو في ملاحظتها. وعلى الرغم من قلة هذه الوثائق، إلا أنها أفادت موضوع الدراسة في عدة محاور. بالإضافة إلى ذلك، قمت بزيارة أرشيف قسنطينة والاطلاع على بعض محتوياته، ولكن لم أعثر على الكثير مما يفيد الدراسة بصورة مباشرة.

ثانيا: المصادر والمراجع العربية:

- أ- المصادر
- **حمدان بن عثمان خوجة** وكتابه المعنون ب: " لمحة تاريخية وإحصائية على إيالة الجزائر، والمشهور بالمرآة". أفادنا هذا المصدر المهم في معرفة أصول السكان وطبائعهم، وكذا ملكية الأرض ونظام الجباية في البلاد، وطبيعة نظام الحكم العثماني ونهايته، وظروف الاحتلال الفرنسي وسياسته إزاء الأهالي.
- **محمد الصالح بن العنتري**: " فريدة منسية في حال دخول الترك ببلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها"، أفادنا هذا المصدر كثيرا خاصة في الفصل الخاص بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية للبايك حيث رصد لنا المجاعات وتدني الأسعار، والأوبئة والمجاعات التي أثرت على البايك برمته. بالضافة الى الحالة الإدارية والسياسية للبايك.
- **أحمد ابن مبارك ابن العطار**: تاريخ بلد قسنطينة، أفادنا في بعض الإشارات حول بعض العادات والتقاليد لمجتمع قسنطينة، وكذلك طبيعة العلاقة بين السلطة الحاكمة والأهالي في الأرياف.
- **احمد الشريف الزهار**: مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر يتعرض هذا المصدر الى الثورات والتمردات التي شهدها بايك قسنطينة، وكذلك العلاقات مع تونس، وقد أفادنا في الجزء الخاص بالأوضاع السياسية.
- ب:المصادر المعربة:
- **وليام شالر**: "مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824م"، يتطرق المصدر الى إمكانات البايك المتنوعة، ويرصد لنا النظم المالية، بالإضافة الى أصول السكان بالريف القسنطيني خلال هذه المرحلة التاريخية.
- **أ.ج، أوهابنسترايت**: "رحلة العالم الألماني أو هابنسترايت الى الجزائر وتونس وطرابلس، 1732م"، تطرق الرحالة الى عدة مواضيع في مؤلفه بنظرة علمية، بحكم

انه عالم نبات، وقد سجل ملاحظات عديدة حول الجزائر جغرافيا واجتماعيا وسياسيا واقتصادية، وقد افادنا في عديد أجزاء البحث.

- **لوجي دي تاسي:** " تاريخ مملكة الجزائر"، افادنا في بعض الملاحظات حول تاريخ الجزائر الحديث، وبالرغم من أن اقامته في الجزائر لم تتجاوز سبعة أشهر، إلا انه استطاع أن يجمع فيه الكثير من الأحداث التاريخية المختلفة سياسية اجتماعية ثقافية وعسكرية، واقتصادية، غير أن ما يعاب على الكاتب نظرتة الاستعلائية والدونية لكل ما يتعلق بالإسلام والعثمانيين في الجزائر خلال هذه الفترة من وجوده في الجزائر.

- **وليام سبنسر:** " الجزائر في عهد رياس البحر"، تطرق صاحب التأليف ، للحديث عن إحدى أبرز المراحل الهامة في التاريخ الجزائر، أي في الفترة التي قاد فيه رياس البحر البحرية العثمانية، إذ سجّلت الجزائر في تلك الفترة حضورًا قويًا وفعالًا في البحر الأبيض المتوسط، ويُعد هذا المصدر مهم في بحثنا، إذ تناول وليام سبنسر الحديث عن اياالة الجزائر في بداية العهد العثماني وأنظمتها المختلفة. وطبيعة شعبها وتماسكه أمام التحديات الخارجية في تلك الفترة.

- **ثالثا: المصادر والمراجع الأجنبية:**

- Thomas shaw: Voyage dans la régence d'Alger.

يُعدّ هذا المصدر مهمًا في دراستنا، إذ يتناول الرحالة البريطاني "القس توماس شو" الذي أقام في مدينة الجزائر، وتنقل خلال إقامته إلى العديد من الحواضر الجزائرية، وسجل ملاحظاته. يُعدّ المؤلّف شاهد عيان على واقع المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة من تاريخ الوجود العثماني في الجزائر، حيث قدم لنا معلومات مهمة حول مختلف مجالات الحياة داخل الإيالة، والتي تشمل: التعليم، والعمران، وبعض الجوانب من يوميات الأسر الجزائرية. وعلى الرغم من أهمية بعض

ملاحظاته، إلا أنه يجب التحفظ على بعضها الآخر، والحذر عند توظيفها، وهي ملاحظة يمكن تعميمها على جل المصادر الأجنبية التي تناولت تاريخنا.

- Feraud charl: Le Sahara de Constantine, Notes et Souvenirs

يُعدّ المؤلّف "شارل فيرو" أحد أبرز المترجمين العسكريين الفرنسيين الذين قدموا إلى الجزائر بعد الاحتلال. استقر في قسنطينة لفترة طويلة، حيث ترجم العديد من وثائق المشيخات القبلية في مقاطعة قسنطينة. بالإضافة إلى ذلك، تناول الحياة الاجتماعية لسكان قسنطينة والمناطق المجاورة، والعلاقة بين السلطة الحاكمة والأسر المتنفة، والحملات العسكرية التي شنتها السلطة الحاكمة ضد قبائل الصحراء كتوقرت وورقلة، وبعض المعلومات حول الجانب الاقتصادي للبايلك خلال تلك الفترة. قام بجمع وتحقيق وترجمة العديد من المخطوطات التي كانت بحوزة شيوخ وأعيان المنطقة، ثم أعاد نشرها في شكل كتب ودراسات. تصنف أعماله ضمن خدمة مشروع الاحتلال الفرنسي للجزائر، لذا يجب الحذر عند توظيف معلوماته في الدراسات التاريخية الأكاديمية لما تحتويه من مغالطات وافتراءات وتوصيفات غير دقيقة. ومع ذلك، تظل دراسات هذا المترجم العسكري ذات أهمية كبيرة ولا يمكن الاستهانة بها في ظل غياب كتابات محلية.

رابعاً: المقالات في الدوريات:

- بالعربية:

- ناصر الدين سعيدوني: الأحوال الصحية و الوضع الديمغرافي في الجزائر أثناء العهد العثماني"، في مجلة ثقافة وزارة الثقافة و السياحة العدد،92،الجزائر،1986.يتناول الواقع الصحي والديمغرافي لأيالة الجزائر خلال العهد العثماني، وهي قيمة من حيث المعلومات التي وردت فيها.

- صابري مجمد وفريخ لخميسي: دراسة سوسيو تاريخية لعادات و تقاليد المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519/1830م ،المجلد السابع ، العدد الرابع ،السنة ديسمبر 2022، في مجلة العلوم القانونية و الاجتماعية ، جامعة زيان عاشوري، الجلفة الجزائر. من الدراسات القيمة والمفيدة خاصة في فصل الرسالة الخاص بالحياة الاجتماعية.

- بالفرنسية:

- Feraud charl. Les Ben djallab de Touggourt. Notes Historiques sur La province de Constantine.

تناول فيه شارل فيرو أصل اسرة بني جلاب وقائع ،وأحداث ، وظروف تأسيسها بتوقرت في صحراء قسنطينة.

- Pierre Boyer: "l'Espagne et Koukou : les négociations de 1589-1610 in revue de l'occident Musulman et de la mléditerranée", 2éme trimestre 1970, N° 08 Publié avec le concours du CNRC, Aix en provence.

دراسة حول تاريخ العلاقات الإسبانية الجزائر جاءت تحت عنوان: إسبانيا وكوكو: مفاوضات 1589-1610 في مراجعة للغرب الإسلامي والبحر الأبيض المتوسط".تعكس لنا العلاقات الخارجية للدولة العثمانية خلل هذه المرحلة وانعكاساتها على الأوضاع الداخلية للبلاد.

- Historiques sur La province De Constantine , Les Ben-Djellab,Sultans De Touggourt, Revue African 1878-1886, Editions, Alger.

دراسة تاريخية أعدها شارل فيرو ضمن أعداد المجلة الإفريقية حول تاريخ إمارة بني جلاب سلاطين تقرت.وهي من الدراسات الهامة في موضوع دراستنا.

خامسا: الرسائل والأطاريح الجامعية:

- أ- الدكتوراه:

- **قشي فاطمة الزهراء:** " قسنطينة المدينة والمجتمع، النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة، دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة تونس، 1998". معلوماتها قيمة، خاصة في الجانب الاجتماعي لا يمكن الاستغناء عنها، وهي الأستاذة المتخصصة في هذا الجانب من الدراسات العثمانية.
- **بلبروات بن عتو:** "المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني"، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة وهران 2008، من الدراسات التي افادتنا كثيرا، حيث تطرق صاحبها الى عرض خطط مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني و مجتمع مدينة الجزائر في نفس الفترة بالإضافة الى الوظائف الحضرية لمدينة الجزائر، كما تناول الريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني، حيث تطرق الى خطط الريف بالجزائر ومجتمع الريف ووظائف الريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني.
- **ب- الماجستير:**
- **فلة القشاعي المولودة مساوي:** "النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني، 1771-1837". رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1990. افادتنا دراستها في معرفة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية و الإدارية للشرق الجزائري، ومعرفة النظام الضريبي وطبيعة الأرض واستغلالها، وعلاقة السكان بالسلطة الحاكمة وأثر النظام الضريبي على علاقة البايك، وهي من الدراسات المتخصصة وذات الأهمية في موضوع دراستنا.
- **محمد أوجرتي:** " أسرة بن قانة ومكانتها السياسة والاجتماعية خلال العهد العثماني"، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2006، زودنا الباحث بمعلومات حول أصل أسرة بن قانة، وانتقال مشيخة العرب اليها، وصراعها على مجال النفوذ، ودورها في تثبيت الحكم العثماني بالشرق الجزائري، وموقفها من الإحتلال الفرنسي.
- **خطة البحث:**

قسمت البحث بما اقتضته المادة الخيرية إلى مقدمة، وخمسة فصول وخاتمة، مع قائمة ملاحق، وفهارس.

تطرقت في مقدمة البحث إلى التعريف بالدراسة، ودواعي اختياري للموضوع والهدف منه، بالإضافة إلى طرح إشكاليته وحدوده المجالية والزمانية، والمناهج المعتمدة، والدراسات السابقة، وأهم مصادره ومراجعته، وخطة العمل، وأهم الصعوبات التي واجهتني.

أما الفصل الأول جاء : وخصصناه للحديث عن الإطار الجغرافي والبشري لقبائل جنوب بايلك قسنطينة والأوضاع السياسية العامة قبل 1710م بالإضافة إلى التنظيم الإداري التي عرفه البايك خلال مدة الدراسة.

وجاء الفصل الثاني تحت عنوان: "الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة"، تناولت فيه مشيخة العرب خلال العهد العثماني وأهم الأسر المتنفذة جنوب البايك و الصراع بين العائلات المتنفذة و العلاقة بين البايات والأسر المتنفذة.

وكان الفصل الثالث تحت عنوان: "الحياة الاقتصادية 1710-1848م"، تطرقت فيه للنشاط الزراعي والثروة الحيوانية والنظام الضريبي و النشاط الصناعي، والتجاري حيث تناولت التجارة والأسواق وطرق المواصلات. وختمناه بالكوارث الطبيعية وأثرها على الحياة الاقتصادية لقبائل صحراء قسنطينة خلال مدة البحث.

أما الفصل الرابع جاء تحت عنوان: "الحياة الاجتماعية 1710-1848م"، عالجت فيه العادات والتقاليد لقبائل صحراء قسنطينة التي منها اللباس والأطعمة والأشربة والألعاب والألغاز والموسيقى والزينة كما تطرقت إلى المناسبات الاجتماعية و الدينية التي كانت من يوميات السكان وتطرقت إلى الوضع الصحي والأوبئة وطرق العلاج وقد خصصنا حيز للمؤسسات الدينية و العلمية ودورها في الحياة الاجتماعية.

أما الفصل الأخير فقد جاء تحت عنوان: "التوسع الاستعماري وانعكاساته على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (1837-1848م)", عالجت فيه سقوط قسنطينة عاصمة بايلك الشرق، والتوسع الاستعماري في الجنوب، وأثره على الأوضاع الاقتصادية و الأوضاع الاجتماعية وعرجت على عرض أهم مظاهر التكافل الاجتماعي للقبائل لمواجهة السياسة الاستعمارية وبرزت في الأخير العلاقة بين الأسر الحاكمة بالسلطة الفرنسية.

وفي الأخير أنهيت بحثي بخاتمة جاءت كحوصلة شاملة، وموجزة للنتائج المتوصل إليها انطلاقاً من دراسة هذا الموضوع. وذيلت بحثي بمجموعة ملاحق متنوعة، تساهم في خدمة صلب الموضوع.

- الصعوبات:

خلال دراستي لهذا الموضوع، واجهتني صعوبات عديدة، ويمكنني ذكر أهمها على النحو الآتي:

- صعوبة التعامل مع الموضوع نفسه، لكونه حديثاً نسبياً ولم يحظَ بالقدر الكافي من الكتابة التاريخية، حسب اطلاعي.

- بدأت دراسة هذا الموضوع في السنة الثانية، نتيجة لتعديل عنوان الأطروحة، وهو ما أثر على عملية البحث.

- صعوبة التعامل مع بعض المصادر والمراجع الأجنبية التي تطرقت لتاريخ المنطقة، والتي استدعت الحذر عند معالجة بعض الجوانب في الحياة الاجتماعية لقبائل صحراء قسنطينة، وكذا أنظمة الحكم وبعض حكام الإيالة خلال المدة المدروسة. وقد تطلب ذلك جهداً إضافياً.

- صعوبة الحصول على بعض الوثائق الأرشيفية التي تخص موضوع بحثي، وذلك خلال زيارتي لمركز الأرشيف العثماني بإسطنبول، ويرجع ذلك إلى بعض الإجراءات الإدارية التي واجهتني آنذاك، بالإضافة إلى لغة المادة المصدرية وهي اللغة

العثمانية، فضلاً عن بعض العراقيل الإدارية الأخرى التي واجهتني خلال زيارتي لأرشيـف ولاية قسنطينة.

- حالت الظروف الصحية دون تمكني من السفر إلى الأرشيف الفرنسي للحصول على الوثائق اللازمة لدراستي. وعلى الرغم من الاستعانة ببعضها، إلا أنها لم تكن كافية لتغطية الفترة الزمنية المشمولة بالدراسة. ومع ذلك، وفي ظل هذه الصعوبات، بذلنا قصارى جهدنا لإضافة لبنة جديدة إلى هذا الموضوع، وكل أمل أن نكون قد أسهمت في إلقاء الضوء عليه وفتح نافذة للباحثين لإكمال جوانبه الناقصة أو تناول زواياه الأخرى.

الفصل الأول

الإطار الجغرافي والبشري والإداري للجنوب القسنطيني

1848-1710م

أولاً: الإطار الجغرافي لقبائل جنوب بايلك قسنطينة.

ثانياً: الإطار البشري لقبائل جنوب بايلك قسنطينة.

ثالثاً: التنظيم الإداري.



المبحث الأول: الإطار الجغرافي والبشري والإداري:

أولاً: الإطار الجغرافي:

1- حاضرة قسنطينة مقر البايك:

يقع بايلك الشرق في القسم الاوسط من شمال افريقيا، حيث يمتد على شكل مستطيل غير منتظم وينحصر بين خطي طول⁰ 21-30 و⁰ 8-35 شرق خط غرينيتش وبين دائرتي عرض⁰ 34-37 شمال خط الاستواء¹.

ومما جاء في تحديد الرحالة Shaw للإقليم أنه يحده من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الشرق تونس ومن الجنوب منطقة الزاب ومن الغرب مقاطعة الجزائر، والمسافة من الشرق إلى الغرب 95 فرسخ أي قرابة 380 كلم، ومن الشمال إلى الجنوب 58 فرسخ أي قرابة 232 كلم، وساحلها يبدأ من دلس إلى بونة².

كانت البلاد التي يحكمها الداوي تنقسم جغرافياً إلى ثلاثة أقاليم، و هي البايك الأوسط أو بيالك التيطري، وهو أصغرهما وعاصمته المدية الذي يستثنى منه مدينة الجزائر والمتيجة التي يديرها الداوي مباشرة، وبايلك الغرب وعاصمته وهران، وذلك منذ رحيل الإسبان عنها سنة 1792م، وبايلك الشرق وعاصمته قسنطينة³.

يشمل الشرق القسنطيني، الرقعة الجغرافية الواسعة التي كانت تمثل بايلك الشرق، أو بايلك قسنطينة، والتي تمتد من البحر شمالاً إلى ما وراء إقليم ونوغة وبرج حمزة (البويرة)، وسفوح جبال جرجرة غرباً، ويحتوي هذا الإقليم على جبال البيبان، وحوض وادي الصومام،

² -حسان كشرود: بايلك الشرق دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالين باسيونيل ودي فونتين ولدكتور توماس شو،

-مجلة، قضايا تاريخية، العدد 2017، 06، ص46

²-Thomas Shaw; Voyage Dans La Régence D'Alger ,traduit de l'anglais par, J. Mac carthy, Tome1 paris, 1838. P269.

أحمد سيباوي: البعد البايليكي في المشاريع السياسية الإستعمارية الفرنسية من فالي إلى نابليون الثالث، 1838-

³ -1871، أطروحة دكتوراه، جامعة قسنطينة 2، 2014، الجزائر ص14.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

وجبال البابور، وقسنطينة وعنابة وسوق أهراس، وعلى السهول العليا القسنطينية وكتلة جبال الأوراس، والنامشة، وتبسة، وجبال الحضنة، وحوضها، وجبال الزاب والزيان، ووحدات سوف في حوض وادي ريغ، و وحدات الصحراء الشمالية الشرقية وعلى رأسها: بسكرة، وتوقرت وورقلة، وحتى واحات ميزاب، واد الشبكة¹.

والشرق القسنطيني بصفة عامة جبلي في معظمه من حيث المظهر التضاريسي، تلتقي في وسطه سلسلتا جبال الأطلس: الشمالية التلية، والجنوبية الصحراوية عند كتلة جبال الأوراس، وليس فيه من الأحواض والسهول سوى حوض وادي الصومام، والسهول العليا القسنطينية، والتي تمثل الجزء الشرقي من إقليم الهضاب العليا الجزائرية إلى جانب منبسطة تبسة، وحوض وادي سوف، ووادي ريغ وسهول عنابة وسكيكدة. وتناله نسبة لا بأس بها من الرطوبة في الشتاء لارتفاعه وقربه من جهة البحر الشمالية المتوسطية، وذلك في القسم الشمالي، أما الجنوبي الصحراوي فالجفاف أهم ظاهرة فيه ويعتمد على المياه الجوفية.² أكثر من غيرها³.

إن اقليم بايلك قسنطينة كان يمثل وحدة جغرافية ومقسمة الى أربعة تقسيمات كبرى تأخذ اهميتها من موقعها بالنسبة لعاصمة اقليم قسنطينة وكانت هذه التقسيمات لها طابع سياسي واداري،:

- الشرق: يضم كل الأقاليم الممتدة من قسنطينة الى الحدود التونسية.

¹ - محمد الصالح العنثري: فريدة منسية، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2009، الجزائر، ص 17
² - المياه الجوفية: بالرغم من ان منطقة الصحراء تكاد ينعدم فيها السيلان السطحي منتظما باستثناء وادي غير - وادي ميزاب - وادي الصاولة. الا أنه وبلمقابل تتوفر على موارد مائية جوفية هامة تشكلت عبر الاف السنين غي أنها توجد على اعماق كبيرة من سطح الارض حيث يصل عمقها الى نحو 2000 متر، ما عدا في منطقة ادرار التي توجد بها المياه الجوفية على عمق يتراوح ما بين 200 و 300 متر، لا تستغل اليوم من هذه الثروة المائية الهامة سوى حوالي 7.1 مليار متر مكعب سنويا لتلبية احتياجات سكان الجنوب من مياه الري و الشرب بالتالي لايزال امامها احتياطي قدره 3.3 مليار متر مكعب من المياه القابلة للاستغلال. ينظر: مغربي خيرة: اقتصاديات الموارد المائية في الجزائر، في مجلة دفاتر بوادكس، العدد رقم 06، سبتمبر 2016، ص 107.

³ - نفسه، ص 17

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

- الغرب: وتتبعه كل الأقاليم الممتدة من قسنطينة الى سلسلة جبلية البيبان.
- الجنوب: والذي يعتبر الصحراء الجزء الأكثر الأهمية منه.
- الشمال: ويضم الجبال المحاذية للساحل المتوسط من بونة حتى بجاية، ويطلق على هذا القسم الجزء اسم الساحل¹.

حسب المصادر المتعارف عليها فان بايلك قسنطينة كانت حدوده الإدارية وفق النحو

الآتي:

من الشمال، يبدأ البحر من طبرقة² شرقاً ويمتد إلى القالة، وصولاً إلى حدود مدينة بجاية، مع العلم أن بجاية وحوض وادي الساحل الغربي لم يكونا يدخلان ضمن هذه الحدود. ومن الشرق، تحدّه الحدود التونسية التي تبدأ من طبرقة على البحر وتمتد جنوباً عبر تبسة حتى واحات وادي سوف. أما من الغرب، فتحده جبال البيبان وقرى بني منصور وسفوح جبال جرجرة الشرقية والجنوبية، وصولاً إلى برج حمزة وقرية سيدي هجرس وسيدي عيسى، اللتين تفصلانه عن بايلك التيطري في الجنوب الغربي. ومن الجنوب، تمتد الصحراء الكبرى غير المأهولة جنوب واحات وادي سوف، وتقرت، ورقلة، وميزاب³.

¹ - أحمد سيساوي: المرجع السابق ص 14.

² - طبرقة: هي مدينة من المدن التونسية التي توجد في ولاية جندوبة في الجهة الشماليّة من البلاد، وتبعدُ عن العاصمة التونسية قرابة 175 كيلومتراً باتجاه الشمال الغربيّ منها، وتستمدّ المدينة اسمها من اللغة الرومانيّة القديمة "تابراكا"، وهي كلمة أمازيغيّة الأصل، والتي يُقصدُ بها شدة أو شديدة البرودة، ولها اسم فينيقي قديم وهو: "تابركا"، وتلقّب بِـ "لؤلؤة سواحل تونس الخضراء" للمزيد ينظر: الموقع الرسمي بلدية طبرقة: تاريخ التصفح 2024/10/24 https://www.commune-tabarka.tn/ville_tabarka.php

³ - محمد الصالح العنتري: المرجع السابق، ص18.

2- جغرافية الأوراس:

وردت لفظ أوراس عند بطليموس ptolémée (في القرن الثاني) باسم (Audus) ووردت عند "بروكوب" (procopé)، المؤرخ البيزنطي، (في القرن السادس) باسم (Mons Aurasius)¹.

أطلق المؤرخون العرب اسم بلاد أوراس على رقعة جغرافية أوسع مما كانت عليه خلال العهد البيزنطي وحتى خلال العهد الفرنسي. وصف المؤرخ والجغرافي البكري في القرن الحادي عشر، هذه الرقعة و بأنها منطقة شاسعة يستغرق قطعها سبعة أيام وتمتد، حسب ما يوحي به النص، من مدينة طنبنة² الى بغاي³ وما ورائها⁴.

أما الإدريسي وهو مؤرخ عاش في القرن الثاني عشر، وقال: « وجبل أوراس قطعه يقال إنها متصلة من جبل درن المغرب وهو كالألم منحي الأطراف وطوله نحو من اثني عشرة يوما ومياهه كثيرة وعمارته متصلة»⁵.

¹ - عبد الحميد زو زو: الأوراس ابان فترة الاستعمار الفرنسي التطورات السياسية الاقتصادية والاجتماعية 1837 1939- م، ط2، دار هومة، الجزائر، 2011، ج1، ص13.

² - طنبنة: تقع آثار مدينة طنبنة شرق حوض الحضنة، على بعد 450 كم جنوب شرق الجزائر العاصمة، و أربعة كيلومترات جنوب مدينة بريكة، على حافة الطريق الوطني رقم 70 الذي يؤدي من بريكة إلى مدوكال. تشرف هذه المدينة على سهل واسع يحده من الشرق مرتفع جبل الصفار، و من الغرب شط الحضنة ، و تقع إداريا على حدود المشتركة بين بمديتي بريكة شمالا و بيطام جنوبا. ينظر: عبد الحكيم أوكور: طنبنة عبر التاريخ ، الشواهد الأثرية و الأبحاث العلمية في مجلة الدراسات الأثرية، مجلد16: عدد01: 2012، ص19.

³ - بغاي: تعد بغاي حاضرة و موقعا محصنا و هي المعروفة بالقصر المدعو بغاي القائم اليوم، مدينة قديمة واقعة ما بين الأوراس جنوبا وقرعة الطرف شمالا، ومن الأرجح أنها مدينة محلية الأصل وكما قال المؤرخ هشام جعيط أن مدينة بغاي العتيقة BAGAY تعود أصول التسمية البربرية G.B.T GOU B.H وهي من نفس أصل التسمية vaga الرومانية المعربة بباجا، ينظر: هشام جعيط: تأسيس الغرب الإسلامي ط2، دار الطليعة بيروت، لبنان، 2008، ص53.

⁴ - عبد الحميد زو زو: المرجع السابق، ص 17

⁵ - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، توت وتو إسمايل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص165.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

لقد أدرج المؤرخون العرب في حسابهم مسألة تزايد السكان الأوراسيين عبر الزمن وانتشارهم منها إلى ما وراء رقعة 8000 كلم، وهي المساحة التي تغطيها الكتلة الجبلية وضواحيها وبعض الأصقاع البعيدة نوعًا ما. ولقد وضع المؤرخون العرب نصب أعينهم قضية التأثير والتأثر اللغوي والإثنوغرافي¹ في مفهومه القديم، فأضافوا الامتداد لرقعة الجماعة السكانية 200 كلم من الشرق إلى الغرب، أي ما يعادل مساحة 30,000 كلم، تشمل مدن سوق أهراس والعلمة وبسكرة وبريكة ونقرين وتبسة².

يشير مصطلح الأوراس في الأصل إلى قمة جبلية مرتفعة في رأس السردون، تُعرف أيضًا باسم "إغيل أوراس"، وتقع جنوب غرب خنشلة. ومع مرور الوقت، اتسع هذا النطاق الجغرافي المحدود ليشمل الكتلة الجبلية الواسعة الممتدة من منخفض باتنة إلى بسكرة وصولًا إلى خنشلة. ومن المحتمل أن يكون بروكوب procope قد أطلق اسم Aurasius على مجموع هذه الكتلة الشاسعة وهي نفسها التي أصبحت تعرف منذ بداية الاحتلال الفرنسي باسم أوراس الشرقي وأوراس الغربي لضرورة التقسيم الإداري³.

بالرجوع إلى التعريف الحالي للمنطقة، يمكننا القول إن مصطلح الأوراس يُطلق على سلسلة الجبال الممتدة من جبال بوطالب والحضنة الشرقية غربًا إلى الحدود التونسية شرقًا،

1 - الأثنوغرافيا : إن مصطلح الاثنوغرافيا يتكون من مقطعين: الأول ("Ethno") "إثنو" بمعنى جنس أو شعب، والثاني " (Graphy) "غرافي" وتعني وصف، وبهذا تعرف الاثنوغرافيا بأنها "وصف لثقافات وحيات الشعوب، وتعرف الاثنوغرافيا بأنها الدراسة الوصفية المقارنة لمجتمعات وثقافات الإنسان القائمة بالفعل، فهي مقارنة أفقيا، أي أنها الدراسة الوصفية المقارنة في مكان وعلى النحو الأفقي... كما تقوم الدراسة الاثنوغرافية بتصنيف الشعوب وعقد المقارنات بين أوجه الشبه والاختلاف فيما بينها، حيث تتشابه الجماعات العنصرية بصفات جنسية، كما أنها تتميز أيضا باختلاف اللغة ووسائل المعيشة وطرائق التفكير وأنماط السلوك. ينظر: خميس حياة: المنهج الاثنوغرافي واستخداماته في الأبحاث الأنثروبولوجيا، في مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة -2 عبد الحميد مهري، المجلد، 09 العدد، 02 ديسمبر، 2023، ص. ص. -82 806.

2 - عبد الحميد زو زو: المرجع السابق، ص 17.

3 - نفسه.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

ومن مشارف بسكرة جنوباً إلى حدود دائرة قسنطينة شمالاً. هذا التقسيم كان شائعاً في الفترة الاستعمارية، وتُعدّ سلسلة جبال الأوراس حلقة وصل طبيعية بين الأطلس التلي والصحراوي.

3-جغرافية الزيبان:

يأخذ الزاب اسمه من مدينة " زابي " " Zabi " الرومانية القديمة التي كانت تقع في منطقة الحضنة والمعروف أن الرومان لم يحتلوا هذه المنطقة ولكنهم اكتفوا بإنشاء معازل حولها في ناحية بسكرة وعند المنفذ الجنوبي لأودية الأوراس¹.

وعرف ابن خلدون الزاب بقوله: « وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعا جمعا، يعرف كل واحد منها بالزاب، أولها زاب الدوسن ثم زاب طولقة ثم زاب مليلة،وزاب بسكرة وزاب تهودا وزاب بادس، وبسكرة أما هذه القرى كلها»².

ويعرفها يقوت الحموي بقوله:« بأن الزاب الكبير منه بسكرة وتوزر وقسنطينة وطولقة وقفصة ونفطة وبادس ، والزاب أيضا قرى صغيرة يقال لها ريغ وهي كلمة بربرية يقال لها السبخة.» كما نجد ابن الأثير يذكر بلاد الزاب بقوله: « بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة»³.

وأما الحسن الوزان فكان أكثر دقة في تحديده لهذه المنطقة حيث يرى بأنها تقع في وسط مغازات نوميديا تبتدأ غربا من تخوم مسيلة، ويحدها شمالا جبال مملكة بجاية، وتمتد شرقا الى بلاد الجريد⁴، التي توافق مملكة تونس ، وجنوبا الى القفار التي تقطعها الطريق المؤدية

¹ - اسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها ، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1983م،ص142.

² - عبد الرحمن بن خلدون، العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، ج6: ط2،تح: خليل شحادة، دار الفكر، لبنان 1988م،ص585.

³ - ياقوت الحموي معجم البلدان، دار صادر، ط1: لبنان ،1993 ط2: لبنان،1995مج،03،ص124

⁴ - بلاد الجريد: اسم يطلق على المناطق التي تقع جنوب تونس في العصور الإسلامية، وحتى الوقت الحالي، وهي آخر بلاد افريقية على طرف الصحراء، كثيرة واحات النخيل ومن أشهر مدنها: توز، قابس، قسطنطينية، قفصة، نفطة، وقد سميت

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

من تقرت الى ورقلة .وهذه المنطقة شديدة الحرارة رملية، لا يوجد بها إلا يسير الماء وقليل من الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب، لكن عدد حدائق بها لا يحصى. حيث تشمل المنطقة خمس مدن وعددا كثيرا من القرى هي : بسكرة ، البرج، نفطة، تلكة، الدوسن.¹

يُعرّف إقليم الزاب في دائرة المعارف الإسلامية بأنه إقليم في بلاد الجزائر. ويُطلق اسم الزاب، وجمعه الزيبان، على المنطقة المحيطة ببسكرة، والتي تمتد بطول 125 ميلاً من الشرق إلى الغرب، وما بين 30 إلى 40 ميلاً من الشمال إلى الجنوب. وهو سهل منبسطة يتدرج تدريجياً ليصبح جزءاً من الصحراء، وتحده شمالاً المنحدرات الجنوبية للأطلس الصحراوي. وتعد الاتصالات بينه وبين قسنطينة والحضنة ميسرة بسبب الفتحات الطبيعية الموجودة في السفوح الجنوبية للأوراس وفي جبال الزاب الواقعة في الغرب. أما مناخه، فهو متأثر بالصحراء، لذا فالمطر فيه نادر وعابر ولا يكفي في الأوقات العادية لزراعة الحبوب.²

أما الرحالة " توماس شاو" حيث حدد موقعها قائلاً: « يدها من الشمال مقاطعة قسنطينة، ومن الشرق ولاية تونس، ومن الجنوب بلاد الجريد، ومن الغرب مقاطعة التيطري.»³

وطوبوغرافياً⁴ يقصد بالزيبان المنطقة السهلية اليت تتميز بالانبساط حيث الارتفاع يتراوح ما بين 90 و150 متر فوق سطح البحر، ويبدأ بالانخفاض كلما اتجهنا جنوباً إلى غاية واد

بهذا الاسم لكثرة النخيل بها. للمزيد ينظر: سلام جبار منشد: الأوضاع السياسية في بلاد الجريد في عهد الدولتين الموحدية والحفصية، في مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد 02، 2006، ص 527

1 - حسن الوزان: المصدر السابق، ج 02، ص ص 135-138-142.

2 - محمد اجرنتي: أسرة بن قانة ومكانتها السياسية والاجتماعية خلال العهد العثماني، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة

الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة، 2005، الجزائر، ص 63.

3 - Shaw Thomas, Voyage dans la régence d'Alger, Traduit de l'anglais par Mac Carthy, Paris, 1830, Bibliothèque nationale de France, p396

4 - الطوبوغرافيا: هو علم يبحث في توقيح ورسم الهيئات الطبيعية و الاصطناعية في مساحة من الأرض على قطعة من القماش او الورق بواسطة رموز اصطلاحية ونسبة ثابتة هي مقياس الرسم. للمزيد ينظر: خالد بن سليمان بن سالم الخروصي: الطوبوغرافيا وتطور علم الخرائط، دار ومكتبة الهلال ببيروت، 2006، ص 19.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

جدي و يتزايد الارتفاع في النصف الجنوبي للدوسن ب200 . م الى غاية 500 م لتواجد مجال الهضاب أو كما يسمى الهضبة الجبلية¹. وحسب التحديد الجغرافي يمكننا القول أن الزاب ينقسم الى ثلاث مجالات وذلك حسب الموقع وخصوصية المنطقة. ومن أقسامه:

2-الزاب الشرقي:

مجال جغرافي محصور بين سلسلة جبال الأوراس² شمالاً وشط ملغيغ جنوباً ومن سهل خنقة سيدي ناجي شرقاً الى سهل سيدي عقبة غرباً، قديماً مجاله يتحكم في مركزين بارزين هما " سيدي عقبة" في الغرب و"خنقة سيدي ناجي " في الشرق لكونهما طرق معروفة للحج. ويشمل المراكز التالية: (زربية الوادي، بادس، ليانة، عين الناقة، الحراية، سيدي عقبة، سريانة، قرطة، خنقة سيدي ناجي، الحوش، السعدة، الفيض، الرويجل، الإخوة حرزلي، زربية حامد، الولاجة، مزيرعة، البغلية الجنوبية، سيدي مصمودي).وما يميزه هو خصوبة أراضيها لجريان الأودية به كما ينتج عديد المحاصيل الزراعية خاصة الحبوب والخضروات وغيرها من المنتجات الموجه للسوق المحلية³.

3-الزاب الغربي:

¹ . بوخلفي قويدر جهينة، تطور النظام . الواحي وعلاقته و بالقصور في الصحراء المنخفضة " الزيبان"، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علو. تخصص تهيئة عمرانية، كلية علوم الأرض ، الجغرافية والتهيئة العمرانية، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2017، ص 31.

² - **كتلة الأوراس:** يؤلف إقليم الأوراس حلقة في سلسلة جبال الأطلس الصحراوي ، وهو يقع في الجهة الجنوبية الشرقية للجزائر المتوسطة. يحده شرقاً وادي العرب، الذي يفصله عن جبال التمامشة، وغرباً وادي القنطرة . بسكرة الذي يفصله عن جبال الزاب المنخفضة، ويشرف شمالاً على نجد قسنطينة التي لا يقل ارتفاعها عن 900م، أما في الجنوب فيشرف على الزيبان، التي تنتهي إلى شط ملغيغ (- 26م) ضمن هذه الحدود يأخذ الإقليم شكلاً رباعياً مساحته 8000كم². تأتي أهمية موقع الأوراس من إشرافه على طرق طبيعية حيوية، كطريق تونس . المغرب الأقصى في الجنوب، وطريق واحات الصحراء وقسنطينة في الشمال الغربي، ثم الطريق الموصلة إلى تونس الشمالية، وكان للطريقين الأخيرين أهمية بينة في العهود: الفينيقية واليونانية والرومانية والبيزنطية تذكرها النصوص التاريخية وتعكسها الآثار الباقية. للمزيد ينظر: الموسوعة العربية:

تاريخ التصفح يوم 2024/10/24/1149/4.2024/10/24 <https://arab-ency.com.sy/ency/details/1149/4.2024/10/24>

³ - نفسه، ص ص 47-48.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

يمتد هذا المجال من سفوح جبال الزاب شمالاً إلى وادي جدي جنوباً، ومن جبل بوغزال شرقاً إلى نهاية جبل الزيبان غرباً. ما يميزه هو وفرة المياه الجوفية وسهولة استغلالها، خاصة الارتوازية منها، بالإضافة إلى نوعية أراضيه الجبسية التي ساعدت على نشأة واحات النخيل على طول السفح الجنوبي لجبال الزيبان. يتحكم في هذا المجال مركز هام، وهو تجمع "طولقة". والزاب الغربي عبارة عن مجموعة من الواحات التي تتمركز في محورين: الأول في الشمال والثاني في الجنوب.¹

4-الزاب الشمالي (الظهاوي):

يتشكل من مجموعة من الواحات التي تكونت على أطلال التجمعات البشرية الرومانية، وعلى سبيل المثال نذكر " واحة بوشقرون " التي تأسست على موقع روماني يسمى " قرادا CHRADA" و " ليشانة " والتي تعتبر حصن روماني عسكري محاط بسور من الحجارة، وكذلك "طولقة" التي تأسست على أطلال موقع روماني يسمى "طولقا TOLACCA" بالإضافة الى آثار تعود لنفس الفترة في " برج بن عزوز" و " العامري" الذي يوجد منذ زمن طويل قبل لغروس، يضم من الشرق الى الغرب المراكز التالية: (الحاجب،الزاطشة، بن بولعيد، عين الكرمة، برج النص، بوشقرون،حي عميروش، ليشانة، طولقة، فرفار،برج بن عزوز، فوغالة، لغروس، الخافورة، تفشنة، قريرات شويطر،ذراع بالعمراوي،الدوسن).يفصله عن الزاب الجنوبي شريط من الأراضي الرملية والسبخ.²

5-الزاب القبلي (الجنوبي):

يشمل الزاب القبلي المراكز الحضرية التالية: (اوماش،مليلي، أورلال، مخادمة، بنطوس، ليوة، الصحيرة،حي ليوة)، ويعتبر هذا المجال الجغرافي أقل ارتفاعا من الزاب

¹ - بوخلفي قويدر جهينة : منطقة الزيبان دراسة طبيعية جغرافية، في مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية ،

المجلد 60، العدد 60 ، ص ص ، 1464-1465

² - بوخلفي قويدر جهينة : تطور النظام . الواحي وعلاقته و بالقصور في الصحراء المنخفضة " الزيبان"، المرجع السابق،

ص ص 48-49

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

الظهراوي حيث يتراوح ارتفاعه بين (80-90م) لقربه من واد جدي. ويعتبر مجاله تاريخيا الحد الجنوبي لخط الليمس¹ الذي هو عبارة عن تحصينات عسكرية رومانية تفصل شمال افريقيا حيث الوجود الروماني والجنوب أين تتواجد قبائل المسائل والماسيسيل² والجيتول³.

6-الزاب الأوسط:

تضم واحة بسكرة، وينحصر نطاقها إلى حد كبير في الغرب وينتهي عند واد المالح، ويحده من الشرق حدود واحة قرطبة. بينما تضيف دراسات أخرى إلى مساحته، إلى جانب واحة بسكرة المركزية، مساحة واحات أخرى تشمل الواحات الآتية (حسب بعدها من مدينة بسكرة): شتمة (7 كم)، سيدي خليل (14 كلم)، الدروع (17 كلم)، سريانة (20 كلم)، قرطبة (22 كلم)، وسيدي عقبة، وهي القرى التي تضعها بعض الدراسات ضمن الزاب الشرقي. وبالتالي، يظل الزاب الأوسط مقتصرًا على أراضي واحة بسكرة إلى واد الملح الذي يعتبر الحد الفاصل بين هذين الزابين. وبالإضافة إلى الزاب الشرقي والغربي والأوسط، توجد

¹ - اليمس: هو المنظومة الدفاعية العسكرية الرومانية لتحصين المقاطعات القيصرية ومراقبة أهل الجهة الشمالية في نوميديا والعمل على زيادة على التوسع نحو التخوم الجنوبية من جهة أخرى، وهو من بين المؤسسات العسكرية الدفاعية التي أسسها الرومان في بلاد المغرب لغرض سياسي أكثر منه عسكري، ذلك لأنه يمثل حزاما امنيا واقيا للآلية العسكرية الرومانية في وجه الثورات المحلية. ينظر: محمد الصغير غانم، تراث منطقة بسكرة والتخوم الأوراسية، مطبعة عمار قوقي، باتنة، ص ص 56-89

² - الماسيسيل: نسبة إلى قبائل (المازيسيل)(Masaesyles)، الذين ظهروا كقوة منذ أواخر القرن الثالث ق.م و أوائل القرن الثاني أن هذه المملكة ، كانت تغطي مساحة واسعة، تمتد من شرق المغرب الحالية حتى الشرق الجزائري، وإذا كانت الحدود الغربية ثابتة على ما يبدو من مصادرها الحالية، فالحدود الشرقية كانت خلافا لذلك، عرفت تغييرات كبيرة، ففي سنة ٢٠٥ ق م، استغل سيفاكس الخلافات داخل العائلة الحاكمة في نوميديا الشرقية، ليمد حدوده شرقا حتى قيرطا التي اعتبرها تيتوس ليفيوس إحدى عواصم سيفاكس سنة ٢٠٣ ق.م. ينظر: محمد الهادي حارش: الجذور التاريخية لمملكة نوميديا، في مجلة الاتحاد العام للآثارين العرب (10)، ص273

³ - نفسه، ص 49، الجيتول: قبائل وشعوب من البدو الرحل تقطن بلاد المغرب القديم، عرفت بقوة فرسانهم في جيوش القادة والمحليين، أما مناطق التي تستوطنها فهي الحدود الجنوبية لقرطاجنة، نوميديا وموريطنيا ينظر:

- Gsell, S. (1927). Histoire Ancienne de L'Afrique du Nord (T V). Paris: Librairie

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

المراكز العمرانية التالية: لوطاية، منبع الغزلان، ومزرعة دريس عمر، والتي تعتبر جزءا من الزيبان؛ وذلك لتواجد سهل لوطاية حيث يتميز ببساطة أراضيه.¹

7- جغرافية وادي سوف:

في الأساطير القديمة، أُطلق اسم "وادي سوف" على نهر كان يجري في المنطقة من الشمال إلى الجنوب، ويُدعى "واد إزوف"، أي النهر الرقراق الذي كانت مياهه تنساب على طول المنطقة. ولكن مياهه غارت في أعماق الأرض، وانقطع منبعه الأصلي، ولم يبق إلا المكان شاهداً على النهر الذي عُرف باسمه "وادي سوف". كما أن كلمة "سوف" تعني في لغة زناتة البربرية "النهر". وعند مقارنة هذه الكلمة مع الكلمات البربرية القديمة (ISOUF) أو (ASOUF)، والتي تعني في البربرية الحديثة "أسيف"، نجد أنها توافق معنى "الواد" أو، بمعنى أشمل، "النهر". وتلتقي أيضاً مع اللهجة التارقية في الكلمة "الركبة" وتعني النهر الأبيض.²

ولما كان البربر هم سكان سوف القدماء، فإن أولى الكتابات التي توصلت إليها، كانت تطلق على المنطقة اسم "أسوف". وهذا ما ذكره المؤرخون الإباضيين، ومنهم: أبو زكرياء (ت471هـ) الذي ذكر اسوف في كتابته³، ومن شواهد: «سارا حتى وصلا أسوف، فخرج إليهما...» وأبو الربيع الوسياني⁴ في القرن السادس الهجري، ومن كلامه الواضح: «

1 - بوخلفي قويدر جبهة : منطقة الزيبان دراسة طبيعية جغرافية، ص ص 1466-1465.

2 - علي غنابزية: مجتمع وادي سوف منذ فجر التاريخ الى أواخر العصور الوسطى، سامي للطباعة والنشر، الجزائر، 2023، ص ص 15-16.

3 - أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ط2، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1948، ص ص 244-250.

4 - أبو الربيع سليمان بن عبد السالم بن حسان بن عبد الله الوسياني، عاش أبو الربيع بين بلاد الجريد وأريغ ورجلان، في مثالت حلقات العلم الإباضي، وفي عصر يعد من أزهى عصور المنطقة ثقافيا، فقد تأثر بتلك البيئة أيما تأثر، مما جعله يكتب عن مناقب المشايخ وقتذاك، الذين كانوا سببا في الحركية العلمية النشطة، ينظر: الزرويل صالح أبو الربيع

سليمان الوسياني(ت557هـ/1161م)-سيرته ومنهجه في سيره، في مجلة الحقيقة، Volume 22, Numéro 2,

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

فقدم عبد السلام ،فشخص باهله من القلعه الى أسوف ...»¹. ويعتبر كتاب الطبقات المشايخ للدرجيني² الاباضي (ت670هـ) اقدم مصدر ذكر "سوف" بدون ألف. ومما نذكره على سبيل المثال قوله: «قال وسرنا حتى وصلنا سوف فاهتز أهلها جذلا...». فيكون ظهور الكلمة في حدود القرن 13م ، أي حوالي سنة (1271م). ولما قدم العرب في ذلك القرن ،صارت كلمة سوف هي السائدة .ولعل ما ننقله عن العدواني في تاريخه ،قوله من أول كتابه : (وأما سوف فلم يكن فيها ساكن حليف ولا سيد ،بل كانت براح الذياب)³.

يقع إقليم وادي سوف جنوب شرق الجزائر ، وينتمي الى العرق الشرقي الكبير. يحده من الشمال بلاد الزاب "بسكرة" في الشمال الشرقي. ومن الشرق، الحدود التونسية من نفطة و نفاوة مرورا ببير رومان حتى غدامس. ومن الجنوب واحات غدامس ،ومن الغرب وادي ريغ (تقرت وتماسين) وورقلة⁴.

تمتد أراضي سوف من الجنوب الى الشمال بين خطي عرض 31°-34° شمالا، بين خطي طول 6°-8° شرقا .وتبلغ المسافة من سطيل في الشمال الى غدامس جنوبا حوالي 620 كم ،ومن وادي ريغ بالجهة الغربية الى الحدود التونسية بالشرق حوالي 160 كم. وتبلغ

1 - أبو الربيع الوسياني: سير مشايخ المغرب، ج2، تح، إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص 26.

2 - الدرجيني أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف التمجاري الدرجيني الإباضي، أبو العباس الأديب الفقيه، المؤرخ.

أصله من أسرة بربرية اباضية كانت تسكن تمجار وسط جبل نفوسة بليبيا، والمترجم من أسرة انجبت شيوخا علماء في المذهب الاباضي، رحل في أول سن البلوغ وارجلان، خذ العلم عن أبي سهل يحيى بن إبراهيم أحد علمائها وائمتها المشاهير في القرن السابع. وكان المترجم ذكيا ألمعيا مقبلا بكليته على التحصيل، وعملا بوصية أبيه الذي وجهه توجيهها صادقا، وفي سنة 633/ 1235 واصل الدراسة بتوزر، وأقام مدة بجزيرة حيث اشتهر بين العزابة فيها بمعرفته الواسعة في الأدب واللغة والسير والفقه، واختاره عزابة الجزيرة لتأليف «طبقات المشايخ» حسب «رواية الجواهر المنتقاة» للبرادي. للمزيد

ينظر: <https://www.taraajem.com/persons/15856> تاريخ التصفح: 2024-10-14

3 - محمد العدواني: تاريخ العدواني، تق، و تع، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996، ص82.

4 - علي غنابزية: المرجع السابق، ص 27

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

مساحة وادي سوف .800'82كم2.والاقليم محاط بثلاثة شطوط وهي : شط وادي ريغ بالغرب ،وشطوط مروانة وملغيغ وشط الغرسة من الشمال ،وشط الجريد من الجهة الشرقية¹.

جغرافية وادي ريغ:

يقع ضمن إطار متميز بطبيعته الصحراوية ،كجزء من الصحراء الكبرى تبدأ مشارفها من الأطلس الصحراوي جنوبا وهوامش الهضاب العليا، هذا الإمتداد الواسع المسطح المتكون أساسا من الحمادات والعروق، هذا المجال الواسع الذي تؤكد الدراسات الجيولوجية أنه كان مجالا رطبا بعد إحصار العصر الجليدي² الأخير. إذ يقسم الجغرافيون الصحراء الشمالية الجزائرية إلى قسمين رئيسيين: الصحراء المنخفضة (Sahara Bas) والصحراء المرتفعة، و يعد وادي ريغ من أبرز معالم الصحراء المنخفضة.

يقع إقليم وادي ريغ في الركن الشمالي الشرقي للصحراء الجزائرية، أو ما يسميه الجغرافيون بالصحراء المنخفضة الارتوازية، والتي تمتد من سفوح الأطلس الصحراوي الجنوبية شمالاً إلى بداية الهضبة الوسطى التي تنتهي بمرتفعات الهقار، ومن الشرق بمنطقة

1 - نفسه.

2 **العصر الجليدي:** يطلق على أحد الفترات التي مر بها في تاريخ الأرض، إلا أن مصطلح الجليديات (Glaciers) : يُطلق على تجمّع الجليد فوق الكتل القارية فقط، ولا يُطلق على تجمعه على المسطحات المائية، وتشير الأدلة الجيولوجية إلى حدوث خمس فترات جليدية فيما مضى، وذلك خلال 2500 مليون سنة ماضية، ويعتبر توتكوفسكي أن السبب المباشر هو الزيادة الكبيرة في هطول الامطار في الغلاف الجوي عند خطوط العرض العليا، وكانت الميزة الملفتة للانتباه في هذا العصر هي التطور الهائل للأنهار الجليدية وفي هذه الفترة تم غمر مساحات كبيرة من الأرض تحت الجليد وقد اندفعت السنة الأنهار الجليدية بعيدا في المقدمة ، وفي الجبال التي الآن خالية من الجليد للمزيد، ينظر: إ. ف.جينيترز: مجموعة من الدراسات العلمية والرياضية- العصر الجليدي، براونشفايغ للطباعة والنشر، المانيا، 1906 ، ص ص 4-11.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

الجريد التونسي التي تعتبر امتدادًا طبيعيًا لها¹. يُعتبر وادي ريغ أحد المكونات الرئيسية للمناطق الصحراوية المنخفضة التي تضم مناطق الزيبان ووادي سوف ومنخفض ورقلة. هذه المنطقة المنخفضة من الصحراء غنية بالمياه الارتوازية، مما سمح بالحياة ونشوء الواحات المسقية بهذه المياه القريبة من السطح.²

يعتبر وادي ريغ الاطار الجغرافي الطبيعي لمدينة توقرت، إسم لمنطقة وليس لسيل من الماء إن شكله المنخفض والممتد على شكل شريط طولي ضيق هو الذي اوحى بتسمية الوادي، يمثل إقليم منخفض مستطيل الشكل طوله حوالي 160 كلم، وعرضه يتراوح بين 43 كلم، يبدأ هذا الإقليم شمالا على حواف شط مروان وشط ملغيغ وينتهي جنوبا بقرية قوق التي تعد بداية للوادي .و سماه ياقوت الحموي في معجم البلدان " الزاب الصغير"³ وسماه ابن خلدون في تاريخه بلاد ريغ أو أرض ريغ.⁴

تعددت الروايات في المنطقة عبر التاريخ فالحموي يروود ان أصل التسمية يعود الى الأصل البربري ومعناه السبخة⁵، أما ابن خلدون فان وادي ريغ سمي نسبة الى قبيلة ريغة احدى بطون قبيلة مغراوة⁶ فيقول: " عن ريغة وسنجاس من بطون مغراوة ،نزل الكثير منهم

1 - خليفة عبد القادر: تحولات البني الاجتماعية وعلاقتها بالمجال العمراني في مدن الصحراء الجزائرية دراسة سوسيو- أنثروبولوجيا لمدينة تقرت (وادي ريغ)، أطروحة دكتوراه في العلوم: في علم الاجتماع ، قسم العلوم الاجتماعية، جامعة بسكرة،2011، ص ص 161-162.

2 - نفسه، ص162.

3 - ياقوت الحموي: معجم البلدان" ج4 بيروت دون تاريخ، ص 325.

4 - عبد الرحمان ابن خلدون:العبر،ط2، مج7،بيروت،1921، ص96.

5 - ياقوت الحموي: المصدر السابق،ص124.

6 - مغراوة: تعد مغراوة من أكبر بطون زناته البربرية في بلاد المغرب ، أبناء مغراوة بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا . من القبائل البتر البدو الطاعنة الراحلة، برزت كقوة لا يستهان بها، وصفها ابن خلدون بأنها أوسع بطون زناته، وأهل البأس والغلب، للمزيد ينظر: عبدلي زوييدة: قبيلة مغراوة الزناتية في ظل الصراع بين الأمويين بالأندلس وبني زيري الصنهاجيين حلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، في مجلة عصور الجديدة، مجلد11، العدد02،جوان 2022،ص104.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

ما بين قصور الزاب واركلا ، فاخبطو قرى كثيرة في عدوة واد ينحدر من الغرب الى الشرق، ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة، والأطم قد رف عليها الشجر ونضدت حفافها النخيل وانساحت خلالها المياه وهزت ينابيعها الصحراء، وكثر في قصورها العمران من ريغة وبها تعرف لهذا العهد".¹ كما أورد العدواني انه سمى نسبة الى رجل يقال له ريغ²، وتضم منطقة وادي ريغ أكثر من 35 مدينة وقرية وتشكل في مجموعها واحاتها وادي ريغ: منها:

8-منطقة المغير: (أم الطيور، نسيغة، سيدي خليل ، والبارد، تندلة، المغير).

9-منطقة جامعة (الغفیان،الزاوية، مازر، تقديدين، سيدي عمران، تمرنة،سيدي يحي) 10-منطقة توقرت (سيدي راشد، سيدي سليمان، الهرهيرة، منقر، القصور، غمرة، مقارين،الزاوية العابدية، تبسبست، توقرت، النزلة، تماسين، بلدة عمر، القوق).³

ثانيا: الإطار البشري:

ظهرت العديد من الدراسات لبعض من الأوروبيون تقسم المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830 الى عدة مجموعات معتمدين في ذلك على عنصر العرق، فقسمه بعضهم الى سبع مجموعات وهي: الأتراك، الكراغلة، العرب، البربر، والاندلسيون، واليهود، والزنوج. وهناك من قسم هذه المجموعات الى مجموعات فرعية، فتم تقسيم الأتراك الى عناصر تركية، ودخلاء، انضموا اليهم مثل الإغريق والصقليين ، والألبانيين، والكورسكيين، وغيرهم. وقد حاول الأوروبيون في دراساتهم إبراز علاقات الصراع بين مختلف تلك المجموعات وكانوا يرجعون أسبابه الى طبيعة الحكم العثماني، الذين كانوا يصفونهم بالاستبداد والجور.⁴

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، ص 64

² - محمد الطاهر العدواني: المصدر السابق، ص 299

³ - رضوان شافو مقاومة منطقة تقرت و جوارها للاستعمار الفرنسي 1852-1875 منكرة ماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر 2007 ص 14.

⁴ - ارزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص72.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

ومن الأوربيين الذين إهتموا بالدراسة الاجتماعية يؤكدون أن سكان المدن هو خليط من الأجناس والأعراق ومن أصحاب الرأي "وليم شالر" الذي قال: "مدينة الجزائر لا تستثني من القاعدة، وليس لها أي تاريخ يميزها عن باقي مدن البربر، وبقايا الأجناس التي غزت هذه البلاد عبر العصور، والمهاجرين من الأندلس والترك".¹ أما حمدان بن عثمان خوجة ، فيقسم سكان الجزائر حسب مواقعه الجغرافية وفي هذا الصدد يقول: " فالذين يسكنون السهول هم العرب الحقيقيون، أصلهم من الشرق وينحدرون من قبائل عربية مختلفة، أما الذين يسكنون الجبال أو الأماكن الوعرة المنحدرة فهم البرابرة الحقيقيون أو القبائل الذين تختلف لغتهم عن لغة العرب والفرق واضح بين اللغتين"².

لقد قدر عدد سكان الجزائر أواخر العهد العثماني بين ثلاثة وأربعة ملايين نسمة، إلا ان التقديرات القادة العسكريين الفرنسيين أقل من ذلك بكثير، بحيث نجد تقرير بوتان³ لسنة 1808م، قدر عدد سكان الجزائر بما لا يقل عن 2800000 نسمة، أما شالر فقدره سنة 1822م، بحوالي 1870000 نسمة، بينما قدره بيرو ب 250000 نسمة، واللجنة الإفريقية قدرتهم بحوالي بين 200000 و 400000 نسمة، و حمدان خوجة ب 10000000 نسمة، وحمدان الذي أعطى هذا الرقم المغاير عن البقية ربما لاعتبارات يمكن ان تكون واقعية لحد ما باعتباره ابن البلد.⁴

1- شالر (وليم)، مذكرات ، تعريب وتعليق وتقديم، إسماعيل العربي، ش.ن.و.ت، الجزائر ، 1982، ص79

2- حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 53

3- العقيد بوتان: اسمه بوتان الكامل (فانسون ايف بوتان)(Boutin Yves Vincent) ولد في شهر جانفي 1772م، في قرية صغيرة تدعى "لوروبوترو (Bottereau-Loroux) الواقعة بضواحي نانت (Nantes) على المجرى الأدنى لنهر اللوار وبوتان هو اللقب أما اسمه الشخصي هو فانسون وأبوه ايف ،وأمه "بيرين غيت Guillet Perrine " وله خمسة إخوة تتمتع عائلته بمكانة معتبرة في "اللوار" فهي تنتمي إلى الطبقة البرجوازية الصغرى والمثقفة "اللوار" في ماي 1800م التحق بوتان ،بالقوات العسكرية ،كضابط سلاح الهندسة العسكرية ، تحت قيادة نابليون شخصيا. للمزيد: ينظر: فريد بنور : المخططات الفرنسية اتجاه الجزائر (1792-1830م).مؤسسة كوشكار للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر 2008م،ص355. و العربي منور: تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر ، دار المعرفة ، الجزائر، 2006م ، ص 12.

4 - ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، ط،1 بيروت لبنان 2000 ، ص566 .

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

ويرى الدكتور أرزقي شويتم أن الامتزاج الحقيقي الذي عرفه المجتمع الجزائري، والذي أضفى عليه بعض الملامح الأوروبية، كان عن طريق الأندلسيين والأتراك العثمانيين والأعلاج، الذين اختلطوا بالعنصر المحلي من أمازيغ وعرب. وعلى هذا الأساس، يرى أن المجتمع الجزائري في العهد العثماني يمكن تقسيمه إلى مجموعتين أساسيتين: سكان المدن، الذين كانت نسبتهم تتراوح بين 5 و 10%، وسكان الأرياف الذين يمثلون الأغلبية الساحقة. وكل مجموعة من هاتين المجموعتين تتكون من عدة فئات، يختلف وضع كل واحدة عن الأخرى من حيث العدد والمكانة الاجتماعية. وبغض النظر عن بعض الفوارق التي كانت تميز كل فئة، فإن المجتمع الجزائري عموماً كان يشكل طبقة متماسكة، يكاد لا يظهر التفاوت بين فئاتها. إلا أنه يمكن القول إنه كان على رأس الهرم الاجتماعي في المدن فئة الأتراك العثمانيين، التي تتألف من القابضين على السلطة السياسية والعسكرية، في حين كانت قبائل المخزن...¹ وبعض الأسر القوية تحتل الصدارة في الأرياف.²

- سكان حاضرة مقر البايلك قسنطينة:

يُعد بايلك الشرق أكبر البايلاكات مساحةً وسكاناً، إذ كان يستقطب أكبر عدد من السكان ويضم حُمسي سكان إيالة الجزائر، وقدر شالر³ يبلغ عدد سكان مدينة قسنطينة وحدها

¹ - قبائل المخزن: يعرفها ناصر الدين سعيدوني بقوله: 'يمكن لنا أن نعرف قبائل المخزن من حيث التكوين بأنها عبارة عن تجمعات سكانية اصطناعية متميزة في أصولها، مختلفة في أعراقها، فمنها من أقرها الأتراك على الأراضي التي وجدت عليها لتكون سندا لهم، ومنها من أعطيت لها الأرض لتستقر عليها، ومنها من استقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين من جهات مختلفة ليؤلفوا جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية، وبفعل الانتساب والاستقرار والنشأة على أراضي البايلك اكتسبت هذه المجموعات البشرية كيانا مستقلاً متميزاً'. للمزيد ينظر: ناصر الدين سعيدوني، وراقات جزائرية دراسات و أبحاث: في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009. ص 207.

² - أرزقي شويتم: المرجع السابق، ص ص75-76.

³ - وليام شالر: سياسي، كاتب، ومفكر أمريكي مشهور ولد سنة 1778م، أو حوالي سنة 1773م على اختلاف الروايات في مدينة بريج بورت Bridjport بولاية كونيتيكت Connecticut ابن تيموتي شالر وسيبال وارنر (شالر). انخرط في بحرية الولايات المتحدة في مرهل الشباب برتبة ضابط بين سنتي 1803 . 1808م ما أعطاه علماً واسعاً وخبرة كبيرة في وصف البلدان جغرافياً وتحديد مواقعها الفلكية بمنتهى الدقة... اشتغل في السلك الدبلوماسي كقنصل عام في هافانا عاصمة كوبا قبل سنة 1812م ثم تحوّل إلى الجزائر كمفاوض ممثل لبلده في معاهدات الصلح ثم كقنصل عام للولايات المتحدة في الجزائر من 1816م إلى غاية 1824م ليعود بعدها إلى هافانا كما دُعِيَ في مناسبات عدّة إلى تمثيل بلده والمشاركة في

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

25000 نسمة. أما "نوا"، الذي كان قنصل أمريكا في تونس، فقد قدر عدد سكان قسنطينة سنة 1813 بـ 60000 نسمة، وأشار إلى أن الحياة فيها آمنة والمعيشة رخيصة والسكان مهذبون. وقال أحمد الأنباري، مؤلف كتاب (علاج السفينة في بحر قسنطينة)، إن عدد سكان المدينة قد بلغ 40000 نسمة، وذلك بعد الاحتلال الفرنسي وفرار بعض العائلات منها ومقتل عدد كبير من سكانها.¹

ووفقاً لما ذكره "ياكونو yacono"، فإن الظاهرة البارزة في هذا السياق هي أن القبائل المشكلة لهذا البايك كانت ذات كثافة سكانية عالية. وفي باييك قسنطينة، كانت نسبة سكان الريف تشكل 95% من إجمالي السكان، بينما لم تتجاوز نسبة سكان المدن 5%. ومن أهم حواضر باييك قسنطينة: مدينة قسنطينة، عاصمة البايك، التي قدر عدد سكانها بحوالي 25000 نسمة، ومدينة عنابة التي بلغ عدد سكانها 3000 نسمة، وجيجل بحوالي 1800 نسمة، وبجاية بـ 1800 نسمة، ومدينة القل بحوالي 1000 نسمة. أما تبسة وزمورة وميلة وسطيف وباتنة وبسكرة وريغ وسوف، فقد تراوح عدد سكانها بين 1000 و3000 نسمة. وقد كانت لهذه الحواضر أهمية بارزة في حياة باييك الشرق.²

تعد حاضرة قسنطينة مقراً لبيالك الشرق أثناء فترة الوجود العثماني بالجزائر، وتميزت المدينة بتوع فئات المجتمع كباقي حواضر ومدن الجزائر في هذه الفترة ويمكننا التطرق الى هذه الفئات المشكلة لهذا المجال الحضري وهي:

- جماعة الحضر:

وهي تشمل أهل الحاضرة، وهم السكان الأصليون الذين ولدوا في المدن وترعرعوا فيها عبر المراحل التاريخية المتعاقبة. كانت هذه الفئة تتكون أساساً من العرب والأمازيغ، وقد ازداد عددهم بانضمام الوافدين إليهم، ولا سيما الأندلسيون الذين استمروا في التوافد على

مختلف المفاوضات الداخلية والخارجية . توفي بالكوليرا في هافانا بكوبا يوم 29 مارس سنة 1833م. للمزيد ينظر: <https://historialgerie.blogspot.com/2010/12/2.html> تاريخ التصفح 2025/04/25.

¹ - عبد الرزاق قشوان: السلطة المحلية في باييك قسنطينة، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 02، الجزائر، 2010، ص 17 .

² - نفسه، ص ص 17- 18

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

المدن الجزائرية، وخاصة مدينة الجزائر وما جاورها، طيلة القرن السادس عشر والعقدين الأولين من القرن الذي يليه، نتيجة الاضطهاد والنفي الذي تعرضوا له. وإلى جانب هذه الفئة، كانت هناك عناصر أخرى من السودانيين الذين التحقوا بالمدن¹.

- الزواج:

التحقوا بالجزائر عبر مراحل مختلفة فكانت القوافل التجارية العائدة من السودان² تجلب معها عددا من العبيد. وقد عرفت هذه التجارة رواجاً بعد أن ألحقت الجزائر بالدولة العثمانية، مع مرور الوقت، ازداد عدد السودانيين في الجزائر وأصبحوا يشكلون فئات اجتماعية في العديد من المدن. يمكن تقسيمهم إلى جماعتين: الأحرار والعبيد. لم تحدد المصادر التي تناولت هذا الموضوع أعدادهم بدقة، وغالباً ما يتم إدراجهم ضمن فئة "البرانية". اكتفت بعض مصادر القرن السادس عشر الميلادي بذكر نشاط السودانيين، ذكوراً وإناثاً، وهي ملاحظة تكررت في مصادر القرن السابع عشر الميلادي، والتي كانت غالباً ما تربط مصير العبيد السودانيين بمصير الأسرى المسيحيين في مدينة الجزائر. تواجد عدد منهم في مدن جزائرية

¹ - ارزقي شويتام: المرجع السابق، ص 77.

² - السودان: كان العرب أول من أطلق كلمة السودان على الأقوام التي تقطن جنوبي الصحراء الكبرى، إلا أنهم كانوا يطلقون هذا اللفظ أحياناً على كل السود الأفريقيين، وسموا بلادهم (ببلاد السودان). وقد أطلق البكري كلمة السودان في القرن الخامس عشر الهجري، الحادي عشر ميلادي على ذلك الجزء من غرب إفريقيا الذي يمتد من النيل إلى البحر المحيط وذكر بعض ممالكه منها غانا، وكوكو، وكذلك عادات أهله، وبعض منتجاته. إن اصطلاح غرب إفريقيا، والسودان الغربي كلاهما يدل على ما نسميه بمنطقة غرب إفريقيا التي تمتد في القارة من بحيرة تشاد في الشرق حتى ساحل المحيط الأطلنطي في الغرب، وتقع عند خط عرض 17.9 شمال خط الاستواء على وجه التقريب، وهي جزء من السودان الغربي، والأوسط، ويمتد السودان الغربي حسب هذا المفهوم من ساحل السنغال حتى حدود نيجيريا الشمالية، ونقطة ارتكازه هي حوض السنغال، وحوض نهر النيجر الأعلى والأوسط. للمزيد ينظر: - الهادي المبروك الدالي : التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1999، ص 17.

وابن حوقل (أبي القاسم النصيبي): المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1872م، ص 99. وعبد القادر زبانية : مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (1493-1591م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ب ت، ص 15. و أبي عبيد الله البكري : المسالك والممالك ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة، ب.ت، ص ص 172-173. و عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل : دراسات في تاريخ غرب إفريقيا ، مكتبة الإسكندرية ، مصر، 1989م، ص 5.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

مثل تلمسان والبليدة والمدية ووهران وقسنطينة وتوقرت وورقلة. يُلاحظ أن عدد السودانين الأحرار قد ازداد بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، نتيجة لانتشار ظاهرة العتق¹.

- الأندلسيون:

هم أولئك الذين قدموا من ممالك أراغون، وفالنسيا، وكतालونيا، وغرناطة. ويذكر هايديو أنهم كانوا يأتون خلال القرن السادس عشر عبر مرسيليا وموانئ فرنسية أخرى، وأن الفرنسيين كانوا ينقلونهم إلى مدينة الجزائر بكل ترحيب. وينقسم الأندلسيون إلى صنفين: المدجنون، وهم الذين خرجوا من غرناطة والأندلس، والثغريون.² وهم القادمون من ممالك أراغون وبلنسية وكतालونيا، يمارسون في الأندلس حرفًا عديدة؛ فبعضهم يصنع الأسلحة، وبعضهم الآخر يصنع ملح البارود والبارود، وغيرهم يصنع الأقفال. ومنهم من يشتغل بالتجارة والبناء والخياطة وصناعة الأحذية والخزف، والتجار منهم يبيعون الأقمشة وغيرها. يملك هؤلاء بيوتًا في المدن³.

تجدر الإشارة إلى أن الهجرات الأندلسية استمرت بعد القرن السادس عشر، وأن استقرار المهاجرين لم يقتصر على مدينة الجزائر، بل شمل كامل دار السلطان في شرشال والبليدة والقلية. كما استقر هؤلاء في المدن الساحلية كجاية ومدن الداخل كتلمسان. وكما رأينا، فقد أدخل الأندلسيون مزروعات وصناعات جديدة إلى الجزائر، وبفضلهم ازدهرت مدن مثل شرشال والقلية والبليدة، وانتشرت الموسيقى الأندلسية⁴.

¹ - نفسه، ص ص 82-83

² - الثغريون: في سنة 1609 تم طرد الغرناطيين المحمديين من إسبانيا وتوجهوا للإقامة في إفريقيا، والذين جاؤوا إلى مدينة الجزائر كان يطلق عليهم اسم الثغريون، استقوت بهم مدينة الجزائر وتحصنت واسترجعت مكانتها في سنة 1528، كما أن الإسبانين سيطروا على بونة في سنة 1597. واسم الثغريين يطلق اليوم على مكان يقع في مدينة الجزائر TAGARINS، ينظر: فاتح بلعمري: الجزائر سنة 1695 من خلال مصدر تاريخي نادر للمستشرق الفرنسي بوتي PETIS DE LACROIX في المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد، 3: العدد، 01: جوان، 2019، ص 127. وكذلك ينظر: ADRIEN BERBRUGGER, Le Pénion d'Alger ou les origines du gouvernement turc en Algérie, imp, Hasnaoui, Alger, 2013, pp13-15.

³ - صالح عباد: الجزائر خلل الحكم التركي، 1514-1830، دار هومة، الجزائر، 2011، ص ص 358-359.

⁴ - نفسه.

- الأتراك:

يتركزون في قلب المدينة ورغم قتلهم إلا انهم لهم السيطرة على مقاليد المدينة وهم من الأتراك الذي قدموا الى الجزائر واوكلت لهم إدارة البايلك مع بقية الفئات الأخرى من السكان. وقد كانت منعزلة عن بقية السكان، وقد أشار "روزي" الى حياة الأتراك بالجزائر ورغبتهم المتواصلة في العزلة عن الأهالي، والدافع في ذلك هو إبقاء هيمنتهم عن المناصب الحكومية، وحتى يحافظ الأتراك على وضعهم الاجتماعي كانوا يستخدمون جماعات من أتراك الأناضول في العمل في فرق الأوجاق.¹

كانت هذه الجماعة تتكون من الأتراك العثمانيين ، و الأعلاج ، الأوربيين ، و الكراغلة الذين ولدوا في الجزائر من أباء عثمانيين وأمهات جزائريات .

- الأتراك العثمانيون:

كانوا يشكلون احدى الفئات في مدينة الجزائر، وكثير من المدن ،منذ أن ارتبطت الجزائر بالدولة العثمانية، و أصبحت واحدة من ولايتها، منذ عام 1519م. وصارت تتلقى منها الدعم البشري، فضلا عن المادي، وقد تشكلت النواة الأولى لفئة الأتراك العثمانيين في الجزائر من الجند الانكشاري ،ومن المتطوعين، الذين ارسلهم السلطان العثماني سليم الأول 1512-1520م الى خير الدين بربروس، في أعقاب انضوا ،الجزائر تحت لوائه ،ثم بمن انضاف اليهم من الأتراك العثمانيين ،الذين كانوا يتوافدون من المشرق . وقد استمر ذلك التوافد الى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر.²

¹ - الأوجاق: كلمة تركية لها عدة معاني وأطلق على الجماعة التي يلتقي أفرادها في مكان واحد ، ثم اطلق على مجتمع أرباب الحرف ، كما اطلق على الصنف من الجند كالسباهيه ، وهم فرق من العساكر في الجيش الإنكشاري، للمزيد ينظر: سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد

الوطنية،الرياض،2000، ص 42.وحنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر ،ص165

² - ارزقي شويتام: المرجع السابق، ص ص 83-84

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

أما الفئة الثانية، فكانت تتشكل من الأوربيين الذين كانوا يلحقون بفئة الأتراك العثمانيين، بعد ان يعتقدوا الاسلام . وكانوا يسمون بالأعلاج¹، وتعود اصولهم الى مختلف بلدان اوروبا، ولا سيما المطلة على البحر المتوسط، وقد اتخذ هؤلاء الاعلاج الجزائر وطنا لهم، ليحسنوا أوضاعهم المادية، وتحقيق طموحاتهم. وعرف عددهم ارتفاعا ملحوظا في القرن 17م، نتيجة لذلك التطور الذي عرفته البحرية الجزائرية، وكان الاعلاج يشكلون منذ النصف الأول من القرن 16م، اغلبية رجال البحرية الجزائرية، وقد عرف عدد الأتراك العثمانيين ارتفاعا في القرن 17م، وتعود أسباب ذلك الى استمرار عملية التجنيد من الولايات العثمانية المشرقية، وهذا ما يؤكد الفرمان الذي وجهه السلطان العثماني محمد الرابع في عام 1680م، الى سلطات الأناضول، و الامراء، و القضاة، ونواب القضاة، و الحكام، و مسؤولي بيت المال، و رؤساء الانكشارية...ومما جاء فيه: «ان سكان دار الجهاد الجزائر، كانوا في الأصل عربا، اما حاليا فان جزءا كبيرا هم من الاناضول و الروميلي²، الذين فضلوا الاستقرار بالجزائر، ولا يزالوا يعتبرون انفسهم رعايا الباب العالي، وهم يواصلون الحرب المقدسة ضد الكفار وقد توجهت سفنهم اليها في عدة مناسبات،

¹ - الأعلاج: يقصد بكلمة عالج لغويا الرجل الشديد الغليظ وقيل أيضا هو كل ذي لحية، وتعني الكلمة كذلك الرجل من كفار العجم، وأما الأنثى تعني علية بكسر العين كما تطلق كلمة عالج أيضا على الرجل القوي الضخم من الكفار وكل صلب شديد فهو عالج وجمع عالج هو أعلاج. وتعني العالج في الفترة الحديثة أي خلال العهد العثماني تطلق على الأوربيين المسيحيين، الذين اعتنقوا الإسلام للدلالة على أصلهم المسيحي، فمثلا الألبان، البوشناقية وغيرهم من مسلمي الولايات الأوروبية المنتمية للدولة، العثمانية، فإن لفظ الأعلاج لم يطلق عليهم بل كان يطلق عليهم اسم البلد الذي ينتمون إليه مثل، الرايس الأرناؤوطي مامي. للمزيد ينظر: جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منصور الإفريقي المصري، لسان العرب، 7 مج، ط1، دار صادر، بيروت، 1997م، ص، 200. وعثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، ص، 393. وبن عيسى قرمزي: القلج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، العلم والمعرفة للنشر المجاني 1988، ص، 58.

² - الروميلي تضمنت الرومليا مقاطعات تراقيا، مقدونيا، وموسيا، بلغاريا المعاصرة وتراقية التركية، يحدها من الشمال نهري ساقا والدانوب، من الغرب الساحل الأدرياتيكي، ومن الجنوب مورية وفي النهاية كان اسم روملي يطلق على المقاطعة المؤلفة من ألبانيا الوسطى وشمال-غرب مقدونيا، وبيتولا كبلدة رئيسية لها. للمزيد ينظر: <https://www.marefa.org> تاريخ التصفح: 2024-10-14

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

لتجنيد الاجناد، وللمشاركة في معاركنا فانهم يستحقون كل عطفنا، و فتح أبوابنا لهم للابد
1«.

وقد ساعد القرار المذكور على أن تستمر السلطات الجزائرية في تجنيد الأجناد من المشرق، وكذا تلك التسهيلات التي وجدت لها لدى السلطات العثمانية، كما يؤكد الفرمان² الذي اصدره السلطان سليم الثالث في عام 1795م، اذ أمر فيه موظفيه بأن يسمحوا لايالة الجزائر بتجنيد الأجناد في كل الولايات التابعة للدولة العثمانية دون استثناء. لقد شجعت تلك الفرمانات الأتراك العثمانيين على الهجرة الى الجزائر، لينضموا الى صفوف الانكشارية، وهكذا كلما كانت الجزائر بحاجة الى جند جديد، أرسلت بعثات الى المشرق، لتتولى مهمة التجنيد، كما كان للجزائر مجموعة من الوكلاء، في مختلف الموانئ المشرقية لنفس الغرض وهناك عدد من الكراغلة في بايلك قسنطينة كانوا يقيمون في الحاميات العسكرية، مثل تبسة، وزمورة، وعنابة، وتعد حامية ميلة من اكبر الحاميات في البايك³.

- جماعة الدخلاء :

كانت تعيش في الجزائر جاليات من اليهود والأوربيين المسيحيين الأحرار، و الأسرى :

- اليهود:

قسمت الدراسات التاريخية الجالية اليهودية في الجزائر، بحسب اقدميتها فيها، الى مجموعتين، كانت الأولى يمثلها اليهود الذين التحقوا بأفريقية، بعد ان تشتت صفوفهم في المشرق، في حدود القرن الثامن قبل الميلاد، وتمكن احفادهم من المحافظة على دينهم، اما المجموعة الثانية فكانت تتألف من اليهود النازحين من جزر البليار، و إيطاليا، واروبا الشمالية، و فرنسا، و إنجلترا، ابتداءً من القرن 13م، ثم من احفادهم وقد عرف عدد أفراد

1 - ارزقي شويتام: المرجع السابق، ص ص 83-85.

2 - الفرمان: قرار أو حكم كان يصدره الباب العالي (السلطان) إبان الحكم التركيّ للمزيد ينظر: <https://www.almaany.com/ar/dict/ar> تاريخ التصفح: 2024-10-14.

3 - ارزقي شويتام: المرجع السابق، ص ص 86-90.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

هذه المجموعة ارتفاعا ملحوظا بعد أن التحق بها يهود اسبانيا ، بعد سقوط غرناطة في عام 1492م.

أما عن العدد الإجمالي لليهود، فانه من الصعب أن نقدم رقما محدد، لأن معظم المصادر ركزت بصفة خاصة على يهود المقيمين في المدن الرئيسية، ولا سيما مدينة الجزائر، وأهملت المناطق الداخلية. والمؤكد أن عدد اليهود بالجزائر، عرف ارتفاعا خلال القرن 17م وشطر من القرن 18 م، نتيجة وباء الطاعون، الذي اجتاح البلاد. وذكرت المصادر أن عدد اليهود الذين راحوا ضحية الوباء في مدينة الجزائر لوحدها قدر 1774م ضحية، كما ان عدد من العائلات اليهودية غادرت الجزائر بعد الاضطرابات التي عرفتھا البلاد في 1805م، والتي اسفرت عن مقتل الداى مصطفى¹، وممثلا ليهود بوشناق².

- الأوربيون:

يتألف هؤلاء موظفي القنصليات والإرساليات والقناصل ووكلاء المؤسسات التجارية، والتجار وفئة الأسرى المسيحيين³، كان عدد أفراد هذه الفئة ضئيلا جدا، مقارنة بالفئات الأخرى، وهناك من أرجع سبب ضعف عدد الأوربيين في الجزائر الى وجود عدد كبير من اليهود الذين سيطروا على التجارة، وربما أن توافد الأوربيين الى الجزائر مرتبط بالوضع العام

1 - الداى مصطفى (1798-1805) من أكثر دايات الجزائر الذين عرف عهدهم احداثا متميزة، سواء على المستوى الداخلي او الخارجي، كما ان شخصيته يكتنفها الكثير من الغموض، إن عهده كان لبداية مرحلة خطيرة عرفتھا ايالة الجزائر يمكن أن نطلق عليها مرحلة الفوضى. للمزيد ينظر: محمد بوشناق: الداى مصطفى باشا وعصره (1798-1805). في مجلة عصور جديدة العدد 7-8، 2013، ص 159.

2 - ارزقي شويتام: المرجع السابق، ص ص 90-93.

3- هم من الأوربيين تم أسرهم في البحر وهؤلاء الأسرى المسيحيون يستخدمون للقيام بمختلف المهام في المكاتب و المطبخ ومخازن القصر ورؤساء الطباقين، وهم الذين يشرفون على جميع أنواع النشاط الذي يقوم به الأسرى المسيحيون، إضافة إلى تنظيف القصر ففي الطابق الأول يوجد أربعة عشر أسيراً مهمتهم ضمان نظافة هذا الجناح، وحمل أطباق اللحم الي مائدة الداى، وكان الداى يعين بعض الأسرى لخدمة التكنات حيث يتلقى معاملة حسنة من قبل جنود الانكشارية أما البقية فيتم إرسالهم لسجون الأسرى وكانوا يلبسون حلقة حديدية صغيرة في إحدى الرجلين. للمزيد ينظر: بوعالم صفاح: الحياة اليومية للأسرى المسيحيين في الجزائر خلال العهد العثماني في مجلة الوثائق للدراسات التاريخية، المجلد: 01، العدد: 02، جويلية 2022، ص320.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

في البحر المتوسط فكلما توترت العلاقات بين دول الضفتين، واشتدت أعمال القرصنة، أثر ذلك على المبادلات التجارية، وقلل من حركة الأشخاص وتقلهم¹.

من بين الفئات الأوروبية التي تواجدت في الجزائر خلال فترة الدراسة، كان هناك الأسرى المسيحيون الذين تعود أصولهم إلى مختلف الدول الأوروبية، بالإضافة إلى بعض الأسرى الأمريكيين. لم يكن عدد هؤلاء الأسرى ثابتاً، بل كان يتغير تبعاً لطبيعة علاقات الجزائر بالدول الأوروبية من جهة، ومدى تفوق أسطولها في البحر من جهة أخرى. وصل عدد الأسرى في القرن السادس عشر الميلادي إلى 25 ألف أسير، وشهد ارتفاعاً ملحوظاً في القرن السابع عشر الميلادي حيث قُدِّر بـ 35 ألفاً نتيجة لتزايد الغزو البحري للجزائريين في تلك الفترة. ذكرت المصادر أن الجزائريين أسروا 578 أسيراً في الفترة ما بين 9 مايو و 26 أكتوبر 1619م، واستولوا خلال عشر سنوات (1608-1618م) على 251 سفينة و 70035 أسيراً من مختلف الجنسيات الأوروبية. ظل عدد الأسرى المسيحيين مرتفعاً في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، وهو ما أكده أحد معاصري تلك الفترة بقوله: "إن عدد الأسرى في الجزائر كان معتبراً، مما كان يسمح لهم بالاستيلاء على المدن الجزائرية"².

- الكراغلة:

هم طبقة من أبناء الأتراك الذين ولدوا في الجزائر من أمهات جزائريات. كان هؤلاء الأتراك يعتبرونهم نتاجاً اجتماعياً أدنى مرتبة، فأطلقوا عليهم لقب "أبناء العبيد" أو "الكراغلة". تشير بعض المراجع إلى أن عدد أفراد هذه المجموعات السكانية قد ازداد حتى بلغ في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي 6000 نسمة في مدينة الجزائر، وحوالي 500 شخص في مدينة تلمسان، حيث كانوا أصحاب الرأي ومكلفين بحراسة الأبراج. كما وُجدوا في مدن مثل مازونة، وقلعة بني راشد، والمسيلة. كانت الأغلبية من أفراد هذه الجماعة تمارس مهنة الفلاحة. ونظراً للثقل الاجتماعي الذي تمثله فئة الكراغلة، كانت عيون

1 - ارزقي شويتام: نفسه، ص ص 93-94 .

2 - نفسه، ص ص 95-96 .

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

الأتراك وجواسيسهم تراقبهم باستمرار خوفاً من أي تحرك. احتمال تواطؤهم مع أعيان البدو ووجهاء القبائل بقصد الاستيلاء على مقاليد السلطة في الجزائر.¹

حاول أفراد هذه الجماعة، بالتحالف مع بعض الشرائح الاجتماعية المحلية، وبالإضافة إلى التأييد الذي وجدوه من طائفة رياس البحر، المطالبة بالامتيازات نفسها التي كان يتمتع بها الأتراك. وفي سنة 1596، قاموا بأول محاولة للثورة بتقديم مساندتهم لخضر باشا الذي حاول القضاء على الإنكشارية. ولم يستطع الأتراك الحد من شوكتهم إلا بعد أن سمح لهم الداوي شعبان آغا (1661-1665) بحق الانتساب إلى الأوجاق. وقد كان لسياسة التقارب بين الأتراك والكراغلة أثر سيئ في العلاقة بين الكراغلة والأهالي، إذ أصبح الجزائري العادي ينظر إلى الكراغلة نظرة لا تختلف عن نظرتهم للسادة الأتراك الحاكمين.²

البرانية:

لقد ساهم التنوع السكاني في تحقيق انتعاش وازدهار شمل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والثقافية، مما جعل المدن مراكز لاستقطاب السكان. وأدى هذا الوضع إلى انتشار ظاهرة النزوح الريفي نحو المدن بحثاً عن العمل والرزق، وترتب على ذلك ظهور فئة سكانية جديدة في المدن قادمة من المناطق الريفية والصحراوية، والتي اصطلح الباحثون على تسميتها "البرانية". يعود أصل أفراد فئة البرانية إلى قبائل جرجرة وبني عباس وجيجل وبسكرة وبني ميزاب والأغواط، والذين كانوا يتوافدون على المدن الجزائرية الرئيسية مثل: مدينة الجزائر وقسنطينة وتلمسان والمدينة، بغرض الحصول على عمل في الورشات والقطاعات الاقتصادية، أو لدى العائلات الحضرية والقنصليات الأجنبية، فتشكلت منهم مجموعة كبيرة، اتخذوا مدينة الجزائر قبلة لهم. وانضم بعض أفراد قبائل جرجرة الى الفرقة

1 - حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر، ص167.

2 - نفسه.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

الإنكشارية، وأصبحوا يشكلون فرقة الزواوة. أما الفئة الثانية من البرانية فكانت تضم العناصر العربية، القادمة من مختلف جهات الوطن، والتي نصبت خيامها بضواحي المدينة¹.

- الزوج:

دخلت هذه الفئة إلى المدن الجزائرية على مراحل متفاوتة، حيث كانت القوافل التجارية العائدة من السودان تجلب معها أعدادًا من العبيد. وقد ازدهرت هذه التجارة بعد ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية. ومع مرور الوقت، ازداد عدد السودانيين وأصبحوا يشكلون فئات اجتماعية في العديد من المدن الجزائرية، وينقسمون إلى جماعتين: الأحرار والعبيد. لم تحدد المصادر التي تناولت شؤون السودانيين أعدادهم بدقة، وإذا ذكرت أعدادًا، فإنها تدمجهم ضمن فئة "البرانية". واكتفت بعض مصادر القرن السادس عشر الميلادي بذكر أنشطة السودانيين، ذكورًا وإناثًا. وتكررت الملاحظة نفسها في مصادر القرن السابع عشر الميلادي، التي غالبًا ما تربط مصير العبيد السودانيين بمصير الأسرى المسيحيين. وتواجد عدد منهم في بعض المدن الجزائرية مثل تلمسان والبليدة والمدية ووهران وقسنطينة وتوقرت وورقلة. ويلاحظ أن عدد الأسرى السودانيين الأحرار قد ازداد بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، نظرًا لانتشار ظاهرة العتق.²

- ثانيا سكان الأرياف:

أجمعت المصادر على أن سكان الأرياف خلال العهد العثماني، كانوا يمثلون الأغلبية الساحقة. وهم يعيشون في قبائل متناثرة. فكانت القبائل القاطنة في المنطقة التالية تعتمد في حياتها اليومية على الزراعة، نظرا لخصوبة التربة، ووفرة المياه. أما القبائل المنتشرة في الهضاب والصحراء، فكان نشاطها يتمثل أساسا في تربية المواشي.

1 - ارزقي شويتام: المرجع السابق، ص ص 77-79.

2 - نفسه، ص ص 82-83.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

كان سكان الأرياف ينقسمون إلى عنصرين أساسيين هما: العرب والأمازيغ، يعيشون وفقاً لتنظيماتهم الموروثة التي اتسمت بالطابع الإسلامي، مما وحد بينهم دينياً. وكانت كل مجموعة تقوم على أساس قبلي أو لغوي، وتخضع لزعمائها الروحيين (المرابطين) أو الدنيويين (الأجواد). أما حمدان بن عثمان خوجة، فقد قال عن سكان الأرياف: "ينقسم البدو إلى طبقتين، أو بالأصح إلى نوعين من السكان: الذين يسكنون السهول وهم العرب الحقيقيون، أصلهم من الشرق وينحدرون من قبائل عربية. أما الذين يسكنون الجبال أو الأماكن الوعرة، فهم البرابرة الحقيقيون الذين تختلف لغتهم عن لغة العرب". وأضاف قائلاً عن سكان السهول: "ينقسم سكان الأماكن المنخفضة أو السهول إلى قسمين: أهل الصحراء الرملية، وأهل التل ساكني الجبال الصغيرة القليلة الارتفاع. والجميع من أصل عربي، مهنتهم الفلاحة، ومسكنهم الخيام المصنوعة من الوبر، وليس لهم مكان مستقر، بل ينزلون حيث يجدون المراعي لماشيتهم"¹.

أما من حيث التقسيم الإداري والسياسي للمجتمع الريفي وعلاقته بالسلطة العثمانية، فإنه يمكن تصنيفه إلى مجموعتين، هما:

أ- قبائل الرعية، وهي خاضعة تدفع الضرائب، وقد يعفى بعضها من الدفع جزئياً في مقابل قيامها بأعباء مخزنية، ويطلق عليها قبائل مخزنية.

ب- قبائل رعية ممتنعة، رافضة لدفع الضرائب.

وقد كان عدد قبائل المجموعتين، يختلف من بايك إلى آخر، فقد قدر رين (L.RINN) عدد الجماعات التي كانت موجودة في الجزائر في عام 1830م، 516 جماعة، والتي تمثل أربع مجموعات، هي جماعة المخزن المحاربة (الدواير، والزمالة) والفلاحية

1 - نفسه، ص ص 98-99.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

والخدمات العامة، وجماعة الرعية، وجماعة المتحالفة او المتعاونة وجماعة المستقلة، وهي موزعة على النحو التالي:

اسم الجماعة	دار السلطان	باييك التيطري	باييك وهران	باييك قسنطينة
المخزن	19	9	36	25
المحاربة	-	5	10	22
الفلاحية				
الرعية	11	23	56	14
المتحالفة أو الموالية	20	12	29	25
المستقلة	23	13	26	138
المجموع	73	62	157	224
المجموع العام				516

نستخلص من خلال الأرقام الواردة في الجدول ما يلي:

- أن عدد الجماعات القاطنة في باييك قسنطينة كان مرتفعا ،مقارنة بغيره من الباياليك .ويفهم من ذلك ان عدد السكان في الجهة الشرقية من البلاد، كان اكثر كثافة.
- أن أكبر عدد للجماعات المستقلة، كانت تقيم في باييك قسنطينة¹.
- أن العدد الإجمالي للجماعات التي كانت تتعامل مع السلطة، قدر بثلاثمئة وسبعة عشر جماعة، أما العدد الإجمالي للجماعات المستقلة، فقد بلغ مائتي جماعة.

¹ - نفسه، ص ص100-101.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

يتضح لنا من خلال المعطيات المسجلة ، أن سلطة العثمانيين على سكان الأرياف انت محدودة، فإذا قارنا عدد جماعات المخزن والرعية بعدد جماعات المتحالفة والمستقلة، فنلاحظ ان أزيد من نصف سكان الأرياف كانوا مستقلين نسبيا عن السلطة.

وما يمكن استخلاصه في الأخير ما يلي:

- إن الامتزاج الفعلي الذي عرفه المجتمع الجزائري لم يقتصر على الفترة الرومانية، كما ذكرت بعض الدراسات الغربية، بل ازدهر في العهد العثماني نظراً لتدفق أعداد كبيرة من الأفراد من مختلف الدول. وقد كانت هذه الظاهرة أكثر انتشاراً في المدن. أما المجتمع الريفي، فقد حافظ على تركيبته السكانية لعدم تعرضه للمؤثرات الخارجية. ومع ذلك، شهدت بعض القبائل السهلية تغييراً نتيجة لاحتكاكها المستمر بالأتراك العثمانيين ومصاهرتها لهم.
- انتظم سكان المدن في فئات اجتماعية على أساس الأهداف المادية والسياسية. وعلى الرغم من الصراعات القائمة بين الأتراك العثمانيين والأعلاج والكراغلة، فقد وحدتهم المصالح المشتركة.
- ومهما كانت الفوارق التي تميز كل فئة، فإن المجتمع الجزائري عموماً كان يشكل طبقة متماسكة.
- كان سكان الناحية الغربية من البلاد أكثر خضوعاً للإدارة العثمانية، نظراً للخطر الإسباني الذي كان يهدد المنطقة.¹
- تميزت هذه الفترة بظهور علاقات المصاهرة بين البايات والأسر الكبرى الريفية وسعى بعض البايات الى رفع مقام بعض الأسر على حساب الأخرى، فأسرة بن قانة مثلا ظهرت كأسرة جديدة منذ عهد الباي أحمد القلي(1756-1771م) بعدم تزوج من هذه

¹ - نفسه ، ص ص 102-103.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

الأسرة، والحاج أحمد باي يعد ابن أخت أحد كبار رؤساء هؤلاء العرب ابن قانة، والباي إبراهيم احد أفراد من الأسر الصحراوية، وهو الشيخ فرحات بن سعيد.

- استفاد النظام العثماني من تنوع القبائل والأسر في المدينة والريف، والتي قامت بدور هام إلى جانب العديد من البايات. تجلى ذلك في الدعم الذي قدمته هذه القبائل، حيث تحالف الحاج أحمد باي معها عندما سعت فرنسا إلى احتلال قسنطينة. وقد عبر البعض عن ذلك بقولهم: "إن هذه القبائل أصبحت النخبة المفضلة لديه". يرى البعض الآخر أن الهدف من علاقات المصاهرة كان السيطرة على البايك. مما سبق، يتبين لنا أن الاختلاف الواضح في البيئة الاجتماعية وتنوعها في بايك الشرق أثر في استمرار الصراع الاجتماعي وفي سير الأحداث السياسية حتى نهاية الحكم العثماني¹.

- سكان الأقاليم الجنوبية للبايك:

1-سكان منطقة الزيبان:

من بين سكان بسكرة المولودون وهم خليط من البربر والبنزطيين حيث يعتقد بعض الباحثين أن هناك تصاهر بين جنود البنزطيين والعائلات البربرية وحدث كذلك بين العرب والبربر بعد الفتوحات الإسلامية للنواحي المجاورة لبسكرة وبذلك ظهر عنصر جديد يتمثل في هؤلاء المولودين. أما القبائل البربرية فتتألف من سدراته وبني مغراوة ، خاصة بني خزر وبالقرب من مضارب هؤلاء بني عبد الواد الذين تمتد مضاربهم حتى مدينة تهودة، إلا ان توزيع السكان ببسكرة والنواحي المجاورة لها قد تأثر بالهجرة الهلالية حيث نجد مجموعة من القبائل العربية التي استقرت بالقرب من المدينة، وحلت محل بعض القبائل البربرية ، مثل بني عبد الوادي ومغراوة الذين تخلوا عن الواحات بعد فترة ضعف الدولة الموحدية نتيجة

¹ - رياض بولحبال: أخبار بلد قسنطينة، المرجع السابق ص ص 33-34.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

لمعركة العقاب، ثورة بني غانية فتوجهت تلك القبائل الى التل فاستقروا بالمنطقة المحصورة بين الجزائر العاصمة وتلمسان¹.

الدوادة ففضلوا الاستقرار ببلاد الزاب وخاصة مدنه وكانوا لايزالون بتلك الناحية حتى عهد ابن خلدون وحتى العمور الذين استقروا ما بين جبل أوراس شرقا الى جبل بني راشد غربا، واولاد ماضي الذين تمركزوا هم الآخرون بالمنطقة المحصورة بين جبل أوراس المطل على بسكرة متصلين بالعمور إلا انه من أبرز القبائل الهلالية التي استقرت ببسكرة وضواحيها آل مزني الذين نزلوا البداية بقرية بجناش².

2- سكان وادي ريغ:

يتألف هذا المجال الجغرافي من تركيبة سكانية مختلفة ومتنوعة من حيث الأصل ومنهم نذكر ما يلي:

- الرواغة:

وهم يمثلون الأصل الذي تسمت به المنطقة، وينتسبون اليها ، وهم ينحدرون من قبيلة زناتة البربرية، ويشكلون أغلبية السكان الذين عمروا المنطقة وسكنوها قديما، ويعود أصل الرواغة الى قبلية ريغة وسنجاس التين سكنتا القصور القديمة مثل: (الة، وغلانة، فطناسة، تتسلي)³.

- العرب:

وقد وفدوا الى المنطقة على شكل مجموعات في بداية الامر من الزيبان، والجريد التونسي، والمغرب بعد هجرة قبيلة بني هلال وبني سليم بلاد المغرب حيث كانت هذه الهجرة على شكل موجات بشرية متتابعة، وليست نقلة جماعية، وكان انتقالهم ككل هجرة جماعية

¹ - حساني: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج2، دار الحكمة الجزائر 2007، ص 8-9.

² - نفسه.

³ - رضوان شافو: المقاومة الشعبية بصحراء قسنطينة تقرت وضواحيها انموذجا 1844-1875، دار الشرق للطباعة والنشر، 2015، الجزائر، ص 46 .

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

بطياً متاقلاً ولم يتم على دفعة واحدة أو دفعتين. واغلب هذه الفئة كانوا ينتشرون عبر كامل تراب المنطقة، وهم ينقسمون الى صنفين الى العرب الرحل والعرب المستقرون.

- الزواج:

هم بقايا أبناء العبيد الذين جيء بهم من خلال تجارة الرقيق إلى سوق توقرت. منهم من قدم من توات، ومنهم من فرّ من سيده، ومنهم من قدم للعمل من بلاد السودان. وهم منتشرون في جميع القرى والمداشر، وينتسبون إلى القرى التي سكنها أجدادهم أول مرة.

- المولدون:

هم مزيج من أصول عربية وأفريقية، نتيجة للتزاوج بين السكان الأصليين والعرب القادمين مع الأفريقيات والموالي. ينتسب هؤلاء إلى البلد الذي نشأوا فيه. عبر التاريخ، حدث امتزاج وتداخل بين هذه العناصر، مما أدى إلى انصهارها في بوتقة واحدة مكونة أسرة صحراوية متجانسة تشترك في نفس العادات والتقاليد. لم يعد من الممكن التمييز بين البربري والريغي والأفريقي والعربي والمولد¹.

3- سكان وادي سوف:

استوطن العنصر الأمازيغي وادي سوف قديماً ثم تعرب، ومن العائلات ذات الأصول الأمازيغية: الستاتة والجاليسة وأولاد بوعافية. أما أغلب سكان الإقليم في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، فهم ينتمون إلى الجنس العربي القادم من شبه الجزيرة العربية، وبالتحديد إلى شعبي طرود وعدوان العربيين، وقد تطورت منهما التركيبة السكانية في سوف، ويمكن إيجاز ذلك فيما يلي:

- عرش طرود :

وقد توزع إلى قبيلتين هامتين عمرتا مدينة الوادي وضواحيها وهما:

أ- قبيلة الأعشاش:

نسبة إلى رجل اسمه "العش بن عمر بن محمد اليربوعي" ويضم، الأعشاش، وتدخل تحت كنفه عدة عمائر عميرة الفقهاء، وأولاد خليفة، وأوبد حميدة، وأولاد عيسى، والجبيرات،

¹ - رضوان شافو: المرجع السابق، ص ص 47-48.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

والكساسبة، والعيادة، والحليات، ومصغونة. أما قبيلة وأولاد أحمد فتضم سبعة عمائر وهي عميرة السوفية، وأولاد مياسة، وأولاد جاب اهلل، وأولاد عياد، والأميهات، والعواشير، والسوامش. في حين قبيلة أولا جامع التي اشتق اسمها من صاحب وبية طرابلس "عبد اهلل بن إبراهيم بن جامع" العام 1206م كانت منازلهم بناحية طرابلس ثم انتقلوا منها إلى الناحية الجنوبية من تون ومنها إلى أرض سوف، وعددهم لي بالكثير بالوادي كما يقول صاحب الصروف¹.

أما عميرة الفرجان فهم من بني عطيه، وأحدهم عطوي (العطيات) أي من أولاد "عطوة بن عطيه كمون بن فرج بن توبة" نزلت من الحجاز وسكنت مصر، ثم هاجر من أفرادها الكثير إلى ليبيا وتونس والجزائر وسكنوا هذه الديار، وقد تأخرت في الدخول إلى سوف عن باقي القبائل. في حين نزلت قبيلة الربائع² إلى منطقة سوف حوالي 1750م، ومنهم 14 عميرة تتميز بالعلامات التي وسمت بها إبلها. وينقسمون حسب جهة سكناهم في الوادي إلى قسمين: ربائع الشمال ومنهم: الدوايمة، المصابيح، العلاونة، أولاد عيسى، أولاد حجاج، أولاد زقزاق، الزيود. والقسم الثاني يطلق عليهم بربائع الجنوب ومنهم: الحوامد، المعاتيق، أولاد بلول، الفوايز، الرقيعات، الشواشين³.

ب- قبيلة المصاعبة:

ما يتم روايته حول أصل هذا العرش هو نسبهم إلى رجل ذي أصبع زائدة، ويقال لهم كذلك الأصابعة ويتألف هذا العرش من أربع قبائل نذكرها: الشباطة: ينتسبون إلى "مصعب بن شباط"، دخلوا منطقة سوف عقب أولاد احمد، وفيهم بعض اهل تكسبت القديمة من زناته،

¹ - الجباري عثمانى: منظومة التسمية في مجتمع وادي سوف خلال الفترة (1882-1937)، في مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، العدد 02، ص ص 188-210 .

² - قبيلة الربائع: يرى بعض المؤرخين أن أصل هذه القبيلة من بني تميم العدنانية. وتنتشر هذه القبيلة الكبيرة في مصر وليبيا وتونس والجزائر وتعد الربائع من كبرى قبائل المرابطين ولكنها متفرقة في عدة بلاد عربية أفريقية.

قال التليسي في معجم سكان ليبيا: الربائع من قبائل نالت وفروعها أولاد علي، وأولاد يحيى، وأولاد محمد، وأولاد سليمان. ويبدو أن الاسم يستمد أصله من جذم الأكبر من القبيلة التونسية، وهي قبيلة عربية، ينظر: موسوعة القبائل العربية: تاريخ

التصفح يوم: 2024/10/23 <https://shamela.ws/book/897/1306>

³ - الجباري عثمانى : المرجع السابق ص ص 188-210

الفصل الأول :..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

عميرة، والقرافين: وهم بطن من "الدباب من بهته" من سليم من العدناية مضاربهم بين طرابلس وقابس من بلاد المغرب، والعزازلة: وهم ينتسبون الى العزال، الذي قدم من المغرب ومعه ابنيه على وبلقاسم، وابنائهم ويعرفون في منطقة سوف بالعزازلة السبعة. والشعابنة: وتعود أصولهم من ناحية متليلي، وورقلة، المنيعه، وكان قدومهم الى سوف حديثا يقطنون الجنوب الغربي لسوف في عميش وواد العلندة وينقسم شعابنة سوف الى العمارنية والغدايرة.

4- عرش عدوان:

تغير اسمهم في القرن 9 هـ الى أولاد سعود، واستقروا في بعض المناطق في وادي سوف منها منطقة : تغزوت، الزقم، كوينين، قمار. ومن القرى والتجمعات السكانية نذكر: البهيمه، عميش، وادي العلندة، الدبيلة، الرقيبة، ورماس، الطريفاي وحاسي خليفة وأمية ونسه، وغيرها من التجمعات السكانية المتناثرة سكانها مزيج من عرشي طرود وعدوان¹.

5- اليهود:

يُرجح أن وجودهم في المنطقة يعود، حسب العدواني، إلى بداية الفتح الإسلامي. وقد انتشروا في منطقة الزيبان ووادي سوف وريغ، وذلك بعد اضطهاد الوندال لهم. أول من سكن اليهود من قرى سوف كان في قرىتي جلهمة وسحبان، وبعد تأسيس مدينة الوادي وقرية قمار استقر اليهود فيهما وعاشوا بين سكانها. ووفقًا للروايات، فإن جدهم، واسمه "تويتو"، قدم إلى قمار نازحًا من منطقة توات، وهو من الأوائل الذين عمروا هذه البلدة. وقد حافظت هذه الطائفة على خصوصيتها الدينية واللغوية رغم اندماجها مع السكان المحليين².

6- الزنوج:

كان تجار المنطقة يجلبون العبيد عبر تجارتهم من منطقة افريقيا جنوب الصحراء وأسواق غدامس وغات، ضمن السلع التي يتم شرائها. كان العبيد عبارة عن سلعة بشرية واسعة الانتشار في السودان الغربي خلال هذه الفترة، فيؤتى بهم من المناطق الداخلية

¹ - الجباري عثمانى : المرجع السابق ص ص 188-210.

² - نفسه.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

والساحلية، ويتم الحصول على هذه البضاعة عن طريق الاستيلاء والقمص وأسرى الحروب

كانت أسواق السودان الغربي عامرة بالعبيد من مختلف الأعمار، وكانت أسعارهم منخفضة مقارنة بالأسواق الخارجية. لذلك، كان التجار يعودون بأعداد كبيرة منهم لبيعهم في أسواق المراكز الشمالية وعلى السواحل للتجار الأوروبيين، الذين كانوا ينقلون أعدادًا كبيرة منهم إلى الضفة الأخرى من المتوسط. وهكذا، شكل العبيد جزءًا مهمًا من صادرات الممالك السودانية. وفي منطقة سوف، كان للزنج قائد يعرف بـ "قائد الوصفان"، يتمثل دوره في الإشراف على هذه الفئة وحضور جلسات المحاكم التي يكون أحد أطرافها من الوصفان. وعلى الرغم من صدور مرسوم إلغاء الرقيق في 27 أبريل 1848م، استمرت التجارة حتى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين¹.

ثالثًا: التنظيم الإداري للبايك:

شهد الجهاز الإداري في الجزائر خلال العهد العثماني تطورًا ملحوظًا منذ استقرار الحكم التركي، واكتملت تنظيماته واستقرت أجهزته مع نهاية القرن الثامن عشر. أصبحت السلطة التنفيذية بيد الداوي، الذي كان يساعده في أداء مهامه الإدارية وإصدار أوامره وتعليماته ديوان خاص يتشكل من كبار الموظفين. بينما كان يقوم بتنفيذ هذه الأوامر مجموعة كبيرة من الموظفين والضباط المتقاعدين، والذين كانوا بدورهم يشكلون الديوان الكبير الذي يجتمع أعضاؤه في المناسبات الرسمية والمواسم الدينية².

وهذا النظام الإداري الذي تركز في مدينة الجزائر وإقليم دار السلطان، كان يماثل النظام الإداري المعمول به في بقية المقاطعات الأخرى، إذا كان على رأس كل بايك باي مطلق الصلاحية في مقاطعته يعين مباشرة بأمر من داي الجزائر وغالبا ما يكون الباي مقربا من

1 - نفسه.

2 - ناصر الدين سعيدوني: الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية لكتاب، الجزائر، 1984، ص 16

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

بعض الموظفين الكبار ويحظى بسمعة في مجلس الديوان أو يكون قد شغل منصب خليفة الباي الذي سبقه¹.

على الرغم من اختلاف أوضاع البايكات الثلاث، إلا أن المناصب الإدارية والصلاحيات التنفيذية كانت متشابهة. ففي كل بايلك، كان الباي يتولى مسؤولية الحفاظ على الأمن وإقرار الهدوء ومنع انتفاضات وعصيان القبائل في الأرياف. كما كان مكلفاً بدفع أجور الحامية التركية المتمركزة في مركز البايك الذي يحكمه، والاهتمام بالمرافق العامة في المدن الكبرى التابعة له، وتأمين الطرق، والحفاظ على الاتصال بمركز السلطة في الجزائر. بالإضافة إلى ذلك، كان يحرص بشدة على ضمان موارد ثابتة لخزينة البايك وتوفير مبالغ ضخمة تُرسل فصلياً إلى الجزائر مع خليفته "الدنوش الصغير"². أو يتوجه بها شخصياً ليسلمها للداي وحاشيته كل ثلاث سنوات "الدنوش الكبير"³.

إضافةً إلى ذلك، يتولى جمع الضرائب من مختلف أنحاء الإقليم الذي يشرف عليه، وتسليم الأموال إلى السلطة المركزية. يتمتع الباي بصلاحيات تعيين قادة المدن، وكانت هذه المناصب تُشترى عن طريق الالتزام، حيث يدفع القادة مبلغاً من المال مقابل المنصب، يتناسب مع أهمية الوظيفة. يتميز البايك بأجهزة إدارية متنوعة ومتشابهة، ويتكون الديوان من مجموعة من الموظفين الذين يشبهون موظفي دار السلطان التابعين للداي، من حيث الصلاحيات والسلطات التي يتمتعون بها في نطاق البايك. يعود الباي إلى ديوانه للبت في الأمور الهامة أو لطلب الرأي والمشورة.

1 - نفسه، ص 20

2 - **الدنوش**: الدنوش Donus بدال ونون خفيفتين، هو اسم مشتق من الفعل "دونمك"، ويعني العودة، على ذلك يكون المصطلح هو عودة أو رجوع البايات كل ثالث سنواتٍ وبناءً ليقدموا للباشا حساباتهم المالية وتقاريرهم العامة والدنوش هو مصطلح خاص بإيالة الجزائر لوحدها كما يبدو، رغم وروده في القواميس التركية أي عودة البايات الى مدينة الجزائر لدفع الضريبة المتوجبة عليهم لحاكم الجزائر. و ضريبة الدنوش عبارة عن تأدية أموال المجمع من المقاطعات تحصل كل نصف سنة بتشريفات كبرى، لتودع لدى الخزن ناجي بمدينة الجزائر. للمزيد ينظر: فارس كعوان: المصطلحات الإدارية العثمانية في الجزائر مصطلحات: الباشا-الدنوش -البايلك كنماذج، في مجلة مدارات تاريخية ، المجلد الأول - عدد خاص- أبريل 2019، ص 131 للمزيد ينظر الملحق: 17 ص 369

3 - نفسه.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

وقد قُسم البايك إلى أربعة أقسام، يرأس كل قسم منها حاكم مستقل يخضع لسلطة الباي مباشرة، وهذه الأقسام هي¹:

- القسم الشرقي: يشمل مواطن الحنناشة وادي زناتي، وعامر الشراقة، ومن أهم وأبرز زعمائه أحرار الحنناشة.
- القسم الشمالي: يمتد من عنابة حتى بجاية، وأهم زعمائه أولاد بن عاشور في فرجوية، وأولاد بن عز الدين في الزواغة.
- القسم الغربي: يمتد من سطيف الى مرتفعات الببيان وقرى بني منصور، ومن أشهر زعمائه أولاد مقران بقلعة بني عباس ومجانة.
- القسم الجنوبي: ومجاله الزيبان حتى تبسة الأوراس جنوبا وتبسة شرقا ومنطقة وادي سوف وتوقرت أهم زعمائه الدواوودة، وأولاد بن قانة، وأسرة بني جلاب، ويساعد الباي قواد وشيوخ يعينهم بنفسه، يخضعون مباشرة لسلطته وبعض خلفائه، الذين يساعدهم الكتاب والمكاحلية في زملاهم ويبلغ عددهم حوالي 35 شيخا وقائد وحاكما نذكر أهمهم:
- شيخ النمامشة وتحتة 12 قبيلة.
- شيخ العرب بالزيبان (بسكرة) وشرف على 11 قبيلة من البدو الرحل.
- قائد الحراكته الذي يقيم بعاصمة البايك قسنطينة لأهميته، ويحكم 32 قبيلة صغيرة تمثل معظم سكان الشاوية.
- قائد الأوراس ويشرف على 12 قبيلة.
- شيخ أولاد مقران بمجانة ويشرف على 13 قبيلة.
- قائد ميلة، وتبسة، وزمورة².

¹ - ربيعة بهلول: النظام الإداري العثماني في الجزائر ومراحلها، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، الجزائر، 2016، ص ص 153-154.

² - الدراجي لخص: المرجع السابق، ص 38

1- الجهاز الإداري للبايلك:

تتألف إدارة البايلك من أجهزة ومؤسسات إدارية تشرف على تسيير شؤون البايلك والتي منها:

- الديوان:

يتشكل هذا الجهاز الإداري من كبار موظفي البايلك وهم مستشاري البايلك ويساعدونه في إدارة شؤون البايلك وهم:

• الخليفة:

يأتي الخليفة في المرتبة الثانية بعد البايلك في الهرم الإداري للبايلك، ويُعدّ شخصية إدارية وسياسية رفيعة المستوى، نظرًا لمكانته المرموقة. فهو يمثل البايلك في المناسبات الرسمية، ويتم اختياره من بين الأتراك والكراغلة المقربين إليه. وقد اقتصر شغل هذا المنصب على الأتراك والكراغلة، حيث يعينه الباشا في الإدارة المركزية بناءً على اختيار البايلك الذي يرسل خليفته إلى الباشا ليتم تعيينه رسميًا. تتضمن مهام الخليفة إدارة شؤون المناطق التابعة للبايلك، والإشراف على القواد ورجال الميليشيا المنظمة، وإخضاع السكان لسلطة البايلك، وجمع الضرائب، وقيادة المحلات التركية، وفرض العقوبات على القبائل الممتنعة أو المتمردة على أوامر موظفي الدولة. كما يتولى عملية "التدنيش" مرتين في السنة عند تعذر ذهاب البايلك.¹

كما كلف بإدارة أراضي البايلك، وتعيين ضباط قصر البايلك، ونظرًا لضعف البايات خلال الفترة الأخيرة من الحكم العثماني تطور منصب الخليفة وأصبح صاحب الحل والعقد، وذلك من خلال المهام التي يقوم بها.

• قائد الدار:

يأتي في المرتبة الثالثة بعد البايلك على مستوى البايلك، ونظرًا لحساسية وأهمية هذا المنصب، كان كبار الموظفين يشترطون على من يتولى هذه الوظيفة دفع مبلغ مالي قدره 17000 بوجو سنويًا، فضلًا عن الصلاحيات الواسعة لقائد الدار. ومن المهام الموكلة إليه

¹ - ربيعة بهلول: المرجع السابق، ص ص 154-155.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

الإشراف على حراسة المدينة وتموين رجال الميليشيا، كما يتراًس عدداً كبيراً من الموظفين الصغار، منهم قائد السوق، وقائد الباب، وقائد القصبه وغيرهم، إضافة إلى مراقبة أملاك البايك ومداخيله وعوائده الوفيرة. كما يشرف على أملاك الدولة من عقارات ومخازن الحبوب، بالإضافة إلى المساجد والقضاة وأهل الإفتاء، ويتكفل بدفع أجورهم المستحقة، وله صلاحيات قضائية تخوله إصدار الأحكام في حق المجرمين باستثناء المدانين بارتكاب جرائم القتل¹.

• الخزندار أو الباش خزناجي:

يشغل منصباً هاماً في مجلس الديوان ويتمتع بصلاحيات متعددة، منها الإشراف على الشؤون المالية والحسابات، وكذلك الإشراف على الإنفاق وجمع الضرائب وإعداد أموال الدنوش التي ترسل إلى السلطة المركزية في دار السلطان كل ربيع وخريف. يتم تعيينه من قبل الباش كاتب، بالإضافة إلى كاتبين آخرين، لرعاية شؤون السجلات وموارد البايك، ويُعتبر منصبه بمثابة أمين الخزانة لأنه يشرف على جميع الشؤون المالية للبايك. كما أوكلت إليه مهمة مرافقة الباي أثناء الخروج في حملات لاستخلاص الضرائب من القبائل المتمردة في البايك، ويتولى إعداد الأحصنة والخيول اللازمة للحملات المختلفة في أنحاء البايك، بالإضافة إلى تكفله بحمل أمتعة الباي عند ترحاله داخل أو خارج حدود البايك².

آغا الدائرة:

يعرف في بايك قسنطينة بقائد مهر الباشا، شخصية عسكرية يشرف على قيادة فرسان العرب التابعين للبايك، صلاحياته شبيه بصلاحيات آغا العرب باعتبار ان كل أعماله متعلقة بالأرياف البايك في الشؤون التنظيمية والعقابية، وذلك لأنه يدير فرق القوم غير المنظمة في الأرياف ويتولى ما تحتاج إليه، وأيضاً يرافق الباي لمعاينة القبائل المتمردة، ويدير 39 قبيلة وله شارات خاصة، وغالباً ما يعهد له قيادة حملات ضد القبائل المتمردة.

وكغيره من موظفي البايك للحصول على هذه الوظيفة كان أغاوات الدوائر يدفعون مبلغ مالي قدره 40.000 بوجو سنوية كحق الحصول على هذه الوظيفة. وكانت له صلاحيات

1 - نفسه، ص 156.

2 - نفسه.

الفصل الأول:..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري وأواخر العهد العثماني

متعددة منها الإشراف على جميع الفرق العسكرية بالبايلك ومراقبة الباى وتقديم تقارير عن ذلك للسلطة المركزية بدار السلطان، كما يشرف على مراسيم تنصيب البايات الجدد وقرارات العزل من مناصبهم، ويحل محل الباى عند شغور منصب الباى الى غاية تولي باى جديد لإدارة شؤون البايلك¹.

• الباش كاتب:

ويطلق عليه الكاتب العام، وهو حافظ دفاتر إدارة البايلك²، يساعد الباى في أداء مهامه ثلاثة كتّاب مُكفّفون بتحرير محاضر الجلسات المتعلقة بالأحكام القضائية والمراسلات العامة بين الباى والخلفاء والقواد وشيوخ القبائل. كما يُعد الكاتب العام للباى مسؤولاً عن الإشراف على المراسلات الداخلية والخارجية، ويتبعه ثلاثة سجلات لكل منها كاتب خاص: سجل رواتب الجيش، وسجل أحوال الدولة، وسجل الجمارك. يمنح الباى الكاتب العام صلاحيات دقيقة وخاصة، منها حمل ختم الباى، ومراجعة الرسائل التي يكتبها الآخرون، ورسائل تعيين موظفي البايلك، وكذلك سجل المصاريف والمداخيل والأموال المحصلة لصالح البايلك كالأموال والثروة الحيوانية. تربط الكاتب العام علاقة بالخرناجي نظرًا لتقاطع مهامه معه في تسيير أموال ومداخيل البايلك³.

• الباش مكاحلي:

وظيفة حراسة الباى، وحمل أسلحته في الحفلات العامة، حيث يتقدم موكب سير الباى في المناسبات والاحتفالات الكبرى بالبايلك على رأس فرقة المكاحلية، رفقة الباش علام حامل رايات وشارات الحامية التركية بالبايلك، وهو بمثابة رئيس قصر الباى.

• الباش سيار:

1 - نفسه، ص ص 157-158

2 - يعد من أهم المناصب في الشؤون المالية للدولة، كانت له مزايا كثيرة زمن مهامه الاحتفاظ بسجلات الأراضي وتوزيع الإقطاعات. للمزيد ينظر: سهيل صابان: المرجع السابق، ص114.

3 - نفسه، ص158.

الفصل الأول :..... الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

وهو المسؤول عن قافلة البريد، إذ يتولى نقل الرسائل المرسلة إلى مقر السلطة المركزية في الجزائر العاصمة، وإعادة الرسائل الموجهة من الداى إلى الباى. بالإضافة إلى ذلك، يرافق خليفة الباى أثناء عملية التدنيش الموسمية، ويمثل الباى في المفاوضات المتعلقة بأي شأن يخص مصلحة البايلك. وتذكر لنا المصادر التاريخية الدور الذي لعبه صاحب هذا المنصب، الباش سيار "أحمد بن زكري"، في فترة حكم صالح باى بايلك قسنطينة، حيث كان سبباً في إنهاء النزاع الذي نشب بين أصهاره شيوخ "بوعكاز" وسلطة البايلك في قسنطينة، كما لعب دوراً هاماً في المفاوضات بين تونس وقسنطينة.

• الباش سراج:

مسؤول اصطبلات الباى في عاصمة البايلك، ومكلف برعاية خيل البايلك، كما يشرف على تجهيز حسان الباى عند السفر¹.

• باش شاوش:

أوكلت له مهمة تنفيذ الأوامر الموجهة للأتراك في البايلك، تساعده قوة تتألف من الإنكشارية والفرسان والصبايحية² وبعض قوات المخزن.

• شاوش الكرسي:

يضطلع الترجمان بمهمة الوساطة، فيتولى التواصل بين الباى وبعض المسؤولين الأجانب في مسائل السلم. وفي البايلك مجموعة من الموظفين لا يتصل بهم الباى مباشرة، بل يتصلون بالخليفة أو بعض وزراء الديوان، ومنهم: أغا الصبايحية، وموظفو القصر، كقائد

¹ - نفسه، ص159.

² - الصبايحية: (sipâhi) : أصلها تركي وتعني الجندي وهي مأخوذة من اللفظ الفارسي سپاهى وانقلت إلى اللغة الفرنسية (Spahi) ، كما تقول رواية أخرى أنهم كانوا يستعملون نفس كلمة السر ("صباحكم بالخير") فيما بينهم إلى أن تم النطق اليهم وتسميتهم ب"الصباحية".،وظيقتهم أبان الحكم العثماني هي الوساطة بين الدايات والأهالي ولكن تطورت بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر لتصبح ولاء لهذا المستعمر وذلك بتجنيدهم الشباب من الجزائريين للانخراط في الجيش الفرنسي من أجل محاربة أعداء فرنسا من المقاومين للاحتلال الفرنسي ودحر ثورات الاهالي تماما كما حدث مع مقاومة الزعاطشة وبوعمامة والمقراني و الكثير من الثورات الأخرى أين أرتكبوا مجازر في حق الأهالي، للمزيد ينظر:

<https://areq.net/.html> تاريخ التصفح 2024/10/31.

الفصل الأول: الإطار الجغرافي والبشري والاداري أواخر العهد العثماني

المقصورة، وباش فراش، وقائد الجبيرة، وقائد السوانة، وقائد السبسي، وباش قهواجي، وقائد الدريبة (المشرف على الباب الرئيسي للمدينة)، وقائد الطامة (المسؤول عن إحضار الآنية التي يستعملها الباي). بالإضافة إلى موظفي المدينة الخاضعين لسلطة قائد الدار، وهم: أمين الخبازين، وأمين الفضة، وقائد الباب، وقائد السوق، وقائد الزبل، وقائد القصبية، والبراح، وباش حمار، ووكيل بيت المال.¹

¹ - الدراجي لخصوص: المرجع السابق، ص ص 39، 41.

الفصل الثاني:

الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايك قسنطينة

- 1- مشيخة العرب خلال العهد العثماني
- 2- أهم الأسر المتنفذة جنوب البايك:
 - عائلة بن قانة
 - عائلة بوغكاز
 - عائلة بني جلاب
- 3- الصراع بين العائلات المتنفذة
- 4- العلاقة بين البايات والأسر المتنفذة

الأسر المحلية المتنفذة ببايك الشرق 1711-1848م

1: مشيخة العرب¹ خلال العهد العثماني

- المشيخة لغة:

تعددت تعريفات المشيخة في المراجع، وسنتناول هنا بعضاً منها، فبحسب ما أورده ابن منظور، تعني المشيخة الطعن في السن²، وقد جاء جمعها من شيوخ وأشياخ ومشايخ وتعني من استبان في السن خمسين أو إحدى وخمسين إلى آخر عمره³، وما ذكره مصطفى عبد الكريم الخطيب فقد قال: « مفرد مذكر وجمعه شيوخ وأشياخ، والشيخ في اللغة هو من أدرك الشيخوخة، وهي مرحلة فوق الكهولة ودون الهرم غالباً ما تكون عند سن الخمسين من عمر الشخص»⁴.

- المشيخة اصطلاحاً:

ويقصد بها مرتبة لها من الشأن والسلطة والحكم والعلم والوقار والتجربة والحكمة⁵. وتطلق كذلك على الشيخ ذوي المكانة من العلم والفضل والرئاسة وعلو المنزلة⁶. وارتبطت هذه المرتبة من الناحية التاريخية بمهام دينية واجتماعية وسياسية متنوعة⁷.

1 - للمزيد ينظر حول أهم الأسر والمشايخ الملحق رقم: 02 ص 356

2 - ابن منظور: لسان العرب، مج، 1 دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت، مادة "زب"، ص 31.

3 - الفيروز ابادي: القاموس المحيط، ج، 1 دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، د.ت، مادة "زب" ص 54 .

4 - مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، 1996، ص 278.

5 - عباس كحول: الزاوية والسياسة بين المقاومة الوطنية والاحتلال الفرنسي في الزيبان (1838-1876)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، 2018، ص 136.

6 - مصطفى عبد الكريم الخطيب: المرجع السابق، ص ص 278-279.

7 - عباس كحول: المرجع السابق، ص 136 .

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب باييك قسنطينة

وتطلق هذه الكلمة على صاحب المنصب الأعلى في القبيلة أو مجموعة الأفراد الذين تربطهم عدة روابط الذي يقابله لقب آغا اوبيك في المناطق والأقاليم الجبلية المتأثرة باللغات أو الأجناس غير العربية، ومع تطور الزمن أخذت تشمل على معاني علمية ودينية واقتصادية فكانت تأتي مركبة مع غيرها من الألقاب: كشيخ القراء وشيخ المحدثين¹. كان لقب "شيخ الإسلام" يُطلق في العهد العثماني على المفتي الأكبر للدولة، وقد خصّ به السلطان محمد الثاني (1451-1481م). وفي عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566م)، تحولت مشيخة الإسلام إلى مؤسسة إدارية وقانونية مهمتها إرساء القواعد التبريرية للسياسة السلطانية من خلال فتاويها واجتهاداتها. بالإضافة إلى ذلك، كان يُطلق هذا اللقب على كبار المسؤولين من الصناع والتجار في العهد العثماني².

عمومًا، يُعدّ هذا النظام الأخير استحداثًا عثمانيًا في الجزائر لبسط سيطرتهم ونفوذهم على كامل المجال الجغرافي الخاضع لسلطتهم، من الشمال إلى الجنوب، وفي كافة مناطق الوطن.

- تعيين شيخ العرب:

حسب السلم الإداري في نظام الحكم العثماني فإنه من صلاحيات الباي تعيين شيخ العرب وهذا ما أورده حمدان بن عثمان خوجة: "من اختصاص بايات قسنطينة، وعندما يقلدهم زمام الحكم يهدي إليهم معطفًا مدبجًا بالخیوط الذهبية"³. هذا اللباس

¹ - مصطفى عبد الكريم الخطيب: المرجع السابق، ص 279.

² - حسن حلاق وعباس صباغ: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، ط1، دار العلم الملايين، بيروت، 1999، ص ص 131-133.

³ - حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، ط2، تع و تح محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص76.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

يدعى القفطان¹ ويتم ذلك في احتفال رسمي ترفع فيه الأعلام التركية وتصدح الموسيقى العسكرية وتدق فيه الطبول أما الجماهير على غرار ما يقع عندما ينصب بايات العملات في الوطن². ويوضع تحت تصرف الشيخ المعين عشرون خيمة من الجنود الأتراك³. وحسب أبو القاسم سعد الله: " كانوا يقطعونهم الأراضي ويرسلون إليهم في الوقت المناسب الحاميات العسكرية لتأديب الناقلين عليهم وتخويف الباقيين من السكان"⁴.

- مهام شيخ العرب:

في العهد العثماني، كان الريف الجزائري خاضعاً لسلطة شيوخه المتوارثة، الذين تقاسموا السلطة مع النظام البايليكي الذي لم يكن يتمتع بسلطة فعلية عليهم. فكان ولاء الشيخ للنظام أو عداؤه له يعني ولاء القبيلة أو عداؤها. لهذا السبب، تعامل حكام

¹ - القفطان: بضم القاف وسكون الفاء: كلمة فارسية تركية معربة، وهي في الفارسية خفتان، وفي التركية قفتان ومعناها في الفارسية ثوب من القطن يلبس فوق الدرع، ومعناها في التركية جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن، وقد كان القفطان من اللباس الرسمي للسلطان العثمانيين آنذاك، وكان يشكل واحدة من المجموعات الرئيسية للقصر "توبكابي" في إسطنبول للمزيد ينظر: رجب عبد الجواد إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس، دار الأفق العربية، ط1، القاهرة، 2002، ص 399.

² -الوطن: يعد الوطن رقعة جغرافية تقع داخل إقليم البايك ، يديرها مسؤول يعرف بقائد الوطن ،وللتمكن من إدارة البلاد بيد من حديد عمد العثمانيون الى تقسيم كل بايلك الى عدة أوطان وقبائل ودواوير ووضعوا على رأس كل وحدة ادارية قوادا وشيوخا يعينهم الباي مباشرة ويخضعون لإدارته يجمعون في أيديهم السلط المدنية والعسكرية والقضائية ، ويساعدهم في الحكم رؤساء القبائل والمشايخ الذين يعتمدون بدورهم على رؤساء الدواوير وتتمثل مسؤولية هؤلاء القيادة بالخصوص في السهر على توزيع الأراضي. للمزيد ينظر: بلقاسم صديقي، عبلة بن يطو: (الإدارة المركزية والإقليمية بالجزائر العثمانية)، في مجلة المفكر، المجلد السابع / العدد الأول،ص434.و محمد خير الدين: مذكرات الشيخ محمد خير الدين،ج1، مطبعة دحلح،الجزائر،1985، ص 42.

³ - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 76.

⁴ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،عالم المعرفة، الجزائر ،2011،ص157.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

البايلك مع الشيوخ وفقاً لمصالحهم¹. باعتبارهم همزة وصل بينهم وبين سكان الأرياف والمناطق الصحراوية البعيدة عن نفوذهم ومنحهم بعض الامتيازات مقابل جملة من الخدمات التي أصبحت في اعتقادنا من أولى واجبات ومهام شيخ العرب.

تُعدّ وظيفة شيخ العرب من الوظائف التي لطالما كانت محطّ تنافس وصراع بين القبائل، سعيًا للظفر بها مهما تطبّب الأمر. ومن أبرز مهام شيخ العرب تقديم الخدمات لمن هم تحت ولايته، حيث يسهر على تسيير شؤون القبائل التابعة لدائرة اختصاصه وفقاً لخارطة سلطة البايلك. فمن مهامه الإشراف على ترحال القبائل في الشتاء والصيف، واختيار الأراضي لرعي أغنامها، وحمايتها أثناء الرحلة، وعند دخولها الأسواق التي كانت تُقام على مشارف المدن والقرى لتبادل السلع بين الرّحل وسكان التل والمدن الشمالية للبايلك. وكانت هذه العملية غالبًا ما تؤدي إلى تعكير صفو الأمن العام في المنطقة نتيجة لعمليات السطو التي يتعرض لها التجار من قبل بعض أفراد القبائل المخزنية.²

بالرجوع إلى تاريخ التنظيم الإداري العثماني في الجزائر، نجد أن لشيخ العرب مهام متعددة يضطلع بها بعد تنصيبه، منها تعيين شيوخ القبائل الذين يتولون مهمة مراقبة مواسم الحرث والحصاد، وتقسيم الأراضي بين العائلات (إذا كانت الأرض مشاعة)، والنظر في توزيع مياه الري وتخصيص المراعي، ومراقبة الأسواق الريفية وفرض الغرامات، وإلزام السكان بدفع المستحقات المخزنية حسب قدرتهم، وتقدير الضرائب المتوجبة ورفعها إلى القائد. كما كان شيخ القبيلة حسب " لوجي دي

¹ - ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 430.

² - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري، من القرن 10هـ 16- إلى 13هـ 19م ديوان المطبوعات الجامعية، د.ت، ص 161.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

تاسي¹ " يجتمع يوميا في كل مساء برؤساء الخيام لتداول كل القضايا والأعمال التي تهم القبيلة، ويساعده في أداء مهامه مجلس القبيلة أو الجماعة².

نظراً لتعدد مهام شيخ العرب واتساعها، وأمام الصعوبات التي كان يواجهها البايك، تم تعيين شيخ ثانٍ للعرب يكون خليفة للشيخ الأول في أراضي التل، ويُعرف بشيخ عرب التل. وينوب عن الشيخ الأول في الإشراف على أمور القبائل في المنطقة عند نزوح شيخ العرب إلى الجنوب. وقد تولى هذا المنصب شيوخ أسرة ابن الحداد من قبيلة عياض التابعة لإدارة شيخ العرب. ومن مسؤوليات شيخ عرب التل حفظ الأمن في كامل الهضاب، ولإنجاز هذه المهمة أُخضعت له ثلاث قبائل لها نفس مهام وامتيازات قبائل الدوائر المخزنية.³ بالنسبة للحكم المركزي بقسنطينة إذ كانت تأمر

¹ - لوجي دي تاسي : هو قنصل فرنسي، لكن المصادر التاريخية لا تذكر عنه الكثير، حتى ألبير دوفو الذي وضع كشافاً لأهم القناصل الفرنسيين المقيمين في الجزائر من سنة 1686م حتى سنة 1830م، خصص له نبذة قصيرة فقط، فذكر أن اسمه الكامل لوجي جاك فيليب Philippe Jaque Lauger ، وبأنه وظف بالقنصلية الفرنسية في 27 جويلية، 1717 وتم تسجيله بالجزائر يوم 16 جانفي 1718. بعد إقامة دامت خمسة أشهر ونصف، غادر الجزائر وترك للقنصل الفرنسي Baume عبء ديوان القنصلية. حيث ذهب على متن سفينة المعلم Moulinier de Cassis، وفي سنة 1725م شغل منصب مفوضي البحرية لملك فرنسا بأمر مستردام، أين نشر كتابه تاريخ مملكة الجزائر.

. تحت عنوان :

Histoire du Royaume d'Alger , avec l'état présent de son gouvernement , des ses Forces de terre et de mer, de ses revenus, police, justice, politique , et commerce

للمزيد ينظر: . وردة جيلالي زورقي- خالدي بلعربي: جوانب من الحياة الاجتماعية لمدينة الجزائر في كتابات القناصل الفرنسيين خلال القرن 18م "لوجي دي تاسي و سيزار فيليب فاليار" نموذجاً، في *المجلة التاريخية الجزائرية*، المجلد، 07: العدد 01: 2023، ص 368.

² - بلبروات بن عتو: المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة وهران 2008، ص ص 246-247.

³ - *قبائل المخزن والداوير*: يعرفها الأستاذ عمار بوحوش بقوله: «أن القبائل المخزنية هي التي تتحالف مع الحكام وتتعاون معهم في جمع الضرائب والمحافظة على الأمن مقابل إعفائها من دفع الضرائب» اما موقع

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

بأوامر الشيخ لحفظ الأمن وتزود البايك بفرسان يستعملون لإيصال البريد بين شيخ العرب بالصحراء وشيخ عرب التل¹.

في هذا الصدد تطرق " لوجي دي تاسي" الى السلطة في المناطق الجبلية والصحراوية والتي خضعت لسلطة الرؤساء المحليين والشيوخ حيث قال: "...إن إقليم مقاطعة حكومة الشرق محاط بالجبال العالية المسكونة من طرف العرب والبدو، الذين يعتبرون بحريتهم، ويكون جزء منهم من المملكة تقسم الى اوطان تحكم من طرف الشيوخ الذين يستخدمهم البايات. في اغتصاب حقوق الإنسان"².

وتتمثل مهمته الثانية في علاقته بالسلطة المركزية، إذ يقدم الحماية للإدارة التركية في البايك، أي المنطقة الخاضعة لسيطرته. وتشير المصادر إلى حماية شيوخ العرب للبعثات التركية التي دخلت بايلك قسنطينة عبر عنابة بعد مغادرة الأمير الحفصي للمدينة وعودته إلى تونس، وكذلك حماية بعثة الضباط الأتراك إلى بسكرة سنة 1550م، ثم إلى تقرت وورقلة سنة 1552م. علاوة على ذلك، شاركت الذواودة الأتراك بجيشين عظيمين ضد الغزاة الإسبان سنة 1581م.³

ومن مهامه الرئيسية حفظ الأمن بمناطق نفوذه وجباية الضرائب ودفع الضريبة السنوية الي قدرت في البداية بـ20.000 بوجو ثم أعفى منها الشيخ في عهد الحاج

قبائل المخزن ضمن التركيبة السكانية للجزائر، فقبائل المخزن ال تتواجد بالمدن، أي انها لا تصنف اجتماعيا ضمن فئة السكان الحضر، بل تشكل جزء من سكان الأرياف الذين يمثلون الغالبية العظمى لسكان الجزائر في العهد العثماني، حيث تزيد نسبتهم عن 95% من مجموع سكان البلاد. للمزيد ينظر: عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية، 1962 ط، دار الغرب الإسلامي، بتوت، 1997، ص.... وسعاد عقاد، الفلاحون الجزائريون والسلطة العثمانية في الجزائر 1519-1830- دار السلطان أنموذجا- مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر (، جامعة وهران، قسم التاريخ وعلم الآثار، السنة الجامعية.2013-2014، ص

1 - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 162.

2 - Detassy. Op.cit P94

3 - محمد خير الدين: المرجع السابق، ص ص43-44.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

أحمد باي آخر بايات قسنطينة. لكون شيخ العرب أصبح يعين من بين أحواله (أولاد بن قانة). ناهيك عن شنه الحملات العسكرية على القبائل الممتنعة¹ عن دفع الضرائب لشيخ العرب، وكان هذا من مهام خليفة الباي في بداية الحكم العثماني. وبذلك أصبح الشيخ يتمتع بسلطة شبه مطلقة بجنوب البايك².

ومن مهامه كذلك التصدي لأطماع الجيران ومراقبة حركة التنقل والتجارة³. فقد كان شيخ العرب يشرف شخصيا على المعرض التجاري السنوي الذي كان يقام بواد العثمانية غرب مدينة قسنطينة الذي كان ملئاً بالمصنوعات المحلية المختلفة وبعض المستوردات مثل الأقمشة والشواشي والمحازم والعطريات التي كانت تجلب من بلاد الجريد على وجه الخصوص ومن أوروبا⁴.

وبمجرد سقوط مدينة الجزائر وبداية الاحتلال الفرنسي سنة 1830م، و توغله في الداخل لاسيما بعد سقوط مدينة قسنطينة سارعت السلطات الاستعمارية تنظيم كامل القطر بقوانين ومراسيم من أهمها مرسوم فالي⁵ الذي أستحدث في

¹ - القبائل الممتنعة : وهي القبائل التي تتمركز بعيدا عن السلطة المركزية وتسكن في الغالب مناطق جبلية وعرة، والتي فضلت ما يقدمه الجبل من حماية لنتمتع بالاستقلالية، وتحافظ على نسيجها الاجتماعي والثقافي . وهكذا وبفعل الجبل وبعده الإستراتيجي عاشت في استقلالية وبعيدا عن الخضوع والاستسلام، وبخاصة بعد عجز السلطة في الوصول إليها. للمزيد ينظر: عبد الغفور نصرالدين و فارس كعوان: تأثير التضاريس في علاقة القبائل الممتنعة بالسلطة في الجزائر خلال العد العثماني- الجبل أنموذجا، في مجلة عصور الجديدة، المجلد 10 العدد 1- مارس 1441هـ/ 2020، ص277.

² - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص ص162- 163.

³ - عباس كحول: المرجع السابق، ص 137.

⁴ - محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص112.

⁵ - شارل فالي: (1773-1846م)، تولى سنة 1837 قيادة سلاح المدفعية لقوات دامريمون في الجزائر التي هاجمت قسنطينة للمرة الثانية، ثم تولى القيادة بعد وفاة دامريمون الذي قتل بقذيفة مدفعية بتاريخ 12 أكتوبر 1837م، ثم عين ماريشالا وحاكما على الجزائر الى أن غادر الجزائر سنة 1841م. توفي سنة 1846م.

1830/09/30م، والقاضي بإلغاء لقب شيخ العرب لما له من نفوذ واستبداله بلقب خليفة الذي منح لفرحات بن سعيد الذوايدي على الزيبان ثم بوعزيز بن قانة بعد أن كانا يحملان لقب شيخ العرب مع تقليص صلاحياته، فقد ضم هذا المرسوم عشر مواد¹.

2- أهم الأسر المتنفة جنوب البايك:

أضحى للأسر العريقة² التي كانت تؤطر القبيلة العرقية أو المرابطية بالريف تأثيراً على سلطة البايك، وبلغت أوجها في القرن الثامن عشر جراء ضعف السلطة المركزية البايكية ولم يعد في مقدور البايك الاعتماد على الجيش الذي أضح منافساً سياسياً قوياً حتى نقص عدده، وأصبحت نظرية الاستبداد بالسلطة بعدم إشراك الغير بها نظرية متجاوزة، بينما كانت في السابق أحد شروط الاستقرار، وأن نفوذ السلطة الفعلي مرتبط بمستوى علاقاتها بهذه المشيخات، فبواسطتها تقوى إذا رضت وتضعف إذا سخطت دون أن تتخطى وساطتها وتربط علاقات مباشرة مع الأفراد وبالتالي لم يعد باستطاعة البايك الحفاظ على الأمن وضمان استمراريته إلا باقتسام المداخل الضرائبية مع رؤساء هذه الأسر والعشائر الكبرى. كما أن البايك، لتوسيع نفوذه، اعتمد على مبدأ المصاهرة كعامل سياسي-اجتماعي أساسي لربط مصير القيادات المحلي بالسلطة، تمثل في اقتران الحكام الأتراك بنساء أهليات من رؤساء العشائر والقبائل الكبرى،

المزيد ينظر: توفيق دحماني: قسنطينة عشية الاحتلال الفرنسي 1837م من خلال وثائق نادرة، في مجلة الدراسات التاريخية، مجلد11، العدد01، 2010، ص155.

¹ - عباس كحول: المرجع السابق، ص ص 134-135.

² - للمزيد حول الأسر المحلية المتنفة ينظر الملحق رقم: 02 ص 356

وأصبحت السلطة تأخذ بعين الاعتبار هذا العامل في تولية البايات. هذا من جهة، ومن جهة أخرى جعل هذا الانفتاح المغرض تلك الأسر ترى بدورها أنها ممثلة في السلطة البايكوية عن طريق أصهارها.¹

1-أسرة بوعكاز الذواودة:

تعتبر قبيلة الذواودة² من أهم القبائل في بايلك الشرق الجزائري نظرا لعدة اعتبارات منها الجغرافية و الاقتصادية و السياسية، ولقد لعبت دورا محوريا في تثبيت الحكم العثماني في بايلك الشرق، ويرجع لنفوذها في المنطقة و لقوتها ودهاء حكامها رغم الصراع الذي كان بينها و بين جيرانها من الحنانشة³ و أولاد جلاب و أولاد عبد النور.

تعود أصول هذه الأسرة إلى قبيلة الذواودة الهلالية من فرع رياح فهم أبناء داود بن مرداس بن رياح⁴ رئيسهم لعهد الموحدين مسعود بن سلطان بن زمام بن وردريقي بن داود الملقب بالبلط لشدته وصالبته. و لما نقل المنصور رياح إلى المغرب أنزل

1 - أحمد سيساوي: البعد البايكي في المشاريع السياسية الاستعمارية الفرنسية من فالي الى نابليون الثالث 1838-1871م، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة02، 2014، صص 134-135.

2 - للمزيد حول شجرة نسب الأسرة ينظر الملحق رقم:09 صص 363

3 - كانت قبيلة الحنانشة من أهم القبائل القوية ذات التأثير الكبير في بايلك الشرق، فقد كانت مسيطرة على مجال جغرافي كبير، ولعبت دورا كبيرا في العلاقات بين الجزائر وتونس، ولذلك ركز المحتل على جمع أكبر قدر من المعلومات عن شيوخها، منذ سنة 1832. للمزيد ينظر: ورتي جمال: آليات السياسة العقارية الفرنسية ودورها في تغيير بنى المجتمع الجزائري قبيلة الحنانشة نموذجا، في مجلة منتدى الأستاذ العدد10، سبتمبر2011، صص 138.

4- CHARLES FÉRAUD :LE SAHARA de CONSTANTINE NOTES ET SOUVENIRS. ADOLPHE JOURDAN, LIBRAIRE – ÉDITEUR IMPRIMEUR- LIBRAIRE DE L'ACADÉMIE.1887.P172.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايالك قسنطينة

مسعودا وقومه ببلاد الهبط فاستقروا هناك¹ وكان ذلك سنة 1176م، حيث كانت القبيلة في أوج مجدها السياسي والعسكري والاقتصادي تحت لواء هذا الأخير الذي لعب دورا رائدا إلى جانب الموحدين في الجهاد بالأندلس، وبعد أن عاد منها إلى قسنطينة ليطر على أهم وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: "واعتر رباح بعهدهم بإفريقية وملكوا ضواحي قسنطينة ورجع اليهم شيخهم مسعود بن زمام من المغرب فاعتر الذوادة على الأمراء والدول".²

وبعد انتقال مسعود بن سلطان خلفه ابنه محمد فتحالف مع يحيى بن غانية- من بين سليم ورياح ضد الحفصيين فاتسع نفوذه وصارت له حسب ابن خلدون: "رياسة البدو في ضواحي إفريقية ما بني قسنطينة والزاب والقيروان والمسيلة له ولقومه". ولما ملك بن غانية³ سنة 631هـ واستغظ سلطان أبي حفص قاتلهم هذا الأخير حتى أجالهم من إفريقية إلى جانبها الغربي فملكوا "بضواحي قسنطينة وبجاية من التلول ومجالات الزاب وريغ ووركلا وما وراءها من القفار"⁴.

وبذلك استمر نفوذ هذه القبيلة بزعامة أبناء "محمد بن مسعود" وقد استمر هذا النفوذ بنفس القوة حتى زعامة "السخري بن يعقوب بن علي" على كامل المنطقة الواقعة بين قسنطينة وورقلة حتى وصول العثمانيين إلى المنطقة. وقد عمل العثمانيون منذ بداية حكمهم للجزائر على كسب ولاء هذه القبيلة القوية فتقربوا من

¹ - ابن خلدون : العبر، ج6، ص44

² - نفسه، ص 49.

³ - ينتمي بنو غانية حكام الجزائر الشرقية إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية بصحراء لمتونة إحدى أعظم قبيلتين قامت عليهما الدولة المرابطية ، كان علي المسوفي جد بني غانية، يتمتع بشخصية قوية ويتحلّى بمواهب عدة وله مكانه في قومه مما جعله مقربا من امير المرابطين يوسف بن تاشفين... للمزيد ينظر: عبد الله طويلب: بجاية في عهد بني غانية، في مجلة متيجة للدراسات الإنسانية، المجلد 01، العدد 01، 2014، ص 97.

⁴ - نفسه، ص 45.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب باييك قسنطينة

شيوخها، ويبدو أن أول اتصال للعثمانيين بهذه القبيلة كان في عهد البيلباي "خير الدين باشا" إذ تقول أحد الوثائق التي لخصها أحد أحفاد الذوادة حسب الأستاذة جميلة معاشي، الشيخ "محمد خير الدين"، أن خير الدين باشا أصدر سنة 1529م نداء عاما دعا فيه أئمة المساجد الى قراءة الخطبة باسم السلطان العثماني ووجه دعوته باسم السلطان الى كافة القبائل العربية من رياح الى طاعة السلطان فأجابه هؤلاء الى ذلك بشروط أهمها:

- عدم المساس بما تحت أيديهم من الأراضي والحقوق والامتيازات التي مكنهم منها الحفصيون.
- احترام اختياريهم بأنفسهم لأمرائهم، أي عدم التدخل العثمانيين في تعيين امرائهم، واحترام قوانينهم القبلية. ويقبول الباشا خير الدين شروطهم دخلت قبيلة الذوادة عهدا جديدا مع العثمانيين بزعامة أسرة "بوعكاز"، إذ أصدر الباشا أمرا بتزكيته لأي أمير يعين على القبيلة ومنحه لقب "شيخ العرب"، وكان أول أمير من القبيلة حمل هذا اللقب هو "علي بن السخري" الملقب بـ "بوعكاز" والذي أخذت هذه الأسرة أسمها منه.¹

1-2 مقدراتها:

1-2-2 السياسية والحربية:

اشتهرت بفروسيتها وجيوشها الضخمة والتي حددها الوزن في نهاية العهد الحفصي 5000 فارس مجهزين أحسن تجهيز² هذه القوة دفعت بالسلطان الحفصي إلى اقطاعهم كل ما استولوا عليه من أراضي وتسجيل ذلك في شهادات رسمية

¹ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص ص35-36 .

² - الحسن الوزان: وصف افريقيا، ط2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص52 .

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

تثبيت حكمهم الشرعي في تلك المنطقة الممتدة من سهول قسنطينة وعنابة شرقاً إلى سطيف والمسيلة غرباً، ومن الأوراس إلى الزاب وورقلة جنوباً وقيل حت منداس (تيهت) بغرب البلاد وجميع هذه الأراضي كانت هبة من الحكام الموحيدين والحفصيين مقابل ما كانت تقدمه القبيلة لهم من خدمات عسكرية.¹

قارب تعداد قوات هذه القبيلة في بداية العهد العثماني كما قال " فيرو" الى 1700 فارس بالصحراء 10.000 بمنطقة قسنطينة ، ورغم استحالة إعطاء العدد الصحيح لقوات الذواودة فان ما يمكن تأكيده هو فعالية هذي القوات إذ بفضلها استطاع هؤلاء العرب فرض نفوذهم على المنطقة و حافظوا على استقلالهم. حتى أصبح يطلق عليها اسم "الأرستقراطية"² الحربية أو "نابلة السيف" "Noblesse d'epil" فكانت ترهب القبائل والسلطات الحاكمة بما تملكه من جيوش قوية حيث أصبح شرف الانتساب إليها لا يقل عن شرف الانتساب إلى النسب الشريف.³

2- الاقتصادية:

إن القوة العسكرية التي كانت تتمتع بها أسرة بوعكاز جعلت الحفصيين يقطعونهم كل ما استولوا عليه، ودفعت بالعثمانيين إلى الاعتراف لهم بذلك وإقرارهم لهم على كل ما كان بحوزتهم فملكوا ثلث بايلك الشرق. كما سبق الإشارة الى ذلك إلا أن

¹ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص ص33-36 .

² - الأرستقراطية : تعني باللغة اليونانية سلطة خواص الناس، وطبقاً سياسياً يعني اجتماعية ذات منزلة عليا تتميز بكونها موضع ائتمان المجتمع، وتكون من الأعيان الذين يصلون إلى مراتبهم تلتفهم في المجتمع عن طريق الوراثة، وتستقر هذه المراتب على أدوار الطبقات الاجتماعية الأخرى، حيث تغطي الارستقراطية المجالات في الأشراف الذين كانوا ضد الملكية في القرون الوسطى، وعندما ضببت سلطة الملوك ببقاء الدولة تقلصت قوة هذه الجمهورية الديمقراطية الحديثة واحتفظت بالامتيازات المنفعة، وتتعارض الارستقراطية مع الديمقراطية. للمزيد ينظر : موسوعة المعاني:-<https://www.almaany.com/ar/dict/ar-> تاريخ النصف: 2024/11/07 .

³ - نفسه، ص ص38-39 .

طابعها البدوي غير المستقر والقائم على الحل والترحال، إذ كانت تقوم برحلاتي الشتاء والصيف بين الزيبان والهضاب العليا طلبا للكأ و العشب لقطعانها، فتقضي فصل الشتاء على ضفتي وادي جدي وتقضي صيفها بأراضي الهضاب العليا وأحيانا تصل إلى مشارف مدينة قسنطينة، فاتساع أراضي هذه الأسرة لاسيما الرعوبة منها يدل على ضخامة عدد مواشيها. الأمر الذي جعل من قبيلة الذواودة الممول الرئيسي لقسنطينة وضواحيها بمادة اللحوم، وهو ما يؤكد لنا الباحثان الفرنسيان أدمنت ومارت غوفيان بقولهما: "إن زعيم الأسرة" الشيخ علي بن السخري بوعكاز" كان يقوم وحده بنحر حوالي 140 جملا أيام الأعياد والمواسم"، إلا أن هذه الأسرة لم تكن تستغل هذه الأراضي الشاسعة في الزراعة بل حولت معظمها الى مراعي لمواشيها¹.

ويمكننا القول بأن القوة العسكرية والمكانة السياسية لهذه الأسر المتنفذة في باييك الشرق جعلها محل اهتمام واحترام من قبل السلطة العثمانية، بالإضافة الى الإعفاءات المالية والامتيازات التي كانت تحصل عليها من قبل السلطة، مكنها كذلك من افتكاك الإشراف على أكبر تظاهرة اقتصادية ألا وهي المعرض السنوي الذي كان يقام كل سنة بواد العثمانية غرب مدينة قسنطينة².

تنوعت انشطت هذه الأسر ولم تقتصر على حرفة الرعي فقط، بل كان لها دور مهم في النشاط الفلاحي في المناطق الخاضعة لها، وهي تقريبا النشاط الذي عرف به سكان الأرياف والمناطق الصحراوي الواقعة ضمن نطاق باييك الشرق ويغلب على هذا النشاط هو الكفاف أي ان المحصول موجه للمعاش وليس لتصدير نحو الخارج، على غرار نشاط الدول الموجه لتصدير بعض المنتجات الفلاحية، ناهيك عن انخراط بعض افراد هذه الأسر في مختلف ربوع المناطق الجنوبية للبايك

1 - نفسه، ص ص36-38.

2 - محمد العربي الزبيرى: المرجع السابق، ص 112.

في نشاط التجارة الخارجية عن طريق الأسواق الخارجية مثل الأسواق التونسية والأسواق الإفريقية المجاورة.

3-1 شيوخها وقادتها:

بعد وفاة عيسى بن محمد بن يعقوب سنة 1481م خلفه ابنه السخري بن عيسى بن محمد، وقد امتدت سلطته على سكان البوادي المنتشرين فيما بين قسنطينة وورقلة وعلى بلاد (فرجوية) و(مجانة) إلى المسيلة والأغواط¹.

وكانت دائرته وزمالاته تقيم معه شتاء بالزيبان وما حولها من مراعي متسعة في الجنوب على جانبي وادي جدي، وتنتقل معه صيفا إلى الشمال حيث تقيم بمصيفه قرب منابع وادي الرمال التي تتبع في سهول "البلاعة" المجاورة لقبيلة أولاد عبد النور، وقد بقيت آثارها معروفة إلى الآن².

ليتناول على مشيخة العرب أثناء العهد العثماني الثالثة عشر شيخا من آل بوعكاز الذواودة ابتداء من علي بوعكاز بن السخري سنة 1541م إلى فرحات بن سعيد سنة 1826م، أين آلت بصفة رسمية إلى بن قانة وفيما يلي سنحاول التعريف بأهم الشخصيات البوعكازية التي تداولت على المشيخة في هذه الفترة وهي على النحو التالي :

1- علي بوعكاز بن السخري الذواوي (1541-1581م) :

يعتبر أول من تشرف بالمشيخة سنة 1541م³ فكانت ولايته فترة انتقال من الحكم الحفصي إلى الحكم التركي وإلغاء لقب إمارة العرب - كما سبق وأن أشرنا إلى

¹ - محمد خير الدين: المرجع السابق، ص ص 40-41 .

² - نفسه.

³ - لخضر بن بوزيد: المرجع السابق، ص9.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايك قسنطينة

ذلك - فكان من أولى الأعمال التي قام بها في هذا الإطار علاقته الجديدة بالأتراك حماية البعثة التركية التي دخلت قسنطينة، ثم حماية بعثة الضباط الأتراك إلى بسكرة سنة 1550م، ثم إلى تقرت ، وورقلة سنة 1552م.¹

وبعد أن تقلد صالح رايس منصب البيلرباي في أعوام 1552-1556م، قام بتجريد حملة عسكرية على الجنوب القسنطيني، وسيطر على ورقلة وتقرت وقضى على إمارة بني جلاب في تقرت، وكان من ضمن ما ساعده في ذلك شيخ العرب على بوعكاز²

وتطرت بعض المصادر الى أن الشيخ علي بوعكاز، كان قد شارك في الحملة على مدينتي تقرت وورقلة الى جانب الباي صالح رايس وعبد العزيز المقراني في نفس السنة، وتقول ذات الرواية ان المدينتين لم تقم بأي مقاومة للحملة وذلك بفضل تدخلات الشيخ "علي بوعكاز" السلمية.³

وقد كانت له الكلمة المسموعة على المناطق الممتدة من واد سوف إلى جبال الأوراس، و كانت قواته تتألف من قبائل عديدة من بينها: الشرفاء ، وأولاد عقاب، والصحاري وبني إبراهيم وبني علي والبهمان، والسلمية.⁴

وقد كان من أوائل الأعمال التي قام بها شيخ العرب في ما يتصل بعلاقته الجديدة مع الأتراك، حمايته البعثة التركية التي دخلت الى قسنطينة على طريق

¹ - الشيخ محمد خير الدين: المرجع السابق، ص ص 24-43 .

² - العنترى محمد الصالح: الفريدة المنسية في حال وصول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، تح بوعزيز يحي، د.ط، عالم المعرفة للنشر، الجزائر، 2009، ص ص 28-29.

³ - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة، المرجع السابق، ص 132.

⁴ - فلة القشاعي المولودة موساوي: النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني 1771-1837م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1990، ص 35.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

عناية بعد مغادرة الأمير الحفصي لهذه المدينة ورجوعه الى تونس وكان عدد أفرادها مائتين من الجنود والضباط الأتراك.

توفي (شيخ العرب) على أبو عكاز بن السخري سنة 1581م ودفن بمقبرة سيدي المسعود بالعلمة وضريحه قائم الآن بهذه المقبرة.¹

2- أحمد بن علي بو عكاز بن السخري:

قال الرائد شارل فيرو²: "بعد وفاة شيخ العرب علي أبو عكاز سنة 1581م خلفه ابنه أحمد بن علي أبو عكاز وكان يتمتع بشخصية قوية وشجاعة غير عادية، وكانت إمارته تعتمد على جيش متفوق من الفرنسيان والمشاة، وكانت قبيلته تشرف على إقليم قسنطينة كله شماله وجنوبه وكانت قبيلة الذواودة تتمتع بسمعة جيدة في البلاد كلها³.

كما أنه تمكن من بسط نفوذه في منطقة معتبرة من التل والصحراء، وازدادت عائلته قوة بفضل مصاهرته المقرانيين⁴ بتزويج ابنته الى قائد مجانة⁵.

¹ - محمد خير الدين: المرجع السابق، ص 43.

² - شارل فيرو: أحد أعالم مدرسة الاستشراق الاستعمارية، وهو رجل سياسة ودبلوماسية محترف، ولد بمدينة نيس جنوب فرنسا في 1 فبراير 1829م، وقدم سنة 1845م إلى الجزائر وهو بعمر 16 وضم الى هيئة المترجمين العسكريين سنة 1850م حيث أصبح المترجم الرئيسي لدوائر الشرطة في مدينة الجزائر وبعد 8 سنوات التحق بخواص الجنرال ماكماهون الحاكم العسكري لقضاء قسنطينة، وبقي حتى سنة 1872م حيث عين ترجمانا رسميا للحكومة الفرنسية في الجزائر بسبب إتقانه للغة العربية، وكان يتمتع بثقافة واسعة، بالإضافة إلى شغفه بالبحث والتتقيب والمطالعة. للمزيد ينظر: خديجة يعقوب: المترجم العسكري شارل فيرو وترجمته لمراسلات ووثائق قبائل بايلك قسنطينة. قسم التاريخ، جامعة وهران، 2023، ص 32.

³ - نفسه.

⁴ - المقرانيين أقاموا حكمهم بقلعة بني حماد لمدة ثمانين عاما، ثم انتقلوا إلى مجانة إثر مقتل شيوخهم ناصر من قبل سكان القلعة، وقد كان المقرانيين يسيطرون على الطريق السلطاني الرابط بين قسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري و الجزائر عاصمة الإيالة، و تحديدا الممر الذي يطلق عليه اسم " أبواب الحديد". الرحالة ، بايسونال

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايك قسنطينة

عرف احمد بن على بكنيته (بوسبع الله)، كان رجلا شجاعا يلتف حوله ألف فارس مسلحين مستعدين وهم رهن اشارته، حكما في سياسته يتبع سياسة التوازن بين القبائل التي تحت سلطته ويلجأ الى المرابطين لحل نزاعه حين تتمرد القبائل المواليه له.¹

عاصر (شيخ العرب) أحمد بن على بوعكاز الحرب التي خاضها الأتراك والجزائريون ضد الغزاة الاسبان وأعوانهم من الصليبيين سنة 1581م وشارك الذواودة في هذه الحربين بجيشين عظيمين. أحدهما رابط شرقى مدينة الجزائر، وثانيهما الجيش الذي شارك في الدفاع عن الجزائر العاصمة من الجهة الغربية.

ومما يشهد للشيخ أحمد بوعكاز شيخ العرب احترامه وتقديره للأسر المرابطية وهذا من خلال الوثائق التي عثر عليها الرائد والترجمان الفرنسي شارل فيروا والمؤرخة عام 1600م، والممضاة من طرفه تأمر هذه الوثيقة حاملي هذه الوثيقة قواد نقاوس وديرة وبسكرة والمسيلة بأن يحترموا في معاملاتهم أولاد بن العزام المقيمين بزوايتهم ، ووثيقة أخرى بتاريخ 1599م ممضاة من قبل نائبه سليمان بن الحداد على مجانية ، يأمر فيها كافة العمال بدائرة مجانية وما جاورها بحماية أولاد بن العزام المرابطين.²

Peyssonnel الذي عبر هذا المضيق رفقة الحامية التركية 1725م ، حيث أن الجيش التركي توقف عن عزف الموسيقى و نكس أعالمه امتثالا لتعميمات زعماء هذه العائلة، أما الطبيب الإنجليزي شو Shaw الذي زار الجزائر في بداية القرن 18م، فقد أكد بأن الشيخ بوزيد المقراني كان بإمكانه تجهيز جيش يتكون من أكثر من 3000 جنديا من المشاة و1500 فارسا. للمزيد ينظر: روابحي العياشي: عائلة المقراني و الأمير عبد القادر 1838م 1847م، في مجلة التواصل في العلوم الإنسانية و الاجتماعية، عدد 30 جوان 2012، ص83.

⁵ - مختار هواري: المرجع السابق، ص12.

¹ - نفسه.

² - محمد خير الدين: المرجع السابق، ص 45.

توفي شيخ العرب أحمد بن بوعكاز سنة 1581م وخلفه ابنه على بوعكاز بن احمد الذي تولى شؤون الأسرة.

2- فرحات بن سعيد :

فرحات بن أحمد بن محمد المدعو فرحات بن سعد ولد سنة 1786م¹. عينه إبراهيم باي شيخا للعرب بعد أن أجبر ابن قانة على التخلي عن المشيخة² وذلك سنة 1821م، فكان آخر من توأها من آل بوعكاز³. إلا أنه وبمجرد وصول أحمد باي للحكم سنة 1826م عزله وقلد أخواله بن قانة من جديد عليها فعاد الصراع مجددا بين آل بوعكاز والباييك وآل بن قانة واستمر خلال فترة الاحتلال الفرنسي الذي غداه واستفاد منه في إطار سياسة فرق تسد⁴.

ورغم خلافه مع أحمد باي ومقاومته له إلا أن هذا الأخير وصفه في مذكراته بقوله: "إنه رجل بارود وصاحب ذراع، ولقد حاربني مدة سبع سنوات فكان في المعركة يقابل مائة وحده، ويعتبر بوعزيز الى جانبه امرأة⁵."

أطلق عليه المستعمر الفرنسي بـ: "أفعى الصحراء" لشجاعته وجراته كان... "مثلا من أمثلة الأبطال المسلمين الأوائل... كما أن من خصاله الحميدة قد استقطبت الكثير من الجماهير حوله... الى درجة ان الناس أصبحوا يظفون على شخصيته اوصافا خارقة"⁶ ووصفه وحمدان بن عثمان خوجة بقوله: "شخصية فريدة يبحث عن

1 - هشام ذياب: محمد المكي بن عزوز - حياته، موقفه وآثاره 1824-1916م، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة المسيلة، 2014، الجزائر، ص19.

2 - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص77.

3 - محمد خير الدين: المرجع السابق، ص54.

4 - عباس كحول: المرجع السابق، ص141.

5 - محمد العربي الزبيري: مذكرات الحاج احمد باي، المصدر السابق، ص78.

6 - صالح فركوس: الحاج احمد باي قسنطينة 1826-1850، ديوان المطبوعات الجامعية، 2009، ص49

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب باييك قسنطينة

المسؤولية فقط. ولكنه كان شجاعا طموحا¹. "وربما كان حمدان خوجة محقا في ذلك فحبه للمسؤولية وطموحه لاسترجاع مشيخة العرب دفعه إلى الاستنجاد بالفرنسيين².

3- أسرة بن قانة

تعتبر أسرة بن قانة³ آخر من ظهر من الأسر المحلية الحاكمة بباييك قسنطينة، وقد اختلف الباحثون في تحديد أصل هذه الأسرة لافتقارهم إلى الوثائق الرسمية الدالة على النسب الدقيق لها، وإلى الإهمال التاريخي الذي كانت تعيشه عاشته قبل ظهورها في عهد الباي أحمد القلي(1756-1771)⁴.

و تشير بعض كتابات الأخرى إلى أصولهم الأمازيغية القبائلية ثم استقروا لاحقا بالقطاع القسنطيني، ويوثق بوعزيز بن قانة شجرة العائلة الشريفة من شيخ العرب الأول عائلة ابن قانة محمد بن علي بن سليمان مرورا بخمس وأربعون جدا، وصولا إلى الإمام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ،هي ظاهرة ترتبط بالعائلات العريقة المتنفذة في العلم الإسلامي⁵.

1 - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص77.

2 - محمد خير الدين: المرجع السابق، ص53.

3 - للمزيد حول شجرة نسب الأسرة ينظر الملحق رقم: 07 ص361

4 - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة، المرجع السابق، ص 80

5 - وتتحدّر أسرة بن قانة من السلالة الشريفة " الشريف السيد الحاج بن قانة بن علي بن سليمان بن عبد العزيز بن محمد بن عمر بن خالد بن يونس بن إبراهيم بن منصور المكنى قانة بن محمد بن عبد الله بن عبد المالك بن العابد بن الحبيب بن أحمد بن عيسى ابن يوسف بن عدنان بن يوسف بن محمد بن داود بن عبد الغفار بن عيسى بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله بن علي بن عيسى بن داود بن المهدي بن مسعود بن موسى بن عزوز بن عبد العزيز بن جبار بن عمران بن سالم بن عبد الله بن أحمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثني بن الحسن السبط بن علي وفاطمة الزهراء ابنت سيدنا رسول الله عليه افضل الصلاة والسلام. للمزيد ينظر الى: عبد الله حشلاف: سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، 1929، ص150 .

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

وحسب ما أورده شيخهم بوعزيز بن قانة فإن أصولهم شريفة موضحا ذلك بشجرة نسب .استند في تأكيدها على كتاب الأنساب للشيخ أحمد بن محمد العشماوي إذ ابتدأها من شيخ العرب الأول لعائلة ابن قانة الشيخ محمد بن علي بن سليمان مرورا بخمس وأربعين جدا وصولا إلى الإمام علي بن أبي طالب. وهو نفس النسب الذي أكده شيوخ الأسرة الأوائل للباحثين الفرنسيين الذين سلمت لهم وثائق أسرية منها الرواية المكتوبة التي سلمت إلى القائد سروكة "seroka Commandant" الذي حضر احتلال الزاب وتوقرت وكتب عن تاريخ المنطقة في هذه الفترة، وهو ما ذهب إليه كل من الباحثان "مارت وإدماند قوفيان" معتمدان في ذلك على الرواية المذكورة من جهة وعلى شجرة النسب التي أعاد صياغتها أبناء الأسرة اعتمادا على روايات أسلافهم من جهة ثانية إلى أن الباحث فيرو انتقد هذه الوثيقة بشدة وقال: "أنها خلطت بني سليمان الجد الأول للأسرة والحاج سليمان بن قانة صهر الباي احمد القلي، وطرح عدة احتمالات: كاحتمال أنهم من الذواودة أو أنهم ينتمون إلى أولاد سيدي سليمان صاحب زاوية رجاص قرب ميلة. إلا أنه بعد استجوابه للعديد من شيوخ القبائل ذهب إلى التأكيد بأن الأسرة تنسب إلى امرأة تدعى قانة كانت تعيش بجبال جرجرة بقرية كوكو¹.

ونتيجة تصارع شباب القرية عليها طردت منها فالتجأت إلى قرية فليسة وكان معها ابنها يحيى بن قانة. وبوفاة هذا الأخير تفرق أبناؤها، واستقر منهم المسمى

¹ - إمارة كوكو : تقع هذه الامارة ضمن سلسلة جبال جرجرة وتمتد حتى تخوم مدينة الجزائر المعروفة بسهولة متيجة، وتتقلص حدودها حسب القوة والضعف. ويذكر بيير بواير Boyer Pierre أن رقعة مملكة كوكو هي مجرد مجموعة من القبائل تحت قيادة عائلة قوية وليس كل قبائل المنطقة بل قبائل منطقة القبائل البحرية واتحاد زواوة، للمزيد ينظر : Pierre Boyer: "l'Espagne et Koukou : les négociations de 1589-1610 in revue de l'occident Musulman et de la mléditerranée", 2ème trimestre 1970, N° 08 Publié avec le concours du CNRC, Aix en provence, P :26
وجميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة، المرجع السابق، ص 83 .

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب باييك قسنطينة

محمود برجاص بميلة، وامتهانه الحدادة أطلق عليه اسم الحداد، ولما ولد له ولد سماه سليمان بن قانة الذي أصبح صهر أحمد القلي. وما إن وصل احمد القلي الى حكم باييك قسنطينة عمل كل ما في وسعه من أجل رفع أصهاره الى مرتبة الأسر الحاكمة بالباييك وفعلا استطاع ان يدخل هذه الأسرة التاريخ وجعلها تزاحم أعرق الأسر بالمنطقة، أسرة بوعكاز شيوخ العرب وحكام الصحراء¹.

ويرجح الأستاذ عبد الله حشلاف أن أصل تسميتهم بلفظ الكنوت أنهم كانوا وقت اسلام البربر يدعون "بالكنوت" حيث كانوا يجولون على منازلهم، في كل النواحي ويتربونهم خوفا ارتدادهم ورجوعهم لكفر لكونهم حادثين عهدا بالإسلام وعندما يسأل عنهم يجاوبون بهذا لفظ: كان وكان. ولكن مع مرور الوقت تغيرت اللهجات، ومنطق الألسنة لقبوا بالكنوت².

ويرى بعض الباحثين أن مكانة هذه الأسرة قد سبقت قيادة احمد القلي، فقد حفظ الأرشيف العائلي للأسرة بن قانة رسالة من الباي حسين زرق عينو إلى قائد بسكرة سي مصطفى سنة 1752م يأمره بتعيين الحاج بن قانة في منصب الكاتب بعدم يصل هذا الأخير من توقرت. وهو ما أورده الورتلاني أنه أثناء رحلته مر بالزاب سنة 1762م والتقى بالحاج بن قانة ووصفه بأنه كان ذا: "كلمة مقبولة ومنفذة عند الترك"³.

ما يعرف عن أسرة بوعزيز بن قانة أنها متماسكة ومتحدة الى حد كبير، تكونت من: محمد، علي بن القيدوم، أحمد بن بالمسعي، الحاج بن قانة، وإلى جانب أبنائه،

¹ - نفسه، ص84، ومحمد اوچرتني: أسرة بن قانة ومكانتها السياسية والاجتماعية خلال العهد العثماني، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2005، ص ص 42-44.

² - عبدالله حشلاف: المرجع السابق، ص 150.

³ - اوچرتني محمد: مرجع سابق، ص 44-42 وينظر: هواري مختار: مرجع سابق، ص 13-15.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب باييك قسنطينة

نذكر أبناء أخيه الذين تدعمت بهم الأسرة وهم: الحاج بن أحمد بن قانة، العربي بن الحاج بن قانة، سي أحمد بن الحاج، وسي محمد الصغير، وابن أخيه أحمد بن بوزيد، إضافة أبناء أخيه الآخرين بو لخراص بن محمد بن الحاج، وسي إبراهيم.¹

نفوذ أسرة ابن قانة في الصحراء:

يعتبر الباي أحمد القلي (1756هـ/1721م) جد الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة هو الذي كان وراء انتقال أسرة ابن قانة إلى الصحراء ذلك انه كان حريصا على إيصال أصهارها إلى المجد السياسي الذي كانت تتمتع به بعض الأسر المحلية ببايك، وكان أول عمل له في هذا السياق هو تزوج أخت زوجته "مباركة" ابنة بن قانة لأبن أخ شيخ العرب " علي بوعكاز" وهذه الطريقة استطاع أن يربط أصهاره بأكبر أسرة بالصحراء المتمثلة في أسرة بو عكاز من قبيلة الذواودة، وكانت الخطوة الثانية في خطة الباي، هي الزيارات المتكررة لمحمد بن قانة، أخ مباركة إلى الصحراء بدعوى زيارة أخته الأمر الذي سمح للضيف من تكوين علاقات مع سكان المنطقة و كانت له سياسة واضحة في تحقيق الألفة بين سكان المنطقة و حاول القضاء على كل التمردات في إقليم قسنطينة وعمل على استتباب الأمن و شجع خدمة الأرض و غراسة الأشجار و تطوير الحياة الاقتصادية في البايك وقد حافظ الشيخ على هذه العلاقة بما كان يدره على الفقراء منهم من صدقات جعلته يحتل مكانة هامة في نفوس العرب سرعان ما استغلها الباي لتعيين شيخا عليهم، فكان ذلك بداية لإشعال نار الحرب، بين شيوخ العرب القدامى من أسرة بوعكاز وشيوخ العرب من أسرة بن قانة².

¹ - BEN-GANA. (1879). LES BEN-GANA, depuis La Conquête Française. 1879
paris: libraire-éditeur. P4.

² - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة، المرجع السابق، ص 86

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

ولكن السؤال الذي يجب طرحه في هذا السياق هو: هل حقا أن نفوذ أسرة ابن قانة لم يظهر في الصحراء إلا في فترة حكم الباي احمد القلي؟ أم أن هناك من يشكك في ذلك؟.

إن العديد من الشواهد التاريخية تجعلنا نقول أن وجود أسرة ابن قانة بالصحراء كان سابقا للتاريخ تولي الباي احمد القلي الحكم في قسنطينة منها ما جاء في رحلة الشيخ الحسين والورثيلاني¹، الذي مر بمنطقة الزاب سنة 1175هـ/1762م حيث التقى بشيخ العرب الحاج ابن قانة وقال عنه ما يلي «: وفي هذا اليوم لقينا ولد الشيخ الجيد الذي كانت أزمة العرب في يده وأيضا كلمته مقبولة ومنفذة عند ترك الحاج بن قانة، وكان رجلا عاقلا مطمئنا في نفسه ثقيلًا يأخذ كثيرا بيد الضعيف ولذا لم يضرب سعيه ولا انكشف رأيه فدام ما معه من الستر والعافية عليه مع تداول أولى الأمر على وطن² قسنطينة وعادتهم إذ جاء والي جديد غير أصل الدولة

¹ - الحسين الورثيلاني: بن محمد السعيد، ولد في قرية "أنو قرب إيث ورثان مركز، شمال غرب ولاية سطيف حاليا، تتلمذ على يد والده وشيوخ المنطقة، حفظ القرآن والمصنفات والمتون والشروح. درس في أماكن مختلفة بالمنطقة وتصدى لفتاء وفصل المنازعات والقضايا الاجتماعية بحزم وشدّة، وكان محبا للاستطلاع والترحال للتعرف على أحوال الناس في القرى والحواضر، حريصا على زيارة زوايا ومقامات الأولياء الصالحين، ولإجتماع بالقائمين عليها للأخذ عنهم والاستفادة من علمهم وتجاربهم تعلم الرحالة الحسين الورثيلاني على يد العديد من علماء الأزهر الأجلاء الذين ذكروهم في رحلته، مثل: الصعيدي والحفناوي والجوهري، والنفراوي... الخ. زار الكثير من المناطق عبر ال جزائر من عنابة شرقا إلى تلمسان غربا. وحج ثلاث مرات إلى مكة المكرمة بر ا، كان آخرها سنة 1179هـ/ 1759م، توفي الشيخ الورثيلاني سنة 1779م. للمزيد ينظر: أيت بعزيز عبد النور: مساهمة الحسين الورثيلاني في كتابة تاريخ الجزائر الحديث، في مجلة المسار، السنة (23) العدد (67) أبريل 2022م، ص126.

² - الوطن: مصطلح مرتبط بالأرض، وهو إقليم جغرافي، تسكنه قبائل وأعراش تجمعهم رابطة الأرض، أكثر من رابطة الدم، عكس بني فلان، التي تجمعهم رابطة الدم. والوطن إقليم جغرافي يتميز بخصائص معينة، ينفرد بها عن باقي الأوطان، تعيش عليها جماعات بشرية، تجمعها رابطة الأرض للمزيد ينظر: نور الدين غرداوي : أعراش وقبائل متيجة ودورها في المقاومة الوطنية في بداية الاحتلال الفرنسي، في مجلة متيجة للدراسات الإنسانية ، العدد 04 - ديسمبر 2015، ص ص104-105.

الأولى الدولة وربما يصلح به من أصحابه وهو الحمد الله مقبول محبوب عند كل متولي...»¹.

فالرحالة بقوله هذا يؤكد أن وجود الشيخ ابن قانة بمنصبه كان سابقا لعهد الباي أحمد القلي وهو ما أشار إليه أيضا المؤرخ الفرنسي " قوفيان Gouvion" بقوله «أن نفوذ أسرة ابن قانة وصل حتى تقرت ورقلة وان بآيات قسنطينة كانوا يحترمون شيوخ الأسرة ويتفاوضون معهم على قدم المساواة واستدلا على ذلك بعض من رسالة الباي حسن زرق عينو (1167 1170 هـ/175_1756 م) كان قد وجهها إلى سي مصطفى قائد بسكرة . « وهذا يدلنا على وجود شيوخ هذه الأسرة بالصحراء قبل مجيء الباي احمد القلي إلى الحكم 1170هـ1756م، إلا أن هذا لا ينفي بالضرورة بأن نفوذ أحمد القلي هو الذي أوصل أصهاره إلى حكم الصحراء سواء كان ذلك قبل توليه البايك أو قبل ذلك إذ تقلد أحمد القلي العديد من المناصب التي كانت تخول له تحقيق أغراضه وأغراض أسرته دون للوصول إلى الحكم ، منها منصب الباش سيار ثم أغا القل ثم خليفة للباي الباي "زرق عينو" ولعل انتقال الأسرة إلى الصحراء كان في فترة خلافته للباي المذكور وليس في فترة حكمه لقسنطينة ؛ وأمر تاريخ دخول هذه الأسرة الصحراء فإذا استطاعت في فترة قصيرة أن تصبح أسرة حاكمة قوية إداريا وسياسيا وعسكريا، وأن تسيطر على معظم أراضي الزاب وإن كان نفوذها بالمنطقة قد بقي سوريا ومدعما من طرف بآيات قسنطينة حتى نهاية العهد العثماني.²

1 - نفسه، ص ص86-87.

2 - نفسه، ص 87.

الطابع العسكرية قبيلة لأسرة بن قانة:

لم يكتف بايات قسنطينة بوصول أسرة ابن قانة إلى مشيخة العرب وحكم الصحراء، بل سعوا إلى دعمها بقوات عسكرية هامة خولت لشييوخها السيطرة على المنطقة، رغم رفض السكان لحكمهم، ومحاربة أسرة بوعكاز، شيوخ العرب الشرعيين لهم، كانت الحامية العسكرية المقيمة في بسكرة تساند الأسرة وتخضع تحت تصرف شيوخها تساندها قوات عامة من قبائل الصحراء.¹

و كانت قبيلة الصحاري أهم قبيلة عسكرية لدى أسرة بن قانة ، وكانت تشمل الحرس الخاص لشيوخ العرب وأكثرها إخضاعها لهم، كما ضم البايات لقوات ابن قانة العديد من القبائل التي اشتهرت باللصوصية وقطع الطريق منها قبيلة الشعانبة، يمكن أن نقول أن أسرة بن قانة ورثت المنطقة ، من أسرة بوعكاز و هذا ما أراد بايات قسنطينة من تحقيقه و كسر شوكة الذواودة، وسوف تكون لهذه العملية دور فعال في المنطقة، بحيث تدخل في صراع مرير بين القبائل، وسوف يتضح ذلك في الفصل الخاص بالعلاقة بين السلطة البايك و القبائل. اذا كانت اسرة بن قانة قد ظفرت بمنصب شيخ العرب اواخر العهد العثماني بإزاحتها لأسرة بو عكاز و بايعاز من السلطة العثمانية ،فذلك يفسر لنا جليا طبيعة الحكم العثماني و علاقته مع قبائل الريف القسنطيني فالى أي مدى استطاع الحكام العثمانيون في بايلك قسنطينة استمالة السلطة الروحية المتمثلة في شيوخها و هيئاتها و مريديها لصالحهم ؟ أم كان تحالف ضمني بين هما تجمعهم المصلحة المشتركة و تفرقهم مطالب وامتيازات مادية و معنوية².

¹ - قشوان عبد الرزاق: السلطة المحلية في بايلك قسنطينة(1592-1837)،رسالة ماجستير في التاريخ

الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2010، 02، ص75 .

² - نفسه.

إن حرص أحمد القلي على إيصال أصهاره إلى المجد السياسي¹ من جهة ومحاولته إضعاف أسرة بوعكاز من الداخل التي أصبحت مصدر خطر عليهم وكسر شوكة شيخ العرب المعتر بقوته² دفع به إلى ربط هذه الأخيرة بأصهاره من أسرة بن قانة بتزويج أخت زوجته مباركة ابنة بن قانة من فرحات ابن أخ شيخ العرب علي بوعكاز. ولتنفيذ خطة افتكاك حكم الصحراء من أسرة بوعكاز أرسل محمد بن قانة أخ مباركة إلى أخته بدعوى الزيارة مت تكررت الزيارات مما مسح هذا الأخير من تكوين علاقات مع سكان المنطقة فاستطاع بمساعدة الباي أن يحولها إلى هيمنة سياسية شملت العديد من القبائل لما كان يقدمه بن قانة من مساعدات مالية وصدقات على الفقراء ومشاريع اقتصادية وتنموية³.

فكانت قبيلة بن علي أولى القبائل التي تحولت عن أسرة بوعكاز بتشجيع من ابن قانة فأقدم بوعكاز على معاقبتها بقتل عدد من أعيانها مما دفع بالباي إلى التدخل سياسيا لحل هذا المشكل فاعتبره شيخ العرب تدخلا في شؤونه. وما زاد الوضع تعقيدا وتأزما اختيار الباي للشيخ ابن قانة لرئاسة ركب احلج لموسم 1762م، مما أثار حفيظة شيخ العرب فأعلن الثورة ضد الباي إلا أن هذا الأخير لم يكثر لذلك واستمر في تنفيذ خطته بتعيني الحاج بن قانة شيخا للعرب بمجرد عودته من الحج فكان أول شيخ للعرب من آل بن قانة وأول منافس لشيخ العرب بوعكاز⁴.

وفي نفس الفترة وربما بتشجيع من الباي أحمد القلي نفسه تزوج عدد من كبار موظفي البايلك الأتراك من بنات أسرة ابن قانة، إذ تزوج إبراهيم بوصبع قائد الزمالة

1 - نفسه، ص 73.

2 - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 211.

3 - قشوان عبد الرزاق: المرجع السابق، ص 73

4 - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص ص 288-289.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

من احدى بنات الشيخ بن قانة وتزوج حسين بن بوحنك وخزناجي الذي سيصبح بايا من اختها الجزائر في حين تزوجت أختها الثالثة من خزناجي الجزائر وبذلك كونت أسرة ابن قانة بفضل باي قسنطينة احمد القلي شبكة من العلاقات الأسرية مع الموظفين السامين في الدولة جعلها تصل الى قمة المجد في بايلك قسنطينة خاصة وولاية الجزائر عامة حتى وصل نفوذها الى حد التأثير على قرارات الباشا نفسه في اختياره لبايات قسنطينة ويكفي الدليل على ذلك تولية صهرها "إبراهيم بوصبع" و"حسين بن بوحنك" منصب الباي في قسنطينة بعد الإطاحة بصالح باي¹.

وحسب ما أورده الشريف الزهار في مؤلفه أن عبد الله باي (1221-1219هـ/1806-1804م)، كان متزوجا من الداخنة بنت محمد بن قانة بقوله: " ولما بلغ الأمير خبر موت عثمان باي، استقدم قائد الخشنة، وكانت تحته الداخنة بنت بن كانة (كذا)، شيخ العرب ، وقد بقسنطينة، ولما حضر القايد (كذا) عبد الله بين يديه، أولاه بايا على قسنطينة..."².

ويرجع وصول أصهار أسرة ابن قانة إلى منصب الباي إلى قوة تأثير بنات أسرة ابن قانة على أزواجهن، قبل تأثير هؤلاء على قرارات الباشا، بل أن صالح العنثري أكدا على مشاركة إحدى بنات هذه الأسرة وهي الداخنة بنت "محمد بن قانة"، زوجة عبد الله باي، في حكم بايلك قسنطينة، بقوله: " وكان عبد الله باي صاحب حرب

¹ - جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع بببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة دكتوراه في التاريخ التاريخ الحديث، قسم التاريخ والآثار، جامعة قسنطينة، 2008، ص 116.

² - الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشرف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت، ط2، 1980، ص 86.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب باييك قسنطينة

وإقدام، إلا أن امرأته تشاركه في الأحكام وذلك أمر قبيح عند العرب والأعجام، فبهذا السبب عزله الباشا وأمر بقتله فمات سنة 1806¹.

وحسب الشريف الزهار أن هذا الباي كان يعتمد على أصهاره في تقوية نفوذه و يشيد بقوة وصلابة زوجته بقول: "... ثم كاتب عبد الله العرب أصهاره، وجميع الرعية واستقام له الأمر وسائر (كذا) كبراء العرب، واجتمع لديه أهل المخزن... وكان جزاء هذا الباي أن قتله أمراء الجزائر بعد موت الأمير مصطفى باشا، وعذبوا زوجته حتى ماتت تحت العذاب، وذلك لتظهر لهم أموال عبد الله باي، ويحكى عن هذه المرأة أنها كانت من أحسن نساء زمانها، وكانت لها شجاعة كبيرة"².

ولقادة أسرة بن قانة القدرة على تعبئة وجمع العدد المعتبر من الفرسان وقت الحروب لما لهم من قوة وتأثير على الخاضعين لسيطرتهم وهذا ما يورده حمدان بن عثمان خوجة على الرغم من المبالغة الى حد ما في ذكر الأرقام والاحصائيات حينها وذلك بقوله: "...إن الشيخ ابن قانة يستطيع الاعتماد على عشرة آلاف فارس ولا أعتقد أن في هذا العدد مبالغة، لأن مجموع الخيم يزيد عن العشرة ألف. وإذا فرضنا ان كل خيمة يمكن لها أن تجهز فارسا واحدا وجدنا بكل سهولة العدد المطلوب،... وذلك نظرا لكثرة ما يملكه هؤلاء السكان من الخيل ولكثرة شغفهم بركوبها وبخوض الحروب، وهناك أيضا، مشايخ كثيرون يعرفهم ابن قانة ويسكنون هذه المناطق"³.

¹ - ابن العنتري محمد الصالح: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستلائهم على أوطانها، مراجعة وتحقيق: يحيى بوعزيز، عالم المعرفة، طبعة خاصة، الجزائر، 2009، ص ص 73-74.

² - الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 87.

³ - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 82.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايالك قسنطينة

ففي عهد الباي عبدالله 1805م ازدادت مكانة الأسرة قوة والذي كان هو الآخر مصاهرا لأبن قانة وبهذه القوة استطاعت فرض نفوذها على كامل المنطقة الواقعة بين بسكرة وقسنطينة وذلك رغم انعدام الكفاءة العسكرية لدى شيوخها وافتقارهم للشعبية بين سكان الصحراء¹.

أما القدرات الحربية لعائلة بن قانة فكانت تتشكل من قبائل أولاد رحمون و البوازيد التي تزود الشيخ بـ 800 رجل من المشاة و900 من الفرسان، والصحاري يزودون الشيخ بـ 200 فارس²، والواقع أن الشيخ يستطيع الإعتماد على 10000 فارس ويمكن مضاعفة هذا العدد عند الحاجة والضرورة³.

ومما يجدر الإشارة إليه كذلك أنه لم يكن الأتراك وحدهم الساعون لمصاهرة هذه الأسرة ذات النفوذ السياسي والمادي بمدينة قسنطينة، بل كثيرا ما سعى أبناء أسرة ابن قانة للزواج من بنات الإنكشارية، وهو ما جاء في عدة عقود منها: "تزوج منصر بن حاج أحمد بن قانة حنيفة بنت اسماعيل الإنكشاري بكرا الصداق 500 ريال سكت (كذا) الوقت و... زوجها السيد إبراهيم بن سي والي الإنكشاري (جمادى الثانية 1241 هـ)"، فزيادة على إقبال أحد أبناء هذه الأسرة ذات النفوذ والجاه من بنات الإنكشارية نلاحظ من العقد نفسه توكيل إنكشاري على ابنة بن قانة وهو أمر يوحي بأن علاقة هذه الأسرة بالأتراك لم تعد تتوقف عند ذوي النفوذ، وبالتالي يمكن القول أن المصاهرة بين أسرة ابن قانة والعناصر التركية تجاوزت الأغراض المادية والسياسية، وتحولت إلى علاقة اجتماعية محضة⁴.

¹ - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة، المرجع السابق، ص ص 215-216.

² Féraud : Le Sahara de Constantine, Op. Cit., pp. 219-220

³ - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 74.

⁴ - جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع بباليك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، المرجع السابق، ص 118.

مقدراتها الاقتصادية:

نتيجة لمصاهرتها لبعض البايات والمسؤولين الساميين في البايك وبعض العائلات المتنفذة الأخرى تحولت الأسرة إلى أسرة ذات مكانة مرموقة وإلى أسرة اقطاعية¹ واسعة الثراء لما كانت تكسبه من وراء مناصبها الإدارية والسياسية من امتيازات مادية هامة خاصة منصب شيخ العرب الذي كان يخول له الانتفاع بجزء هام من الضرائب التي يجمعها من القبائل. ناهيك عن الإقطاعات الواسعة التي كان يمنحها البايات عند تولية أي شيخ عرب جديد مقابل خدمات عسكرية وإدارية، وكان ذلك اما على شكل ملك أو عزل².

فملكت بذلك معظم أراضي رجاص الزراعية والعديد من الواحات بالصحراء . وأراضي ملك وعزل بالتل ناهيك عن قطعان المواشي الكثيرة فكان لثرائها دورا مهما في كسب الصفوف. وهذا ما أكده لنا حمدان خوجة بقوله: "... ومن بين مالكي هذه الدواير أو رؤساء العائلات، هناك من يبدوا ثريا، ولقد دعيت شخصا لتناول الطعام عند أحد هؤلاء المالكين فقدم لي "ابريقا" من الفضة لأغسل يدي على الطريقة الشرقية، وأحضر الوجبة في صحون من الخزف الصيني..."³.

- أبرز شيوخها:

1- الحاج محمد بن علي بن سليمان بن قانة 1664-1662م :

¹ - هو نظام اقتصادي - اجتماعي وساسي عم أوروبا في العصور الوسطى ويعرف أنه : أسلوب من اس اليب الحكم تمارس فيه السلطة نتيجة لعلاقة بين تابع ومتبوع أيضا وسيد ومسود وعرف أيضا انه: " امتلاك حق التصرف في الأرض وراثيا لقاء حسابات أيضا تؤدي لصاحب الأرض الأصلي". للمزيد ينظر: ثامر مكي علي: الإقطاع، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب- قسم التاريخ، ص1.
² - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة، المرجع السابق، ص 89.
³ - حمدان بن عثمان خوجة : المصدر السابق، ص74 .

يعد من الأوائل الذين تقلدوا منصب مشيخة العرب من آل بن قانة ،وقد اختاره الباي أحمد القلي سنة 1762م ،لرئاسة ركب الحج ،وفي إطار تنفيذ سياسة الرامية إلى كسر شوكة بوعكاز وإزاحتهم عن المشيخة والارتقاء بأصهاره إلى مصافها أقدم على تعيينه بمجرد عودته من الحج شيخا للعرب. فأمد هذا الأخير الجيش العثماني بالمددفي محلته على الصحراء الشرقية. إلا أنه قتل في الحملة على فليسة سنة 1764م¹.

-محمد بن الحاج محمد بن علي بن سليمان بن قانة 1768-1794م :

ورث محمد بن الحاج محمد عن أبيه منصب شيخ العرب في ظروف عصيبة، عجزت فيها الإدارة التركية على توفير الأمن والسلم في البايك، وإخضاع القبائل المتمردة للسلطة المركزية. ودلائل هذا الضعف حكم المشيخة من قبل العائلتان- بوعكاز وابن قانة-في نفس الوقت. وبتولي صالح باي السلطة سنة 1771م، حاول تنظيم المنطقة بإعادة توزيع المهام عليهما بتتصيب محمد بن الحاج بن قانة كشيخ للعرب على بسكرة، تاركا المساحات المترامية حولها لمحمد بوعكاز فلم يستطع ابن قانة حماية ملكه وانهزم أمام أنصار بوعكاز قرب بسكرة. مما دفعه للفرار والاعتصام بجبال أحمر خدو².

بعد ما تم ترقية الشيخ محمد بن الحاج بن قانة الى رتبة الوزير بقي منصب شيخ العرب شاغرا فبحث الباي عن أكفئ شيوخ الأسرة ليسند له المنصب فلم يجد غير محمد الصغير بن محمد بن الحاج ،لكن بمجرد وصول خبر هذا التعيين الى الشيخ بولخراص بالصحراء ثارت ثائرتة وأسرع الى قسنطينة للاحتجاج على ذلك لأنه كان يرى أن إبراهيم ابن قانة أحق بالمنصب وأقنع الباي برأئيه فسحب اللقب من

¹ - محمد اوجرتي: المرجع السابق، ص 108.وعباس كحول: المرجع السابق، ص 143.

² - نفسه، ص ص108-109.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايك قسنطينة

محمد الصغير ومنحه لإبراهيم الأمر الذي أشعل نار الحرب داخل اسرة بن قانة نفسها¹.

-علي بن القيدوم :

بعد أن تولى عبد الله باي صهر أسرة ابن قانة على قسنطينة سنة 1805م، أعاد آل بن قانة إلى حكم المشيخة وذلك بتعيين "علي بالقيدوم" شيخا للعرب والعودة الى الساحة السياسية ومنحه العديد من الامتيازات المادية واستمر الوضع كذلك حتى وصول أحمد المملوك الى سدة الحكم سنة 1818م، فقام بقتل "علي بالقيدوم" بتهمة قتل ابن عمه "محمد الصغير" ،

وفي هذا الصدد يقول E.M GOUVION أن أسرة بوعكاز وصهرها ابن زكري كانوا وراء اتهام علي بالقيدوم بقتل ابن عمه والتحريض على قتله للتخلص من منافسته على المشيخة².

خلال فترة الصراع الذي شهدته أسرة ابن قانة، عادت المشيخة الحقيقية إلى الشيخ محمد الذباح. ولم تستطع أسرة ابن قانة استعادة مركزها إلا في عهد الباي محمد الميلي سنة 1819م، الذي اختار الحاج أحمد بن الشريف، حفيد أسرة ابن قانة وآخر بايات قسنطينة، مستشارًا وخليفةً له. فقرب هذا الباي أحواله، وباستشارة منه خلع الباي الشيخ ذباح من المشيخة وعيّن مكانه الشيخ "بلمسعي ابن إبراهيم" شيخ تقرت وشيخ العرب. السابق. وهذا الأخير أثناء عودته وفي طريقه إلى بسكرة لمباشرة مهامه قتل بالسّم ودفن قرب منطقة القنطرة بين بسكرة وباتنة.

1 - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة، المرجع السابق، ص 294 .

2 - نفسه، ص 296.

وعاد المنصب الى محمد بن بوخراص، إلا أن وصول إبراهيم باي إلى الحكم سنة 1819م، ووقوع خلاف بينه وبين الحاج أحمد لتجاوز هذا الأخير لمهامه، قام الباي بطرده من قسنطينة ولحق به شيخ العرب محمد بن بوخراص إلى منفاه بالبلية. وبذلك عادت المشيخة من جديد إلى الشيخ ذباح بن بوعكاز¹.

- محمد بلحاج بن بولخراص بن قانة :

حظيت أسرة بن قانة بشرف لقب مشيخة العرب بصفة نهائية عندما آلت السلطة وقيادة البايك الى الحاج احمد على قسنطينة سنة 1826م، أعاد منصب شيخ العرب إلى ابن خاله محمد بن قانة²، ونتيجة إدراك هذا الأخير لضعفه وقوة خصمه، لم يفوت سنة 1827م دون أن يعقد حلفا كبيرا بقيادة الباي نفسه وضم شيخ العرب: محمد بلحاج بن قانة، شيخ فرجيو: بوعكاز بن عاشور، وشيخ زواغة: الشيخ عزالدين³ الذي يشارك إلى جانب احمد باي في التصدي للحملة الفرنسية على الجزائر وعادوا معه إلى قسنطينة بعد سقوط مدينة الجزائر العاصمة⁴.

-بوعزيز بن بولخراص بن قانة

ترعرع بوعزيز بن قانة في أسرة ذات مكانة اجتماعية وسياسية، فجدده محمد الحاج بن علي بن سليمان أول من تولى مشيخة العرب سنة 1762م بعد تعيين أحمد القلي بايا على قسنطينة (1756-1771م) ،كما تولى والده بو لخراص قيادة منطقة الحضنة، أما أخوه محمد بلحاج فعين شيخا للعرب في الفترة ما بين (1819-1826م) اضافة الى أخته المدعوة رقية التي تزوجت بمحمد الشريف بن

1 - نفسه، ص 297 .

2 - مختار هواري: المرجع السابق، ص 16.

3 - اوجرتي محمد: المرجع السابق، ص 118.

4 - عباس كحول: الزاوية والسياسة، المرجع السابق، ص 144.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايك قسنطينة

أحمد القلي، هذا الأخير الذي تولى بايك الشرق لسنوات طويلة أثناء العهد العثماني، و تكلم زواجهما بإنجاب أحمد باي آخر بايات الشرق الجزائري، و قد ظلت الأسرة تتداول على منصب مشيخة العرب إلى غاية 1839¹.

وفي وصف شخصيته يقول الشيخ محمد خير الدين: " كان ذا شخصية تتمتع بشيء غير قليل من الدهاء، وسعة الحيلة"² ووصفه الحاج احمد باي أيضا في مذكراته بقوله: « لم يكن رجال شجاعا...فإنه يستعمل كل الوسائل لبلوغ هدفه...»³.

تولى بوعزيز بن قانة منصب شيخ العرب سنة 1830م في عهد الحاج أحمد باي، وحظي بامتيازات مادية عديدة انعكست على نمط حياته. وفي وصف للحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعيشها، يقول حمدان بن عثمان خوجة عند زيارته خيام الشيخ بن قانة في الزيبان: "أستطيع القول إنها رحبة ومقامة بأناقة وأبهة، وعلى كل مدخل تجد الخيل الجميلة مربوطة. لقد سألت عن عدد الفرسان الذين يمكن تجنيدهم عند أول إشارة، وكان الجواب أن الشيخ بن قانة يستطيع الاعتماد على عشرة آلاف فارس، ولا أعتقد أن هذا العدد مبالغ فيه لأن مجموع الخيم يزيد عن العشرة آلاف خيمة وإذا فرضنا أن كل خيمة يمكن لها أن تجهز فارسا واحدا وجدنا بكل سهولة العدد المطلوب"⁴.

¹ - أسماء شمول ، فريدة شرفة : دور بوعزيز بن قانة في دعم الاحتلال الفرنسي في إقليم الزيبان من خلال المكتب العربي .1864-1844، في مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد8، العدد 2، ديسمبر 2023، ص 181.

² - محمد خير الدين: المرجع السابق، ص65.

³ - الزبيري محمد العربي: مذكرات أحمد باي، ،2015 صفحة 84.

⁴ - حمدان بن عثمان خوجة، ،2005 صفحة 44.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايالك قسنطينة

وهو آخر شيوخ العرب وخال أحمد باي وحليفه الذي بقي إلى جانبه إلى أن سقطت قسنطينة سنة 1837م، أين تخلى عنه وانتقل إلى جانب الفرنسيين¹.

يعتبره الشيخ محمد خير الدين بأنه: "هو الذي أقام دعائم هذا البيت وثبت أركانه، وهو السبب المباشر في وجوده وبقائه في ظل الحكم الفرنسي في أول يوم الاحتلال للصحراء إلى آخر يوم من أيام هذا الحكم الاستعماري الفرنسي... وكان ذا شخصية تتمتع بشيء غير قليل من الدهاء وسعة الحيلة... وبهذه الخصال استطاع أن (يلعب على الحبلين) بسهولة ويسر، فيمد يده اليمنى إلى ابن أخته... وفي الوقت نفسه يمد يده اليسرى إلى الفرنسيين الغزاة لربط العلاقات معهم يمهد السبيل لنفسه ولأفراد أسرته ليستعدوا للسيادة والحكم على قبائل العرب في الصحراء..."².

بعد عزل فرحات بن سعيد شيخ العرب وخليفة الأمير عبد القادر في الصحراء، وانهزام جيش الحسن بن عزوز خليفة الأمير عبد القادر أمام الجيش الفرنسي وحليفهم بوعزيز بن قانة، ونظرًا لهذه الخدمات التي قدمها الأخير لفرنسا، رأى أنه يحق له مطالبة فرنسا بتعيينه شيخًا للعرب بنفس السلطة الواسعة التي كان يتمتع بها شيوخ العرب من الذواودة. كما طالب بأن تضع فرنسا تحت سلطته قسمًا من الجيش الفرنسي المسلح لتحقيق الاستقرار وتمكين سلطة فرنسا في الصحراء كلها. غير أن سلطات الاحتلال رفضت طلبه، وبدلاً من ذلك أقدمت على خطة تمثلت في: تعيين الذباح بن السخري من قبيلة الذواودة قائداً على زاب أولاد جلال والعرب الغرابية، وتعيين علي بن فرحات بن سعيد بايا على (سوف) وتقرت وما حولهما من الصحراء الممتدة التي لا يعيش فيها بشر ولا ينبت بها شجر³.

¹ - أوجرتي محمد: المرجع السابق، ص 121.

² - محمد خير الدين: المرجع السابق، ص 65.

³ - نفسه، ص 67.

وباعتماد سياسة فرق تسد بين الجزائريين تمكن الاستعمار الفرنسي وأعوانه الدخلاء في الأخير من القضاء على لقب شيخ العرب التاريخي الذي كان رمزا لقيادة العرب الهلاليين في شمال افريقيا أكثر من عشرة قرون، كما قضى على لقب الخليفة الذي كان رمزا لخلافة الأمير عبد القادر¹.

4- أسرة بني جلاب² في مدينة تقرت عاصمة وادي ريغ:

تناول ابن خلدون موطن هذه الأسرة الصحراوية وتسمية هذه الحاضرة، مشيراً إلى أن وادي ريغ سُمي نسبةً إلى قبيلة ريغة، إحدى بطون قبيلة مغراوة. وذكر أن "ريغة وسنجاس من بطون مغراوة، نزل الكثير منهم ما بين قصور الزاب وواركلا، فاختطوا قرى كثيرة في عدوة واد ينحدر من الغرب إلى الشرق، ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة، والأطم قد رف عليها الشجر ونضدت حفاقيها النخيل وانساحت خلالها المياه وزهت ينابيعها الصحراء، وكثر في قصورها العمران من ريغة وبها تعرف لهذا العهد"³.

كانت مدينة تقرت كغيرها من مدن الشرق الجزائري خاضعة للسلطة الحفصية وخلال فترات الاضطراب والفتن التي كانت تسود هذه الدولة، كانت تقرت تنمرد عليها وتمتتع عن دفع الجباية لإشتغال الخليفة لما هو أهم مثل ما فعل يوسف بن حسن من بيت مشيخة تقرت على عهد السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان (1435-1488م) فاضطر هذا السلطان للخروج إليها لإخضاعها ومعه ما يزيد عن ألف فارس فاحصر البلدة آواخر شوال ووقع قتال مع القوي المتحصنة داخل البلدة لمدة يومين وأمر السلطان بعدها بقطع نخيلها في اليوم الثالث وانتهى

1 - نفسه، ص 68

2 - للمزيد حول شجرة نسب الأسرة ينظر الملحق رقم: 05

3 - عبد الرحمن ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، الجزء السابع، دار الفكر بيروت، لبنان ، ص 64.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايك قسنطينة

الأمر باستسلام يوسف بن حسن واعتقل وغادر تونس معتقلا مع المحلة الى القطر التونسي¹، والثانية سنة 1465م. ثم جاء ميلاد الإمارة الجلابية في الفترة التي عرفت ضعف وسقوط الدولة الحفصية².

ويرى العديد من المؤرخين أن أصل بني جلاب³ يعود إلى بني مرين حكام المغرب الأقصى وأصحاب فاس. وقد أكد هذا النسب العياشي صاحب الرحلة حيث وصف أمراؤها بقوله: " وأمرء هذه البلدة وأولاد الشيخ أحمد بن جلاب وأسلافهم من بني مرين"⁴.

وبإمكاننا الرجوع الى شهادة بني جلاب أنفسهم حول نسبهم، وفي ذلك يقول أحد شيوخهم وهو الشيخ سلمان بن علي سلطان تو قرت: «...أننا أولاد جلاب سليلي السلطنة المرينية سلطنة تو قرت من عمالة قسنطينة...»⁵.

ويرجع العدوانى تأسيس الحكم الجلابي بمدينة تقرت الى رجل من بني مرين كان يسكن بمدينة فاس بالمغرب حيث أورد ما يلي: «...أتى رجل من واد مرين، قد كان مسكنه بفاس...»⁶.

1 - الزركشي محمد بن إبراهيم: تاريخ الدولتين، المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص ص 143- 144.

2 - مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي، ج2، بيروت، لبنان، ص 404.

3 - تقرعات اسرة بني جلاب: ينظر الملحق رقم: 06 ص 359

4 - عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية (1661-1663)، تحقيق وتعليق: سعيد الفاضلي و سليمان القرشي ، مج1، ط1، الامارات العربية: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2006، ص122.

5 - معاد عمراني: « أسرة بني جلاب في منطقة واي ريغ، من بداية القرن التاسع عشر إلى سنة 1962م، دراسة سياسية واجتماعية » رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية، قسنطينة، 2003 ، ص 101.

6 - محمد العدوانى: تقديم وتحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996، ص

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

أما الجد الأول للأسرة، الذي يُنسب إليه سلاطين تقرت، فهو الحاج سليمان الجلاب. كان معتادًا الذهاب إلى الحج مرورًا بتقرت، وفي إحدى رحلاته تلك، طلب منه أهل المدينة الاستقرار بينهم فوافق على طلبهم، وكان ذلك خلال القرن الخامس عشر الميلادي.

أما قصة قيام حكم الجلابيين في مدينة توقرت، فملخصها أن بني جلاب، وهم من بقايا بني مرين ملوك تلمسان والمغرب، لما انقضت دولتهم تفرق دعائهم في الأقطار طلبًا للملك. سكنت طائفة منهم منطقة تاجموت قرب الأغواط، وكانوا يرسلون تجارة الأغنام إلى مناطق عدة كورقلة. وذهبت طائفة أخرى إلى توقرت، فكانوا يبيعون الأغنام بأجل معين، وفي المرة المقبلة يأتون بأغنام أخرى، فلا يجدون الثمن، فيمددون الأجل مرة أخرى¹.

وهكذا حتى جاء أحمد الجلابي² بنفسه وهو يريد الحج، فطلب حقه من السكان، لكنه وجد حالتهم على ما هي عليه، واطَّلَعَ على أملاكهم، فوجدها لا تفي بدفع ما عليهم ديون، فشكاهم إلى سلطان وادي ريغ سيدي محمد بن يحيى هذا

¹ - معاذ عمران: منطقة وادي ريغ في ظل الاحتلال الفرنسي، (1854-1962) دراسة سياسية، أطروحة دكتوراه العلوم في تخصص التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، الجزائر، 2016، ص 45.

² - أحمد الجلابي: هو جد بني جلاب مؤسس إمارة بني جلاب قد قسم الحكم بـ ولديه، فوضع واحدا في تقرت، والآخر في تماسين، وكل منه. مستقل عن الآخر مما أدى بطريقة غير مباشرة إلى خلق معارضة سياسية، ولما سقطت تقرت في أيدي الفرنسيين، نجد سلمان آخر سلاطين بني جلاب بتقرت فر إلى تماسين أين ترك ابنه علي و مباركة في حماية الزاوية التجانية حيث تعهد شيخها محمد العيد التجاني للعقيد ديفو Desvaux بالصيانة عليهم، ثم انتقل إلى الجريد التونسي، حتى استقر به المقام في مدينة توزر، ثم أبعد منها من طرف باي تونس لتكون وجهته هذه المرة نحو طنجة، ثم مدينة فاس وهناك توفي و دفن. للمزيد ينظر: رضوان شافو: العلاقات السياسية بين الدولة العثمانية والإمارات الصحراوية في الجزائر (إمارة بني جلاب بوادي ريغ أنموذجا 1854-1531) في مجلة القرطاس، العدد 02، جانفي 2015، ص 153.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب باييك قسنطينة

الأخير الذي جمعهم وأمرهم بدفع ما عليهم من دين، فاعتذروا وقالوا له، فليأخذ أملاكنا في مقابل هذا الدين الباقي، فقال لهم: اصبروا حتى أعود من الحج.¹

بعد عودته من الحج، التقى بالرجل الصالح سيدي محمد بن يحيى، الذي سلمه أمر الواحة في سنة 1531م على الأرجح. ثم قسم الحكم بين ولديه محمد وإبراهيم، فجعل الأول في توقرت والثاني في تماسين. وهكذا، سلم سيدي محمد بن يحيى الحكم لبني جلاب خوفاً من استغلال اليهود حاجة الناس إلى الأموال، وتوسعهم في الربا للاستيلاء على أملاكهم.

و سعى بنو جلاب الى إقامة عدة علاقات مع مختلف القوى السياسية والفاعلة في وقتهم، منها ما هو علاقات ود وتعاون، ومنها ما هو علاقات صراع وتصادم، فبخصوص النقطة الأولى، عقد بنو جلاب علاقات صداقة ومصاهرة مع زعماء الذواودة شيوخ العرب ، والذين يتمتعون بسمعة طيبة، ولهم نفوذ واسع في الصحراء ، ومنه فإن بني جلاب كانوا يسعون إلى تقوية نفوذهم السياسي والعسكري، بالاتحاد مع أسرة قوية امتازت بفروسيتها عبر التاريخ، كما أن الذواودة كانوا يسعون إلى كسب مكانة اجتماعية هامة ترقى بهم من مصاف البدو الرحل، وترقى بهم من مرتبة الأسر الشريفة، وبفضل هذه العلاقة اتسع نفوذ أسرة بني جلاب ليشمل جميع واحات وادي ريغ.²

- الصراع بين العائلات المتنفذة:

اعتمد بايات قسنطينة سياسة "فرق تسد" بين القبائل المتنفذة، معتبرينها الوسيلة الأنجع للحفاظ على حكمهم واستمراره. هدفت هذه السياسة إلى إضعاف الأسر

1 - نفسه ، ص 45.

2 - نفسه، ص 46.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب باييك قسنطينة

المحلية الحاكمة وإخضاعها للحكم المركزي، وأدت مباشرةً إلى نزاعات حادة بين هذه الأسر، ممّا مزّق الروابط السياسية والعسكرية التي كانت تجمعها. ومما ساعد على إنجاح هذه السياسة هو قانون القوة السائد بين القبائل، والمصالح الشخصية التي عرقلت جهود شيوخ الأسر في الحفاظ على تماسك الأحلاف القبلية. ولم يقتصر هذا التمزق على الأسر والقبائل المختلفة، بل امتد ليشمل أفراد الأسرة الواحدة، ممّا أسهم في القضاء على نفوذها في البايك¹.

على الرغم من أهمية الدوافع الاقتصادية في استمرار الصراع بين الأسر الحاكمة، لا يمكن إغفال دور الحكام في تغذية هذا الصراع وتشجيعه، خاصة على المناصب. فبعد تولي أحمد القلي باييك قسنطينة سنة 1756م، استطاع أن يقم أصهاره من أسرة بن قانة في مشيخة عرب الصحراء، بالتوازي مع أسرة بوعكاز الحاكم الشرعي لها. أدى ذلك إلى بروز صراع قوي بين الأسرتين، أسفر عن احتفاظ الشيخ بوعكاز بالمشيخة، وحصول أسرة بن قانة على المشيخة الشكلية².

الصراع بين أسرة بوعكاز وأسرة ابن قانة:

بدأت علاقة قبيلة الذواودة بالحفصيين، حيث حافظت على نفوذ واسع في الصحراء. وعند وصول العثمانيين، انضمت القبيلة لخدمتهم، فحافظوا لها على مكانتها وأقرّوها على زعامة الصحراء. وكان خير الدين بربروس يعتمد على شيخهم "الصخري بن يعقوب بن علي بوعكاز". وقد شمل نفوذ هذا الشيخ، الذي يُعدّ آخر زعماء هذه الأسرة في العهد الحفصي عام 1481م، معظم المناطق الصحراوية وامتدّ

1 - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 275.

2 - جهيدة بوعزيز: المرجع السابق، ص 82.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

حتى سهول قسنطينة. واستمر الوضع على ما هو عليه في العهد العثماني، حتى أصبح ثلث بايلك الشرق خاضعاً لنفوذ الذواودة¹.

توارثت قبائل العرب منصب المشيخة. فعندما تتفق القبيلة على اختيار شيخ، يمنحه الباى لباساً شرفياً مميزاً يُدعى "القفتان" في احتفال رسمي. وبعد وفاة الشيخ الصخري بن عيسى بن يعقوب سنة 1541م، انتقل المنصب إلى علي بوعكاز بن الصخري، وهو أول من نال شرف المشيخة على منطقة الزاب، وذلك في فترة الانتقال من الحكم الحفصي إلى الحكم التركي. وقد لُقّب بوعكاز لحمله الدائم للعصا².

وقد آلت المشيخة بعد الحاج علي بوعكاز إلى أولاده من بعده إلى أن وصلت إلى الشيخ أحمد بن محمد بن الصخري الذي توفي سنة 1790م، بعدها بقي هذا المنصب شاغر لعجز كبار شيوخ العائلة عن ترشيح أحدهم إلى أن تولى فرحات بن سعيد ثم ابنه علي باي³.

على الرغم من النفوذ الكبير الذي تمتعت به عائلة بوعكاز، إلا أنها بدأت تفقد مكانتها تدريجياً مع ظهور عائلة بن قانة. تعود علاقة عائلة بن قانة بالعثمانيين إلى عهد باي قسنطينة أحمد القلي عام 1756م، عندما تزوج من امرأة من هذه العائلة. ونتيجة لهذه المصاهرة، تمكن من إقحام أصهاره من أسرة بن قانة في مشيخة عرب الصحراء، بالتوازي مع أسرة بوعكاز الحاكم الشرعي لها، مما أدى إلى صراع قوي

1 - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 159.

2 - لخضر بن بوزيد: السياسة الإستعمارية تجاه القبائل والعائلات المتنفذة في منطقة الزيبان (1830-1844) في المجلة التاريخية الجزائرية، العدد: 05- ديسمبر 2017، ص 95.

3 - نفسه.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايالك قسنطينة

بين الأسرتين، أسفر عن احتفاظ الشيخ بوعكاز بالمشيخة وحصول أسرة بن قانة على المشيخة الشكلية¹.

من أهم المواجهات المباشرة بين الطرفين، الصراع الذي أشعلته ثورة الأميرة أم هاني ابنة رجب باي وزوجة شيخ العرب أحمد بن السخري بوعكاز. فقد أدت هذه الثورة إلى انقسام القبائل الصحراوية التابعة لأسرة بوعكاز إلى معسكرين متحاربين: الأول، ناصر لأم هاني الثائرة على أسرة زوجها وقائلي أخيها، ويضم قبائل أهل بن علي، وأولاد سالم، وشرفة، وغمرة. والثاني، ناصر لابن زوجها فرحات بن رجاجة، ويضم قبائل السلمية، والبوازيد، ورحمان، وأولاد بن زكري، وجميع القبائل البدوية غرب الزاب².

استمرت الحرب بين الطرفين قرابة نصف قرن، من عام 1674 إلى 1725 ميلادياً تقريباً، ثم عاد الهدوء بعد هزيمة أم هاني، وانفراد فرحات بن رجاجة بحكم الصحراء الممتدة من الزاب إلى الحضنة وما جاورها، وصولاً إلى سهول أولاد عبد النور والسقنية جنوب قسنطينة. وقد تعزز نفوذ فرحات بن رجاجة، على غرار سلفه، بتحالفه مع سلاطين بني جلاب حكام تقرت، خاصة بعد زواج سليمان بن جلاب من أخت فرحات. ، ونفس التحالف كان يربط أسرة بوعكاز بأسرة ابن شنوف شيوخ أولاد صولة بشرق الزاب³.

وبعد تعيين محمد الحاج بن قانة في منصب شيخ للعرب سنة 1762م، وعندما استحوذ حفيده أحمد باي على الحكم أقر محمد الحاج بن قانة على مشيخة العرب وعند وفاته عين بوعزيز بن قانة خلفاً له، وهو ما أثار حفيظة فرحات بن سعيد الذي

¹ - جهيدة بوعزيز: المرجع السابق، ص 82.

² - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 286.

³ - نفسه، ص ص 286-287.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

آلت إليه زعامة قومه ورأى نفسه أحق بمنصب شيخ العرب الذي كانت عائلة تتوارثه منذ أجيال¹.

تميزت العلاقة بين عائلة بوعكاز من جهة وعائلة بن قانة من جهة أخرى بالهدوء في البداية، بحيث كانت بينهما علاقة مصاهرة؛ لأن الباي أحمد القلي في سنة 1762م قام بتزويج فرحات بن أحمد بن علي بن الصخري بمباركة بنت الحاج بن قانة². وبتلك العلاقة كانت الفرصة متاحة لمحمد بن قانة لزيارة الصحراء لأول مرة، وربط علاقات مع سكانها، وتطورت العلاقة بين العائلتين عندما تولى الحكم على تقرت حفيد الحاج بن قانة المسمى "علي بن القيدوم"³.

لكن بعد تلك الفترة خاصة خلال حكم الحاج أحمد باي تأزمت العلاقة بين العائلتين إلى أن وصلت إلى القتال و نشوب معارك بينهما، بسبب نزاع منصب مشيخة العرب من فرحات بن سعيد و وضع مكانه خاله بوعزيز بن قانة⁴.

تجاوز الصراع طابعه التقليدي بين الأسرتين، وتعمق ليصبح صراعاً داخل الأسرة الواحدة. مثال على ذلك أسرة بن قانة، فبعد ترقية الشيخ محمد بن الحاج بن قانة إلى رتبة وزير، بقي منصب شيخ العرب شاغراً. بحث الباي عن أكفأ شيوخ الأسرة لإسناد المنصب إليه، فلم يجد أفضل من محمد الصغير بن محمد بن الحاج. ولكن بمجرد وصول خبر هذا التعيين إلى الشيخ بولخراس في الصحراء، ثارت ثائرتة وأسرع إلى

¹ - لخضر بن بوزيد: المرجع السابق، ص ص 95-96.

² - L.c Féraud :HISTOIRE Des Sultans De Touggourt Et Du Sud ALGERIEN , Notes .1 Historiques sur La province De Constantine , Les Ben-Djellab,Sultans De Touggourt, Revue African 1878-1886, Editions, Alger, 2006, p283.

³ - حرز الله محمد العربي : منطقة الزاب قرن من المقاومة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2008، ص 80.

⁴ - نفسه، ص 81.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايك قسنطينة

قسنطينة للاحتجاج، معتبراً أن إبراهيم بن قانة أحق بالمنصب. تمكن بولخراس من إقناع الباي برأيه، فسحب اللقب من محمد الصغير ومنحه لإبراهيم، الأمر الذي أشعل نار الحرب داخل أسرة بن قانة نفسها.

أخذ الخلاف يتعمق بين أفراد اسرة بن قانة الى أن تحول الى صراع دام بين الأخوة، إذ قرر محمد الصغير الانتقام من أعمامه لافتكاك مشيخة العرب منه. ووجد الفرصة سانحة بعد وفاة الباي حسن باشا، الذي عمل طوال حكمه على المحافظة على تماسك الأسرة، فأعلن الثورة على عمه إبراهيم ومن ساندته من أفراد الأسرة، وأمام هذا الوضع لم يجد الباي الجديد "انجليز باي" 1803م، غير العودة الى منافسي أسرة بن قانة وهم أسرة بوعكاز وذلك بإشارة من خليفته وصهره وحليف أسرة بوعكاز "ابن زكري" فأعاد لقب شيخ العرب رسمياً الى ذباح بن بوعكاز، وقرر التخلص من شيوخ أسرة ابن قانة¹.

تكرر الأمر ذاته مع أسرة بني جلاب؛ فبعد تولي السلطان فرحات بن جلاب الحكم، تمكن بقوته من تهدئة المنطقة، لكنه سرعان ما توفي تاركاً وراءه صراعاً أشد من سابقه، إذ لم يكن ابنه الخازن قد بلغ سن الرشد بعد. فتولى مكانه مؤقتاً إبراهيم بن أحمد، غير أنه رفض التخلي عن المنصب بعد بلوغ الخازن سن الرشد، وهنا دخل الصراع طرف آخر هو فرحات بن سعيد بن بوعكاز، متحالفاً مع صهره الخازن وحليفهم محمد بن أحمد، واستطاعوا الإطاحة بإبراهيم وتولي الخازن الحكم. إلا أن الحليف محمد غدر بالخازن واستولى على منصبه سنة 1805م.²

لتدخل الأسرة في صراع داخلي دامي حول السلطة، وفي هذا الصياغ قام آخر السلاطين من بني جلاب بالتواصل مع الإدارة الفرنسية، حيث قام سليمان بن علي

¹ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 294

² - نفسه، ص ص 325-326.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

الجلابي الى الحاكم الفرنسي قصد الدخول في طاعته، ومما ورد فيها: "...وهي سيرة قديمة من عهد أوالينا، ما يتولى سلطان في بلادنا إلا بالقتل، سنقص عليكم سيرة أوالينا، لما شاخ محمد بن أحمد بن جلاب قتل أخويه الشيخ إبراهيم وعبد الرحمن وابن عمه الخازن، ثم تولى بعده ابنه الشيخ عمر بن محمد، قتل أخاه الشيخ احمد وابن عمه محمود، ثم تولى بعده الشيخ إبراهيم بن محمد قتله أخوه على،... هذا الذي شهدناه وكذلك أسلافنا الأولون..."¹.

من خلال هذه الرسالة يتبين لنا أن هذه الأسرة وغيرها من الأسر الأخرى في الجزائر وفي هذا العهد وغيره أن لمكاسب السلطة ومنافعها تجعل من الأسرة الواحدة في صراع دائم ومستमित لأجل الظفر بالمنصب والسلطة.

يكمن جوهر هذا الصراع الشرس بين أفراد الأسرة الواحدة في تأكيد استقلالية كل حاكم ينتمي إليها. ويسهم كل فرد في إذكاء هذا الصراع انطلاقاً من مصالحه الخاصة، وضمن معادلة القوة والغلبة لتأكيد الوجود والحفاظ على الكيان. لذا، يمكننا القول إن المقدرة الحربية التي يمتلكها كل طرف داخل هذه الأسر هي شرط أساسي للبقاء والاستمرار في السلطة. وقد ميز هذا الأمر تلك الفترة في الأقاليم الجنوبية لبايلك قسنطينة والأرياف المجاورة لعاصمة البايلك.

لا يمكن إغفال الدور الكبير الذي لعبته سياسة البايات في تأجيج الصراع بين الأسر والقبائل المتنفذة في بايلك الشرق، إذ يرى البعض أن ذلك يندرج في إطار سياسة "فرق تسد" التي انتهجوها للحفاظ على سيادتهم وسلطتهم على كامل أجزاء البايلك. وفي سياسة البايات المتوارثة لحكم بايلك الشرق خلال الفترة المدروسة عبرة.

¹ – L.c Féraud : Les Ben-Djellab,Sultans De Touggourt . Notes .1 Historiques sur La province De Constantine.p50

5- العلاقة بين البايات والأسر المتنفذة:

عندما بسط العثمانيون سلطتهم على شرق الجزائر وجدوا أسرا متنفذة تهيمن على أريافه وهذه الأسر هي: أسرة بوعكاز، الذوادة، وأسرة بني جلاب بايلك قسنطينة، وأسرة أحرار الحناشة¹، وأسرة بوعكاز بن عاشور، وعند بداية القرن 18 م، ظهرت أسرة بن قانة بالجنوب القسنطيني. إن هذه الأسرة المحلية الحاكمة في الريف القسنطيني يسميها فيرو: "الأسر الشريفة" وقد اعترف الحكام العثمانيون باستقلال هذه الأسر، حيث كانت لهم قيادات وامارات مستقلة شاسعة الى درجة أنه يمكن القول أن قيادة كل أسرة كانت تشكل دولة داخل دولة².

تذبذبت علاقة الحكام العثمانيين بهذه الأسر بين السلم والحرب. ففي أوقات السلم، استغل الحكام العثمانيون هذه العلاقة لتعزيز سلطتهم في بايلك قسنطينة، مستفيدين من نفوذ هذه الأسر في قمع حركات التمرد والعصيان. وفي المقابل، كانت هذه العلاقة تشهد توترات في بعض الأحيان، مما دفع زعماء هذه الأسر إلى الانفضاض من حول الحكام والانضمام إلى الثورات المحلية وحركات العصيان المختلفة. وقد لجأ بعض الحكام العثمانيين إلى المصاهرة مع زعماء هذه الأسر، حيث تزوج صالح باي قسنطينة (1771-1792م) من إحدى بنات الباي أحمد القلي (1756-1771م)، الذي كانت زوجته من أسرة المقراني. وهي نفس العلاقة التي أقامها الباي الحاج أحمد، آخر بايات قسنطينة، مع أسرة المقراني أيضًا³.

1 - للمزيد حول شجرة نسب الأسرة ينظر الملحق رقم: 08

2 - العياشي روابحي: الاحتلال الفرنسي لقسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري عام 1837، ورود فعل أريافها، حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية رقم: 2010/05. جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ص 364-366.

3 - نفسه.

1- سياسة التقارب والمصاهرة:

حافظ العثمانيون منذ دخولهم الى الجزائر على القوانين المحلية التي تدير المجتمع الجزائري، كما سعوا الى سياسة التقارب واحترام سلطة شيوخ القبائل و العائلات المتنفذة في البلاد، وهذا وفق ما جاء في المراسلات العثمانية لحكام الجزائر الأتراك، وهو عبر عنه السلطان سليم الثاني (1566-1574م) في فرمان الى البيلرباي أحمد شاوش بسطانجي (1563-1576م) سنة 1574م ، يأمره فيه بعدم المساس بسيادة أحد شيوخ القبائل بشرق البلاد¹.

ولم يكتف بذلك عند هذه التوصيات بل وصل كما أورد ابن العطار الى القول: " أن الباي إذا أتته خلعة الولاية من الجزائر يلبسها هو ثم يبعث بها الى شيخ العرب، وبعده الى شيخ الحنانشة، ويعرف وظيفة الحنانشة بوظيف القفطان لأن ولايتهما كولاية الباي"².

وقد كانت هذه المشيخات بمثابة اليد الطولى للسلطة المركزية في أرياف البايك لما تقدمه من خدمات عسكرية وحفظ الأمن مقابل الامتيازات التي تحصل عليها من قبل السلطة الحاكمة، ومن هذه المشيخات التي تنتشر في ربوع البايك يمكن ايجاز أهمها: مشيخة أولاد بوعزيز بجهة بلزمة الى الشرق من بريكة، ومشيخة أولاد بوضياف بالأوراس، ومشيخة العرب " بن زكري وبن قانة" بالزيبان، ومشيخة قصر الطير بالهضاب العليا الغربية، وقد كانت هذه العائلات الكبرى تتقاسم قيادة البايك مع السلطة المركزية، حيث تتولى تسيير شؤون الغالبية الساحقة لقبائل الشرق والجنوب. ان صالح باي قسنطينة، مثلا لم يكن يستطع أن يثبت في الحكم لمدة طويلة، إلا عن طريق أوامر صهرية، غير أن هذه السياسة قد أبعدت بعض

¹ - جهيدة بوعزيز: المرجع السابق، ص45.

² - احمد ابن العطار المصدر السابق، ص ص 56-57.

العائلات الأخرى التي كان يراها الباي مؤذية لاستمرارية ادارته، من ذلك عائلة أولاد بوعكاز بالصحراء وعائلة ابن شنوف وبعض العناصر الأخرى من أبناء عمومة أولاد مقران¹.

من الأدوات التي اتبعتها البايات للحفاظ على حكمهم واستمراره، التقارب والمصاهرة مع كبرى العائلات المتنفذة، تقادياً للصدام معها، بالإضافة إلى استخدام ذلك كوسيلة لتحقيق أغراضهم السياسية، ومنها ضرب القبائل المناوئة لسلطة البايك.

لقد كانت المصاهرة وسيلة مهمة لعقد التحالفات وتحقيق المصالح السياسية والاقتصادية بين الأطراف. ففي هذه المجتمعات، تعتبر المصاهرة وسيلة مثلى لضمان نجاح التحالف وتحقيق أهدافه المتنوعة. ومع ذلك، لا تكفي المصاهرة وحدها، بل يجب أن تكون المصلحة مشتركة بين الطرفين، ومرتبطة بما يمكن أن تجنيه القبائل من هذا الحلف. ولعل أسرة ابن جلول التي صاهرها صالح باي خير دليل على ذلك، حيث ورثت مكانته السياسية وأملاكه.

تتسم المصاهرة بين الطبقة الحاكمة والأسر المتنفذة بطابع سياسي بالغ الأهمية، إذ تمثل وسيلة للحكام للحفاظ على سلطتهم واستمرارها. من خلال هذه المصاهرة، تسعى السلطة الحاكمة إلى إذكاء الخلافات بين الأسر المتنفذة، وتصدير الصراعات إلى الأرياف، وإخضاع القبائل المعارضة للسلطة المركزية بالاعتماد على القبائل المتحالفة. وعند تتبع سياسات إخضاع بعض القبائل المتنفذة، نجد في هذا السياق

¹ - فركوس صالح: المرجع السابق، ص 47.

محاولة الباي صالح مصاهرة شيخ قبيلة الحنانشة¹ لإخضاعها لسلطانه، وحسب وصف العدوانى لهذه القبيلة بقوله: "قبيلة ذات بأس شديد ومنيعة من الأعداء"².

على الرغم من نجاح سياسة المصاهرة في بعض الفترات، إلا أنها أدت إلى اختلال التوازن السياسي في بعض المناطق. بل إنها تسببت في حروب طاحنة بين بعض العائلات، كما حدث بين أولاد بن قانة وأولاد بوعكاز، حيث استمر النزاع على زعامة الصحراء لمدة طويلة. وقد كان الحاج أحمد باي، باي قسنطينة في أواخر الحكم العثماني للجزائر، يتدخل من حين لآخر لتثبيت سلطة أصهاره وأقاربه من آل بن قانة ونصرتهم على جميع أعدائهم³.

2-تنصيب عشائر المخزن في المناصب الهامة:

تمثل التحالف المستمر بين العائلات المتنفذة والسلطة الحاكمة إحدى دعائم الوجود العثماني في الجزائر. وقد قام هذا التحالف على أساس تبادل المصالح والمكاسب بين الطرفين. تجلّى ذلك في الدور العسكري والإداري الذي اضطلعت به القبائل المخزنية إلى جانب الجيوش الرسمية للدولة العثمانية في البايلكات، حيث ساهمت في إخضاع القبائل الأخرى، وبسط نفوذ الدولة وهيبتها، وتحصيل الضرائب من الأرياف. فبدون هذا التحالف الوثيق مع القبائل المخزنية، لم يكن للدولة العثمانية أن تؤدي مهامها على أكمل وجه.

1 - حول تأديب السلطة المركزية بقسنطينة للقبيلة ينظر الملحق رقم:13.

2 - محمد بن محمد بن عمر العدوانى: تاريخ العدوانى، تقديم ، وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط1 دار الغرب الإسلامي،بيروت،1996،ص 202.

3 - فركوس صالح: المرجع السابق، ص ص-48-49.

ولأهمية القبائل المتعاونة مع السلطة الحاكمة في البايك يؤكد لنا Esterhazy هذه الأهمية عند قوله: " أن قبائل المخزن هي قوة من قبائل الجزائر تقدم خدمات غير مدفوعة الأجر إلا أنها تعفى من تقديم الضرائب كقبائل الدواير والزمول"¹.

وفي مقابل هذه المهمة الإدارية والعسكرية لهذه القبائل القوية خصص لهم البايات أراض صالحة للنشاط الزراعي والرعي لتربية الحيوانات لتتمكن بذلك من حراسة ممرات جبلية هامة في المنطقة الجنوبية للبايلك والتي منها ناحية بلزمة، ومخزن السحاري التي تحرس الجهات الشمالية والشرقية لبسكرة².

وتتواجد في سهل عين مليلة فرقة الزمالة، التي أقطع لها صالح باي مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة للزراعة قدرت بحوالي 4000 هكتار³. إضافة الى الدواير منها دائرة الخليفة التي تتكون من 200 فارس وتنشط في أحواز قسنطينة، دواير الخروب وأولاد رحمون، ودواير الأغا التي تنتشر في فرجيوة وتتكون من 1000 فارس⁴، وفرق زوارة التي تقطن بمنطقة جرجرة، وقد كانت تتحصل على نصف أجر الإنكشاري مقابل خدماتها، حيث قدرت التشريفات أجراها بزياني واحد مقابل 2 زياني للإنكشاري. كما نجد أن مخزن الحراكته وقايد العواسي من أهم القوات المخزنية بالبايلك، ويمكن أن تصل قواتها الى 4000 فارس، وهم موزعون

¹ – M. WAL SIN ESTERHAZY: De la Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Éditeur : C. Gosselin, Paris, 1840, p249.

² – ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص479.

³ – فلة قشاعي: النظام الضريبي، المرجع السابق، 135.

⁴ – جميلة معاشي: الإنكشارية والمجتمع، المرجع السابق، ص84.

في النقاط الحصينة كطريق الشرق نحو قسنطينة التي تتمركز في بعض جهاتها الوعرة قبائل المخزن كالزواتنة وابن هارون¹.

كان الهدف الرئيسي من إنشاء هذه الفرق المخزنية هو مساعدة سلطة البايك في إخضاع القبائل المتمردة وفرض نفوذ السلطة التركية في البلاد، بالإضافة إلى تحصيل الضرائب ومراقبة تحركات القبائل وشيوخها لتقادي أي تمرد ضد السلطة الحاكمة. وقد ساهمت هذه الطريقة في إطالة أمد التواجد العثماني في مختلف مناطق البلاد وصولاً إلى آخر نقطة من أراضي البايك.

3- سياسية فرق تسد:

لعبت محاولة خلق جو من عدم الاستقرار داخل البايك دوراً هاماً في تدعيم سلطة البايات. وعند وجود قبائل قوية وممتدة ذات نفوذ معنوي واسع، كان على البايات اعتماد سياسة اختراق هذه القبائل، وبث الفرقة بينها، واتباع سياسة "فرق تسد" للحفاظ على سلطتهم.

تُعدّ الأمثلة على تطبيق هذه السياسة كثيرة، فقد كانت من السياسات التي اتبعتها حكام باييك قسنطينة. فعلى سبيل المثال، قام صالح باي بعزل الشيخ عبد الله بالعباس في القالة وتعيين ابنه علي باي مكانه. كما قام الباي الحاج أحمد بعزل الشيخ مقورة بن عاشور في فرجيوة بسبب عدم أدائه للالتزامات المالية المترتبة عليه، وعين بدلاً منه ابن عمه. ثم قام بالقضاء على الشيخ مقورة باعتباره أحد العصاة والمتمردين على سلطته².

¹ - جهيدة بوعزيز: المرجع السابق، ص 45.

² - نفسه، ص 49.

كما لجأ البايات الى بث الفرقة وزراعة الخلافات بين القبائل الواحدة والمجاورة لها من خلال تقديم امتيازات لصالح قبيلة على أخرى، وطبق داخل القبيلة الواحدة لإثارات النعرات، وخاصة عند صعوبة البايات في اخضاع القبائل لسلطتهم وقد طبق الباي مصطفى الوزناجي هذه الإستراتيجية أثناء حملته على أولاد بوعون بالأوراس، وهو ما يورده لنا صاحب مخطوط بايات قسنطينة قائلاً: " أن الباي قدم عليهم بمحلة عظيمة من عسكر وقومان وحشود من العبان وأحاط بذلك الجبل من كل ناحية ولم يقدر عليهم، فلما ان تحقق له عدم القدرة عليهم ولو لهم هناك شهران أو ثلاثة إشتغل بالحيلة... ودخل عرش قريب منهم يقال لهم " الحليمية" وأعطاهم العطاء الكثير، وبعدها اتفق رأيهم على أن يكونوا لهم (كذا) ليلا قائلين لهم نحن وآبائكم أحباب، والذي يضركم يضرنا وهذا الباي أحاط بكم وأراد قتلكم ونهب أموالكم، وإن كنتم تريدون النصر نبعث لكم مئتا رجل يعينكم في العسة والطرده، فأجبهوه لذلك وتشكروا فضلهم فلما حل الليل ذهب لهم المئتي رجل وبعد طلوع الفجر فتحو باب القرية للباي ومحلته وهجموا عليهم هجمة واحدة، ورغم صمود أولاد بوعون وقتلهم للكثير من الأتراك إلا أن الغلبة كانت للباي وحلفاؤه فمات منهم خلق كثير ولم ينج منهم إلا القليل"¹.

ونجد كذلك الباي "مصطفى إنجليز" عندما فشل آغا الدايرة المكلف من قبله بشن حملة على أولاد علي بن يحي العواسي² في الحنانشة، بتسليط أولاد سي يحي

1 - نفسه.

2 - العواسي: كلمة تطلق على القبائل التي تقطن منطقة عين البيضاء وما جاورها ، أما رتبة قائد العواسي فهي وظيفة حكومية لا تعطى إلا الأقارب الباي في غالب الأحيان او الى شخصيات مرموقة في المجتمع كما يخول له هذا المنصب أن يكون أكبر ضابط في القصر يتولى مهمة الرقابة على الجهة الشرقية للإقليم كما يشرف على قوة عسكرية كبيرة. للمزيد ينظر: بوضرساية بوعزة، أحمد باي رجل دولة ومقاوم، رسالة ماجستير، في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1991، ص 41.

بن طالب بزعامة شيخهم " يونس " الذي يتميز بالشجاعة ومهارة الحرب خاصة على المتمردين والعصاة، وهم مجاورون لهم فأغاروا على الحنانشة وقتلوا لهم شيخهم واحمد بن بوعزيز، وأخاه وأرسلوا رؤوسهم الى قسنطينة¹.

هدف بايات قسنطينة الأساسي من اعتماد هذه السياسة هو إيجاد بيئة يسودها التنافس والصراع المستمر بين القبائل، وذلك للاستفادة من هذا الوضع عند التدخل لفض النزاعات أو ترجيح كفة طرف على آخر. المستفيد الوحيد من هذا الوضع القائم هو السلطة الحاكمة، التي تسعى إلى استمرار نفوذها وهيمنتها على القبائل المتناحرة.

4-شن الحملات التأديبية على القبائل المتمردة:

من أهم العوامل التي ساهمت في بقاء العثمانيين فترة طويلة في الجزائر هو توافر الموارد الاقتصادية، وعلى رأسها الضرائب المفروضة على السكان. وبالنظر إلى علاقة السلطة بالرعية، نجد قبائل ممتعة ومتمردة ترفض تقديم التزاماتها المالية، مما يدفع البايات إلى شن حملات عسكرية تأديبية ضدها. وكانت هذه الحملات تحظى بدعم من بعض القبائل المتنفذة المتحالفة مع السلطة مقابل امتيازات، مما ساعد الحامية التركية، قليلة العدد، على الاستعانة بفرسان قد يتجاوز عددهم الألف بقيادة الباي والأغا. وقد كانت هذه الآلية فعالة في تنفيذ عمليات المصادرة وكسب الغنائم، حيث يحصل كل مشارك على نصيب محدود، في حين يحصل قائد الحملة أو الباي على ثلثي الغنائم، ويتقاسم فرسان المخزن الثلث الباقي، بالإضافة إلى التشجيعات التي يتلقونها مقابل النتائج المحققة².

1 - صالح العنتري: فريدة مؤنسة، المصدر السابق، ص ص 87-88.

2 - جهيدة بوعزيز: المرجع السابق، ص 50.

وحسب الرحالة الفرنسي Peyssonnel أن قوات محلة الباي تتكون من 300 تركي مشاة و800 سباهي (فارس) دائمين بالإضافة الى فرق كانت ترسل اليه من الجزائر للمشاركة في جباية الضرائب ويتراوح عددها بين 60 الى 100 صفرة (فرقة) أي ما يقارب 2500 رجل، ويقول كذلك " كان الباي يعسكر مع حوالي 600 تركي، أي 25 فرقة بالإضافة الى القوات التي أرسلها له الديوان وتقدر بـ 104 فرقة من جهة سطورة وجيجل و10 فرق من بلاد القبائل والحنانشة¹.

تتفق العديد من المراجع على أن مساهمة قبائل الدواير والزمالة كانت فعالة في الأعمال العسكرية التي اشتهرت بها المحلة، مما أوجد كرهاً شديداً بين السكان وهذه القبائل. ولم تكن مساهمة شيوخ الأسر الحاكمة في هذه الأعمال، إلى جانب المحلة، أقل خطورة من أعمال الزمول والدواير؛ إذ كان شيخ الأسرة ينضم بقواته إلى المحلة كلما وصلت إلى منطقة نفوذه. وقد حدث ذلك أثناء هجوم الباي أحمد المملوك سنة 1818م على القبائل الحدودية بشرق البايك، حيث شارك شيخ أحرار الحنانشة بقواته في ذلك الغزو. ولم تكن أعمال قواته أقل ترويعاً من أعمال قوات الباي، ويكفي الاطلاع على التقرير الذي رفعه شيوخ هذه القبائل من مدينة الكاف إلى باي تونس، حول الخسائر التي لحقت بقبائلهم، لتصور مدى فظاعة هذه الأعمال².

ورد في هذا التقرير أن المحلة قُسمت إلى عدة فرق لتطويق القبيلة الواحدة من جميع الجهات، منعاً لفرار أفرادها. كما اختارت قوات الباي الساعات الأولى من الفجر لمهاجمة القبائل، مما لم يترك للسكان فرصة لتهديب مواشيهم أو تخزين حبوبهم، فخسروا بذلك كل ما يملكون، وضمنت المحلة غنائم ضخمة. وقد أورد التقرير إحصاءً للخسائر التي لحقت بكل قبيلة أو عرش، نذكر منها على سبيل

¹ - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة، المرجع السابق، ص 264

² - نفسه، ص 265.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب باييك قسنطينة

المثال الخسائر التي لحقت بعرش بوغانم الذي هاجمه الباي بنفسه، وهي: 170 قتيل من ذكور وإناث.

- 1800 رأس من الإبل.
- 30.000 رأس من الغنم.
- 5000 رأس من الماعز.
- 130 فرس.
- 200 بغل و300 حمير.
- 2600 بقرة.
- 200 خيمة بما تحتويه من طعام وسلاح واموال سائلة وضعت بصناديق قدرت ب: 2000 محبوب ذهب و1500 ريال دورو و5000 سكة تونس.

اما الخسائر التي ألحقها شيخ أحرار الحنانشة بأحد أعراش منطقة الكاف فحددها التقرير ب:

- 30 قتيل.
- 1000 جمل.
- 800 رأس من الغنم.
- 2000 رأس من البقر.
- 200 خيل.
- 200 بغل.
- 180 حمير¹.

¹ - نفسه، ص 266

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

- 150 خيمة با 12000 ريال و1000 قفيزة من الحبوب نصفها قمح وشعير
- أخرجت من مطامير العرش. ومما أكده بعض شيوخ الأعراش في تقريرهم هذا هو أن الباي كان قد هاجم 3 مرات متتالية وهاجمهم شيخ أحرار الحاناشة4 مرات وشيخ الحراكته¹ مرتين ،وكان مجموع خسائرهم:
- 300 قتيل.
- 130000 رأس من الغنم.
- 30000 رأس من البقر.
- 10000 من الإبل.
- 900 خيل.
- 500 بغل.
- 100 حمير.
- 36000 ريال يكة تونس.
- 12000 قفيز من الحبوب.
- 1000 خيمة.²

¹ - الحراكته: هم عربٌ عدنانيون ينحدرون من قبائل رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر، يرجع نسبهم حسب ما ذكره ابن خلدون الى حركات بن أبي الشيخ بن عساكر بن سلطان بن زمام بن رديني بن داود بن معاوية بن محمد بن عامر بن يزيد بن مرداس بن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن العربي العدنانية من ولد سيدنا اسماعيل عليه السلام ، أما بالنسبة لما قاله المؤرخ الفرنسي(Feraud) الذي عاش وسطهم لفترة طويلة من الزمن : فذكر فيرو، أن جد الحراكته حسب ما أخبروه بانفسهم في ذلك العهد هو القائد العربي السلمي ” حركات ” فقال : ” إن هؤلاء العرب الذين جاءوا مع بني هلال، تأثروا بالهوّارة الشاوية، وأخذوا عنهم نمط معيشتهم ولغتهم، ولم يحتفظوا من أصلهم العربي إلا بالاسم (حراكته) نسبة ل حركات، القائد العربي السلمي الذي أعطى اسمه للقبيلة“. للمزيد ينظر <https://tribusalgeriennes.wordpress.com> / تاريخ التصفح: 2024/11/12

² - نفسه، ص 267.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب باييك قسنطينة

لعبت هذه القوات دورًا هامًا، ليس فقط في مساعدة أعوان الباي على جباية الضرائب، بل أيضًا في حفظ الأمن ورعاية الاستقرار في كامل البايك. ولتحقيق ذلك، كانت تُوزَّع على مختلف المناطق الاستراتيجية في أرياف البايك، كالأبراج والحصون والخوانق.¹ على الرغم من انتشار الطرق الجبلية الوعرة والممرات الصعبة والجسور والأسواق الرئيسية في البايك، وعلى النقاط التي تمر بها المحلة الفصلية، إلا أن الجدير بالذكر هو أن هذه القوات لم تكن دائمًا موالية للسلطة المركزية؛ بل كانت علاقتها بهذه الأخيرة تخضع لطبيعة علاقة شيوخها بالباي. لذا، كثيرًا ما كانت تنقلب على القوات العثمانية وتخوض ضدها معارك ضارية، غالبًا ما كانت تصب في صالح القوات المحلية.²

حيث كانت أول حملة بقيادة صالح رايس سنة 1552م، والسبب من وراء هذه الحملة استبداد بني جلاب بإمارتهم بتقرت وامتاعهم عن أداء الجباة والمغرم.³

أما الحملة الثانية كانت بقيادة يوسف باشا سنة 1647م، على تقرت بسبب التمرد وكانت نتائجها أكثر ثباتًا واستمرارية بمرور الزمن من سابقاتها. فقد جاء ملخص هذه الضريبة التي فرضها يوسف باشا على سكان المنطقة بعد هذه الحملة على النحو الآتي:

- تقرت: 16 عبدا من رقيق السودان، تماسين: 04 عبيد، ورقلة: 25 عبدا والمجموع : 45 عبدا يدفعون سنويا.⁴

¹ - الخانقُ : الشَّعبُ الضيق بين جبلين: <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-2024/09/22>

² - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة، المرجع السابق، ص 268

³ - الجيلالي عبد الرحمان: تاريخ الجزائر العام، ج3، دار الثقافة، بيروت، 1982، ص86.

⁴ - L. ch" Feraud, Le sahara de constantine, Alger - I 884 . pp 80 -81

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب باييك قسنطينة

أما الحملة الثالثة كانت بقيادة صالح باي سنة 1785م مع محمد بن عثمان الكردي باي الغرب لإخضاع مناطق الجنوب للسلطة العثمانية وكان لهما ذلك سوى إمارة بني جلاب بوادي ريغ ، حيث انهزم صالح باي أمام سلطانها فرحات بن عمر الجلابي وعاد إلى قسنطينة، وفي سنة 1788م قرر صالح باي معاقبة فرحات الجلابي، وانطلق في شهر أكتوبر يقود حملته الى تقرت وفرض الحصار عليها ودام عدة شهور، وانتهت بالصلح وفق الشروط الآتية:

* دفع جميع نفقات الحملة وتكاليف الحرب.

* تقديم غرامة مالية قدرها 300000 ريال

* تقديم غرامة أخرم على شكل دواب وخيول وعبيد.¹

أما الحملة الرابعة، فكانت بقيادة أحمد المملوك سنة 1818م، ولم تختلف هذه الحملة عن سابقتها من حيث الظروف والأحداث، إذ اقتصرت على مدينة تقرت دون ورقلة. وقد تزامنت مع حملة الباي حسان، آخر بايات وهران، التأديبية في نواحي عين ماضي والأغواط، انتقاماً من نشاط التجانيين المعادي للأتراك. وجاءت هذه الحملة نتيجة لتحريض فرحات بن سعيد، الراغب في القضاء على أسرة بني جلاب وإلحاق تقرت بمشيخته. وكانت هذه الحملة أشد وقعاً على سكان المدينة، حيث قام الباي أحمد المملوك بتخريب تقرت بقطع نخيلها، الذي كان يقدر بـ 200 ألف نخلة في ظرف وجيز، وتخریب منابع ومصادر المياه فيها، مما جعل السلطان محمد بن جلاب يسارع إلى إرضائه وتقديم ضريبة سنوية له تقدر بـ 100 ألف ريال بسيطة، واستمر في دفع الضريبة حتى سقوط قسنطينة بيد قوات الاحتلال الفرنسي.²

¹ – ibid.

² – ibid.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايك قسنطينة

بعد وصول الحاج أحمد باي إلى سدة الحكم عام 1826م، قام بانتزاع مشيخة العرب من فرحات بن سعيد، الأمر الذي حوّل حروب فرحات بن سعيد لتصبح موجّهة ضد الحاج أحمد باي وسياسته، وكذلك ضد حليفه بن قانة. ومن جهة أخرى، تحالف فرحات بن سعيد مع الأسرة الجلابية في تقرت ضد الحاج أحمد باي، ووقعت بينهما معارك دامية، كان أهمها معركة في منطقة الصحيرة بالزيان، والتي أسفرت عن مقتل أكثر من 600 مقاتل من قوات فرحات بن سعيد، وأكثر من 100 قتيل من أتباع بن قانة¹.

استمر الوضع في التدهور وازدادت العلاقة بين الحكام والمحكومين تآزماً سريعاً، حتى دخل الفرنسيون مدينة قسنطينة. كان الحاج أحمد باي آنذاك في صراع مستمر مع عدد كبير من شيوخ القبائل والأسر الحاكمة، وعلى رأسهم شيخ العرب فرحات بن سعيد بن بوعكاز. والأهم من ذلك، أن سياسة القوة كانت بمثابة المعول الذي هدم ما بنته سياسة اللين التي انتهجها العثمانيون الأوائل، والتي نجحوا من خلالها في ترسيخ حكمهم في البلاد لأكثر من قرنين ونصف. تحولت علاقة الوئام والتعاون التي كانت سائدة بين الأسر المحلية والسلطة المركزية إلى صراع مستمر أضعف الطرفين. والواقع أن بايات قسنطينة لم يتمكنوا من القضاء على الأسر الحاكمة بالقوة العسكرية بقدر ما نجحوا في ذلك من خلال سياسة "فرق تسد"².

أسهم التدهور السياسي في تفكك المنطقة بأسرها. كان الصراع الداخلي بين الدايات على السلطة أبرز مظاهر ضعف الدولة، مما أثر سلباً على مختلف البايكات التي كانت تعيش آخر مراحل الأمن والاستقرار. واجهت هذه البايكات

¹ - بن نعيمة عبد المجيد وآخرون: موسوعة أعلام الجزائر 1830-1954، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص ص 285-286.

² - جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة، المرجع السابق، ص 270.

الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايلك قسنطينة

تهديدات مختلفة، شملت تهديدات خارجية من بايات تونس¹، والزحف الفرنسي القادم من الشمال والغرب لاجتياح بايلك قسنطينة، وصراع الباي الحاج أحمد باي مع بقايا الأسر المتنفذة، مثل أسرة بوعكاز بقيادة فرحات بن سعيد والأسرة الجلابية. سهّلت هذه الأوضاع اجتياح القوات الفرنسية لبايك قسنطينة والقضاء على سلطة الباي الحاج أحمد، ومن ثمّ القضاء على هيبة ونفوذ الأسر المتنفذة في البايك.

¹ - حول الحجج الشرعية التي تثبت الإغارات التي كانت بين القبائل الحدودية الجزائرية و التونسية ينظر الملحق رقم: 50

الفصل الثالث:

الحياة الاقتصادية 1710-1848م

أولاً: النشاط الزراعي والثروة الحيوانية

ثانياً: النظام الضريبي

ثالثاً: النشاط الصناعي

رابعاً: النشاط التجاري: التجارة والاسواق وطرق المواصلات

خامساً: الكوارث الطبيعية وأثرها على الحياة

الاقتصادية

أولاً: النشاط الزراعي والثروة الحيوانية

1-النشاط الزراعي:

1-1 - أنواع ملكية الأراضي وطرق استغلالها:

لم يشهد وضع الأراضي في الجزائر أي تغييرات جذرية أو تحولات عميقة خلال العهد العثماني. فقد حافظ حكام الجزائر على الوضع الذي كان سائداً في القرن السادس عشر. وبالرغم من التأثيرات العثمانية في مجال الإدارة والحكم، فقد أبقوا الأوضاع على حالها، فحافظوا في الغالب على ملاك الأراضي، وأقرّوا العشائر المتعاملة معهم على الأراضي التي استحوذوا عليها، وذلك بغية الحصول على تأييد شيوخ القبائل ومساندة رؤساء الطرق الصوفية¹.

وتوزع الأراضي الزراعية من حيث طبيعة الملكية في العهد العثماني على النحو الآتي:

1- الأملاك الخاصة:

كان أصحاب الأراضي يستغلونها مباشرة، ولم يكونوا ملزمين تجاه الدولة إلا بدفع ضريبيتي العشر والزكاة. اتسمت هذه الأراضي بعدم الاستقرار وصغر المساحة، وذلك لخضوعها لأحكام الوراثة والبيع والشراء، وتعرضها في كثير من الأحيان للمصادرة والاستحواذ من قبل الحكام، ولوقوع أغلبها في المناطق الجبلية المكتظة بالسكان، أو بجوار المدن حيث يكثر إقبال سكان المدن وموظفي الدولة على امتلاكها، مثل الملكيات الواقعة بالقرب من مدن الجزائر وقسنطينة وهران، والتي آلت إلى حوزة بعض الأتراك والكراغلة والحضر. اشتهرت من بين هذه الملكيات، ملكية بايات الغرب في مسرغين والدار البيضاء الواقعة بالقرب من وهران، وملكية صالح باي بالقرب من سيدي محمد الغراب الغزيرة المياه. امتدت الملكيات الخاصة على مساحة خمس مراحل من مدينة

¹ - محمد دادة: المرجع السابق، ص149.

قسنطينة، واشتملت على 110250 هكتارًا، استُغل منها 9000 هكتار في زراعة الحبوب و4000 هكتار.

لإنتاج الفواكه والخضر. وكانت تأخذ منها الدولة 20.762 قيسة حبوب في شكل ضريبة العشر والزكاة¹.

2- ملكيات البايك:

تتواجد عادة في المناطق المحيطة بالمدن، وهي الأراضي الأكثر خصوبة. توجد فيها حاميات الجند، وتخضع ملكية هذه الأراضي مباشرة للباي الذي يحق له التصرف فيها بصفته الوصي. يفرض عليها النظام بالقوة لتحقيق قوة الإنتاج وكل ما يتعلق به². كانت هذه الأراضي عصب الاقتصاد في العهد العثماني، وتنتشر معظمها في السهول الخصبة، وقد آلت ملكيتها إلى الأتراك والعساكر وأعيان الدولة، الذين امتلكوا قطاعات فردية حصلوا عليها من مجموعات الرعايا³.

يُعرف هذا النوع في المناطق الشرقية باسم "العزل"، وينتشر على مساحة واسعة حول مدينة قسنطينة تُقدر بـ 60,000 هكتار. تُستغلّ منها 48,000 هكتار في زراعة الحبوب و 12,000 هكتار في إنتاج الخضروات والفواكه المختلفة. وهي مقسمة على 8000 "جابدة"، حيث يستغل كل زارع 7.5 هكتار ويترك 1.5 هكتار لتربية الحيوانات، والتي تشمل خمس بقرات، وعشرين خروفاً، وأربع عنزات، وحصاناً واحداً. وقد استولت السلطات الفرنسية عليها إثر الاحتلال، وقُدّرت مساحتها عام 1841 حسب إحصاء وارني بـ

1 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، 1984، ص51.

2 - عبد اللطيف بن أشنهو: 1979، ص27.

3 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، 1980، ص189.

112,351 هكتار. وعند إصدار "سيناتوس كونسيلت" عام 1867م، قُدِّرت بما لا يقل عن 146,693 هكتار وأُحقت بإدارة الدومين.¹

قُدِّر عدد العُزل في الشرق الجزائري بـ 114 عُزلة. وكانت أراضي العُزل في الشرق تحت إشراف قائد الدار. ومن بين هذه العُزل، كانت 104 عُزل تحت تصرّف الجابري. وقد أنشأ صالح باي هذه المؤسسة. وفي هذا الصدد، يقول الأستاذ ناصر الدين سعيدوني: «أسندت إلى معاضدة بعض العائلات ذات النفوذ المعنوي، مثل عائلة أولاد سيدي بن بوزيد، التي ورد ذكر أفرادها في نص الرسالتين. فصالح باي، الذي اشتهر بهذه السياسة، تمكن من كسب تأييد ومساندة الأسر الكبرى في الشرق الجزائري، وشكّل بها أسراً إقطاعية كبرى، مثل عائلة بوعكاز وعائلة المقران وعائلة بن عاشور وأحرار النمامشة.»²

كان أولاد قاسم يستقرون في شرق البايك. وقد صادر صالح باي ثلاثة أرباع أراضي قبيلة عامر الشرقية، والتي قُدِّرت بحوالي 600 هكتار، ووزعها على رجال المخزن والأعيان الموالين له، فأصبحت تُعرف بأراضي صالح باي. وتكرر الأمر نفسه مع العديد من قبائل سكيكدة، حيث صودرت مساحات من أراضيها ومُنحت لقبيلة بني "مهني"، التي ارتقت بذلك إلى مرتبة قبيلة مخزنية.³

وهي السياسة نفسها التي انتهجها الحاج أحمد باي في منطقة جنوب البايك. وفي هذا الصدد، يقول الأستاذ ناصر الدين سعيدوني: «إن هذه السياسة التي انتهجها البايك مع العائلات الإقطاعية تفسر لنا نجاح أحمد باي في حكم مناطق واسعة من بايك الشرق في وقت عمت فيه الفوضى واختفت فيه سلطة الحكومة المركزية بسقوط مدينة الجزائر بيد الفرنسيين سنة 1830م. كما أن هذه السياسة تلقي أضواء جديدة على الدوافع التي

¹ -ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، 1984، ص52.

² - حول الصراع مع احمد باي وقبيلة النمامشة ينظر الملحق: رقم 12 ص 365

³ - عبدالرزاق قشوان: المرجع السابق، ص62.

جعلت أحمد باي يفضل الالتجاء إلى مناطق الأوراس والزيبان لمواصلة المقاومة بعد سقوط قسنطينة»¹.

قد يلجأ الحكام إلى تأجير أراضي البايلك لسكان الدوائر المجاورة، ويُعرف هذا الإيجار بـ "الحكور"، ويصل في بعض الأحيان إلى 12 صاعًا من القمح و12 صاعًا من الشعير على الجابدة الواحدة، أي ما يقارب 50% من إنتاج الأراضي².

تنوعت ملكيات البايلك واختلفت تسمياتها تبعًا لنوع التصرف فيها وطريقة الإنتاج المتبعة. شملت هذه الملكيات أراضي العزل، التي تميزت بتنوعها نظرًا لاختلاف أساليب الإنتاج التي خضعت لها، والتي بدورها تتفرع إلى :

- **عزل الخماسة:** ويقصد بها الأراضي التي تعود ملكيتها للبايلك ويقوم بخدمتها فلاحون من الرعية مقابل الحصول على خمس 5/1 الإنتاج وهي تشمل أجود وأخصب الأراضي يتولى الإشراف عليها الشيوخ والقياد.

- **عزل جبيري:** وتشتمل على الجزء الأكبر من أراضي البايلك وقد عمل على توسيع مساحتها كال من صالح باي وأحمد باي ويستغلها الفلاحون مقابل كراء سنوي يعرف بالجبيري، يقدر بـ 10 ريالات وصاع من القمح وآخر من الشعير للجابدة الواحدة إلى حوالي 20 ريالاً وهو ما يعادل قرابة 50% من قيمة المحصول³.

- **عزل العزيب:** وتشتمل الأراضي التي قطعت لبعض القبائل بغرض تربية قطعان الماشية (عزيب) لفائدة البايلك، والتي قدر عددها أيام أحمد باي بما لا يقل عن 3.000 بقرة و3.000 بغل وعدة آلاف من الماشية، و كلفت باستغلالها مقابل التكفل بهذه المهمة مع دفع الضريبة الشرعية (العشر والزكاة) ورسوم إضافية في شكل حكور

1 - نفسه، ص 63.

2 - ناصر الدين سعيدوني: 1984، ص 52.

3 - فلة القشاعي المولودة موساوي: المرجع السابق، 1990، ص 98-99.

تقدر ب10ريالات مع التعهد بإمداد الباي وموظفي البايك بكميات كافية من الزبدة واللحوم، ومن أهم القبائل التي أقرت على عزل العزيب أولاد سيدي يحي بوطالب.

- **عزل متاع الجبل:** وهي الملكيات التي إنتزعت من القبائل الجبلية إثر تمردا أو عصيانها على البايك ولم يستطيع الاحتفاظ بها فأوكل استغلالها لبعض العائلات المتنفذة من مرابطين ورجال الدين قابل خدماتهم للبايك مثل عائلة الشيخ الفكون التي كانت تسند لها اهم الوظائف الدينية مثل شيخ الإسلام فقد أعطيت لها اراضي اولاد جبارة التي حولت الى عزل متاع الجبل لاستغلالها باسم البايك¹.

3- أراضي الموات:

وهي الأراضي غير المستغلة أو غير الصالحة للزراعة، والتي يمكن امتلاكها والاستفادة منها بشرط إحيائها. إلا أن سكان الأرياف لم يكونوا يقبلون على استثمارها، خاصة في أواخر العهد العثماني الذي تميز بانتشار هذا النوع من الأراضي بعد تحول العديد من السكان من الزراعة إلى الرعي².

4- أراضي المخزن:

وهي الأراضي التي مُنحت للقبائل المتعاونة مع السلطة، والمعروفة بقبائل المخزن. شكلت هذه القبائل تجمعات سكانية اصطناعية، تميزت بتنوع أصولها واختلاف أعراقها؛ فمنها من أقره الحاكم على الأراضي التي وجد عليها ليكون سنداً له، ومنها من مُنح الأرض ليستقر عليها، ومنها من استُقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين من جهات مختلفة لتشكيل جماعة شبه عسكرية تربط مصالحها بخدمة السلطة العثمانية من خلال المشاركة في حفظ الأمن ومعاقبة المتمردين. وقد اتسعت صلاحيات هذه القبائل لتشمل المشاركة في الحملات العسكرية لجمع الضرائب من السكان.

1 - نفسه، ص 99-100.

2 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص53.

في مقابل هذه الخدمات، كانت قبائل المخزن تحظى بامتيازات وحقوق معينة لا يتمتع بها بقية سكان الأرياف. فبالإضافة إلى الحماية، كانت معفاة من المطالب المخزنية والضرائب الإضافية، وتكتفي بتقديم مساهمات عينية رمزية. في المقابل، كانت قبائل الرعية الخاضعة مباشرة للسلطة العثمانية تدفع الضرائب الإضافية إلى جانب الضرائب الشرعية كالعشور والزكاة¹.

5-أراضي الوقف:

وهي الأراضي الموقوفة للإنفاق على الأعمال الخيرية والمؤسسات الدينية، ويُوكَل التصرف فيها لناظر الأوقاف ومساعديه من الوكلاء والشواش. وقد انتشرت الأوقاف في أواخر العهد العثماني، وتركزت بالقرب من المدن الكبرى، حتى أن بعض التقارير تشير إلى أنها غطت ثلاثة أرباع الأراضي الصالحة للزراعة في المناطق الخاضعة مباشرة للباييك. ونظرًا للأحكام الشرعية المتعلقة بها والمعاملات القانونية الخاضعة لها، فإنها لم تخضع لأي ضريبة أو رسم، ولم تكن عرضةً لأي مصادرة أو حجز من قبل الحكام².
لم تعرف أوقاف قسنطينة تنظيمًا محكمًا وإشرافًا فعالًا إلا في أواخر العهد العثماني، أي أوائل القرن الثامن عشر الميلادي. وأهم وثيقة تبين لنا ذلك في مدينة قسنطينة، والتي تتناول أوضاعها المتردية، هي المبادرة التي قام بها صالح باي بهدف ضبط وترتيب وتنظيم الأوقاف في باييك الشرق. وبناءً على ذلك، أقر تشكيل لجنة تتكون من ناظر بيت المال وشيخ البلد والقاضي الحنفي والقاضي المالكي، وكان الغرض من ذلك هو إجراء إحصاء دقيق وضبط محكم لأوقاف الشرق الجزائري، وإنشاء سجلات أربعة يتعهد كل فرد

1 - محمد دادة: المرجع السابق، 2013، ص 151.

2 - ناصر الدين سعيدوني، 1984، ص 53.

من أفراد اللجنة بتدوين كل ما له علاقة بالمساجد النشيطة وأوقاف المساجد التي اندثرت¹.

أما الأراضي الموقوفة على الأهل والأعمال الخيرية، فقد أوكل التصرف فيها إلى ناظر الأوقاف ومساعدين من الوكلاء والشواش. وقد تولت الإشراف على أوقاف قسنطينة عائلات ذات نفوذ مثل عائلة الفكون. قُدِّرت مساحة هذا النوع من الأراضي بـ 949 هكتارًا من المزارع والبساتين، يطل أغلبها على وادي الرمال وروافده².

ظلت الأراضي الموقوفة جزءًا هامًا من المجتمع، وذلك بعد انتشارها بفضل مبادرة البايات والميسورين من الحضر. كانوا يشترون الأراضي ويوقفونها للصالح العام، إما في شكل وقف ذري أو أهلي، يعود الانتفاع به إلى المحبس عليهم أو سلالتهم ولا يتحول إلى المصلحة العامة إلا بانقطاع العقب، أو في شكل وقف خيري يعود الانتفاع به مباشرة إلى المؤسسة الموقوفة عليها³.

تتميز أراضي الوقف بعدم الاستقرار، إذ إنها تخضع للتقسيم الإرثي عند وفاة صاحبها، مما يؤدي إلى صغر مساحتها، كما أنها عرضة للبيع والشراء، وفي كثير من الأحيان تتعرض للمصادرة من قبل الحكام. وتشمل هذه الأراضي المناطق الواقعة قرب المجاري المائية والقريبة من المدن، مثل قسنطينة وعنابة وسكيكدة ومنطقة القبائل والأوراس، والتي تقع في معظمها في المنطقة التلية. ونظرًا لضيق مساحتها، فإن إنتاجها غالبًا ما يكون للاستهلاك الذاتي، وهو متنوع وقليل المردود⁴.

1 - عبدالرزاق قشوان، 2018، ص70.

2 - عبدالرزاق قشوان: المرجع السابق، ص71.

3 - فلة، القشاعي المولودة موساوي: المرجع السابق، ص108.

4 - عبدالرزاق قشوان: المرجع السابق، 2018، ص71.

تشير المصادر التاريخية إلى أنه خلال فترة الوجود العثماني في الجزائر، لم يكد يوجد باشا أو داي أو باي طالت مدة حكمه إلا وقد بنى مسجداً أو زاوية، أو أوقف أوقافاً على ما بناه أو على غيره. ومن هؤلاء، على سبيل المثال، خير الدين بربروس الذي بنى جامعاً وأوقف عليه أوقافاً كثيرة من دكاكين وسوق وأراضٍ، وأوكل إدارتها إلى مجلس إدارة أملاك مكة والمدينة، وخصص مرتبات محترمة للخطيب والإمام والمدرس المالكي والمحدث والمسمع وإدارة الوقف والمؤذنين والحزابين والمنظفين وشراء ما يحتاجه الجامع وقرر جعل الفائض في أملاك مكة والمدينة.

من بين البايات، نذكر الباي حسن (المعروف ببوحنك) في قسنطينة، الذي أسس الجامع الأخضر سنة 1743م، وأوقف عليه أوقافاً عديدة. وقد دُفن في الجامع نفسه بعد وفاته سنة 1753م. كما نذكر الباي صالح بن مصطفى في قسنطينة، الذي أعاد تنظيم الأوقاف وجعلها في خدمة العلم، وأنشأ مدرسة عليا متخصصة لتخريج كبار العلماء بجوار مسجد سيدي لخضر بقسنطينة سنة 1789م، ووضع بها النظام الداخلي. بالإضافة إلى ذلك، ساهمت فئات اجتماعية أخرى من العسكريين والمدنيين في ازدهار الأوقاف، حتى بلغت في أواخر العهد العثماني ثلاثة أرباع الأراضي الصالحة للزراعة. ومما لا شك فيه أن الوقف يكتسب أهمية خاصة في الحفاظ على الممتلكات والثروات من المظالم والأحكام التعسفية للحكام، حيث كان يوفر وسيلة فعالة لصون الثروات والأملاك والأراضي الموقوفة، وتثبيت حدود الملكيات الزراعية بالاعتماد على العقود الشرعية الموثقة لدى المحكمة الشرعية. ونتيجة لذلك، كانت أصول التوثيق عند الجزائريين خلال الفترة العثمانية مضبوطة وفي غاية الدقة¹.

¹ - حنفي هلايلي، 2008، ص 209.

6- الأراض المشاعة أو أراضي العرش:

وهي ملكيات تقليدية تتلاءم مع نمط المعيشة القبلي والروابط الاجتماعية السائدة في الأرياف، حيث كانت تعتمد على تضامن القبيلة لا على خصوصية الأسر والأفراد. وقد جعل ذلك حق استغلال الأرض جماعياً من قبل جميع أعضاء القبيلة أو المجموعة المقيمة في الدوار أو الدشرة أو العرش، بحيث تقوم كل أسرة بخدمة الأرض بما يتلاءم مع حاجاتها وإمكانياتها ومكانتها حسب ما يقرره شيخ القبيلة أو الدوار على أن يترك قسم من الأرض مشتركاً لاستغلاله جماعياً في الرعي أو التزود منه بالخشب¹.

فيما يتعلق بالمطالبات المالية على الأراضي المشاعة، كان الحكام يفرضون على مستغليها ضريبة سنوية تختلف تسميتها باختلاف المناطق، وتعرف بالغرامة أو المعونة أو اللزمة. كانت هذه الضريبة تدفع نقدًا في الغالب، ولكن في بعض الأحيان كانت تستقطع من المحاصيل الزراعية. إضافة إلى ذلك، كان الحكام يطالبون مستغلي الأراضي المشاعة بضرائب فصلية متعددة، أطلق عليها الفلاحون أسماء مختلفة مثل ضيفة الدنوش، وضيفة الباي وخيل الرعية، وحق البرنوس ومهر الباشا، والفرح وغيرها. بلغت هذه العوائد الفصلية والضرائب السنوية مبالغ كبيرة في أواخر العهد العثماني، مما دفع سكان الأرياف إلى الثورة على العثمانيين².

يُستخلص من طبيعة الملكية وطريقة استغلال الأراضي³ حدوث اضطراب في توزيع السكان واختلال في الكثافة السكانية. فالمناطق السهلية الخصبة، حيث تستقر قبائل المخزن وتقيم الحاميات التركية، تتميز بقلّة سكانها، بينما المناطق الجبلية والهضاب الفقيرة والواحات النائية تشتهر بكثرة السكان. وهكذا، أصبحت مناطق الطرد البشري

1 - فلة، القشاعي المولودة موساوي: المرجع السابق، 1990، ص104-105.

2 - محمد دادة: المرجع السابق، ص149.

3 - للمزيد حول طبيعة استغلال الأراضي الزراعية ينظر: الملحق: رقم 18.

(الجبال والهضاب والصحراء) مكتظة بالسكان، في حين أن مناطق الجذب البشري (السهول الخصبة) تعاني من نقص السكان، مما سيؤثر سلبيًا على أوضاع الفلاحة وحياة السكان عند الاحتلال الفرنسي¹.

عند استعراض أنواع الأراضي الزراعية المختلفة، يتضح أن أراضي البايك كانت تشكل قطاعًا فلاحيًا مهمًا، وكان لها تأثير كبير في الحياة الاقتصادية بالريف الجزائري. وكان استغلالها يختلف حسب طرق الإنتاج المتبعة، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ولكن في جميع الأحوال، كانت هذه الأراضي تعود إلى الدولة، التي كانت بدورها تأمر بتوزيعها على القبائل المتعاونة معها².

أثرت الأوضاع الاقتصادية في بايك الشرق خلال أواخر العهد العثماني على الجوانب السياسية والإدارية والاجتماعية. ونظرًا لأهمية هذا المجال، تميّز النشاط الاقتصادي في هذه الفترة بسيادة الطابع الزراعي المزدوج، الفلاحي والرعوي، وغلب عليه الاستهلاك المحلي. وقد عرف الإنتاج ازدهارًا كبيرًا بفضل إصلاحات صالح باي، الذي أنجز أهم مشروع لاستغلال السهول الخصبة القريبة من عين مليلة، وشيّد برجًا عسكريًا لمراقبة الأعمال الزراعية، كما استقدم مزروعات جديدة. وقد استمرت هذه الإصلاحات في عهد الحاج أحمد باي (1826-1837م)، الذي أدخل عليها بعض التعديلات³.

كانت الفلاحة المهنة الغالبة في المجتمع الريفي الجزائري في أواخر العهد العثماني، وكانت البلاد تتميز بإنتاج محاصيل زراعية متنوعة، منها: الحبوب التي اختلفت نوعيتها من منطقة إلى أخرى. فمناطق الأطلس التلي والهضاب الداخلية كانت تنتج نوعًا جيدًا يعرف بالبليوني أو القمح الصلب، الذي يُصنع منه الخبز الجيد، وكان يتفوق على قمح

1 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص54.

2 - محمد دادة: المرجع السابق، 2013، ص152.

3 - رياض بولحبال: المرجع السابق، 2010، ص29.

سردانية المشهور آنذاك. وقد أقبل التجار الأجانب على تصديره وتزويد الأسواق الأوروبية به. أما المناطق الساحلية وبعض السهول المنخفضة، فكانت تنتج قمحًا أقل جودة بسبب نوعية التربة وارتفاع الرطوبة ونسبة التساقط، وقد وصف حمدان خوجة قمح متيجة بالرديء.

ونظرا لأهمية الحبوب لكونها مادة رئيسية للاستهلاك المحلي وللتصدير الخارجي، فقد عملت الدولة جاهدة للسيطرة على المساحات المخصصة لزراعة الحبوب والتي كانت تنتشر حول مدينة قسنطينة وفي جهات غريس وقلعة بني راشد ومستغانم وتلمسان والتيطري والهضاب العليا القسنطينية، وقد قدرت مساحة أراضي الحبوب التي يمتلكها البايك في القطاع الشرقي من البلاد أواخر العهد العثماني بما يعادل 4800 جابدة¹.

تمتاز أراضي باييك الشرق والأراضي السهلية التلية بخصوبتها ووفرة منتجاتها الزراعية وتنوعها، خاصة محصول الحبوب. وفي هذا السياق، يذكر حمدان بن عثمان خوجة قائلاً: «الأراضي شديدة الخصب، بحيث يزيد ارتفاع سنابل القمح والشعير في بعض الأحيان عن قامة الرجل. وأثناء الحصاد، تُهمل السنابل القصيرة، ويُترك في الحقول الكثير من التبن والحبوب لترعاها الماشية لاحقاً، مما يجعل الحيوانات سميئة والحليب جيداً وكثيراً»².

بالإضافة إلى زراعة الحبوب، اشتهرت أغلب المناطق التلية بمنتجات زراعية أخرى مثل الأشجار المثمرة كالتين والزيتون والبرتقال والعنب والخوخ والمشمش وغيرها، إضافة إلى البقول والخضراوات بأنواعها المختلفة، والمنتجات ذات الطابع التجاري كالقطن والكتان والأرز والتبغ. وقد اشتهرت عدة مناطق بزراعة التبغ، منها عنابة ومتيجة ووادي سوف

¹ - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، 1984، ص58.

² - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، 2005، ص33.

الذي تميز بطيب نكهته وإقبال المدخنين عليه، حتى أن القنطار منه كان يباع بما لا يقل عن 20 بوجو. كما أنتجت الأراضي الجزائرية في تلك الفترة منتجات أخرى متنوعة¹. كان النشاط الفلاحي المصدر الرئيسي لكسب العيش لسكان الجزائر في العهد العثماني، كما شكّل حجر الزاوية والعمود الفقري لاقتصاد قبائل الجنوب القسنطيني في تلك الفترة. يؤكد ذلك ما ذكره ابن العنتري بقوله: "والحياة الاقتصادية فيه تعتمد على الفلاحة وتربية المواشي أساسًا... التي كانت تدر على أصحابها مردودًا لا بأس به في القرى". العمرانية الكبيرة وعلى رأسها مدينة قسنطينة²، فقد اهتم هؤلاء السكان بتربية الأغنام والماعز³ وهو ما أدى بازدهار النشاط الرعوي نظرا لطبيعة المنطقة الصحراوية وكذلك نظرا لطبيعة الترحال لدى السكان واتباع مناطق الماء والعشب من فترة لأخرى.

تتميز المناطق الجنوبية في بايلك الشرق بخصائص طبيعية ومناخية تميزها عن باقي مناطق الإقليم. فمن أبرز سمات هذه المنطقة وجود سلاسل جبلية منخفضة الارتفاع، خاصة في منطقة الأوراس، وتحديدًا سلاسل جبال النمامشة وتبسة التي يصل ارتفاعها إلى 1400 متر، وتتخلل هذه السلاسل أودية منفتحة على الرياح الصحراوية. بالإضافة إلى ذلك، تتميز المنطقة بندرة الأمطار، حيث لا يتجاوز متوسط الهطول المطري 400 ملم. هذه الخصائص مجتمعة ساهمت في تراجع النشاط الزراعي، وزيادة

1- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، 1984، ص59.

2 - محمد الصالح بن العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، مراجعة وتحقيق يحي بوعزيز، ط خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 17- 18.

3 - وهيبه بولصباح، أحمد صاري: التجارة الخارجية للأغنام والماعز في بايلك الشرق خلال العهد العثماني، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، جامعة الجلفة، الجزائر، المجلد 12، العدد 02، جانفي 2022م، ص 198.

الاعتماد على الرعي، وخاصة تربية المواشي والخيول والجمال، كمهنة رئيسية لسكان المنطقة¹.

وفقاً لوليام سبنسر، أولت قبائل تلك المنطقة اهتماماً كبيراً بتربية المواشي، سواء للتصدير أو للاستخدام الشخصي. واهتم هؤلاء الفلاحون بتربية الأغنام ذات الذيل الشحمي والمستقيم، بالإضافة إلى بعض الحيوانات الأخرى كالماعز والجمال والخيول البربرية. ومن المعروف عن رجال القبائل أنهم نادراً ما يذبحون أغنامهم².

اتسمت المنطقة الجنوبية لبايك قسنطينة باتساع مساحتها وتنوع تضاريسها ومناخها. وأبرز ما يميزها هو ندرة الأمطار، حيث تصل نسبة التساقط إلى حوالي 58 مم، وارتفاع درجة الحرارة الذي قد يبلغ 55°، بالإضافة إلى الرياح الحارة وندرة الغطاء النباتي. وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة والمعوقات الطبيعية التي يتسم بها الجنوب القسنطيني، فإنه تميز بوجود بعض الزراعات التي تتلاءم مع هذا المناخ، مثل زراعة الشعير، خاصة أنه يتلاءم مع الأراضي السبخة التي تميز منطقة الحضنة على وجه الخصوص. وقد شكلت هذه الزراعة محور الزراعات في المنطقة وأصبحت تحت رقابة سلطة البايك في معظم الأحيان، إذ كانت تعتبر أساس الغذاء لدى السكان ومادة رئيسية للتصدير. وقد تحكّم البايك في زراعتها من خلال سيطرته على معظم المناطق التي تزرع فيها، ونافسه في ذلك رؤساء المخزن وشيوخ الزوايا والطرق الدينية. ومن أهم الشركات التي اهتمت وسيطرت على هذه الزراعة في بايك الشرق "الشركة الإفريقية"، التي كانت تصدر سنوياً من ميناء عنابة كميات كبيرة من الحبوب وصلت إلى 25 ألف قنطار خلال

1 - فلة القشاعي: النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني 1771-1837، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، دفعة 1990م، ص 6.

2 - وليام سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، د. ط، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006م، ص 142.

سنة 1778م. وإلى جانب زراعة الشعير، توجد بعض المنتجات الفلاحية الأخرى مثل الذرة¹.

اعتمدت المناطق الداخلية والجنوبية في بايلك الشرق، التي تتميز بندرة الأمطار، على الزراعة البعلية. في المقابل، اعتمد البعض الآخر على حفر الآبار واستغلال العيون في زراعة المحاصيل. ومن جانب آخر، عملت سلطة البايك على مساعدة الفلاحين وتشجيعهم على الإنتاج من خلال تخفيف أعباء الجباية والاعتناء بالمجال الفلاحي. تجسد هذا الاهتمام والدعم في تقديم إعانات مالية للفلاحين ليتمكنوا من بذر أراضيهم، على أن يعيدوا تلك الإعانات بعد الحصاد. كانت هذه الإعانة تُعرف في إيالة الجزائر بالسلفية أو الصارمة².

أما فيما يخص المزروعات الأخرى كالخضر فإنها اقتصرت على أماكن تواجد الواحات، ومن بين تلك الخضر نجد غراسة البصل والثوم والجزر واللفت والخيار والسلطة والكسبر والبطاطا والفول السوداني وبعض الحبوب كاللوبياء³، كما كانت تزرع على مستوى الواحات بعض التوابل كالحلبة وحبّة الحلاوة وبعض الحبوب الأخرى كالخرطال والذرة⁴ بالإضافة إلى الحمص والعدس والكرنب والخس والشمندر والبطيخ وغيرها من الخضر

¹ - فلة القشاعي: المرجع السابق، ص 7، 10.

² - ناصر الدين سعيدوني: "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر - تونس - طرابلس الغرب)"، حولية الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 31، 2010م، ص 28 إلى 30.

³ - عزالدين بلعدي: "التجارة الخارجية للجزائر أواخر العهد العثماني"، مجلة الدراسات التاريخية والأثرية، م. ج تيبازة، الجزائر، المجلد 03، العدد 01، أفريل 2023م، ص 104 - 105.

⁴ - هبة الله بوغرارة: "الأوضاع الاجتماعية والثقافية بمنطقة تقرت خلال العهد الاستعماري (1854 - 1962)"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في تخصص التاريخ المعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة بسكرة، الجزائر، دفعة 2021م، ص 29.

والبقوليات، وتكون الزراعة عادة من شهر أكتوبر إلى شهر جوان، بينما تزرع النباتات العطرية مثل الكسبر والكرفس في شهر جويلية وتقطف خلال شهري فيفري ومارس¹. من أهم المنتجات التي اشتهرت بها المناطق الصحراوية التمور بأنواعها المختلفة. وتميزت هذه المناطق بوفرة الواحات وإنتاجها الغزير من التمور ذات الجودة العالية. وفي أواخر العهد العثماني بالجزائر، كان سعر الرطل الواحد من التمر ريالين ونصف². تبرز الزراعة الصحراوية في الواحات كمثال واضح، مثل واحات ورقلة وتقرت، حيث ازدهر النشاط الزراعي بفضل توفر المياه الجوفية وموقعها الطبوغرافي الذي يتحكم في توزيع مصادر المياه والكثبان الرملية. يرجع ذلك بشكل خاص إلى قربها من وادي مية وإيغارغار، اللذين يمثلان ملتقى لمصادر المياه الجوفية الضرورية التي يتم استغلالها عن طريق حفر الآبار وري المزروعات وأشجار النخيل³. واستغلت تلك الواحات في زراعة الحبوب ورغم ذلك كانت لا تسد حاجياتهم الضرورية مما اضطرروا إلى استيرادها من المناطق الشمالية⁴.

تجدر الإشارة إلى أن هذه المناطق اشتهرت أيضًا بزراعة الدخن، الذي يُعد علفًا ممتازًا للحيوانات، واستخدمه السكان المحليون كعلف للدواجن وطعامًا للإنسان. وإلى جانب الدخن، كانت تزرع الذرة الرفيعة بكثرة، خاصةً لملاءمتها للمناطق الصحراوية⁵.

¹ - كشرود حسان: "بايلك الشرق دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالين بايسونيل ودي فونتين والدكتور توماس شاو"، مجلة قضايا تاريخية، المدرسة العليا بوزريعة، الجزائر، المجلد 02، العدد 06، جوان 2017م، ص 56.

² - عزالدين بلعدي: المرجع السابق، ص 104 - 105.

³ - ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط 2، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص 476.

⁴ - سهام بومعزة: "الزراعة في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني (924 - 1246هـ / 1518 - 1830م)"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في تخصص التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران 1، الجزائر، دفعة 2020م، ص 256.

⁵ - نفسه: ص 256.

وصف لنا ريمون فيرون حالة الفلاحة لدى سكان الجنوب في تلك الفترة بقوله: "سنتناول هنا السكان من البربر المستعربين من غير الطوارق، ويقدر عددهم تقريباً بنحو 500,000 نسمة في هذه المنطقة، نصفهم مستقرون في القرى أو الواحات، أما النصف الآخر فظل بدوياً يرعى قطعان الإبل والضأن. ويتكون جزء كبير من المستقرين من جماعة الحراثين من السود والخلاسيين، وهم يمثلون الرقيق الذين تحرروا في أغلب الأحيان، ويضطلعون في أنحاء الصحراء بالأعمال اليدوية، وبخاصة الزراعة".¹

شكّلت مهنة الرعي نشاطاً أساسياً لسكان الجنوب. ورغم الظروف الصعبة التي واجهها هؤلاء، لا سيما الفلاحون والبدو، من حملات عسكرية متقطعة وتهديدات من قبائل المخزن، إضافةً إلى انتشار المجاعات والأمراض، فقد دفع ذلك بالكثيرين إلى احتراف الرعي بدلاً من الاستقرار بالأراضي وزراعتها. في المقابل، استمرت مناطق أخرى، خاصة سكان الجبال والمناطق الحصينة، في ممارسة النشاط الزراعي، ويتميز سكانها أيضاً بحمل السلاح عند الحاجة، تحت قيادة الأشراف والمرابطين.²

تُعد قبيلة الحنانشة من أشهر القبائل التي مارست الرعي في الجنوب القسنطيني. فعلى الرغم من امتلاكها أراضٍ شاسعة وخصبة، إلا أن اهتمامها الأكبر انصبّ على تربية المواشي، ويتضح ذلك من الإحصائيات التي أُجريت عام 1867م، والتي تشير إلى أن المساحات المزروعة من أراضيها لم تتجاوز 1116 جابدة.³، أما ثروتها الحيوانية فقد

¹ - ريمون فيرون: الصحراء الكبرى، ترجمة جمال الدين الدناصوري، مراجعة نصري شكري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، مصر، 1963م، ص 86.

² - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، ط 3، البصائر الجديدة، الجزائر، 2012م، ص 31-33.

³ - الجابدة وجمعها جابدات وهي قطعة من الأرض تتراوح مساحتها من 8 إلى 10 هكتار، وهي المساحة التي يمكن للثور أن يحرقها في يوم واحد. ينظر: جميلة معاشي، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري (من القرن 10هـ (16م) إلى 13هـ (19م)، المرجع السابق، ص 175 (الحاشية السفلية).

قدرت ب: 38304 رأس من الغنم و6141 رأس من الماعز و2520 من الخيل، و409 مهر، و1541 بغل، و1588 من البقر، و220 جمل¹، تدل هذه الأرقام بشكل قاطع على اهتمام القبيلة بتربية المواشي، والسعي إلى زيادة أعدادها، خاصة الأغنام، نظرًا لقيمتها التسويقية وارتفاع الطلب على صوفها ولحومها. ولم تقتصر الثروة الحيوانية لدى قبائل البايك على الأغنام والماعز، بل شملت أيضًا تربية النعام، ويتضح ذلك من قول فندلين عندما ذكر أنه "... يمكن أن يعثر المرء هنا أيضًا على النعام، وقد حمل عرب الصحراء عدة مرات نعامة يافعة، ارتقاها أربعة أو خمسة أقدام، كهدية إلى أحمد باي".²

بمقارنة الفلاحة في إيالة الجزائر بدول أوروبا، نجد أنها كانت متأخرة عنها في التقنيات الزراعية وكمية الإنتاج. ويعزى ذلك بشكل خاص إلى ما كانت تعانيه مناطق الجزائر، لا سيما الجزء الجنوبي منها، من قلة خصوبة الأراضي، وانتشار الرمال، وشح الأمطار. إضافة إلى ذلك، اعتمد الفلاحون الجزائريون في خدمة أراضيهم على التقنيات التقليدية دون تطويرها، مثل استخدام محراث أفريقيا الرومانية والمنجل الذي يعود إلى العهد الروماني، والاعتماد في ري المزروعات على قنوات الري التي يعود تاريخها إلى القرن الحادي عشر الميلادي. كما اعتمد الفلاحون على العمل بنظام الدوريتين، وذلك بزراعة الأرض سنة وتركها سنة أخرى لتستريح³.

كانت كل قبيلة تزرع وفقًا لاحتياجاتها وإمكانياتها المتاحة، ويتأثر هذا النشاط بعدة عوامل ومتغيرات تؤثر في حجم الإنتاج، من أهمها: المناخ، وكمية الأمطار، والتضاريس،

¹ - جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 175.

² - فندلين شلوصر: قسنطينة أيام أحمد باي 1832 - 1837، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، د. ط، صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م، ص 101.

³ - صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514 - 1830، د. ط، دار هومة، الجزائر، 2012م، ص 335.

ومساحة الأراضي المزروعة، وغيرها¹، كانت قبيلة النمامشة تخضع إداريًا لشيخ الحنانشة، وتمتلك أراضي واسعة تمتد من تبسة ونقرين التونسية شرقًا إلى منطقة خنشلة في الأوراس غربًا. خصصت القبيلة معظم هذه الأراضي كمراعٍ لمواشيها، واقتصرت زراعة الحبوب على مساحات صغيرة لسد حاجياتها الخاصة، رغم خصوبة الأرض. كانت معظم الأراضي الخصبة تُترك دون زراعة في فصل الشتاء لتكون مراعي للقبائل الأخرى، كما هو الحال مع قبيلة الحراكطة التي ترعى مواشيها في تلك الأراضي².

أما ملكيات الأراضي التابعة لسلطة البايلك، فكانت تتمركز عادةً حول المدن وتتميز بخصوبتها العالية، بالإضافة إلى وجود حاميات من الجند فيها. تخضع هذه الأراضي لسلطة الباي، ويحق له التصرف بها. توجد أيضًا أراضي أخرى ألحقت بأراضي البايلك عن طريق المصادرة، كما فعل الحاج أحمد باي عندما صادر أملاك عائلة أولاد عبد النور، والباي أحمد القلي الذي صادر أراضي عائلة ابن باديس، والباي بوحنك الذي استولى على العديد من الأراضي مثل أراضي عائلة بن جلول³، وقد قدرت الأراضي التي يمتلكها البايلك في أواخر العهد العثماني بـ 4800 جابدة⁴.

يحرث معظم المزارعين، وغالبيتهم من البدو، أراضيهم بين شهري سبتمبر وجانفي، ثم يحملون خيامهم وأدواتهم على ظهور البغال ويرتحلون بقطعانهم التي تقودها النساء. يمتطي صاحب الموكب حصانه مسلحًا ببندقية على ظهره، ويتولى حراسة القافلة. وعندما

¹ جمال الدين سعيدان: "الأحوال المعيشية والصحية في الريف القسنطيني فيما بين (1830-1919)", رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، دفعة 2017م، ص 28.

² جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 173.

³ عبد الرزاق قشوان: "الواقع الاقتصادي والاجتماعي في الشرق الجزائري (1219-1282 هـ / 1804-1871م)", أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، دفعة 2018م، ص 60-61.

⁴ سهام بومعزة: المرجع السابق، ص 254.

يجدون الماء والمرعى، يستقرون في المنطقة وينصبون خيامهم. غالبًا ما تجتمع عدة دواوير في مكان واحد، وقد ينشب بينها صراع. تتولى النساء والصبيان حراسة الخيام. هذا التنقل المستمر هو بحث دائم عن الماء والمرعى للمواشي. تستمر هذه الدواوير في التنقل حتى نهاية شهر مايو أو يونيو، وهو موعد حصاد الزرع الذي بذروه. يقوم الرجال بحصد المحصول باستخدام المناجل، ثم يدرسونه بعد جمعه في مكان واحد عن طريق البغال التي تدوسه بأقدامها. يُصَفَّى المحصول بمذراة لفصل الحبوب عن التبن، ويُخزن الناتج في مطامير محفورة في الأرض.¹

وفي هذا السياق، يشير كشرود حسان إلى أن الدكتور شاو قد ذكر بعض العادات التي كان يمارسها السكان في جمع وتخزين الحبوب، قائلاً: "إن المور والعرب حافظوا على العادات الشرقية في درس القمح بأرجل الأحصنة لنزع قشوره، وهي طريقة أسرع ولكنها أقل نظافة. وبعد درسه بهذه الطريقة، يُرمى بالمجرفة ثم يُحفظ في مطامير أو مخازن تحت الأرض. وقد شاهدت مرارًا 200 أو 300 مطمورة مجتمعة، أصغرها حجمًا قادر على استيعاب 400 صاع من القمح."²

تُعدّ المطحنة الحجرية إحدى الوسائل التي يستخدمها الناس لطحن الحبوب، وهي تتكون من حجريْن مستديرين غير كبيرين الحجم، يتوسطهما عمود خشبي صغير. يوضع القمح في فتحة موجودة في الحجر العلوي، ثم يُدار الحجر العلوي بواسطة عمود خشبي مثبت به، وتستمر العملية حتى تطحن الحبوب وتصبح دقيقًا.³

من بين القبائل التي تقطن جنوب قسنطينة، وخاصة في منطقة ورقلة، قبيلة سعيد التي تميزت بامتھان الرعي، وكثرة فرسانها، وشدة بأسها، وتقلها طلبًا للرعي. كانت هذه القبيلة

¹ - فنديلين شلوصر: المصدر السابق، ص 89 - 90.

² - كشرود حسان: المرجع السابق، ص 56 - 57.

³ - فنديلين شلوصر: المصدر السابق، ص 89 - 90.

تنتقل بين الصحراء وتصل إلى الهضاب العليا، فبعد قضاء فصل الشتاء في مناطق ورقلة ونقوسة، تتجه في بداية الربيع إلى وادي ميزاب، ثم تتوجه إلى الهضاب العليا عبر مضيق تاجرونة شرق جبل عمور. وبعد انقضاء فصل الصيف، تعود مرة أخرى إلى ضواحي ورقلة، وهكذا كل سنة ينتقلون من الجنوب إلى الشمال بحثًا عن الماء والكأ لمواشيهم. كذلك قبيلة الشعانبة التي تجوب العرق الشرقي الكبير ومدينة ورقلة، بالإضافة إلى قبيلتي الربيع وأولاد نايل اللتين كانتا تقصدان منطقة ورقلة في فصل الشتاء بحثًا عن المراعي لمواشيهما.¹

تعد المناطق الوسطى والجنوبية في بايلك قسنطينة مناطق رعوية بالدرجة الأولى وليست زراعية، خاصة في نطاق الإستبس الذي يشمل مناطق الحضنة كالمسيلة وبوسعادة وأم الدوكال، حيث تنتشر فيها العديد من النباتات الصالحة للرعي كالشيخ والحلفاء وبعض الشجيرات الصغيرة مثل الذمران والملح والدرين والبلبال والغردق.²، بالإضافة إلى أحراش كثيفة متنوعة، والعديد من النباتات القصيرة التي تصل إلى غاية أطراف الصحراء، وتزدهر هذه الحشائش في فصل الشتاء والربيع ثم تذبل ويختفي أغلبها في فصل الصيف، وإذا نزلنا قليلا نحو الصحراء نلاحظ أنها تنتشر نباتات الشيخ والحلفاء والسندرا³ والقطف (الرغل المحلي)⁴ خاصة في الأطراف الشمالية للصحراء وبالقرب من

¹ - ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 478-479.

² - هبة الله بوغراة: المرجع السابق، دفعة 2021م، ص 27.

³ - وهيبة بولصباغ، أحمد صاري: "نظام الرعي في الريف القسنطيني خلال العهد العثماني"، المجلة الجزائرية للأبحاث والدراسات، جامعة جيجل، الجزائر، المجلد 05، العدد 01، جانفي 2022م، ص 671.

⁴ - M. Steeg, les trritoires de sud de l'Algérie, t 2, ancienne maison bastide-jourdan, alger, 1922, p 179.

الشطوط، وكل هذه الأماكن كانت صالحة للرعي باعتبارها مناطق ذات عشب وكأ وفير للمواشي¹.

في أواخر العهد العثماني، اتسمت الأقاليم الجنوبية لبابك قسنطينة بطابع بدوي متنقل، خاصة البدو الذين اعتمدوا على الرعي كمصدر رزق. تطلبت هذه الحرفة التنقل الدائم بحثاً عن المراعي والمياه لمواشيهم. كان هؤلاء البدو يعيشون في مجموعات تتراوح بين 50 و 100 خيمة، تُعرف باسم الدوار، ويحكمها شيخ الدوار، وهو شخص ذو مكانة وخبرة داخل القبيلة. يتولى شيخ الدوار تنظيم شؤونهم التجارية، وتخضع له القبيلة طواعية. تتشكل المنطقة من مجموعة من الدواوير يحكمها قائد².

ثانياً: النظام الضريبي:

يرى بعض الباحثين أن العلاقة بين السلطة العثمانية في الجزائر والسكان كانت في كثير من الأحيان قائمة على تحصيل الضرائب، وأن الإدارة كانت تلجأ إلى استخدام القوة في استخلاصها. لكن الحقيقة هي عكس ذلك، فالدولة كانت تراعي الظروف الاقتصادية والاجتماعية للبلاد عند فرض الضرائب، وتأخذ بعين الاعتبار طبيعة التضاريس والمناخ السائد في كل جهة³.

في فترة الحكم العثماني، ارتبط النظام الضريبي في إيالة الجزائر بشكل أساسي بالملكيات الزراعية، والحرف، والنشاط التجاري. خضعت هذه الملكيات لنظام ضريبي محدد، شمل ضريبة العشور على المحاصيل الزراعية وضريبة الزكاة على المواشي. كانت قيمة العشور تُحدد بناءً على عدد المواشي، حيث كان يُفرض مبدئياً على كل رأس

¹ - وهيبة بولصباغ، أحمد صاري: المرجع السابق، ص 671.

² - فندلين شلوصر: المصدر السابق، ص 89.

³ - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي والاقتصادي للجزائر في أواخر العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 118.

غنم صاع من القمح وصاع آخر من الشعير، بالإضافة إلى حَمَلين من التبن وكمية من الزبدة في بعض المناطق¹.

وفيما يخص أراضي البايلك فإنها كانت تستغل عن طريق نظام الخماسة أو التويزة، أو تسلم للأهالي مقابل خدمات وفوائد²، ويُعرف هؤلاء الذين يستغلون تلك الأراضي أيضا باسم "العزل"، وطريقة العمل في هذه الحالة تشترط أن يساهم صاحب الأرض بتوفير البذور والمحراث والثيران والبغال، في حين يتم اقتسام تكاليف عمليات الحصاد والدرس وتهيئة الأرض، أو ربما يساهم الخماس بخمس تلك التكاليف فقط، وفي نهاية المطاف يحصل الخماس على 5/1 من المنتوج والباقي يرجع لصاحب الأرض³، وفي بعض الأحيان يتم كرائها وتؤخذ عنها رسوم الحكور وقد قدرت تلك الرسوم ب: 137.547 ريال بوجو عن كل جابدة، وفي بعض الأحيان تعطى أراضي البايلك كإقطاع لذوي النفوذ والمكانة مقابل دفع ضريبة سنوية لا تتجاوز في العادة 4 ريالات عن كل جابدة، كما كانت تقوم قبائل المخزن باستغلال أراضي الدولة مقابل ضرائب منخفضة أو رمزية وتقدر ب 2345 قيسة قمح ومثلها شعير⁴.

تُعدّ الضرائب المفروضة على الأراضي القبلية المشاعة (أراضي العرش) نوعاً من الضرائب الثابتة، حيث كانت تُفرض عليها ضريبة سنوية تُعرف بـ "اللزمة" أو "المعونة"،

¹ ناصر الدين سعيدوني: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر - تونس - طرابلس الغرب)، المرجع السابق، ص 18.

² ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792 - 1830)، المرجع السابق، ص 83.

³ عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، ص 105.

⁴ ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، د. ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 32.

وتُسمى في بعض المناطق "الخطية". وقد بلغ مجموع هذه الضرائب في بايلك الشرق حوالي 35,700 ريال بوجو سنويًا.¹

كما فُرضت على القبائل أنواع أخرى من الضرائب كانت تؤخذ من القبائل المستعصية أو المستقلة قسرًا، وذلك باللجوء إلى قبائل المخزن أو الحملات العسكرية، ومن بين تلك الضرائب: ضيفة الباي، وضيافة الفرح والبشارة، وحق البرنوس، ومهر باشا، وغيرها.²

وقد فرضت ضرائب أخرى كضريبة ضيفة العادة وربما تكون هي نفسها ضيفة الباي وهي عبارة عن مساهمة من الأهالي للباي تعبيراً على خضوع الأهالي واعترافاً منهم بسلطة الباي، وتوجد أيضاً ضيفة الدنوش³ وهي ضريبة فصلية الهدف منها المساهمة في الدنوش الفصلية والسنوية التي ترسل من قسنطينة إلى عاصمة الإيالة، وقد قدرت قيمة هذه الضيفة عشية الاحتلال بـ 800 ألف فرنك، بالإضافة إلى هدايا أخرى تابعة لها تشمل 1500 بقرة و6000 خروف و71 حصان وغيرها من المنتوجات⁴، وهناك عوائد أخرى يدفعها الباي لكل صيف بحيث يرسل فيها مركبا مشحونا بالشحم والسمن للمراكب الجهادية على مستوى البحر انطلاقاً من مرسى عنابة⁵.

يذكر المؤرخون أن باي قسنطينة كان يرسل إلى داي الجزائر ضرائب وهدايا أخرى، وقد وصف محمد بن ميمون الجزائري أجملها بقوله: "... وقد حدثنا المؤرخون بأن باي قسنطينة كان يبعث إلى داي الجزائر كل سنة بمائة ريال (بوجو)، أي ما يعادل

¹ ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 32.

² نفسه، ص 32.

³ - حول عملية التدنيش ينظر الملحق رقم: 14 ص 369

⁴ - فلة القشاعي: المرجع السابق، ص 73 - 74.

⁵ - أحمد توفيق المدني: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر 1168 - 1246هـ/ 1754 - 1830م، د. ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص 47.

حوالي مائة وثمانين ألف فرنك بالصرف الفرنسي آنذاك، إضافة إلى عدد كبير من العبيد رجالاً ونساءً، وكمية كبيرة من البرانس والأغطية الصوفية، والجلود المدبوغة (الفلاية)، والخيول المسومة، والحمير والبغال الطيبة...¹.

إنّ مجموع الضرائب التي يدفعها بايلك قسنطينة لحاكم الجزائر لا يتجاوز 12% من إجمالي الضرائب التي يجمعها البايك ضمن إقليمه. بل قد تقارب خزينة بايلك قسنطينة في بعض الأحيان حجم خزينة حاكم الجزائر، كما حدث في فترة حكم صالح باي (1771-1772م).².

ويضاف إلى هذه الضرائب ضريبة **حق الشبير** وهي مستحقات تدفعها قبائل المخزن في شكل ضريبة على رؤوس المواشي التي تمتلكها فكانت تدفع عن كل رأس من الأبقار، الماعز، الجمال، الغنم، رسم رمزي يقدر ب: 10 سنتيم على كل رأس³، وهذه الضرائب لم تكن موحدة في قيمتها وكيفيتها وإنما كانت تختلف من حين لآخر ومن ضريبة لأخرى، فكانت في بعض الأحيان تؤخذ نقدا وفي البعض الآخر تؤخذ عينا⁴. وبالنسبة للأراضي المستعصية على السلطة فإنه تطبق عليها مجموعة من الضرائب والتي تتمثل في الغرامة واللزمة والمعونة، أما إذا امتنعت تلك القبائل عن دفع هذه الضرائب فإنها تتعرض للحملات العسكرية⁵.

كانت هناك أنواع أخرى من الضرائب تُفرض على الأهالي، مثل "حقوق التولية"، وهي مساهمة مالية يجمعها قائد المنطقة من شيوخ القبائل، ثم يقدمها بدوره إلى الإدارة

¹ محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 41.

² جميلة معاشي: المرجع السابق، ص 176-177.

³ فلة الفشاعي: المرجع السابق، ص 73-74.

⁴ ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 32.

⁵ ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المرجع السابق، ص 83.

المركزية عند تسلّمه لباس التولية، المعروف أيضًا بالخلعة أو القفطان. كما كانت هناك ضريبة أخرى تُسمى "حق البرنوس"، وهي مساهمة نقدية يجمعها أعيان القبيلة، ويتولى شيخ القبيلة تقديمها للقائد الذي يرسلها بدوره إلى آغا العرب، وذلك مقابل حصول شيخ القبيلة على برنوس المشيخة وتعيينه على رأس القبيلة¹.

وذكر حمدان خوجة أنه فُرض على كل محراث يجزّه ثوران حمولة بعير من القمح وأخرى من الشعير. وعندما يدفع السكان هذه الرسوم، يُمنحون وصلًا يوثق الضرائب المدفوعة. ولتسهيل هذه المهمة وضبطها، يقوم قائد كل قبيلة بإحصاء عدد الفلاحين الذين يمتلكون المحارث، ثم يسلم نسخة من هذا الإحصاء للقابض الذي يتولى جمع الضرائب بناءً عليه. وقد يُبذر في المحراث الواحد حوالي ست حمولات من القمح وأربع حمولات من الشعير².

تُعَدُّ الزكاة شكلاً آخر من أشكال الضرائب التي كان السكان يدفعونها للبايلك. ففي كل عام، كان يُحدّد السعر الراج للمواشي، وتُدفع الزكاة إما بمجموعة من المواشي، أو نقدًا، أو بتعويضها ببضائع أخرى، وذلك وفقًا لما تقتضيه الشريعة الإسلامية. كانت هذه العملية تتم عبر خطوات تبدأ بخروج قادة الأوطان برفقة فرسان المخزن، يساعدهم في ذلك شيوخ القبائل، ثم يتوجهون نحو القبائل لإحصاء مواشيها وتحديد نصاب الزكاة. كان دفع الزكاة يتم بشكل جماعي لكل دوار، بعد التشاور بين شيخ القبيلة والسكان لتحديد ما يتوجب على كل فرد دفعه. وفي حالة وجود الأمراض والأوبئة والمجاعات، كان يتم تأخير الدفع إلى السنة المقبلة، وتُعرف هذه الطريقة بـ "السلف". بعد جمع مستحقات الزكاة،

¹ - سعاد عقاد: "الفلاحون الجزائريون والسلطة العثمانية في الجزائر (1519- 1830م) دار السلطان - أنموذجاً -"، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، الجزائر، دفعة 2014م، ص 116.

² - حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 144.

كانت تُرفع إلى مركز البايلك، ثم تُباع في المزاد العلني، إن كانت مواشي أو منتوجات، تحت إشراف أعوان بيت المال أو عمال الخزينة. ومن المحتمل ألا تُباع كل المستحقات، بل جزء منها، للاستفادة منها في أمور أخرى. ويرجح أن معظم مستحقات الزكاة كانت تُدفع في فصل الربيع، وأحياناً في فصل الصيف¹.

مع بداية القرن الثامن عشر، وبعد تراجع البحرية الجزائرية وانخفاض الغنائم البحرية، ازداد نظام الضرائب بشكل ملحوظ في إيالة الجزائر وباقي الأقاليم. دفع هذا الأمر سلطة الإيالة إلى زيادة الضرائب لتعويض العجز المالي الناتج عن تراجع الغنائم، وذلك بالضغط على القبائل لدفعها².

كانت الحملات العسكرية إحدى الوسائل المستخدمة لجمع الضرائب³، ومن الأمثلة على ذلك، الحملات التأديبية التي قادها البيلرباي صالح ريس في شهر أكتوبر من عام 1552م، حين شن حملة عسكرية على منطقتي ورقلة وتقرت بجيش قوامه 3000 من المشاة و1000 من الفرسان، مزوداً بمدفعين لفك الحصار. أسفرت هذه العملية عن جمع 200 ألف ريال من سكان المنطقة. ومثال آخر، حملة يوسف باشا سنة 1649م على سكان المنطقة، والتي فرض خلالها ضريبة عليهم للمساهمة في تمويل خزينة الإيالة⁴، وفي عام 1790م، فُرضت ضرائب أخرى تمثلت في مساهمة مدينتي ورقلة وتقرت والمناطق الصحراوية المحيطة بهما بـ 45 عبداً من رقيق السودان سنوياً.

¹ - توفيق دحماني: "الضرائب في الجزائر (1206-1282هـ/ 1792-1865م) دراسة مقارنة"، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، دفعة 2008م، ص 215-216.

² - حنيفي هلايلي: "الصحراء الجزائرية خلال العهد العثماني"، دورية كان التاريخية، السنة 12، العدد 46، ديسمبر 2019م، ص 96.

³ - حول عملية التحصيل الضريبي في بايلك الشرق ينظر الملحق رقم: 22 ص 375

⁴ - نفسه: ص 96.

وقد قُسمت هذه الضرائب حسب المنطقة، حيث ساهمت تقرت بـ 16 عبداً، وورقلة بـ 25 عبداً، وتماسين بـ 4 عبيد¹. تُعد حملة الباي محمد الكبير، حاكم بايلك التيطري، على مدينة تقرت عام 1785م من أبرز الحملات الانتقامية التي شهدتها المنطقة. وقد جاءت هذه الحملة ردًا على تهرب بعض الجهات الصحراوية في إقليم الشرق من دفع الضرائب، حيث كانت هذه الجهات عصية على السلطة المركزية ونائية عنها، مما جعلها عرضة لحملات عسكرية متناوبة من الشرق والغرب بهدف تحصيل الضرائب المستحقة².

ومن بين الحملات الأخرى حملة الباي أحمد المملوك التي وقعت سنة 1815م³ والتي قام من خلالها هذا الأخير بتخريب مدينة تقرت وذلك بقطع نخيلها وطمس مياهها، ونتيجة لهذا الوضع قام محمد بن جلاب بالمسارعة في إرضاء الباي وتقديم ضريبة سنوية تقدر بـ 100 ألف ريال بسيطة⁴، وبقيت هذه الضرائب تدفع لبايات قسنطينة حتى سقوط عاصمة بايلك الشرق قسنطينة في يد الفرنسيين سنة 1837م⁵.

كانت هناك حملات عسكرية تُرسل لتحصيل الضرائب⁶ المفروضة على أراضي العرش، وغالبًا ما كانت هذه الأراضي تابعة لقبائل متمردة أو مستعصية على السلطة، خاصة القبائل الصحراوية والقاطنة في المناطق الجبلية الوعرة والحدودية، مثل قبائل أولاد

¹ ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 481، 483.

² عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، ص 106.

³ يخالف هذا التاريخ الباحث عبد الرزاق قشوان حيث ذكر أن حملة الباي أحمد المملوك على تقرت كانت سنة 1818م والتي قام من خلالها بقطع نخيلها التي وصلت إلى قطع 200 نخلة وطمس منابع مياهها. ينظر: عبد الرزاق قشوان، المرجع السابق، ص 106.

⁴ - للمزيد حول نوع العملات المتداولة في الجزائر في العهد العثماني ينظر الملحق: 16 ص 370

⁵ ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني المرجع السابق، ص 481، 483.

⁶ - حول تحصيل الضرائب على سكان الواحات الجنوبية ينظر الملحق رقم: 22 ص 375

سيدي يحي بن طالب والحناشنة¹ والنماشنة. كان الباي يقود هذه الحملات لتعقب العشائر الممتعة عن دفع الضرائب والاستيلاء على غنائم كبيرة، كما فعل مصطفى الوزناجي الذي قاد حملة عسكرية سنة 1797م على قبيلة الحراكتة، مما أدى إلى إخضاعها والحصول على غنائم وفيرة منها. وقد كرر الأمر مرة أخرى على نفس القبيلة واستحوذ على غنائم طائلة، الأمر الذي أزعج السكان ودفعمهم إلى القيام بعدة ثورات، أشهرها ثورات الأوراس بين سنتي 1818م و1823م، والتي أضعفت السلطة في تلك المناطق. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك حملات أخرى كحملة الباي شاكور سنة 1817م على قبيلة النماشنة وقبيلة... سيدي عبيد، وحملة إبراهيم باي سنة 1822م على قبيلة النماشنة كذلك واستحوذ من خلالها على أربعين ألف رأس² من الغنم³.

وبحكم أن بايلك قسنطينة تحده من الشرق تونس فإنه في الكثير من الأحيان كان حكام تونس يستميلون لهم بعض القبائل المتواجدة بالببايلك خاصة قبيلة الحناشنة⁴ التي كانت تمتلك قوة عسكرية كبيرة قوامها أكثر من ثمانية آلاف فارس⁵ وهذا أثناء حملاتهم على إيالة الجزائر، وهو ما دفع هذه القبيلة بزعامة شيخها بوعزيز بن ناصر سنة 1724م بإعلان عصيانها ورفضها لدفع الضرائب السنوية وهو ما جعل الباي حسين بوكمية (1713-1736م) يخرج بحملة عسكرية تأديبا لهذه القبيلة، وحققت تلك الحملة أهدافها

1 - للمزيد حول الحملات التأديبية التي قادها احمد باي ضد قبائل الحناشنة ينظر الملحق: 13 ص 367

2- هذا الرقم الذي ذكره عبد الرزاق قشوان يبدو أنه مبالغ فيه خاصة وأن هذا الرقم كبير جدا ربما أن تلك القبائل لا تصل ثروتها الحيوانية لهذا الكم.

3- عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، ص 106-107.

4- كشرود حسان: المرجع السابق، ص 47.

5- محمد صابري: "واقع الريف في بايلك الشرق خلال العهد العثماني (1519-1830) دراسة اجتماعية اقتصادية"، أطروحة الدكتوراه الطور الثالث في تخصص تاريخ بلاد المغرب الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة بسكرة، الجزائر، دفعة 2024م، ص 74.

برضوخ واستسلام شيخ القبيلة لسلطة الباي، ورغم ذلك بقيت العلاقة متوترة وفي نفس الوقت واصلت القبيلة علاقتها ببايات تونس¹ ورافضة التعامل مع بايات قسنطينة². يُستدلّ على هذا الخضوع والاستسلام الذي أظهره شيخ القبيلة بوعزيز بن ناصر ممّا ذكره العالم الألماني ج. هبنسترايت، إذ قال: "... وكان الباي قد ألحق مؤخرًا هزيمة بأحد شيوخ القبائل المجاورة، فجرّده من مكانته ومنحها لشيخ آخر مقابل مبلغ كبير من المال. هذا ما دفع الشيخ المعزول، المعروف لدى رجال قبيلته ببوعزيز أو أبو الوطن، إلى أن يتعهد أمام الباي، مقابل تثبيته في منصبه الذي سُلِب منه، بإرسال رهائن من رجال قبيلته تأكيدًا على حسن نيته، وتقديم مبلغ ثلاثين [وحدة نقدية] كترضية." ألف قرش بالإضافة إلى دفع ضريبة سنوية مقدارها عشرة آلاف قرش، فكان هذا العرض كاف لأن يغير الباي رأيه...³.

وفقًا لما ذكره الباحث دلباز محمد، استنادًا إلى دفتر التشريعات، حول الضرائب التي كانت تُفرض على أهالي الجنوب، فإن قائد ورقلة كان يدفع سنويًا لقصر الإيالة شماغًا و928 صايمة. بينما كانت العديد من القبائل في الجنوب، وخاصةً البعيدة عن عاصمة الإقليم، لا تدفع الضرائب إلا باستخدام القوة العسكرية ضدها. وكانت هناك محلات عسكرية مختصة في جمع الضرائب تصل إلى قسنطينة كل سنة، تتكون من 1550 جنديًا تركيًا، يأخذ شيخ العرب جزءًا منهم ويتوجه بهم إلى الصحراء. وتتمثل مهام هذه الفرقة في جباية الضرائب، وإن تطلب الأمر، تأديب القبائل المتمردة أو الممتنعة عن الدفع، ومن بين أدوارها أيضًا إخماد الحروب التي تتشب بين القبائل المتجاورة⁴.

1 - للمزيد حول العلاقات المتأرجحة لبايات قسنطينة ينظر الملحق: رقم 28 ص 379

2- كشرود حسان: المرجع السابق، ص 47.

3- ج. أو. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني: ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/ 1732م)،

ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، د. ط، دار الغرب الإسلامي، تونس، د. ت، ص 85.

4- عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، ص 103.

كان النظام الضريبي في بايلك قسنطينة محكمًا، على غرار باقي بايلكات الإيالة. وتألّف الجهاز الإداري المكلف بجمع الضرائب وإحصائها، والذي تمركز بشكل أساسي في عاصمة الإقليم قسنطينة، من الباي ومساعديه كالخليفة، وقائد الدار، والخزناجي، والباش كاتب، وآغا الدائرة، ووكيل الأوقاف، وغيرهم. كما كان هناك موظفون على صلة مباشرة بسكان الأرياف وجمع الضرائب، من أبرزهم "القياد"، الذين أشرفوا على المجتمعات القبلية والأرياف.¹ ويهتمون أيضا بالنظر في شؤون القبائل وإقرار الأمن وجمع الضرائب بمساعدة شيوخ وزعماء القبائل.²

وفيما يخص جمع الضرائب داخل القبيلة فهو من اختصاص القياد أو الحكام الذين لهم نفوذ وسلطة داخل الأرياف والقبائل³، كما أن لهم دورًا في تحديد قيمة الضرائب والإشراف على جمعها. ومع مرور الوقت، تخصص بعضهم في هذه المهنة وأصبحوا يُعرفون باسم "قائد جبري" أو "قائد عشور". ثم تطور هذا النظام، خاصة في عهد صالح باي (1771-1792م)، باستحداث تنظيمات خاصة بجمع الضرائب وإحصائها. وتماشياً مع ذلك، قُسم بايلك قسنطينة إلى قسمين: قسم شرقي وآخر غربي يفصل بينهما وادي الحمام، يخضع كل جزء منهما لقائد عشور. يقوم كل قائد بجولتين: إحداها في الخريف لتقييم عملية الحرث وتقدير المحصول المتوقع بعد الحصاد، والأخرى بعد موسم الحصاد لتحصيل ضريبة العشور (الجبري). ويساعده في هذه المهام شيوخ الدواوير وقياد النواحي وفرسان المخزن، ويتم ذلك بحضور قائد القبيلة وشيخ الدوار والفلاحين. وتُدوّن هذه

1 - حول النظام الضريبي في الريف ينظر الملحق: رقم 30

2- فلة القشاعي: المرجع السابق، ص 55-56.

3 - حول دور شيوخ القبائل في جمع الضرائب ينظر الملحق: رقم 29 ص 380

المعلومات في ورقة (جريدة) لضبط وتدوين مختلف الضرائب التي جُمعت من الفلاحين، ويتولى القيادة حفظ نسخة منها، بينما تُرسل نسخة ثانية إلى الباي في مركزه بقسنطينة.¹ يذكر عبد الرزاق قشوان أن هؤلاء القادة يخضعون لقائد يُدعى "قائد الدار"، ويقوم بجولتين في نطاق مقاطعته برفقة قائد القبيلة وشيخ الدوار والخماس. تُدَوَّن نتائج هذه الجولات وتُرفع إلى الباي، وبعد اتخاذ الإجراءات المسجلة، تُعاد إليه المذكرة النهائية الواجب تطبيقها، والتي على أساسها تُستخلص الضرائب المفروضة.²

يذكر ناصر الدين سعيدوني أن أصحاب الملكيات الزراعية الخاصة كانوا يدفعون ضريبة العشور، التي كانت تُحدد بناءً على عدد الجابدات أو الزويجات. كان يُؤخذ عن كل جابدة صاع من القمح وآخر من الشعير، بالإضافة إلى حمولتين من التين، وبعض الزبدة، وعدد من الدواجن في بعض الأحيان. ويشير إلى أن قيمة ضريبة العشور والزكاة التي جُمعت من إقليم بايلك الشرق بلغت 20,762 صاعًا من الحبوب، نصفها من القمح والنصف الآخر من الشعير.³

ثالثًا: النشاط الصناعي:

ازدهر النشاط الصناعي والحرفي في بايلك الشرق خلال العهد العثماني، وذلك لتوفر المواد الأولية، كالمنتجات الحيوانية من صوف وجلود، إضافةً إلى الحرير، والمحاصيل الزراعية، خاصةً القمح والشعير، والمعادن كالحديد والرصاص والنحاس والملح، وغيرها من المواد الضرورية. ساهم هذا الوفرة في تنشيط الحرف، سواء تلك التي تلبى الحاجات المنزلية أو التي تُباع. أدت هذه العوامل وغيرها إلى ظهور أنشطة متعددة،

¹ - نفسه: ص 56-57.

² - عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، ص 104.

³ - ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 32.

كالنجارة التي تُعدّ من أهم الحرف انتشاراً في الإقليم، وبالأخص في عاصمته قسنطينة، حيث يتم تحويل الأخشاب إلى مصنوعات متنوعة كالكراسي والأواني الخشبية¹. يمكننا استنتاج وجود أغلب هذه الصناعات من خلال ما ذكره الأسير فنديلين شلوسر، حيث قال: "... يوجد في قسنطينة عدد كبير من الحرفيين، وخاصة الحدادين. بالإضافة إلى صانعي الأسماك والنحاسين والنجارين المهرة وصناع السيور والخياطين المهرة الذين يظهرون براعة فائقة في التطريز بالذهب والفضة والحريز، وكذلك صانعي السلال وعدد كبير من النساجين، إلا أن هؤلاء لا يصنعون سوى الأقمشة الصوفية كالسراويل والسترات الخاصة بالطبقات الفقيرة. ويحتكر اليهود الأعمال المتعلقة بالذهب والفضة. وهناك أيضاً عدد كبير من الدباغين والخبازين."².

اشتهرت مدينة قسنطينة بصناعة الدباغة التي احتلت الصدارة بين الصناعات في المنطقة، ويعود ذلك إلى انتشار مهنة الرعي التي تستلزمها هذه الصناعة. كما ازدهرت صناعة الأسرجة المرتبطة بتربية الخيل، وصناعة الحلبي، خاصة في المدن. وإلى جانب ذلك، انتشرت الصناعات النسيجية كالألبيسة النسائية والبرانس³، ومن أشهرها برانس الأطلس الصحراوي التي كان يباع الواحد منها ب: 100 فرنك⁴، بالإضافة إلى ذلك، كانت القبائل الرعوية تصنع احتياجاتها الخاصة بنفسها، مثل المنسوجات الصوفية والخيام

¹ - الدراجي بلخوص: "واقع النشاط الحرفي والصناعي ببيايك الشرق من خلال كتب النوازل -نوازل ابن الفكون القسنطيني أنموذجاً-"، مجلة الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، المجلد 07، العدد 4، وان 2022م، ص 753 إلى 755.

² - فنديلين شلوسر: المصدر السابق، ص 87.

³ - خولة نواري: "الحرف والصناعات في أسواق قسنطينة من خلال مخطوط دفتر أحباسها (القرن 10 - 11هـ/ 16-17م)"، مجلة روافد، جامعة عين تيموشنت، الجزائر، المجلد 3، العدد 1، جوان 2019م، ص 44.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 69.

والزرابي والحياك. وبعض هذه القبائل، خاصةً سكان المناطق الجبلية، كانوا يصنعون الأسلحة والأدوات الفلاحية وغيرها¹.

يذكر فنديلين شلوسر، واصفًا طريقة صنع الخيام (بيوت الصوف) والملابس الصوفية كالبرانس والزرابي، أنها كانت تُصنع بالطريقة التالية: "تجلس امرأتان خلف المنسج، لنسج ألبسة الرجال والنساء والأطفال، ويكون المنسج منتصبًا بصورة مستقيمة. تُربط به مجموعة من الخيوط، وتُمرر البقية بواسطة الأصابع، وتُثبت باستخدام قطعة من الخشب. في الوقت نفسه، تجلس امرأة ثالثة خارج الخيمة، وتشد خيوطًا صوفية بين أربعة أعمدة، وتنسج القماش الذي يُصنع منه هيكل الخيمة. بينما تقوم امرأة أخرى بغزل الصوف مستخدمة مغزلًا ذا قرص خشبي يُدار باليد. تمسك المرأة تحت ذراعها عصا لُفَّ حولها الصوف، وتسحب منها خيطًا، وتضعه حول المغزل، ثم تديره فوق فخذها، ثم تبعده عنها إلى الأسفل وتتركه يدور، وأثناء سحبها للخيط الصوفي ببطء، يتكون خيط سميك."².

في المناطق الجنوبية من إقليم قسنطينة، ازدهرت العديد من الصناعات، خاصة تلك التي تلبي الاحتياجات المحلية. على سبيل المثال، اشتهرت صناعة البرانيس، وهي من أبرز الألبسة الرجالية التي كانت رائجة في تلك الفترة، وتتميز بتنوع أنواعها وأشكالها، خاصة الرفيعة والمتوسطة الحجم، وتُصنع عادةً من الصوف. كما انتشرت صناعة الحياك، وهي من الألبسة النسائية وتُعرف أيضًا بالحوالي، وتُصنع غالبًا من الصوف وتُطرز بالحرير. بالإضافة إلى ذلك، هناك حوالي خاصة بالرجال تُسمى "الحوالي الحسنية" وتُصنع أيضًا من الصوف. وهناك نوع آخر يُسمى "الحوالي القطنية"، وهي مصنوعة من الصوف ومزينة بالقطن، ويرتديها الرجال والنساء على حد سواء. ومن بين الصناعات الأخرى التي كانت منتشرة بشكل خاص في نواحي سوف، نجد على سبيل

¹ صالح عباد: المرجع السابق، ص 337.

² فنديلين شلوسر: المصدر السابق، ص 93-94.

المثال: القنادر، البخانيق، حوالي الفراش، الحنابل، الأحمال، القطايف، الزرابي، القشابات، الوسائد، اللحافي، الأفلجة، المحازم، الخيوط، القرب، القرايش وغيرها¹. وفي مجال آخر، انتشر في تلك الفترة اهتمام العديد من القبائل بصناعة وتحضير البارود، خاصة في ضواحي بسكرة التي يوجد بها منجم لقساين (Loukseine). بالإضافة إلى ذلك، اشتهرت منطقة بوسعادة بصناعة الصابون وصباغة الملابس والبرانس²، في الجنوب، اشتهرت منطقة تقرت بحرفة الصياغة، بينما ازدهرت في المدن الصحراوية الأخرى حرف كالنجارة والحدادة والخياطة وصناعة الأسلحة³.

رابعاً: النشاط التجاري:

1-التجارة الداخلية:

ازدهر النشاط التجاري في إقليم قسنطينة، شأنه شأن الأنشطة الأخرى. ويتضح ذلك من قول الأسير فندلين شلوصر: "كانت قسنطينة، كما يذكر أهلها، مركزاً تجارياً هاماً في الماضي، نظراً لموقعها بين الجزائر وعنابة وتونس. وكانت - ولا تزال - تستقبل كميات كبيرة من الأخشاب والثمار والمنتجات الأخرى في أسواقها. كان تليس القمح يُباع آنذاك بريالين، والبقرة السمينه بأربعة ريالات. لكن الوضع تغير بعد احتلال الفرنسيين للجزء الأكبر من منطقة عنابة، وبعد أن أصبح الفلاحون يبيعون بضائعهم لهم بأسعار أفضل، فارتفع سعر القمح إلى 14 ريالاً بدلاً من ريالين، والبقرة إلى أربعين ريالاً بدلاً من أربعة ريالات، مما اضطر الباي إلى توزيع القمح والخبز والأغنام على الفقراء أكثر من مرة.

¹ - إبراهيم محمد الساسي العوامر: الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر، د. ط، منشورات ثالة، الجزائر، 2007م، ص 104 وما يليها.

² - ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 67، 69.

³ - محمد صابري: المرجع السابق، ص 79.

واستمر هذا الغلاء حتى سنة 1837م.¹ بينما جاء في تحقيق مخطوط بلد قسنطينة أن من أهم منتوجات البايك الزراعية الحبوب وخاصة القمح وكان سعر الصاع الواحد منه يباع بحوالي 11 فرنكا².

ووفقاً لعدي الهواري، اتسم الاقتصاد داخل القبيلة بالاكتهاء الذاتي في أغلب الأحوال. أما المبادلات التجارية مع الخارج، فكانت تعتمد على نظام المقايضة الذي ساهم في الحد من استخدام العملات النقدية الذهبية والفضية، خاصة في المناطق النائية، حيث كانت التجارة تتم عن طريق تبادل السلع نظراً للاكتهاء الذاتي لتلك القبائل.³ نوعاً ما فهي تستهلك ما تنتج.

وارتبط النشاط التجاري بوجود الأسواق⁴ وحركيتها، خاصة المبادلات التجارية التي كانت تتم بين المدينة والريف وكذلك بين التل والصحراء، وتنوعت هذه الأسواق في مواعيدها فقد كانت مضبوطة زمنياً، فكانت توجد الأسواق الأسبوعية والسنوية⁵، ومن بين أشهر الأسواق في باييك قسنطينة نجد: سوق أولاد عبد النور والحراكتة، السقنية وتلاغمة، سوق وادي العثمانية السنوي⁶، وكانت السلطة الحاكمة تقوم بإدارة هذه الأسواق وتنظيمها ومراقبتها، ومن بين أشهر القبائل البدوية الرحالة التي لعبت دوراً مهماً في تنشيط هذه الأسواق خاصة السنوية منها نجد أولاد سيدي الشيخ وأولاد نايل والنمماشة والعديد من

¹ - فنديلين شلوصر: المصدر السابق، ص 87.

² - رياض بولحيال: "أخبار بلد قسنطينة وحكامها لمؤلف مجهول (دراسة وتحقيق)"، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تخصص علم المخطوط العربي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، دفعة 2010م، ص 29.

³ - عدي الهواري: الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ترجمة جوزف عبد الله، ط 1، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1983م، ص 70.

⁴ - حول الحركة التجارية والأسواق بالشرق الجزائري ينظر الملحق رقم: 42

⁵ - صالح عباد: المرجع السابق، ص 339.

⁶ - أرزقي شويتام: "المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519 - 1830م"، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، دفعة 2006م، ص 237.

القبائل الأخرى، ومن أهم المنتوجات الصحراوية التي كانت متواجدة في مختلف الأسواق نجد التمور بمختلف أنواعها وريش النعام والأصواف والماشية¹. من بين التجار الناشطين في هذا المجال، تجار بوسعادة الذين يبيعون منتجاتهم، كالأغنام والأصواف، في ضواحي تقرت ووادي سوف. وقد انتشرت أيضًا الأسواق الأسبوعية كسوق الجمعة والسبت والإثنين وغيرها²، ينشط تجار بوسعادة في حركة تجارية تجاه بني عباس بمنطقة القبائل، وذلك بغرض شراء الزيت. ثم يقومون ببيع الفائض عن حاجتهم إلى قبائل أولاد نائل، التي تتولى بدورها نقله إلى وادي ميزاب³، بالإضافة إلى ذلك كان التجار العرب البدو يجلبون إلى الأسواق الغلال والماشية والصوف ويأخذون بدلها زيت الزيتون والتين والبندق والبارود⁴. فيما يتعلق بالتجارة الموسمية، كانت القبائل الصحراوية تتوافد على الأسواق التلية حاملة معها سلعة متنوعة كالتنمر والصوف المغزول، وتعود محملة بالحبوب والزبدة والأغنام. وكان توافد التجار من الصحراء يزداد على هذه الأسواق خلال موسم الحصاد، حيث يكثر إنتاج الحبوب وينخفض سعرها⁵.

¹ - صالح عباد، المرجع السابق، ص 339 - 340.

² - نفسه: ص 339 - 340.

³ - أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص 239.

⁴ - فندلين شلوصر: المصدر السابق، ص 90.

⁵ - أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص 239.

2- التجارة الخارجية:

لقد كان لقبائل جنوب بايلك قسنطينة نشاط تجاري خارج اقليمها يتمثل في الإتجار مع الأقاليم المجاورة ويأتي في مقدمتها القطر التونسي¹ ، وبعض مدن ليبيا كحاضرة غات وغدامس وأقاليم السودان الغربي.

1- تونس:²

تعدّ مدن الأقاليم التونسية، وخاصة الغربية والجنوبية، من أهم المراكز الحضرية التي كانت تربطها علاقات تجارية شبه مستمرة مع القبائل الجزائرية خلال تلك الفترة، وذلك لعدة أسباب، أهمها: القرب الجغرافي والعرقى، وتوفر السلع والبضائع التي تحتاجها هذه القبائل.

خلال فترة حكم الحفصيين، شهدت تونس تطوراً في بنيتها التحتية من خلال إنشاء مرافق متخصصة متعددة، مثل الأسواق المخصصة للمهن والحرف والصناعات حول جامع الزيتونة وفي أطراف المدينة. بعض هذه الأسواق لا يزال قائماً حتى اليوم، مثل أسواق الصباغين والعطارين والشماعين والجلادين، بالإضافة إلى أسواق الذهب والفضة والزجاج والنقش على النحاس وبعض المعادن الأخرى³.

تضم بعض أسواق تونس عدداً كبيراً من تجار القماش، الذين يعتبرهم الوزان أغنى سكان المدينة. كما تضم بائعي الأشربة والعقاقير المحلاة بالسكر، وتجار الحرير

¹ - تميزت تونس في القرن الثامن عشر بوفرة المواد الغذائية والبضائع النفيسة الفخمة الآتية من الداخل والخارج وبثروات طائلة بفضل التجارة الدولية ونشاط القرصنة وقد كان الوزير يوسف صاحب الطابع واحداً من أصحاب تلك الثروات، وإلى نفس الفترة التاريخية (أوائل القرن 19م) يعود أيضاً ترميم الأسوار الخارجية للمدينة على يد الباي حمودة باشا. للمزيد ينظر: أحمد الطويلي: في الحضارة العربية التونسية، دار المعارف للطباعة والنشر، دت، سوسة، تونس، ص16. و الحسين الوزان: المصدر السابق، ص75.

² - للمزيد حول تجارة قسنطينة مع تونس ينظر الملحق: رقم 34 ص 387

³ - أحمد الطويلي: في الحضارة العربية التونسية، دار المعارف للطباعة والنشر، دت، سوسة، تونس، ص16.

والخياطين والسراجين والفرانين والبانين والخبازين والقصابين، وغير ذلك من الحرف التي تمارس في هذه السوق¹.

تُعد الثروة الحيوانية من أهم السلع المتداولة² ازدهرت تربية الأغنام والماعز في تلك الفترة، خاصة في تونس، وبالأخص لدى القبائل المجاورة مثل الحناشنة والناماشة، حيث كانوا يجلبون العشرات من رؤوس الماشية، خاصة الماعز، لبيعها في الأسواق التونسية. تراوحت أعداد المواشي التي جُلبت إلى الأسواق التونسية غالبًا بين 35 و 100 رأس. في المقابل، تميزت المواشي التي كان يرسلها الباي مع موظفيه إلى الأسواق التونسية³ بأعدادها الكبيرة التي وصلت إلى 1000 رأس من الغنم. أما بالنسبة للأسعار في الأسواق التونسية، فقد تراوحت بين 2 و 7 ريال⁴.

لم تقتصر المبادلات التجارية بين تونس وبايك الشرق على المواشي فحسب، بل شملت منتجات أخرى أيضًا.⁵ فكانت تصدر الحبوب والزيوت والصوف والشموع والجلود وريش النعام، وتستورد العطور والأسلحة والأقمشة والسكر والقهوة والحديد والورق ومواد البناء⁶.

وتُصدر من مدينة قسنطينة كل شهر قافلة تجارية⁷ نحو تونس⁸ تتكون من حوالي 200 إلى 300 بغل محملة بمنتجات كثيرة⁹.

1 - الحسين الوزان: المصدر السابق، ص 75.

2 - حول تعداد الثروة الحيوانية بببايك الشرق ينظر الملحق رقم: 20 ص 374

3 - رسالة بين حكام ايلالة الجزائر وتونس بخصوص التعاملات التجاري للمزيد ينظر الملحق: رقم 37، ص 390

4 - وهيبة بولصباغ، أحمد صاري: المرجع السابق، ص 200 إلى 202.

5 - حول عمليات التبادل التجاري بين الشرق الجزائري والأسواق التونسية ينظر الملحق رقم: 238 ص 391

6 - عميرواي أحميدة: علاقات بابيك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، د. ط، دار

البعث، قسنطينة، الجزائر، 2002م، ص 34.

7 - حول حركة التنقل بين ايلالة الجزائر وتونس سنة 1827. ينظر الملحق رقم: 19 ص 159

8 - للمزيد حول الأسواق وأهم الطرق بببايك قسنطينة والأسواق التونسية ينظر الملحق رقم: 18 ص 372

ولقد كان للمنطقة تعامل مع الحواضر الليبية لقربها الجغرافي وسهولة الوصول إليها مثل منطقة غدامس¹، وغات².

⁹ - أحمد سيساوي: "البعد البايكلي في المشاريع السياسية الاستعمارية الفرنسية من فالي إلى نابليون الثالث 1838-1871"، أطروحة دكتوراه علوم ي التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة 2، الجزائر، دفعة 2014م، ص 18.

¹ - غدامس : تعد حاضرة غدامس من المناطق التي كانت لها علاقات تجارية مع الأقاليم الجزائرية والتونسية المجاورة خلال فترة الدراسة ،وهي أحد المراكز التجارية الهامة في حياة التجارة بين التجار المغاربة والسودانيين ،تقع هذه الحاضرة جنوب غرب مدينة طرابلس الليبية¹. قال عنها الحسن الوزان: « أنها منطقة كبيرة مسكونة، حيث القصور العديدة ،والقرى المأهولة، على بعد نحو ثلاثمائة ميل من البحر المتوسط ،سكانها أغنياء لهم بساتين نخل وأموال لأنهم يتجرون مع بلاد السودان» . ترتبط غدامس تجاريا بمدينة بعديد الحواضر الجزائرية كورجلان ووادي سوف وغيرها من الحواضر المتقاربة جغرافيا معها عين طريق التبادل التجاري للسلع القادمة والآتية من ليبيا وأسواق السودان كما ترتبط بحواضر السودان مثل: تمبكتو، وغاو، وجني، واقادز، وتادمكة، ومع قرى سودانية أخرى، فصارت محطة مهمة في بداية الطريق عبر المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى إلى السودان الغربي، الحي الغدامسي بمدينة تنبكت من أرقى الأحياء - دلالة على التجار الغدامسين. نشطت القوافل التجارية الغدامسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ،وربطت أسواق الجزائر وتونس والمغرب وأسواق السودان الأوسط بميناء في بداية الطريق عبر المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى إلى السودان الغربي، الحي الغدامسي بمدينة تنبكت من أرقى الأحياء - دلالة على التجار الغدامسين. للمزيد ينظر: محمد مصطفى بازمه: ليبيا، ط2، قورينا للنشر، دت، ليبيا، ص13. و الحسن الوزان : وصف إفريقيا، ج1، ط2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان، 1983م، ص146. و الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص297.

² - غات : تقع هذه المنطقة في الجهة الجنوبية الغربية من البلاد الليبية يحدها من الجهة الشمالية منطقة العوينات وتارات ومن الشرق واحة مرزق وجبال أكاسن ومن الغرب الجزائر . وعموما تقع هذه الحاضرة في محيط تحيط بها الجبال من الجهة الغربية والشرقية. وقد لعبت غات نفس الدور الذي لعبته مدينة غدامس كحلقة وصل بين الشمال والجنوب والشرق والغرب بحكم موقعها القريب من تونس والجزائر مما حولها من المراكز التجارية المهمة التي تلتقي فيها طرق القوافل، ومن جهة أخرى، فإن موقع مدينة غات في منتصف المسافة تقريبا بين طرابلس ومناطق بحيرة تشاد ونهر النيجر قد جعلها محطة مهمة لطرق القوافل للإستراحة والتزود بالماء والزلاد فإن كانت المسافة بين طرابلس وكانوا تقطعها القوافل في 125 يوما فإن المسافة بين طرابلس وغات تقطعها في 55 يوما . لقد ساعد على نجاح مهمة غات كحلقة وصل، أن قبائل الطوارق المنتشرين بالمنطقة حرصوا على سلامة القوافل التجارية لارتباط مصادر عيشهم بهذه القوافل، وتجارة القوافل يرتبط استمرارها بوجود الأمن في المناطق التي تمر بها للمزيد ينظر: مفتاح يونس الرياض: ازدهار تجارة القوافل بين الدولة الحفصية ودولة كانم والبرنو في العصور الوسطى، في مجلة الساتل، جامعة 7 أكتوبر، ليبيا، ص95.

- التجارة مع بعض حواضر السودان الغربي:

تناولت المصادر التاريخية العربية بإسهاب المبادلات التجارية الهامة بين مدن الجزائر والمناطق الإفريقية المحيطة بالصحراء الكبرى جنوباً، والمعروفة ببلاد السودان.¹ من جهة أخرى، وكانت تصدر الى الشمال عدة منتجات من أهمها الذهب الذي اشتهرت بتوفره فيها، كما انها تستورد من الشمال كثيرا من المواد مثل المنسوجات والمواد المصنوعة والكتب، ومعدن الملح.²

بدأت المراكز التجارية في الظهور على أطراف الصحراء، في مناطق الاستقرار حول الواحات والوديان، حيث كان التبادل التجاري يتم بصورة بسيطة في البداية بين السكان المستقرين على أطراف الصحراء والبدو المتجولين لسد احتياجاتهم. ونظراً للتباين الواضح بين إنتاج المنطقة الصحراوية والأقاليم المحيطة بها، اتسع نطاق هذا التبادل مع عبور الصحراء بصورة منتظمة منذ العصر الفينيقي، ودخول سلع منطقتي حوض البحر المتوسط والسافانا جنوبي الصحراء في المجال التجاري، مما أدى إلى ازدياد الحركة التجارية في المحطات الواقعة على أطراف الصحراء الشمالية والجنوبية، وتغيرت طبيعة الحياة فيها.³

من الصعب إيجاد مدينة مغربية ليست لها علاقات تجارية مع مدن الصحراء وبلدان السودان الغربي.⁴ إذا حاولنا رسم خريطة لمسارات قوافل المدن المغربية

1 - حول الطرق والمسالك الرابطة بين الشرق الجزائري والأسواق السودانية ينظر الملحق رقم:31.

2 - محمد احمد شفيق: التواصل الحضاري العريق بين المناطق الإفريقية الواقعة شمال الصحراء الكبرى وجنوبها، أعمال ندوة التواصل، ص 166.

3 - الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص294.

4 - للمزيد حول التجارة مع السودان الغربي ينظر الملحق: رقم 25 ص 376

المساهمة في التجارة الصحراوية، فسنجد أن كل مدينة ترتبط بشبكة معقدة وواسعة من الطرق تصلها بمعظم المدن الصحراوية¹.

نشأت مدن عديدة نتيجة للحركة التجارية بين السودان الغربي ومراكز الجزائر، وذلك لخدمة التجارة والتأثر بها. من أمثلة هذه المدن: ورقلة، توقرت، توات، غدامس وغيرها. كان للتجار في هذه المراكز وكلاء وأدلاء وفنادق لإيواء بضائعهم، وحظائر لجمالهم. وبفضل هذه التجارة، نشأت لدى السكان تقاليد ثابتة في المعاملة، حيث يستقبلون القوافل بالترحاب، وأحياناً بالدفوف، ويستفيدون منها ويعيشون من تجارتهم معها².

بفضل موقعها الجغرافي، تُعدّ الجزائر منطقة عبور وملتقى لتجارة السودان وأوروبا، ومكاناً لتبادل البضائع بين المغرب العربي والأقطار العثمانية. وقد زاد ذلك من أهمية طرق التل التي تربط مدن الجزائر الرئيسية مثل قسنطينة وسوف، ومنطقة ورقلة والزيبان وغيرها. كما ساهم في ازدهار الواحات الصحراوية كمتليلي وميزاب وورقلة وعين صالح وتوات وغات، التي كانت معابر للقوافل العابرة للصحراء بين إقليم تافيلالت في المغرب وواحة غدامس في ليبيا وحوض النيجر في السودان، وحافظ على اتصال الموانئ³.

من أهم الحواضر الجزائرية التي كانت لها صلة تجارية بحواضر السودان خلال فترة الدراسة نجد الحواضر الآتية:

¹ - بشار قويدر: القوافل التجارية المغاربية، منشورات المركز الوطني للبحوث، 2001، ص 13.

² - عبد القادر زيادية: الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص 28.

³ - ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص 73.

- عاصمة بايلك الشرق: (قسنطينة)

ارتبطت مدينة قسنطينة تاريخياً بتجارة القوافل مع تونس والصحراء. وعلى الرغم من النزاعات المتكررة بين بايات تونس وبايات قسنطينة، حافظت المدينة على مكانتها التجارية وازدهارها، إذ كانت تخرج منها شهرياً قافلة تتكون من حوالي 3000 بغل متجهة نحو تونس عبر الكاف، وأخرى نحو الصحراء عبر بسكرة. كانت هذه القوافل تحمل الصوف والجلود والتمور القادمة من الواحات والشواشي، وتستورد المصنوعات الأوروبية والعطور، بالإضافة إلى بعض المنتجات المحلية والأجنبية كالتوابل والقهوة والأقمشة الحريرية¹.

اشتهرت قسنطينة بصناعات عديدة، أهمها صناعة النحاس التي كانت تُصدّر جزءاً منها إلى المناطق القريبة والبعيدة. كما ازدهرت تجارتها مع المدن المجاورة مثل نقاوس ومقرة ومسيلة وعنابة وتوقرت وسوف ورجلان، بالإضافة إلى مدن أخرى في الشرق والغرب والواحات الصحراوية والسودان الغربي².

- وادي سوف:

تشتهر مدينة سوف بكونها أكبر سوق في المنطقة، حيث يقصدها التجار من مختلف الواحات. وتضم أكثر من 300 متجرًا. من أهم مواردها التمور التي تنتج بكميات كبيرة من أنواع ممتازة، بالإضافة إلى التبغ بنوعيه الرطب والقوي، وصناعة المظلات

¹ - لطيفة بشاري: مكانة تلمسان التجارية في العهد الزياني، في مجلة دراسات تراثية، عدد:1، 2007، جامعة الجزائر، ص25.

² - نفسه، ص153.

من سعف النخيل، والأقمشة الصوفية العادية. أما سكانها، فيشتهرون بمهارتهم في التجارة وتسيير القوافل عبر الكثبان الرملية¹.

على الرغم من أن منطقة الوادي كانت تمثل نقطة وصل بين الشمال والجنوب، إلا أن صلاتها بقسنطينة، مقر البايلك، لم تكن وثيقة. كان تجارها يكتفون بالذهاب إلى بسكرة أو توقرت لاستيراد المنتجات الجزائرية التي يمكن تصديرها. والسبب في هذا العزوف عن التعامل المباشر مع عاصمة الشرق ليس الخوف من الضرائب التي يفرضها البايلك، كما يزعم بعض المؤرخين مثل رينوماريس وكاريت، بل لأن أبناء سوف كانوا يفضلون التوجه إلى المدن التونسية لقربها وتوفر المواد الأوروبية فيها بأسعار تنافسية².

على الرغم من أن سلطات السوق وتجارها لم يتركوا لنا وثائق أو إحصائيات نعتمد عليها في تقييم العلاقات التجارية مع بلاد الجريد، فإن جمع المعلومات من مصادر مختلفة يسمح لنا بالجزم بأن القوافل بين جنوبي الولايتين كانت يومية. تجار سوف كانوا يحملون إلى الأسواق التونسية أقمشتهم الصوفية، وأنواع التمور الممتازة، والمظلات، والقهوة، والتبغ، ويستوردون منها مجموعة كبيرة من المصنوعات المحلية والأوروبية، أهمها البزازة، والمواد العطرية، والأقمشة الحريرية، والأسلحة، والكبريت وغيرها³.

كان تجار الوادي يجمعون نحو مئة وخمسين شخصًا من حين لآخر ويتجهون بهم إلى مدينة غدامس، حاملين العملات وأنواعًا مختلفة من المصنوعات والمنتجات المحلية

¹ - العربي الزبيري: المرجع السابق، ص ص 154-155.

² - نفسه: المرجع السابق، ص 155.

³ - نفسه.

والأجنبية. وكانوا يجلبون معهم العبيد والتبر والعاج وريش النعام والبخور والنظرون وغيرها مما تستورده غدامس من السودان.¹

خلال هذه المرحلة، كانت منطقة وادي سوف مرتبطة بالجزائر عبر الطريق الوطني الغربي الذي يصلها بالعاصمة، مروراً بمدينتي بسكرة وبوسعادة. أما فيما يخص السودان الغربي، فقد كان طريق قوافل وادي سوف يمر عبر سوف إلى غدامس، ومن ثم إلى مناطق السودان الغربي والأوسط.²

في تلك الفترة، ازدهرت أيضاً تجارة القوافل التي كانت تجوب الصحراء من تونس إلى بلاد السودان، مروراً ببايلك الشرق. يصف وليام سبنسر هذه القوافل، التي تستخدم الجمال لنقل البضائع، بأنها: "... تتهادى عبر الصحراء بمعدل ميلين ونصف في الساعة، لمدة خمس عشرة أو ست عشرة ساعة في اليوم. وكان يُرحب بقدومها محملة بغبار الذهب وريش النعام والتمور، بالإضافة إلى عدد كبير من العبيد السود الذين يُوجهون للأعمال التي لا تتطلب مهارة في المدن الجزائرية..."³.

كانت القوافل التجارية تصل إلى مدينة قسنطينة محملة بالأقمشة الحريرية، والخيوط المذهبة، والشاشية، والآلات الحديدية، والأدوية، والجواهر، والعقاقير، وغيرها من المنتجات، وتحمل في طريق عودتها البرانس، والجلود، والحياك، والمواشي، والحناء، وريش النعام، ومسحوق البارود.⁴ كانت مناطق وادي ريغ، وعلى رأسها مدينة تقرت، نقطة عبور مهمة للقوافل التجارية، وخاصة طريق نفطة غدامس الذي يبدأ من تقرت متجهاً شمالاً، مروراً بالعديد من المحطات، مثل محطة الفيض حيث ينضم تجار بسكرة

¹ - نفسه.

² - حساني مختار: المرجع السابق، ص57، وإبراهيم مياسي، تاريخ وادي سوف، ص67.

³ - وليام سبنسر: المصدر السابق، ص143.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص72.

إلى القافلة. ثم تعود القافلة جنوباً إلى كوينين، وبعدها تتفرع إلى اتجاهين: أحدهما شمالاً نحو مدينة نفطة، والآخر جنوباً نحو سوق غدامس. من أهم المنتجات التي كانت تُصدَّر من تقرت إلى الجنوب التونسي التمور والأقمشة الصوفية العادية، بينما تُستورد من تلك الأسواق منتجات أخرى كالأقمشة القطنية والعطور الأوروبية¹.

من بين الطرق التجارية التي تمر بمنطقة تقرت وورقلة، نجد الطريق الذي يبدأ من منطقة تازة في أقصى المغرب، مروراً بتقرت وتماسين، ثم يتجه إلى الغسول، فعين ماضي وتاجموت، ثم إلى الأغواط وورقلة، وصولاً إلى مدينة غرداية².

ورد في رحلة العياشي ذكر لبعض المنتجات التي كانت تُسوّق في مدينة ورقلة خلال العهد العثماني، حيث قال في تلك الرحلة: "... فدخلنا ورقلة قبل غروب الشمس، ونزلنا بباب المدينة المسمى باب السلطان، وكان من لطف الله بالحجاج أن تزامن دخولهم مع دخول قافلة من أعراب الأرباع قدمت بسمن كثير وغنم وإبل وزرع، فاشترى الناس ما احتاجوا إليه بأرخص ثمن، ثم قدمت قافلة أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك وأكثر..."³. يذكر فنديلين أن تجارة الملح انتشرت في تلك المناطق لغناها بهذه المادة، ويستدل على ذلك بقوله: "وجبال سكان الصحراء غنية بمعادن الملح، ولهم تجارة واسعة بالملح الذي يطبخ أو يجذونه مجففاً بفعل الشمس، وكذلك مناجم الملح التي يرسلونها إلى قسنطينة في حجارة تزن قنطارين..."⁴.

- ورقلة (ورجلان)

¹ - محمد صابري: المرجع السابق، ص 79.

² - هبة الله بوغرارة: المرجع السابق، ص 60.

³ - عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية 1661-1663م، ج 1، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط 1، دار السويدي للنشر والتوزيع، إ.ع.م، 2006م، ص 114.

⁴ - فنديلين شلوصر: المصدر السابق، ص 102-103.

اكتسبت ورجلان¹ شهرتها الكبيرة لارتباطاتها التجارية الواسعة، وكونها المركز التجاري الأول لتجارة الرستمين، قال عنها الحسن الوزان :«مدينة أزلية بناها النوميديون في صحراء نوميديّة، لها صور من الأجر البني ودور جميلة، وحولها نخيل كثير، ويوجد في ضواحيها عدة قصور وعدد لا يحصى من القرى ، الصناعات فيها كثير، وسكانها أغنياء جدا لأنهم في اتصال مع مملكة أقدر منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلد، يحملون لها منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجار من بلاد السودان²».

تضمنت أهم المنتجات التي كانت تحملها القوافل المنطلقة من ورجلان إلى بلاد السودان الغربي الأكسية القطنية والكتانية، وثياب الصوف، والعمائم والمآزر، وأصنافاً من الزجاج كخرز الزجاج الأزرق، والأصداف، والأحجار، وأنواع الأفاويه، والعطر المستخرج من خشب الصنوبر. كما حملت هذه القوافل النحاس الأحمر والملون، ومشتقاته من الأساور والخواتم والحلق، بالإضافة إلى الآلات الحديدية المصنوعة، والفخار، والخزف ذي البريق المعدني، والملح.³

كانت هذه القوافل تعود من السودان محملة بالذهب الخام والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات. وقد تخصص أهل ورجلان في قيادة هذه القوافل التجارية، فكان منهم الأدلاء ذوو الخبرة بالطرق الصحراوية في بلاد السودان الغربي⁴.

1 - تشتهر هذه الحاضرة الصحراوية بكثرة النخيل والعبيد وهي من المحطات التجارية الهامة في الجنوب الشرقي الجزائري، تتميز بوفرة مياهها الباطنية، والتي تتدفق بكميات كبيرة عند حفرها- تم استغلال هذه المياه في سقي القوافل المارة بالمنطقة كالقوافل التجارية القادمة من القيروان والجنوب التونسي اتجاه المراكز السودانية للمزيد ينظر: أبو الحسن علي بن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1982م، ص126.

2 - الحسن الوزان : المصدر السابق، ص136.

3 - محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، ط3، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987م، ص210.

4 - نفسه: ص 211.

خامسا: الكوارث الطبيعية والحروب وأثرها على الحياة الاقتصادية

شهدت الجزائر تدهورًا اقتصاديًا واجتماعيًا ملحوظًا خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر، تجلّى في سوء الأوضاع الصحية والمعيشية، والانكماش العمراني. وقد تقاومت هذه الأوضاع بسبب هجرة السكان من الأرياف والمدن، وانتشار الأمراض والأوبئة بشكل كبير. بالإضافة إلى ذلك، ساهمت الظروف الطبيعية القاسية كالجفاف والقحط والزلازل وغزو أسراب الجراد للمحاصيل الزراعية في انتشار المجاعات في مختلف أنحاء البلاد¹.

عانت القبائل الواقعة جنوب بايلك قسنطينة، كغيرها من القبائل الجزائرية، من الضعف الذي طال مختلف مجالات الحياة. ومن أهم العوامل الطبيعية والبشرية التي أثرت بشكل مباشر على طبيعة الحياة الاقتصادية والأنشطة المختلفة لقبائل جنوب بايلك قسنطينة خلال فترة الدراسة، يمكن ذكر ما يلي:

أ- الكوارث الطبيعية:

1- الجفاف:

لقد كان نتجية لتذبذ تساقط الأمطار، فمناخ البلاد يتميز بتغيرات كبيرة وفوارق معتبرة وتختلف نسبة التساقط من عام الى آخر.² وقد شهدت البلاد فترات جفاف في 1819، 1816، 1807، 1806، 1800م³، إن فلاحي الريف الجزائري تهددهم التقلبات المناخية والتي تسببت في الجفاف ولفيضانات المفاجئة كانت أكثرها تأثيرا على نشاطهم⁴.

1 - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصر، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، صص 123-124.

2 - ناصر الدين سعيدوني: الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أواخر العهد العثماني (1791-1830)، البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2013، ص323

3 - ناصر الدين سعيدوني : ورقات جزائرية ، المرجع السابق، ص563.

4 - ناصر الدين سعيدوني : الحياة الريفية، المرجع السابق، ص324.

شهدت البلاد العديد من الفيضانات والعواصف البحرية التي اجتاحت مساحات واسعة، بما في ذلك سهول ساحلية عديدة، وأدت إلى تخریب المنازل والمنشآت البحرية. ومن الأمثلة على ذلك ما حدث في السنوات: 1791، 1792، 1812، 1816¹، قد يكون نزول الأمطار في فصل الربيع مؤشراً على الرخاء أو توقع القحط. فإذا انقطعت الأمطار في شهري مارس وأبريل وتكرر ذلك لسنة أو سنتين، فإنه لا مفر من ندرة المحاصيل وحلول القحط. إن اضطراب التساقط وانقطاع الأمطار في بعض الفترات قد يهلك الموسم الزراعي بأكمله².

في السنوات من 1778 إلى 1784م، اضطرت الفلاحون إلى هجر حقولهم بعد عقد كامل من شح الأمطار بين عامي 1770 و 1780م. ونعتقد أن حال الفلاح في المناطق الشمالية لا يختلف عن حال فلاحي المناطق السهبية والصحراوية، حيث يعتمد قوته اليومي ونشاطه الفلاحي الموسمي على التقلبات المناخية التي لا يمكن التحكم فيها أو توقعها. فكثيراً ما كان ضحية لتعاقب وتكرار ظواهر الجفاف وما قد يعقبها أحياناً من فيضانات مفاجئة، مما يؤثر على إنتاج البلاد من المحاصيل الزراعية. ففي سنة 1819م، عانت البلاد من نقص كبير في الحبوب، مما اضطرها إلى استيراد كميات كبيرة من الخارج لسد حاجة السكان من هذه المادة الحيوية والهامة³.

شهدت البلاد ما بين أواخر القرن الثامن عشر مجاعات خطيرة نتيجة للجفاف الذي حل بالبلاد، وهو ما أورده الشريف الزهار في مؤلفه بقوله: «... بعد ذهاب الاصبنيول في المرة الأخيرة 1184 هـ وقع غلاء في القمح ست سنوات وأعطى الله القحط، وهو الجوع

1 - ناصر الدين سعيدوني : ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص564.

2 - محمد الزين " : نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات"، في مجلة الواحات للبحوث و الدراسات ع، 17، 2012، ص 131.

3 - سعاد عقاد: الفلاحون الجزائريون والسلطة العثمانية في الجزائر (1519-1830) دار السلطان انموذجا، رسالة ماجستير ،قسم التاريخ وعلم الآثار،جامعة وهران،2014م، ص59

في الناس حتى صارت قيمة الصاع الجزائري أربعة بجة والناس يموتون في الأسواق»¹.

2-الزلازل:

على الرغم من أن ظاهرة الزلازل لم تمسّ بشكل مباشر مجال دراسة قبائل جنوب بايلك قسنطينة، إلا أنها أثرت بشكل غير مباشر على مختلف جوانب الحياة. ذلك أن دار السلطان وما حولها، والتي كانت مركزاً للسلطة الحاكمة في البلاد، قد تضررت بشكل كبير من هذه الظاهرة الطبيعية، الأمر الذي انعكس على حياة القبائل في مختلف أنحاء الإيالة.

فقد شهدت الجزائر خلال العهد العثماني سلسلة من الهزات الأرضية العنيفة التي تسببت في تدمير بعض المدن، وأسفرت في كثير من الأحيان عن خسائر في الأرواح والممتلكات. من ذلك زلزال مدينتي الجزائر والمدية عام 1632م، الذي ذكرت بعض الروايات أنه أهلك معظم سكان مدينة الجزائر. وكذلك زلزال مدينة الجزائر وضواحيها عامي 1639 و1676. وقد ذكر Gomelin أن الزلزال الأخير استمر لعدة أشهر (من فبراير إلى يونيو)، وأضر بمعظم منازل مدينة الجزائر، وتسبب في ثورة ضد الداي الذي اتهمه السكان بسوء الطالع.²

ويذكر وليام شالر في هذا الصدد بقوله: « لما تسألت بشأن الفرق الكبير بين عدد سكان المدينة، وعدد الهالكين في الحادث تلقيت الرد التالي:...إن موقع المدينة الممتاز ووفرة المياه فيها، وخصوبة أرضها وتبعيتها للحكومة المركزية التي

¹ - أحمد الشريف الزهار: مذكرات احمد الزهار نقيب أشرف الجزائر 1754-1830م، تق، أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 31.

² - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصر، ج2، ص127.

تحميها من تعنت الباي، عوامل جعلت الناس يتدفقون عليها من المناطق المجاورة في غضون السنوات الأخيرة، وبذلك زاد عدد سكانها زيادة كبيرة وسريعة»¹.
ولكثرة الزلازل التي شهدتها الجزائر ومختلف أجزائها أثناء العهد العثماني وبالرجوع الى المصادر المحلية والأجنبية يمكننا رصد أهمها وفق الجدول التالي:

المدن والمناطق المتضررة	تاريخ وقوع الزلزال
مدينة الجزائر صاحبه عواصف وبرد	1716م
مليانة- عنابة- الجزائر	1724-1723م
شرشال وقعت اربع رجات خلال شهر	1735م
البليدة- الجزائر	1760م
وهران - أشد زلازل القرن 18م، خلف خسائر مادية وبشرية على الإحتلال الاسباني	1790م
القلعة وضواحيها	1802م
مدينة الجزائر وضواحيها	1807م
عنابة	1810م
مدينة الجزائر	1818م
البليدة و متيجة وضواحيها- استمرت من 2 الى 6 ماي وبلغت الهزات في اجدى اليالي من 8 الى 10 هزات حسب شهود العيان مخلفة رعبا ودمارا مادية بين الساكنة	1825م
مدينة الجزائر.	1830م

من خلال تفحصنا لمعطيات الجدول² يمكن استنتاج ما يلي:
- تعرض الجزائر لعديد الهزات الزلزالية وارتداداتها خلال الوجود العثماني وخاصة بدايات القرن الثامن عشر الى غاية احتلال البلاد من قبل قوات الاحتلال الفرنسي،

¹ - وليام شالر: مذكرات وليام شالر، المصدر السابق، ص 36.

² - حفيظة خشمون: النشاط الزلزالي بالجزائر في العهد العثماني، محاولة لرصد الظاهرة من خلال نصوص الاسطوغرافيا المحلية، في مجلة المعارف، العدد 03- 2023، ص ص 506-509.

مما يدلل جيولوجيا وطوبوغرافيا على وقوع الجزائر على خط الزلازل وهو ما تؤكد الدراسات العلمية اليوم.

2-الجراد:

تساهم الظروف المناخية السائدة في الجزائر، والمرتبطة بالمناخ الصحراوي وتأثيره على مناطق الهضاب العليا الرعوية في الوسط ومناطق التل الزراعية الخصبة المحاذية للبحر في الشمال، في ظهور أسراب الجراد. لذا، كان زحفه متوقعا كل أربع أو خمس سنوات، وغالبا ما يقتصر تأثيره على كمية الإنتاج الزراعي. إلا أنه عندما يشتد الجفاف لفترة طويلة نسبيا، وتعقبه أمطار متأخرة غزيرة تتسبب في فيضانات مفاجئة، يظهر الجراد بكثرة.¹ يكون شبه مؤكد، واجتياحه للحقول أمر لا يمكن تجنبه، كما أن انتشار المجاعة² وحلول الوباء بعده يكون نتيجة طبيعية لانهايار الإنتاج الزراعي. هذا وقد أصابت مدينة الجزائر موجات جراد لسنوات، 1804، 1800، 1799، 1798م³، وقد اجتاح الجراد كذلك قسنطينة سنة 1804م⁴.

كما شهدت البلاد زحف الجراد كذلك خلال السنوات التالية: (1787-1798-1800-1804-1816-1822م)⁵.

لا يشكل الجراد كارثة إلا في أعقاب فترات الجفاف الطويلة، أو بالتزامن مع تأخر الأمطار والفيضانات المفاجئة. هذه العوامل تساعد على انتشاره وتفاقم أضراره، مما يؤدي إلى مجاعات وأوبئة وخيمة. من الأمثلة على ذلك المجاعات التي حدثت بعد غزو الجراد

1 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 83 .

2 - حول المجاعات ينظر الملحق: رقم 30 ص 381

3 - ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية، مرجع سبق ذكره، ص.ص 103-104

4 - محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1972 ص 24 .

5 - ناصر الدين سعيدوني: الأحوال الصحية و الوضع الديمغرافي في الجزائر أثناء العهد العثماني"، في مجلة ثقافة

وزارة الثقافة و السياحة ع ، 92 الجزائر ، 1986، ص 106-107.

في الفترة بين عامي 1789 و 1824، وكانت السنوات التي تلت عام 1760 الأكثر تدميراً. أما الفترة بين عامي 1760 و 1824، فهي الأكثر تأثيراً على الحياة الزراعية وإنتاج الغذاء، حيث تسببت في نقص حاد في المؤن وهلاك أعداد كبيرة من السكان¹.

3- الفيضانات:

تعدّ الفيضانات من أخطر الكوارث الطبيعية التي ألمّت بالجزائر خلال العهد العثماني، وذلك لما تسببه من هلاك للعديد من الأشخاص، ونقص في المؤن، وإلحاق أضرار جسيمة بالبساتين والمزروعات، مما أدى إلى نقص في الأيدي العاملة وتراجع الإنتاج في الأسواق.² كفيضانات 1812م، و1816م³، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع وزيادة عدد الفقراء، وتشردهم في الشوارع. ووفاة الكثير منهم جوعاً وبردًا نتيجة الفيضانات التي شهدتها المدن والأرياف⁴. ومن أهم الفيضانات التي شهدتها البلاد والتي عرفت بفداحتها وخطورتها على السكان يمكن ذكر تواريخها على النحو الآتي: (1727م، 1731م، 1733م، 1734م، 1736م، 1740م، 1753م، 1755م، 1757م، 1791م، 1816، 1812م)⁵.

ساهمت الثورات والمشاكل الداخلية في تراجع النشاط الاقتصادي، خاصة خلال القرن التاسع عشر. وقد أجبرت هذه الظروف الصعبة الفلاحين على النزوح من أراضيهم وتقليل نشاطهم الزراعي أو التوقف عنه تمامًا في بعض الأحيان، وذلك بسبب انعدام

1 - ناصر الدين سعيدوني : الحياة الريفية، المرجع السابق، ص 329 .

2 - عقيل لطف الله نمير: تاريخ الجزائر الحديث، منشورات جامعة دمشق، 2014، ص ص 186-187.

3 - مجاهد يمينة: تاريخ الطب في الجزائر في ظل الإستعمار الفرنسي 1830-1962، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2018، ص 34.

4 - فلة المساوي القشاعي: الواقع الصحي والسكاني بالجزائر، المرجع السابق، ص 4.

5 - محمد بن جبور: الوضع الصحي بالجزائر في أواخر العهد العثماني، في المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والإجتماعية، مج 5، العدد 2013، ص 02، ص 4.

الأمن والأضرار البالغة التي لحقت بالأراضي الزراعية نتيجة لهذه الاضطرابات.¹، هاجر البعض إلى تونس هرباً من الانتقام وتجنباً لبطش الحملات العسكرية. وقد أدت هذه الاضطرابات إلى فقدان اليد العاملة في المجال الفلاحي، وما تبع ذلك من خسائر وعدم سيطرة حكام البايلك على الأراضي الفلاحية، إذ لم يسيطروا إلا على ما يقارب سدس أراضي التل الخصبة.²

بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك مشاكل تتعلق بملكية الأراضي الزراعية، حيث سيطرت الأقلية الحاكمة على معظم الأراضي الخصبة، بينما اقتصر نصيب السكان على الأراضي الجبلية والصحراوية الفقيرة. قلة منهم تمكنوا من امتلاك أراضٍ خصبة، ومع ذلك أثقلت الضرائب كاهلهم.³، مما أثر على الإنتاج الزراعي والحيواني بشكل حاد.

على الرغم من انتشار الصناعة وتحقيقها الاكتفاء الذاتي في كثير من الأحيان، خاصةً الصناعات المنزلية، إلا أنها ظلت محافظة على طابعها التقليدي ولم تواكب التطورات العالمية، لا سيما التطورات التي شهدتها الدول الأوروبية آنذاك. ومع ذلك، لم تُبدِ السلطة الحاكمة أي اهتمام أو دعم لتلك الصناعات، باستثناء الصناعات العسكرية. ونظرًا لارتباط هذه الصناعات بالإنتاج الزراعي، فقد أثر تدهور هذا القطاع سلبيًا على مجال الصناعة أيضًا، بالإضافة إلى ارتفاع أسعار المواد الخام المستخدمة، مما أدى إلى قلة الإنتاج الصناعي وارتفاع أسعاره في الوقت نفسه.⁴

1- نفسه.

2- توفيق دحماني: "الضرائب في الجزائر (1206-1282هـ/ 1792-1865م) دراسة مقارنة"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، دفعة 2008م، ص 96.

3- أرزقي شويتام: المرجع السابق، 219.

4- نفسه، ص 229.

تسببت سياسات بعض الحكام في أثر سلبي على ازدهار الحياة الاقتصادية، نتيجة للتسيير العشوائي أو الإهمال لهذا المجال. ومثال ذلك ما حدث في عهد الداوي الحاج علي باشا، حاكم إيالة الجزائر بين سنتي 1809 و 1815م، حيث كانت مقاطعة قسنطينة تعيش حالة من البؤس الشديد وشبه انعدام للزراعة¹.

أدى عدم اهتمام السلطة بتطوير وسائل الإنتاج الفلاحي والإبقاء عليها بالشكل التقليدي، كاستخدام محراث أفريقيا الرومانية الذي لم يشهد أي تعديل، والمنجل الذي يعود إلى الحقبة نفسها، وقنوات الري التي ترجع إلى القرن الحادي عشر، إلى انعكاسات سلبية على الإنتاج. ويستثنى من ذلك الفترة الأخيرة من الوجود العثماني في الجزائر، حيث حاول بعض الحكام تطوير هذه التقنيات وتنويع وتوسيع الإنتاج الفلاحي، نظرًا لتراجع مداخيل القرصنة وما صاحبها من انخفاض في إيرادات خزينة الدولة².

إن عدم دعم الصناعات الشعبية، خاصة النسيجية والجلدية، بالإضافة إلى الزهد في أسعار منتجاتها، حيث كانت تُشتري من الصانعين بأثمان بخسة قد لا تغطي تكلفة الإنتاج فضلًا عن الجهد والوقت المبذول، أدى إلى تراجع هذه الصناعات وتضاؤل إقبال السكان عليها. فعلى سبيل المثال، كان صناع الأحذية يبيعون إنتاجهم للدولة مقابل نصف درهم فقط للزوج الواحد، وهو مخصص للجنود المشاركين في الحملات العسكرية. في المقابل، كانت المادة الأولية، وهي جلد البقر، تُشتري بسعر ثلاثة أرباع ريال درهم للقطعة الكبيرة، بينما جلد الخروف المدبوغ لا يقل ثمنه عن ثلاثة فرنكات. وفي أسواق قسنطينة، كان يباع الزوج من الأحذية بثلاثة فرنكات فقط. والأمر نفسه ينطبق على صانعي السلال والجرار والتلاليس، إذ كانوا يسلمون إنتاجهم للبايلك مقابل أثمان زهيدة؛

¹ - رياض بولحيال: المرجع السابق، ص 30.

² - صالح عباد: المرجع السابق، ص 335.

فمثلاً، كمية التاليس التي تتراوح بين 10 آلاف و12 ألف تليس لا تتجاوز قيمتها 100 فرنك عشية الاحتلال الفرنسي¹.

يبدو أن حكام الإقليم كانوا يواجهون أيضاً ضغوطاً من السلطة الحاكمة لدفع مستلزمات ومستحقات داي الجزائر من الضرائب مرتين كل سنة. وقدّرت قيمة تلك المستحقات في أواخر العهد العثماني بنحو 340 ألف ريال، وهو ما انعكس سلباً على علاقة حاكم البايك بالسكان. فالمستحقات المفروضة على الباي كانت تستوجب في نظره الضغط على السكان لتحصيل الضرائب التي تُصرف على استتباب الأمن والتسيير الإداري للإقليم، وكذلك لتغطية نفقات ومستحقات الداي السنوية. وقد أثر ذلك سلباً على التطور الاقتصادي في الإقليم، شأنه في ذلك شأن الأقاليم الأخرى التابعة للإيالة. وكمثال على ذلك، نجد أنه في عهد أحمد باي (1826-1837م) قُدّمت لحاكم الجزائر مستحقات كبيرة تتكون من: 1500 بقرة، و6000 خروف، و17 فرساً وحصاناً أصيلاً، و100 بغلة، و70 برنوساً من النوع التونسي الرفيع، و50 غطاءً تونسياً، و50 حائكاً تونسياً، و40 دزينة من الطاقيات ذات اللون الأحمر، و32 سبحة من العنبر والمرجان، و14 أوقية من عطر الورد، و03 أوقيات من عطر الياسمين، و16 كيساً معداً لحفظ الساعات، و30 جلدًا من النمر أو الأسد، ومن 08 إلى 10 نمور، و700 قفة من التمور، و150 سلة من الزيتون الأخضر، وحمولتا بغال من القماش المستعمل لتبطين السروج، و20 حمولة² من الزبدة و20 حمولة من الكسكسي³.

¹ ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 63.

² ربما يوجد هنا خلل مطبعي، والمقصود بها حمولة.

³ عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، ص 101.

من بين الأسباب الأخرى التي أثرت على الإنتاج الزراعي، فترات الجفاف الدورية التي تراكمت مع غزو الجراد وانتشار الأوبئة والأمراض وإتلاف المحاصيل¹.
يمكن القول أيضًا إن الطبيعة الجغرافية التي يتميز بها إقليم الشرق كان لها أثر في ضعف الإنتاج الفلاحي، وخاصةً الإنتاج الزراعي. يتمتع هذا الإقليم بمساحة شاسعة تقدر بحوالي 80 ألف كيلومتر مربع (5% من مساحة الجزائر)². تتكون معظم أراضيه من جبال وصحاري، الأمر الذي أثر بشكل كبير على تراجع الإنتاج باستثناء تربية المواشي التي شهدت انتعاشًا في هذه الفترة.

¹ - صالح عباد: المرجع السابق، ص 335.

² - كشرود حسان: المرجع السابق، ص 48.

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية 1710-1848م

أولاً:- العادات والتقاليد

- اللباس
- الأطعمة والأشربة
- الألعاب والألغاز والموسيقى
- الزينة

ثانياً:- المناسبات

- الاجتماعية
- الدينية

ثالثاً:- الوضع الصحي والأوبئة وطرق العلاج

رابعاً:- المؤسسات الدينية والعلمية ودورها في الحياة الاجتماعية.

أ- المؤسسات الدينية

ب- المؤسسات العلمية

أولاً: العادات والتقاليد:

تشير إلى عناصر الثقافة التي تنتقل بين الأجيال، أي جميع القواعد والسلوكيات التي تميز فئة أو جماعة معينة، وتنتقل من جيل إلى آخر. ويمكن التمييز بين العادات والتقاليد بأن التقاليد تعتبر أكثر قدسية لدى المجتمعات ويصعب التخلي عنها¹.

حافظ المجتمع الجزائري على عاداته وتقاليد الموروثة عن الأجيال السابقة. ومع قدوم العثمانيين والاحتكاك بهم، بدأت تظهر بعض العادات والتقاليد الوافدة، وحرص العثمانيون على ممارستها والتعريف بها. أعجب الجزائريون ببعض هذه العادات، واندمج بعضها الآخر مع تقاليد المجتمع، وأصبحت مع مرور الوقت جزءاً من العادات والتقاليد الجزائرية ذات الأصول التركية. فيما يلي، سنتناول عرضاً لأهم هذه العادات والتقاليد، نظراً لتنوعها وكثرتها:

1- الألبسة:

يُعدّ اللباس مظهرًا من المظاهر الثقافية التي يعتمد عليها علماء الأنثروبولوجيا في الغالب للحكم على الخلفيات الفكرية والعقائدية للمجتمعات. وفي هذا الصدد، يشير "فوننير دي بارادي" Paradis de Venture إلى أن ذوق الجزائريين يميل إلى التطريز؛ فملابس الرجال والنساء لا تخلو من هذا الأمر، وهي ملابس غالية الثمن. ولكن التطريز خشن، والذهب هو المادة الثمينة لدى الجزائريين. تتكون ملابس المرأة من قميص رقيق من الحرير أو القطن، مقطوع من الأمام مثل قميص الرجل، وينزل حتى الوتد، والأكمام ذات أطوال غير متساوية.

¹ - صابري محمد وفريح لخميسي: دراسة سوسيو تاريخية لعادات و تقاليد المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1830/1519م، المجلد السابع، العدد الرابع، السنة ديسمبر 2022، في مجلة العلوم القانونية و الاجتماعية، جامعة زيان عاشوري، الجلفة الجزائر، ص 695.

و هي أوسع من عرض القميص في حد ذاته، و لكنها غير مفتوحة إلا من عظم الكتف إلى الورك. و تتخللها عدة قطع من أقمشة حريرية متعددة الألوان¹.

يتميز لباس الأتراك الوافدين إلى أرض الجزائر بخصائص مختلفة عن لباس السكان المحليين، سواء في الريف أو المدينة. يقدم سبنسر وصفًا لهذا اللباس، حيث ذكر أن "ذوي المكانة من الرجال يرتدون معطفين أو ثلاثة مفتوحة من الرقبة، وتزيينها الأزرار وخيط الطرف. يكون المعطف بطول الرجل، ويُصنع إما من الموسلين أو النسيج القطني الأبيض، وتُضاف إليه طربوش أحمر. وتُلام خياطة السراويل بواسطة تطريز حريري واسع، يلحق به مكان لحمل المسدس والسيف والخنجر، وفي نهايته يُخبأ حامل النقود. والجدير بالذكر أن اللباس التركي لا يختلف كثيرًا بين النخبة وعامة الناس، وقد حافظ على شكله التركي مع إضافة لمسة من الطراز المغربي².

أما لباس السكان المحليين أو قبائل جنوب بايك قسنطينة فيصفه لنا بيرم محمد الخامس في معرض حديثه عن لباس النساء حيث يقول: "وأما نسوة الأعراب فهن مثل ذلك أيضا، سوى الجبة فبدلاً منها يلبسون رداء واسع تمسكه المرأة بمسالك كبار من الفضة أو الذهب أو النحاس حذوة كتفيها مما يلي الصدر، وتتمنطق عليه بحزام يكون ساترا حتى القدمين مع الاتساع، غير أنهم لا يلبسنا السراويل..."³.

تتميز أزياء نساء مناطق الواحات في كل من سوف وريغ والزيبان بتقاربها من حيث الستر والأشكال والألوان. وقد ذكر الشيخ إبراهيم العوامر في وصف لباس أهل سوف: "... ثم

¹ - حسن داوس: صورة المجتمع الصحراوي الجزائري، رسالة ماجستير في ادب الرحلة، قسم اللغة العربية و أدبها، جامعة منتوري قسنطينة، 2008، ص 146.

² - نفسه، ص 704.

³ - محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق على بن الطاهر الشنوفي، ج4، ط2، بيت الحكمة تونس، 1989، ص ص 719-720.

تعلموا الغزل والنسيج، فأصبح الرجل يرتدي لحفة وقندورة من الصوف، والمرأة ترتدي حوليا وبخنوق مصبوغين بالأحمر أو الأصفر أو الأسود، وهو اللون الغالب. ثم صنعوا أحذية من جلود الإبل تُربط بأشرطة من الجلد نفسه، وتطور الأمر لاحقًا لتصبح الأشرطة من جلد الفيلاي الأصفر أو الأحمر. ثم اتخذوا خرقًا من الصوف وخاطوها بالشعر أو الوبر أو الصوف، ويستوردون الكتان المالطي من تونس، فيلبس الرجل منه ثوبًا واحدًا يسمى السورية، ويُعرف أيضًا بالقمجة أو البلوزة، وهو بمثابة الرقبة والرداء والقميص والشعار. أما المرأة، فتلبس ثوبًا واحدًا يسمى الملحفة، وهي الملاعة والريطة. ثم أضاف الرجال ثوبًا آخر فوق الأول يسمى قندورة أو القدورة، وهي الإزار والدثار والجبّة، وأضافت بعض النساء ثوبًا آخر تحت الأول يسمى قدورة. ثم كثرت الملابس وتتنوعت أشكالها...¹.

يصف لنا وليام شالر لباس المرأة في الجزائر قائلاً: "يتكون لباس المرأة الجزائرية من قميص خفيف مصنوع من أجود الخامات، وسروال فضفاض عند الساقين، وسترة من الحرير أو مطرزة بالدانتيل تُغلق بشريط من الخلف. كما تنتعل المرأة حذاءً دون جوارب، وتتلقى بحلي ثقيلة، تشمل خواتم وأقراط ذهبية وأساور وخلاخل من الذهب والفضة. أما لباس الرأس فهو السرمة، المصنوع من الذهب أو الفضة بحسب الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها المرأة، وهو مخروطي الشكل يُلقى فوقه حجاب شفاف كثيف أو خفيف التطريز².

من بين ألبسة المرأة في مدينة قسنطينة خلال تلك الفترة ارتداء الملاية والعجار عند الخروج من المنزل. والملاية عبارة عن ملحفة سوداء يُقال إنها ارتدت حزنًا وحادًا على وفاة

¹- إبراهيم العوامر: المصدر السابق، ص38.

²-William Shaler, Sketches of Algiers political Historical and civil containing and account of the Geography population Government revenues Commerce Agriculture Arts civil institutions tribes manners languages and recent political history of that country, Boston, 1826.p59.

صالح باي، الذي كان يحظى بشعبية ومكانة خاصة لدى أهالي قسنطينة. وقد اتسع انتشار هذا اللباس ليشمل مدناً قريبة مثل سطيف وعنابة وقالمة... الخ¹.

يصف لنا لويجي دي تاسي لباس المرأة وزينتها قائلاً: "... ترتدي المرأة قطعة واحدة من القماش الصوفي تنسدل من كتفها إلى ركبتيها، كما يظفرن شعورهن ويتزين بأسنان السمك أو المرجان، ويرتدين الأساور والخلاخيل في أرجلهن، ويضعن الوشوم منذ الطفولة على شكل علامات أو نقاط على الخدين أو الجبهة أو الذقن، وذلك باستخدام إبرة خاصة ومساحيق من الحجارة السوداء."²

بالنسبة إلى لباس الرجال، وبالرجوع إلى بعض المصادر الأجنبية التي كتبت عن الأحوال الاجتماعية للمجتمع الجزائري، يمكن القول إن لباسهم يختلف عموماً بعض الشيء بين مناطق الإيالة، ويتميز بالبساطة على عكس لباس النساء. وقد ذكر وليام شالر أن لباس الرجل الجزائري يتكون من عدة سترات، بعضها بأكمام وبعضها الآخر دون أكمام، مفتوحة ومزينة بأزرار مطرزة بدانتيل، وسراويل فضفاضة، ويعلق حول سرواله حزاماً يلفه عدة مرات، ويعلق عليه مسدسه، ويضع تحت طياته ساعته ومحفظة نقوده، أما رأسه فيلبس عمامة، وفي رجليه يلبس النعال، أما الجوارب فلا يرتديها إلا في حالات البرد.³

ويصف لنا لوجي دي تاسي لباس الرجال فيقول: " يرتدي الرجال نوعاً من اللباس يسمى الحايك، وهو قطعة من القماش الصوفي الأبيض الخشن يغطي الجسم و حتى الرأس⁴.

1 - محمد عثمان : قسنطينة ملكة الشرق الجزائري ومدينة الجسور المعلقة ، دار المصرية للكتاب ، القاهرة ، 2012 ، ص 44 .

2 - Lauger de tassy: Histoire du Royaume d'Alger, chez Henri du Sauzet, Amsterdam, 1724, p 58.

2-William Shaler: op.cit, p p 58-59.

4- Lauger de Tassy, op.cit,p 56.

يصف لنا وليام سبنسر لباس الرجل الجزائري بأنه لباس بسيط، فهو قطعة من القماش الصوفي الأبيض الخشن تغطي الجسم والرأس. يتكون من قميص من الكتان وسروال طويل حتى الركبة. وفي الشتاء، يلبسون الغليظة، وهي لباس طويل حتى الركبة، يليها الدرة، وهي جبة طويلة جدًا من القماش الرفيع. أما شيخ القبيلة، فيتميز عنهم بلبس البرنوس من الصوف الأبيض أو الملون.¹ أما شيوخ القبائل، فيتميز فهم يرتدون البرنوس من الصوف الأبيض أو الملون يغطيه حتى نصف الساق وله قلنسوة².

يذكر عثمان بن حمدان خوجة أن القبائل الجزائرية توارثت، خلال العهد العثماني وما قبله، صناعة البرنوس المصنوع من صوف الأغنام، والذي يرتديه الرجال في فصل الشتاء لمواجهة انخفاض درجات الحرارة في المنطقة، حيث يقول: "... فهم أناس كثيرو الاشتغال بالصناعة. وتشمل صناعتهم على الخصوص صنع البرانس والأغطية التي يمكن استعمالها في المدن لأنها من الصوف الجيد..."³.

من الألبسة الرجالية لقبائل جنوب بايلك قسنطينة العمامة، وهي ما يُلفّ حول الرأس كالعصابة. وهي لباس مشرقِي قَدِمَ إلى بلاد المغرب مع الهجرات الهلالية، واتخذت أشكالاً عدة، عُرفَ بعضها باسم الكرزية المصنوعة من الصوف. كانت العمامة في الغالب لباس القضاة والعلماء، وقد لبس العلماء والمتصوفة لباسًا خاصًا؛ فلبس العلماء سترة عريضة الأكمام، وقميصًا، ودراعة وهي لباس طويل متعدد الألوان، أخضر وأحمر، يتميز بأكمامه العريضة وشقه الأمامي المخيط. وفوق كل ذلك يرتدون البرنس الأبيض غالبًا، كما يضعون

¹ - وليام سبنسر، المصدر السابق، ص 105.

² - Lauger de Tassy , op.cit, p 57.

³ - حمدان بن خوجة: المرأة: ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 67.

على رؤوسهم قنسوة تُلفّ حولها عمائم من الكتان المذهب. أما لباس المتصوفة فكان عبارة عن سترة وكساء من الصوف.¹

ومن ألبسة الرجال كذلك النعال، وهي ما يُتقى بها القدم من الأرض، وتتكون من قاعدة من جلد أو ما شابهه، تُثبّت بواسطة شريطين؛ يمر أحدهما في وسط القدم، والآخر بين الإصبع الأكبر والإصبع الذي يليه. ويمكن أن تكون نقاط الربط على مستوى الإبهام، ونقطتين أخريين على كل طرف باتجاه مقدمة الكعب. وقد تتصل هذه الأربطة ببعضها مباشرة لتغلف ظهر القدم دون الكعب، أو تتحد برباط يلتف حول العرقوب مستخدمًا أعلى الكعب كدعامة. ومن النعال ما يُصنع من الحلفاء، وذلك بقتل هذا النبات حتى يصبح صالحًا للارتداء، لكنها لم تكن تتمتع بالقدرة على التحمل، وهو ما دفع الحسن الوزان ومارمول كرخبال إلى القول: "وقبل أن يتم قتل الزوج الثاني، يكون الزوج الأول قد بلي". ويسمى النعل المصنوع من الحلفاء "البلغة".²

تذكر بعض كتب الرحالة والكاتبات المحليين أن سكان حاضرة سوف وريغ والمناطق المجاورة كانوا يرتدون نعالًا مصنوعة من جلود الإبل، تُربط بأسيار من الجلد. ثم تطورت هذه الأسيار لتُصنع من جلد فيلالي أصفر وأحمر.³، كما ارتدوا أيضًا نعالًا من شعر الماعز وتدعي بالعفان، وهو مقاوم لكل شيء ما عدا الرطوبة ويمتاز هذا الحذاء بخصائص

¹ - عبد المالك بكاي: الحياة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 7-10 هـ/13/16م، أطروحة دكتوراه قسم العلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، جامعة باتنة، 2014م، ص ص 131-132.

² - نفسه، ص 132.

³ - إبراهيم العوامر: المصدر السابق، ص 38.

عدة منها: الخفة والدفء وسهولة التحرك والسير به فوق الرمال الرخوة ويغلب ارتدائه في فصل الشتاء¹.

يُلاحظ عمومًا فيما يخص لباس الرجال أن سكان الأقاليم الجنوبية لبابك قسنطينة يفضلون الألوان الفاتحة، وبالأخص اللون الأبيض. هذا الميل نحو تفضيل هذه الألوان يعود إلى أسباب عدة، أولها مرتبط بالعبقيدة الإسلامية، حيث يحث الرسول عليه الصلاة والسلام على لبس الأبيض في قوله: "عليكم بالبياض، ألبسوه أحياءكم، وكفنوا به أمواتكم". فالأبيض في ذهنية الفرد الجزائري الصحراوي هو لون الأمل والتفاؤل والخير والحب، على عكس الأسود الذي غالبًا ما يوحي بالشر والتشاؤم والبغضاء. والأبيض أيضًا هو رمز للطهارة التي يدعو الإسلام إلى احترامها لارتباطها بالعبادات، وعلى رأسها الصلاة، إذ أنه سريع التأثير بالألوان الأخرى، فإذا ما مسته نجاسة ظهرت للعيان، وسهل التعرف عليها، فهو لباس يحافظ من خلاله المسلم على طهارة جسده ولباسه. إضافة إلى هذين السببين، يعتبر اللون الأبيض من الناحية العلمية أقل الألوان امتصاصًا لأشعة الشمس والحرارة، ولأن المناخ الصحراوي حار، كان اختيار سكان الصحراء لألوان ملابسهم موفقًا².

2- أهم الأطعمة والأشربة:

شهد مجتمع صحراء قسنطينة خلال العهد العثماني تنوعًا في نظامه الغذائي، وذلك لتوافر المواد الأولية اللازمة للصناعة الغذائية بفضل ما تجود به أراضيها المتنوعة. وبالرغم من التباين بين القسمين الشمالي والجنوبي، إلا أن النظام الغذائي كان مقبولًا بشكل عام وكافيًا في بعض الأحيان لتلبية احتياجات السكان، على الرغم من الاضطرابات والحروب

¹ - على غنابزية: مجتمع وادي سوف، من الإحتلال الفرنسي الى بداية الثورة التحريرية، 1882-1954، ط1، دار هومة

للنشر والتوزيع، الجزائر، 2017، ص 488.

² - حسن داوس: المرجع السابق، ص 150.

التي شهدتها المنطقة في تلك الفترة والتي أثرت على القطاعين الزراعي والرعي. ومن العادات الغذائية والأنواع المشهورة آنذاك، نذكر ما يلي:

-الكسكسي: يُعدّ هذا الطبق من الأطباق المشهورة في الجزائر، ويعود تاريخه إلى العهد العثماني وفترة الاحتلال الفرنسي. وهو الطبق الرئيسي والمفضل لدى معظم الجزائريين، ويتكون من دقيق القمح الذي تقوم المرأة بفتله إلى حبيبات صغيرة أو متوسطة الحجم حسب الحاجة، ثم يوضع في الكسكاس ويطهى على البخار.¹، يُضاف إليه السمن والبصل والفلفل والخضار واللحم، ويُقدّم للأكل جماعةً أو للضيوف عند قدومهم. وهناك من يضيف العسل حسب إمكانيات الأسرة ودخلها ومكانتها. ومن الإضافات الأخرى التي تُضاف في بعض المناطق: الحليب والزبيب والتين وشرائح البطيخ.²، توارث الجزائريون هذا النوع من الأكل عن أجدادهم، ويعود ذلك إلى كون القمح المادة الأساسية التي تشكل زراعة واسعة لدى سكان المنطقة. وتعتبر الحبوب أساس التغذية لسكان بلاد المغرب كافة، وتحظى بنوع من القداسة، فلا يليق أن تَدنس أو تداس بالأقدام أو بحوافر الدواب، خاصة بعد تصفيتها وتخزينها.³

يُستخدم القمح في العديد من المنتجات الغذائية، مثل الخبز الذي يُعجن بالماء والملح ويُخبز على النار. بالإضافة إلى ذلك، هناك أنواع أخرى من الخبز، كالخبز الأبيض الذي يتناوله المترفون، بينما يستهلك عامة الناس الخبز الأقل جودة. وتُستخدم مواد أخرى كالشعير والدخن والذرة في صناعة الخبز الأسود، وهو الأقل جودة أيضًا. وفي منطقة سوف، يوجد نوع آخر من الخبز يُعرف بـ "الملة"، حيث يُحشى بالثوم والطماطم وبعض التوابل. ولإعداده، تُحفر حفرة في الرمل وتوضع فيها بعض الجمرات، ثم تُغطى الملة بالتراب الساخن. بعد

1 - وليام شالر: المصدر السابق، ص 87.

2 - هاينريش فوم مالستان: المصدر السابق، ص 227.

3 - عبد المالك بكاي: المرجع السابق، ص 116.

فترة، تُستخرج الملة ويُزال عنها التراب والجمر العالق، لتصبح جاهزة للأكل. وعادة ما تُستخدم الملة عند الترحال لسهولة تحضيره¹.

-**البركوكس**: ويعد من أنواع الكسكسي غير أنه ذو حبات خشنة وكبيرة نوع ما ويختلف عن طبق الكسكسي في طريقة اعداده حيث أنه يطهى بالبخار مرة واحدة ثم يضاف الي المرق ليكتمل طهيه وهو لا يختلف عن طبق الدشيشة المعروفة في كامل أرجاء الجنوب القسنطيني والتي يختلف في نطقها وطريقة اعدادها بين المناطق².

-**الدشيشة والبودشيش**: وتستعمل من مادة القمح أو الشعير ولا تختلف كثيرا في طريقة اعدادها عن الأطباق السالفة الذكر، وهي أنواع هناك الرقيق منها والخشن حسب نوع الحاجة، تطهى على الموقد لمدة زمنية معينة ويضاف اليها بعض الخضر مع الماء والملح وإن وجد اللحم الى أن تصبح جاهزة للأكل³. أما البودشيش وهو من مادة الشعير المطحون، يبل بالماء ويطهى على النار مرتين ثم يبلل بالزيت ويضاف له بعض الخضار⁴. تعد هذه الأطباق والتي لا تحتاج كثيرا المواد لإعدادها ونتيجة للأوضاع المزرية التي كان يعيشها السكان خلال هذه المرحلة تعد من الأطباق المنتشرة كثيرا بين قبائل الجنوب القسنطيني.

-**اللحوم**: تُعدّ اللحوم من العناصر الأساسية في موائد الجزائريين، خاصة في المناسبات المعروفة، إلا أن استهلاكها يختلف بين الطبقات الاجتماعية تبعًا للمستوى المعيشي للأسر. وعلى الرغم من امتلاك المناطق الجنوبية وبيالك قسنطينة لثروة معتبرة من الأغنام، فإن نسبة الاستهلاك تبقى متواضعة نظرًا لاستخدام هذه الثروة في التجارة. وفي هذا السياق، يذكر حمدان بن عثمان خوجة قائلاً: "إن سكان السهول، على الرغم من امتلاكهم للمواشي،

1 - اندري روجر فوزان: سوف مونوغرافيا، ترجمة أبو بكر مراد، دار المعرفة، 2016، الجزائر، ص 140.

2 - إبراهيم العوامر: المصدر السابق، ص 37.

3 - على غنابزية: المرجع السابق، ص 484.

4 - إبراهيم العوامر: المصدر السابق، ص 37.

لا يذبحون منها إلا نادرًا للتمتع بها، ولكن إذا نزل بهم ضيف ذبحوا له من ماشيتهم وقدموا له اللحم إكرامًا له وإيثارًا منهم، على الرغم من امتناعهم عن ذبحها لأنفسهم وأهلهم.¹

ومن عادات السكان في تخزين اللحوم، حيث أنهم يجففون اللحم ويطعمونه بالملح وبعض التوابل حتى يضمنون استهلاكه لمدة أطول ويطلق عليه (بالقديد) في هذه الحالة².

-التمور: كانت أشجار النخيل منتشرة كثيرا في صحراء قسنطينة وخاصة منطقة الزيبان ووادي سوف وريغ حيث تنتج كميات كبيرة يوجه جزء منها للاستهلاك المحلي والجزء الآخر الى الأسواق الداخلية ويستبدل بالقمح مع قسنطينة³ عاصمة البايك ، وفي إقليم الزاب " بها عدد كبير من حدائق النخيل " فبسكرة "لا تنتج إلا التمر " و طولقة " تنتج أراضيها كثيرا من التمر " ، و اشتهر أكله في شهر رمضان⁴.

بالنظر إلى خريطة توزيع ثروة النخيل في صحراء قسنطينة، نجد أن مناطق الزيبان وسوف والريغ تتصدر مناطق البايك، وربما حتى الأيالة، من حيث الانتشار والإنتاج. لقد اكتسب هذا المنتج مكانة خاصة لدى السكان، وترافقه تقاليد وعادات مميزة أثناء الغرس وجني التمور. على سبيل المثال، يبدأ موسم جني التمور في منطقة سوف غالبًا في منتصف شهر سبتمبر عندما تتضج الثمار، فيعلن السكان حالة تأهب قصوى في جميع المنازل. وخلال شهر أكتوبر بأكمله، تبدأ عملية "القطع" أي الجني. بعد الانتهاء من عملية القطع، وما

1 - حمدان خوجة: المصدر السابق، ص49.

2 - اندري روجر فوزان: المصدر السابق، ص 140.

3 - الحسن الوزان : المصدر السابق، ج2 ص 70.

4 - عبد المالك بكاي: المرجع السابق، ص119.

يُصاحبها من تعبئة للجهود البشرية والمادية، يتم نقل التمر للتخزين والاستهلاك، أو ما يعرف بالعولة¹، أو عملية البيع في صناديق أو أكياس².

خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ازداد الاهتمام الفرنسي بهذه الثروة من خلال إدخال تقنيات وأدوات وطرق حديثة لزيادة الإنتاجية ونقل المنتج إلى الأسواق الفرنسية. وقد كان نوع دقلة نور ذو أهمية بالغة، حيث احتل المراتب الأولى من حيث الجودة بين نخيل الجزائر. وتتشابه إجراءات جني المحصول في كل من منطقة الزيبان ووحدات وادي ريغ. وقد تعددت استعمالات التمر، فهو يُستخدم مع القمح والسمن لإنتاج نوع غذائي متميز يُطلق عليه "الرفيس"، وكذلك في صناعة الحلويات، وغيرها من الاستخدامات اليومية للسكان.³

يعتبر التمر وحليب النوق صيفاً وحليب الماعز شتاءً من الأغذية الأساسية التي لا يستغني عنها سكان صحراء قسنطينة يومياً. بالإضافة إلى ذلك، يشيع استخدام التمر كمكون أساسي في أطباق أخرى مثل "الرفيس"، وهو معجون لذيذ يتكون من التمر والدقيق والعسل. وهناك أيضاً "المرفوسة"، وهي خليط شهوي من الدقيق والزبدة والحليب، تتميز بطعمها اللذيذ وفوائدها الصحية. كما يحرص سكان هذه المناطق على الاستفادة من خيرات الطبيعة من

¹ - العولة: يقوم السكان بعد عملية جني التمور بوضعه في أكياس وكذلك القمح الذي يجلبونه من التل، ثم يقومون بإدخاره في غرفة تسمى باللهجة المحلية (دار الخزين) ، ما يكفي عولة الأسرة لمدة عام ويسمون ذلك بالعولة هذا الصنيع تقوم به الأسر الميسورة الحال في أغلب الأحيان، حيث أن فصل الشتاء تقل الحركة في البساتين، ويميل الناس إلى الدعة والراحة والسكون ويستقرون في البلاد بسبب شدة البرد ويعتبر ذلك شبه عطلة لهم. للمزيد ينظر: أحمد بن الطاهر منصوري: قيم وعادات وتقاليد المجتمع السوفي قديماً، ط1، منشورات مديرية الثقافة لولاية الوادي، مطبعة مزوار، 2015، الجزائر، ص21

² - علي غنابزية: مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية من القرن 19/13م، مطبعة الرمال، 2019، الجزائر، ص78.

³ - نفسه، ص79 .

النباتات والأعشاب المتنوعة في حياتهم اليومية، سواء في الغذاء أو العلاج، ومنها على سبيل المثال نبات الحنبيط.¹، و الحرّة²، والترفاس³... الخ.⁴.

-اللبن : و يقصد به اللبن و الحليب معا و يكون في الدرجة الثانية من حيث الأهمية بعد الماء، و في هذا الصياغ تكلم البكري عن البدو وقال " شرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء ، يبقى الرجل منهم الشهر لا يشرب ماء ."

كان مصدر اللبن حيوانات مثل الغنم والبقر والماعز والإبل. عرفت المناطق الريفية والصحراوية أعدادًا كبيرة من هذه الحيوانات المنتجة للحليب ومشتقاته خلال الفترة العثمانية والعصر الفرنسي. كما استُخرج من الحليب الأجبان والزبدة وغيرها من المشتقات الغذائية التي تدخل ضمن الاستعمالات اليومية لقبائل صحراء قسنطينة. بالإضافة إلى المياه المجلوبة من الآبار والوديان الجارية أو البرك، فإن الشراب الذي يُقدّم عادةً مع الطعام هو الحليب بأنواعه، سواءً كان طازجًا أو لبنًا. يُضاف إلى ذلك شراب موسمي يُعرف باللّقمي، وهو لا يتوفر إلا في الواحات، لكونه شرابًا نباتيًا يُستخرج من النخيل، ويُشرب في يومه لأنه لا يتحمل التخزين أو التعرض للشمس، لأن ذلك يحوّله من شراب مستساغ لذيذ إلى خمر. إضافةً إلى ذلك، كانت القهوة موجودة ولكنها نادرة.⁵.

¹ - الحنبيط: وهو نوع من الحميض الزراعي أوراقه كبيرة النصل، قليلة الحموضة مأكولة. للمزيد ينظر: اندري روجر فوزان: المصدر السابق، ص 140.

² - الحرّة : عشبة برية حولية من فصيلة الصليبيات وهي فصيلة نباتية من ذوات الفلقتين عديدة التويجات، أوراقها حريفة اما ازهارها صفراء اللون. للمزيد ينظر: اندري روجر فوزان: المصدر السابق، ص 140.

³ - الترفاس: نبات يشبه الكمأة وهو اغبر اللون تبني اللباب مأكلو ومستحب الطعم.يسمونه بطاطا الصحراء. للمزيد ينظر: اندري روجر فوزان: المصدر السابق، ص 140.

⁴ - اندري روجر فوزان: المصدر السابق، ص 140-141.

⁵ - علي لعبيدي وحفيظة زلاط: مجتمع الزيبان من خلال رحلة بول فويللو خلال القرن 19م في مجلة دراسات تاريخية،المجلد 10، العدد2022،01،ص430.

-الخمور: شهدت البلاد في تلك الفترة أو بعدها انتشارًا واسعًا للأشربة المتخمرة، مثل ماء الزهر، وماء قصب السكر، وصفو الزبيب المنقوع، وعصير بعض الفواكه كالعنب. وعلى الرغم من تحريم شرب الخمر، فقد ظل شائعًا، خاصة في الأرياف نظرًا لتوفر المواد الأولية لصناعته، كالكروم المنتشرة في سهول البلاد. ولم تقتصر مصادر الخمر على الكروم فحسب، بل شملت التين والذرة والتمر والعسل والحنطة والشعير¹.

بشكل عام، لم يكن الجزائريون يستهلكون الخمر في ذلك الوقت، فمن لم يجد القهوة أو الحليب كان يكتفي بالماء. أما اليهود، فكانوا يستهلكون نوعًا من الخمر يُطلق عليه "ماء الحياة"، وكان يُصنع من التين غير الصالح للأكل، حيث يشترونه من البايك بسعر يتراوح بين سبعة وثمانية بطاقة شيك للقطار الواحد، بينما كان التين الصالح للأكل يباع بسعر يتراوح بين عشرة واثنى عشرة بطاقة شيك للقطار الواحد.²

بهدف تشجيع الرذيلة وإرهاق المجتمع الجزائري بعادات دخيلة تقتك ببنيتة المجتمعية، يتم تطوير ونشر ثقافة شرب الخمر وتعاطيه، وهي عادة استُخدمت مع الاستعمار، وتؤدي بدورها إلى مشاكل وفتن قد تصل أحيانًا إلى جرائم قتل وغيرها. أما غذاء الأطفال، فلا يختلف كثيرًا عن غذاء الكبار، إلا أن شكله يكون أكثر قبولًا وملاءمةً للطفولة، ويعتمد على دقيق التمر من نوع دقلة نور المخلوط بالحمص المحمص والسكر بكمية قليلة. وأحيانًا يُذاب هذا الخليط في الحليب أو الماء ويُقدّم على شكل حساء.³

1 - عبد المالك بكاي: المرجع السابق، ص ص 126-127.

2 - بوشنافي محمد: النظام الغذائي في الجزائر خلال العهد العثماني 1520-1830، في المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد 06 العدد -11 جوان 2020، ص ص 76-77.

3 - عثمان زقب: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف 1918-1947 وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ جامعة باتنة، 2006، ص 157.

3- الألعاب والألغاز والموسيقى

شهد العهد العثماني في الجزائر ظهور العديد من الألعاب ووسائل الترفيه المتواضعة التي كان الجزائريون يتسلون بها وتعبر عن ثقافتهم، مثل المسرح الشعبي الذي أدخله الأتراك إلى الجزائر للاستمتاع بمشاهدة القراقوز، أو ما يسمى بخيال الظل. وهو عبارة عن قبو مظلم يحتشد فيه الأهالي، ويجلسون على الأرض ناظرين إلى الشاشة حيث تظهر الأشكال السوداء الناطقة على قطعة ورق مشبعة بالزيت. ومن بين الشخصيات الناطقة شخصية القراقوز الذي يتميز بمظهره المضحك وشكله الغريب.¹ بالإضافة إلى الفروسية والألعاب البهلوانية، التي هي نوع من المصارعة يستعرض فيها الرجال قوتهم وخفة حركتهم، كانت هناك لعبة أخرى تسمى "لعبة العصا"، يشترك فيها الفرسان ويرمون عصيهم التي تشبه الرماح على بعضهم البعض. وكان الباشا نفسه يشارك فيها، ولكن فقط في عيد الأضحى، والفائز هو من يصيب خصمه ويسقطه أرضًا. وفي النهاية، يقدم الباشا للفائزين هدايا ومكافآت. إضافة إلى هذه الألعاب، كان السكان يتسلون بمشاهدة العروض الهزلية التي تشارك فيها شخصيات من العبيد والحيوانات، وتتضمن إشارات وحركات مثيرة وسخرية. وكان بعضهم يذهب إلى السوق ليستمع إلى المداحين وهم يروون حكايات ومغامرات الأبطال التي تشبه قصص شهرزاد. أما النساء، فكانت وسيلتهن الوحيدة للتسلية هي اللقاءات في الحمامات العمومية التي يترددن عليها كثيرًا والتي تفتح أبوابها بعد الظهر للنساء فقط، أو الزيارات المتبادلة في المنازل، ولا سيما بمناسبة الخطوبة والزواج والختان، حيث يطلقن العنان للرقص والغناء، أو عند الوفاة وزيارة المقابر أو أضرحة الأولياء

1 - عمار عمورة : الجزائر بوابة التاريخ : المرجع السابق ، ص222.

الصالحين. ولا تخرج النساء من بيوتهن إلا محجبات، ولهذا قلما تتاح للأجانب الفرصة لرؤية امرأة عربية.¹

أما طبقة العلماء، فأبرز ما كان يجمعهم حب الرياضة الفكرية والتسلية بجل الألغاز²، فقد شاع بينهم تبادل هذه الألغاز والتراسل بها، والتحدي بحلها، وقضاء الساعات الطوال في ذلك. ومن بين هذه الألغاز يذكر أبو القاسم سعد الله لغز "هاج الصنبر" الذي دار بين سعيد قدورة وأحمد المقري، وكذا لغز "السبعة" الذي وضع فيه أحمد البوني تأليفاً خاصاً. وقد أورد ابن حمادوش لغزاً فتداولناه بيننا نحن علماء مدينة الجزائر، حتى بلغ كل عالم وأديب في البلد، فلم يُفَضَّ بكارته ولم نجد علمه عند أحد³.

وفي ميدان الموسيقى⁴ في العهد العثماني بالجزائر، كان سكان الريف والبوادي عموماً يستخدمون آلات محلية مثل البندير والطبلة والقصبة. أما عرب المدن، فكانوا يستعملون

1 - نفسه، ص ص 222-223

2 - اللغز شكل أدبي قديم شكل الأسطورة، والحكاية الخرافية كما أنه كان يساويهما في الانتشار، ولم يكن اللغز في الأصل مجرد كلمات محيرة تطرح للسؤال عن معناها بين تلك لأصحاب في الأمسيات الجميلة، والغز في جوهره استعارة، والاستعارة تنشأ نتيجة التقدم العقلي في ادراك الترابط والمقارنة وإدراك أوجه الشبه والاختلاف، على أن اللغز فضلا عن ذلك يحتوي على عنصر الفكاهة، ذلك أن سبب كل شيء يثير الضحك احتوائه عنصر عدم التوقع. للمزيد ينظر: نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير في الادب الشعبي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1974، ص 154.

3 - سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، المرجع السابق ، 453.

4 - وقد وجدت بالجزائر خلال العهد العثماني عدة أنواع للموسيقى:

- **موسيقى الحضرة (الاندلسية)**: وهي الموسيقى التي عزفها مهاجري الأندلس، وتتكون فرقتها من من 20-30 عازفا ومن آلاتها، الرباب ذو الوترين، والقيثار بأحجامه المختلفة.

- **موسيقى البدو**: وهي عفوية لانهم لا يكتبونها، ومن آلاتهم الربابة (ذات الوتر الواحد)، القصبة ، البندير، ومعظم انشادهم يعتمد على المدائح النبوية وسيرة الصحابة، وقصص العرب البطولية.

- **موسيقى الأتراك**: عسكرية تتكون من فرقة الاوجاق العسكرية وكان طراز الموسيقى من النوع المختار ، وهو طراز شديد الحدة النغمية وقد أصبح شعبيا في الدولة العثمانية، وهناك نوع آخر غيلر عسكرية: وتمتاز بحزن نغمتها ومن آلاتهم الفضل، والقصبة، والطنبور، والمزمار إضافة الى وجود أحران من الموسيقى الترفيه خاصة لصغار السن وهي القراقوز

آلات أكثر دقة كالربابة والقانون والعود والدربوكة والجواق. كانت الألحان إما أندلسية أو متأثرة بها، وكانت هناك فرق موسيقية متعددة تجد لها مكانًا في المقاهي والمناسبات الاجتماعية والدينية كالزواج والظهور والمولد النبوي ورمضان. كان للأتراك فرق موسيقية خاصة بهم، وكذلك كان الشخص الميسور يمتلك فرقة خاصة. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك فرق موسيقية خاصة بالحملة العسكرية. وكان للباشا نوعان من الموسيقى: موسيقى العشية وموسيقى الصباح. أما الآلات الموسيقية التركية فكانت الناي والغيطة والطبل. حتى الزوج كانت لهم موسيقى خاصة وآلات تكاد تكون حصرية بهم، مثل الطبل الكبيرة والقراقب والغنبري¹.

كان الرقص شائعًا أيضًا، ولكن فقط بين المهتمين به من الرجال والنساء. فالرجل والمرأة المحترمان لا يرقصان علنًا على الأقل، وكان الرقص في الغالب عملاً فرديًا. وقد تأثر الرقص في المدن بالرقص الشركسي، بينما تميز الرقص في الريف بطابع محلي. وفي كثير من الأحيان كانت الراقصة مغنية أيضًا².

على الرغم من تناول بعض العلماء الجزائريين موضوعات الموسيقى والغناء والرقص وغيرها، إلا أنهم لم يفردها بمؤلفات تؤرخ لها وتصفها وتحدد أنواعها ووظائفها الفنية والاجتماعية. والملاحظ أن الموسيقى لا تختلف عن العلوم الأخرى من حيث قلة التأليف

والقوارش. للمزيد ينظر: بوشيبة ذهبية: العلوم العقلية والفنون في الجزائر خلال العهد العثماني، في مجلة كلية العلوم

الاجتماعية والإنسانية، العدد الرابع، جامعة مولاي الطاهر سعيدة، 2017، ص 141.

1 - أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص ص170-171.

2 - نفسه، ص 171.

والإبداع، ويعزى ذلك إلى الركود الثقافي الذي ساد خلال العهد العثماني، والذي شمل مختلف العلوم والفنون دون استثناء.¹

ج- الزينة:

-**الحناء:** لم تهمل المرأة الريفية في بايلك الشرق زينتها الشخصية، فعلى الرغم من كثرة انشغالاتها، كانت تضع الوشم على الكعب والذراع، واليد والوجه، وتكمل زينتها باستعمال الحناء. وللحناء مكانة خاصة في عادات وتقاليد مجتمع صحراء قسنطينة، لارتباطها بالدين اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك كان كثير من الرجال يصبغون لحاهم بالحناء. أما النساء، فيعتبرن هذه المادة أصل الزينة، وتشعر المرأة عندما تضعها على يديها ورجليها بتجدد شبابها، ولا يقتصر الأمر على الفتيات فقط بل حتى العجائز، حيث يستخدمنها مرة في الشهر على الأقل، ويفضلن يومي الاثنين أو الجمعة. أما استخدامها على الرأس فيصبغ الشعر ويعالج تساقطه.²

وتظل الحناء حاضرة في المناسبات الهامة، إذ تتزين بها العروس وصدقاتها، ويرسل الخاطب بعضاً منها إلى خطيبته، كما تحظى النساء بالعناية من خلال تكريمها بالحناء. وعندما يقترب موعد ختان الطفل، توضع الحناء على كفيه ورجليه، فإذا حان وقته، يوضع مسحوقها في صحن وتوضع عليه بيضة مسلوقة يأكلها الشخص الذي يجري عملية الختان، أما المسحوق فيوضع على الجرح ليسرع التئامه، وغالباً ما تخلط الحناء ببعض الزيت ومسحوق الحرمل.³

1 - بوشبية ذهبية: العلوم العقلية والفنون في الجزائر خلال العهد العثماني، في مجلة كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد الرابع، جامعة مولاي الطاهر سعيدة، 2017، ص 141.
2 - كمال بن صحرابي: أوضاع اريف في بايلك الغرب الجزائري، أواخر العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2014، ص 310-311.
3 - نفسه.

-الخلي: من مظاهر الزينة الأخرى للمرأة الخلي، والذي يحمل بعدًا اجتماعيًا؛ فالمجوهرات وسيلة للتفاخر وإظهار الثروة، كما أنها وسيلة لإبراز المكانة الاجتماعية. ففي الماضي، كانت الثروة والمكانة الاجتماعية تُقدَّران بكمية المجوهرات التي تمتلكها المرأة وترتديها في المناسبات¹.

احتلت الخلي مكانة اجتماعية مرموقة في الأفراح والأعراس، واضطلعت بدور كبير في العلاقات الاجتماعية، إذ تُورث من الآباء إلى الأبناء. ويمكن التمييز بين الخلي التي ترتديها الفتاة عند بلوغها سن الزواج، حيث تُهدى قرطين وسوارين بمناسبة أول صيام لها. كما تعبر الخلي عن قيمة المهر المدفوع للعروس لإتمام مراسم الزواج، وتُقدم لها هدية من الذهب عند الولادة الأولى، خاصة إذا كان المولود ذكرًا².

كما يرمز الخلي الى الانتماء العرقي أو الوضعية الاجتماعية للمرأة فمن خلالها يمكن معرفة نساء الطبقة الحاكمة، أو المرأة الغنية التي تستعمل غطاء الرأس المرصع بالمجوهرات³.

أما نساء الطبقة الوسطى، فكن يزين رؤوسهن بحلي ذهبية مسطحة، ويلفن حولها عصابة مرصعة باللؤلؤ والزمرد. وكن يرتدين الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وأذرعهن. وكانت المرأة اليهودية تُعرف من خلال الخلي التي ترتديها، خاصة القبعة المذهبة التي تضعها على رأسها بشكل مائل⁴.

1 - بن ونيش فريد: المجوهرات والخلي في الجزائر، ط2، فن وثقافة وزارة الإعلام ، الجزائر، 1982، ص 11.

2 - نفسه، ص 17

3 - ديفل سميحة سميحة: صناعة الخلي بقسنطينة خلال العهد العثماني، في مجلة المواقف للبحوث والدراسات في

المجتمع والتاريخ، العدد: 2016، 11، ص ص 173.

4 - نفسه، ص 174.

من بين الممارسات الشائعة في المجتمع الجزائري في تلك الفترة، وحتى قبلها، الاهتمام بالحلي. تسجل الأستاذة والباحثة نجوى طوبال انتشار عادة إعاره الحلي للعروس، وهي عادة ليست وليدة تلك المرحلة، بل تعود إلى زمن أقدم بكثير. وقد أشار إليها الونشريسي، مؤكداً على وجودها في المجتمع منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، حيث كان الأب إذا جهز ابنته بحلي، فإنما هو على سبيل العارية (الإعارة)، وأن التزين حقٌ خاص بالابنة فقط، وإذا طالت المدة، فمتى أراد الأب استرجاع شيء منه استرجعه، وفي حالة وفاته يورث عنه.¹

استمر العمل بعادة إعاره الحلي للبنات عند الزواج منذ نهاية القرن الخامس عشر، كما أشار الونشريسي، وحتى نهاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث رصدت الأستاذة والباحثة نجوى طوبال عدداً من الحالات. من بين هذه الحالات، حالة محمد الخياط بن إبراهيم قيسارلي، الذي قدم لابنته مريومة سنة 1860م مجموعة من الحلي على سبيل الإعارة، تمثلت في: زيريف، حب جوهر، مناكش (أقراط)، أربعة خواتم يمانط (ألماس)، بالإضافة إلى رديف ومسايس مع شاشية مرصعة بأربع دنانير.²

اشتهرت عاصمة بايلك قسنطينة، وبعض الحواضر القريبة منها، بصناعاتها التقليدية والمعدنية، خاصة النحاس والحلي. وتعدّ حرفة الصياغة من أعرق وأهم الحرف في قسنطينة. وتأتي كلمة "الصياغة" بمعنى "الصيغة"، أي حُسن العمل وسبك الشيء. لذا، فإن مفهوم الصياغة يدل على عمليات وضع القوالب والإطارات، وتفريغ المعدن المذاب فيها حتى يتصلب ويتحول إلى قطع حلي، بعد معالجتها من قبل الصائغين بالتقنيات والمواد والمهارات المطلوبة. كانت هذه الأعمال تتم في دكاكين قريبة من دار السك وأمام أعين الناس. وكانت

1 - نجوى طوبال: الزواج وواقع المصاهرات بمجتمع مدينة الجزائر - الفترة العثمانية- 1710-1830، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، ج1، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2014، ص219.

2 - نفسه.

المصوغات تُختم من طرف أمين الحرفة، الذي يحتفظ بقالب المعادن وأختام النقود، حيث كانت الحلي تحمل طابع السلطان، تمامًا مثل النقود التي تُضرب في دار السكة. وبعد أن يصنع الصائغ الحلي، يقوم بعرضها للبيع¹.

وقد أشار وليام شالر في هذا الصدد قائلاً: "إن المرأة في الجزائر ترتدي الحلي الثقيلة، بما في ذلك خواتم وأقراط وأساور ذهبية، وخلافاً من الذهب والفضة والمعدن الشائع. فالذهب هو المفضل في الطبقات الغنية، ثم تلجأ النساء في الطبقات الأقل ثراءً إلى الفضة، بل والنحاس أحياناً. أما لباس الرأس القومي فهو "السرمة" الذي يصنع من الذهب أو الفضة حسب الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها المرأة، وهو مخروطي الشكل، ويوضع فوقه حجاب شفاف كثيف أو خفيف التطريز"².

ومن هذه الحلي التي كانت منتشرة ومعروفة في بايالك الشرق نجد: السخاب، سوط بولحية، الخخال، الأبزيم (الخاللة)، المقياس (أسورة)، القبعة (الشاشية)، المحزمة³.

-الوشم: من منظور الأنثروبولوجيا التواصلية، يُعد الوشم على الجسد أحد أشكال التواصل الاجتماعي. فقد قدمت الأنثروبولوجيا التواصلية مفهوماً أوسع للتواصل يتجاوز التعريف التقليدي الذي يقتصر على اللغة المنطوقة والمكتوبة. ويؤكد "ويفر"، أحد رواد هذا المجال، قائلاً: "سنستخدم مصطلح 'التواصل' هنا بمعناه الواسع جداً، ليشمل جميع العمليات التي يستطيع من خلالها عقل التأثير في عقل آخر. وهذا يشمل بالطبع اللغة الكتابية والمنطوقة، بالإضافة إلى الموسيقى والفنون الجميلة والمسرح والرقص، بل وكل سلوك إنساني."

1 - ديفل سميحة سميحة: المرجع السابق، ص ص 178-179.

2 - وليام شالر: المصدر السابق، ص 85.

3 - ديفل سميحة سميحة: المرجع السابق، ص ص 191-196.

يُعتبر الوشم ظاهرة اجتماعية تدخل في إطار السلوك الثقافي والاجتماعي، وهو يجمع بشكل مميز بين الجوانب الروحية والمادية. يحمل الوشم في طياته دلالات رمزية اجتماعية وسياسية متعددة، إذ يعبر عن الهوية المشتركة وثقافة الانتماء.¹ الوشم هو مجموعة من العلامات والرموز الهندسية التي توضع على أماكن مختلفة من الجسم لدى كل من المرأة والرجل والطفل. يشمل ذلك وشم الوجه، الجبين، البطن، الظهر، الساقين والرجلين. يتم رسم الوشم بإحداث جرح بسيط في الموضع المراد باستخدام إبرة لرسم الشكل المطلوب، ثم يوضع مسحوق الكحل فوق الجرح. بعد فترة، يلتئم الجرح ويأخذ اللون الأخضر، ويبقى الشكل على الجسم مدى الحياة. وقد شاعت ظاهرة الوشم في المجتمع الجزائري لفترات طويلة من التاريخ، على الرغم من موقف الدين الإسلامي الراض لهذه العادة.²

تتنوع الأشكال الهندسية للوشم، وتشمل الأشكال الحيوانية والنباتية، والخطوط المائلة والمستقيمة، والزخارف النجمية، بالإضافة إلى الأشكال الهندسية كالدوائر والمثلثات والمربعات والمعينات والزوايا. ويوضع الوشم في المناسبات الهامة مثل الزواج أو الختان أو الولادة أو البلوغ (للذكور والإناث)، وعند الاستعداد للزواج، وعندما ترغب المرأة في التزين لزوجها، وفي الاحتفالات، وبعد أول حيض. وتستمر طقوس الوشم لمدة يوم أو يومين، أو طيلة مدة الحفل أو الموسم.³

اعتاد سكان صحراء قسنطينة، نساءً ورجالاً، استخدام الوشم للتعبير عن حالاتهم المختلفة. ففي منطقة الأوراس، وحتى وقت قريب، كانت النساء تستخدمن الوشم كجزء من

1 - عيساوي مها: عادات وتقاليد ريفية معاصرة في الشرق الجزائري، مجلة الثقافة الشعبية، عدد 23، 2013، ص 109

2 - فارس دعاس: الدالة الرمزية لنماذج من العادات التقليدية الجزائرية في اللباس و الحلي و الزينة وخلفيتها في التاريخ

القديم، في المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد، 08: العدد 01: 2024، ص 164

3 - الخطاري بلقاسم: الوشم كظاهرة سيموطيقية في الثقافة الأمازيغية، المغرب، منشورات كلية الآداب، 2000، ص

موروث الأجداد، وأداة تعبر بها الفتاة عن جمالها، أو حتى لإخفائه في بعض مراحل الاحتلال الفرنسي خوفاً من استغلالهن في البغاء وغيره. وينطبق الأمر ذاته على سكان الزيبان ووادي سوف والوحدات الجنوبية.

ثانياً: - المناسبات:

1- المناسبات الاجتماعية

حظيت الاحتفالات الشعبية في مدينة قسنطينة وأريافها وصحرائها خلال العهد العثماني باهتمام كبير في المجتمع، لما لها من رمزية ومكانة خاصة في ذاكرته، فلكل مناسبة مظاهر احتفالية يتم التعبير فيها عن الفرح والسعادة. ومن أهم هذه الاحتفالات: الزواج، والختان، والاحتفال بالمولود الجديد. وقد أتاحت لنا هذه الاحتفالات فرصة التعرف على الطقوس الشعبية التي سادت المجتمع في بايلك الشرق خلال العهد العثماني.

أ- الخطبة و الزواج :

الزواج ضرورة إنسانية تقتضيها متطلبات الحياة وطبيعة الاجتماع. فهو أساس السعادة وأصل الطهارة، وقوام الأسرة الذي تتكون به وتنمو. كما أنه السياج الذي يحفظها من التصدع والاضمحلال، إذ يوثق العلاقة بين الزوجين، ويجعل كلاً منهما يبذل جهده في سبيل معونة الآخر وإسعاده. ومن العسير أن تستقيم الحياة البشرية وتعتدل وتطمئن إذا كانت علاقة الرجل والمرأة غير مستقرة، لأن هذه العلاقة هي أساس بناء العمران والأخلاق الإنسانية¹.

تُعد الفترة التي تسبق عقد الزواج الرسمي مرحلة تحضيرية لتوثيق العلاقة بين الأسرتين. ويرى "فان جنب" أنها الفترة السابقة للزواج، وهي فترة هامشية تتضمن شعائر الانفصال

1 - الأسرة في الشريعة الإسلامية، في مجلة دعوة الحق، العدد: 145، - <https://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/3686> تاريخ التصفح: 2025/03/08.

والاندماج. هذه الرابطة الاجتماعية مهمة جدًا للمخطوبين، ولذا تعكس مظاهر الاحتفال بالخطبة الكثير من مظاهر الاندماج والارتباط العائلي، وذلك عن طريق الإعلان عن يوم الخطبة وخاتم الخطوبة. يهدف الإعلان إلى إعلام المجتمع باقتراب زواج شخصين، ولأهمية هذا الارتباط، أصبح الإعلان عنه أمرًا حتميًا من خلال الحفل وتقديم الهدايا. وتختلف الطقوس المرتبطة بالخطبة من جماعة إلى أخرى، ويهدف هذا الحفل إلى تقديم الفتاة وأهلها إلى العائلة الأخرى.¹ تختلف طقوس الخطبة في الجزائر خلال العهد العثماني من منطقة إلى أخرى، وأحيانًا من قبيلة إلى أخرى. من منطلق اهتمام الشريعة الإسلامية بالأسرة والعناية بها لتحقيق غاياتها المنشودة وإثمارها، فقد أولت اهتمامًا بالغًا بالزواج وإقامة العلاقة بين الرجل والمرأة على أسس فطرية واضحة، تضمن استقرارها وتجنب اضطرابها أو غموضها في أي جانب من جوانبها.²

يعتبر الزواج في الجزائر العثمانية رابطة اجتماعية مقدسة تخضع لضوابط دينية عديدة. ومن الظواهر التي تعزز هذه الرابطة بين العائلات المتصاهرة ظاهرة التوسط، التي تقوم بها النساء كبيرات السن من أقارب العائلتين.³ وحتى اللاتي لا تربطهن صلة قرابة بين العائلتين المتصاهرتين، مثل بعض النساء اليهوديات. يذكر "فندلين شلوسر" عن مدينة قسنطينة أنه إذا أراد شاب الزواج، يرسل امرأة يهودية إلى بيت الفتاة التي يرغب في الزواج بها، دون أن يقيم معها علاقة شخصية. فإن قبلت الفتاة، تتوجه المرأة إلى أبيها، ويتفق معه على المهر المقدم، والذي يتراوح غالبًا ما بين 75 إلى 100 ريال.⁴ يُقدّم هذا المال إلى الفتاة عن طريق أبيها، ويُختار يوم محدد ليذهب الأب مع ابنته والعريس إلى القاضي، فيُنثب هذا الأخير

1 - بومخلوف نصيرة ورميثة أحمد: العرس كطقس عبور بالمجتمع الجزائري الراهن مقارنة سوسيو أنثروبولوجية، في مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 11، العدد: 2022، ص 01، ص 8.

2 - نفسه.

3 - وليام سبنسر: المصدر السابق، ص 97

4 - فندلين شلوسر: المصدر السابق، ص 86-87.

اسميها في العقد. ويتقاضى القاضي ريالاً واحداً كرسوم لإتمام العقد. بعد ذلك، تبدأ العروس في مرحلة التحضير والإعداد لمراسم الزواج.¹ بالإضافة إلى العادات المتعارف عليها خلال هذه المناسبات، والتي تختلف من منطقة لأخرى، وكما ذكر الأستاذ دودو، فإن الخطبة تتم باجتماع الوالدين والاتفاق على الصداق، ثم توثيقه لدى القاضي وقراءة الفاتحة، وصولاً لتحديد يوم العرس والزواج.² تتميز المجتمعات الريفية بانتشار ظاهرة الزواج المبكر، حيث لا يتجاوز عمر الذكور العشرين عاماً، بينما لا يتجاوز عمر الإناث العاشرة، مع انعدام ظاهرة العزوف عن الزواج.³

يختلف صداق المرأة تبعاً للحالة الاجتماعية للزوج. وعموماً، يتكون الصداق في الأرياف من حلي ومجوهرات، بينما يقدم الأغنياء صرمية من الذهب والفضة. وينقل لنا سعيدوني مكونات مهر زواج سنة 1727م بين أسرتين مرابطتين كبيرتين، هما أسرة "سيدي محمد شريف الزهار" من مدينة الجزائر وأسرة "علي مبارك" من مدينة القليعة: ألف دينار وواحد، وثلاثة قفاطين، وثلاثة أزواج من الأسورة الذهبية، وخادمتان، وثلاث أوقيات من اللآلئ من الطراز الباروكي.⁴

يُعدّ الصداق ركناً من أركان الزواج الشرعي الصحيح. وتذكر المصادر التاريخية أنه في مدينة قسنطينة أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان الصداق يتكون عموماً من مبلغ نقدي بالإضافة إلى مجموعة من الملحقات مثل القمجة والملحفة والحزام والقفطان والإماء. وتجدر الإشارة إلى أن الصداق يخضع للأعراف والعادات المتوارثة والحالة المادية

1 - نفسه، ص 86-87.

2 - أبو العيد دودو: المرجع السابق، ص 74.

3 - ناصر الدين سعيدوني: الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أو آخر العهد العثماني (1791-1830)، البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2014، ص 396.

4 - نفسه، ص 397.

للزوجين.¹ . تقام العديد من الطقوس في يوم الزفاف، وتختلف باختلاف المناطق. إلا أن الاحتفالات بالزواج قد تستمر لعدة أيام، تصل إلى أكثر من سبعة أيام أو أقل، وذلك حسب مكانة الأسر المتصاهرة.²

تختلف طقوس الاحتفال بالزواج بين المدينة والريف في بعض العادات والموروثات الاجتماعية. كما أن إقامة حفلات الزواج تعتمد على المكانة الاجتماعية والاقتصادية لأهل العروسين؛ ففي حين أن الطقوس في الريف لا تتطلب تكلفة كبيرة ويغلب عليها الاحتشام، يستمر الزواج في الحضر لمدة أسبوع تقريباً، خاصة عند الكراغلة. ويصف لنا "وليام سبنسر" المشهد على النحو الآتي: "يتجول الزوج بضعة أيام قبل الحفل في نواحي المدينة على أصوات الطبول والمزمار... وفي يوم الزواج يقوم بجولة أخرى مرتدياً جلباباً أحمر وبجانبه سيف رفيع، مع وضع خمار على وجهه للحيلولة دون تأثير عين الشيطان. وخلال الأيام الثلاثة التي يجري فيها الاحتفال، يؤخذ العريس إلى الحمام بلباس خاص، ثم يذهب للصلاة مع العائلة والأحباب وصولاً لعقد القران وقراءة الفاتحة. وقد تختلف هذه الطقوس من منطقة إلى أخرى، فهي لا تقتصر على مكان محدد بعينه.³

ينقل لنا الرحالة الأمريكي "ماثيو كيري" بعض عادات الجزائريين في الزواج، من خلال وصف ما يقدم في مراسم الزفاف من مأكّل ومشرب وموسيقى وغيرها. ويشير إلى أن الحياء والعفة من شيم الجزائريات، وهو ما يعبر عنه بالنقاب وعدم الخروج لمدة معينة. هذه العادات

¹ - سهام بوديبة: دور المصاهرات في مدينة قسنطينة في الربع الأول من القرن التاسع عشر من خلال سجلات المحاكم الشرعية، أطروحة دكتوراه، في تخصص تاريخ المغرب الحديث، جامعة قسنطينة، ص ص 91-93.

² - وليام سبنسر: المصدر السابق، ص 117.

³ - احمد بحري: المرجع السابق، ص ص 191-192.

تحظى بالاحترام لدى عموم الجزائريين، إلا أنها ليست منتشرة في كل أنحاء البلاد، إذ توجد عادات أخرى للجزائريين في مناطق متفرقة كالصحراء والأوراس وغيرها...¹.

ب- الإحتفال بالختان:

يُعد الختان من أبرز مظاهر الحياة الدينية في المجتمع الجزائري، ومن الطقوس المتعارف عليها التي تميزه عن المجتمعات المسيحية وغيرها، لما له من حكمة دينية وأثر صحي على المولود. ويصاحب هذه العادة احتفالات وولائم تقام بين العائلات، مما يبرز صورة من صور التكافل والتضامن الأسري. ويرصد لنا الحاج أحمد الشريف الزهار في مذكراته حفل ختان ولدي مصطفى باشا سنة 1797 م و هما : إبراهيم و أخيه ، و قد صنع مهرجانا كبيرا يصنع مثله من قبل أو من بعد ، وكان ذلك خارج البلد إزاء بستانه، حيث نظم مهرجانا كبيرا استقدم البايات وعمالهم و وكافة أعيان أوطانهم وكافة الفقهاء و الطلبة و كافة أهل باب الجهاد من أصناف الرؤساء وغيرهم وجمع كل أهل الآلات من الترك والعرب، ورتبوا في كل ليلة من أنواع المالهي على إختلاف أنواعها و احتفلوا أيضا في نفائس الأطمعة و الإكثار منها ، و أطعم الناس ثلاث مرات في كل يوم و القهوة في كل وقت و كانت المدافع تضرب كل يوم من جميع الحصون و أصحاب الخيل يتسابقون و البلهوانات يلعبون ألعابهم ، والنوبة تضرب صباحا ومساء².

استمرت الوليمة سبعة أيام، وفي اليوم الأخير وُزعت الصدقات على المحتاجين من الطلبة، وأمر بختان أبناء الفقراء ومنح كل واحد منهم مبلغًا من المال. استمر الختان شهرًا، وقضى ديون المدينين، وأطلق سراح المساجين إلا من استثناه الشرع كالمقاتل. وأخيرًا، أثنى

1 - محمد سريج: المظاهر الاجتماعية للمجتمع الجزائري في العهد العثماني وبداية الاحتلال من خلال الكتابات الغربية 1519-1850م، في مجلة دراسات في التنمية والمجتمع، المجلد 07، العدد 2022، ص 44.

2 - الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 82.

الشعراء عليه بقصائد كثيرة وأحسن إلى كل واحد منهم. ما قاله "الشريف الزهار" في هذا الشأن يدل على أمرين: أحدهما محمود والآخر مذموم. أما المحمود فهو إحياء هذه العادة التي درج عليها أجدادنا منذ القدم، والتي يجتمع فيها الناس ويتعارفون ويتبادلون التهاني ويشاركون في فرحة الصبيان، بالإضافة إلى ما يُمنح فيها من مال للفقراء والمساكين والأمر بختان أبناء الفقراء المعوزين، وهذا تضامن وتكافل اجتماعي حثّ عليه ديننا الإسلامي. كما أمر بقضاء ديون المدينين منهم، ولم يبقَ في السجن إلا من لم يجزّ الشرع إطلاقه، وهناك الشعراء بقصائد كثيرة، وأحسن إلى كل واحد منهم، وبلغ الغاية في العطاء¹.

كما ذكر الحسن الوزان عن يوم الختان: ".ويكون ذلك في اليوم السابع بعد ولادته. يستدعي الأب في ذلك اليوم أصدقاءه والحلاق، فيطعمهم. وعندما ينتهي الطعام، يقدم كل مدعو هدية للحلاق، متقالاً أو مثقالين أو أكثر أو أقل حسب مقدرته، ويلصقها على وجه غلام الحلاق الذي يذكر اسم المتبرع ويشكره. وبعد ذلك، يقوم الحلاق بختان الطفل، وتقام في النهاية حفلة يرقصون فيها على النحو المذكور آنفاً. وإذا كان المولود أنثى، قلّ الاهتمام بها..."².

ج-الاحتفال بالمولود الجديد وتسميته:

خلال العهد العثماني، احتفلت العائلات الجزائرية بقدم المولود الجديد بطقوس خاصة تختلف من منطقة إلى أخرى، لكنها تشترك في إظهار الفرح والسرور. وكانت لتسمية المولود أهمية بالغة، حيث تُعطى الأولوية في الاختيار لكبار العائلة. وعادةً ما يُختار اسم من أسماء

1 - نفسه، ص83.

2 - الحسن الوزان: المصدر السابق، ص 285.

الأجداد احترامًا وتخليدًا لذكراهم، بهدف إحياء ذكراهم من خلال تسمية المولود الجديد به. كما التزم الجزائريون بالأسماء العربية والإسلامية، وتجنبوا الأسماء الغربية والنادرة¹.

يُلاحظ أيضًا من خلال الأسماء الواردة في عقود الزواج والطلاق خلال الفترة المدروسة، تأثرها بأسماء أهل البيت؛ إذ تصدّرت أسماء "فاطمة" و"محمد" و"أحمد" القائمة بلا منازع، مما يبرز تأثير أسماء أهل البيت ويُظهر الانتماء الإسلامي لدى الأسر الجزائرية. كما شاع اسم "علي"، وهو ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنها ورابع الخلفاء الراشدين. كذلك، شاع تداول أسماء الصحابة رضوان الله عليهم، مثل: عمر، وعثمان، وأبي بكر الصديق، مع العلم أن اسم علي كان أكثر تداولًا بأربعة أضعاف مقارنة بالأسماء المذكورة آنفًا².

من تقاليد استقبال المولود الجديد التي كانت سائدة في مجتمعاتنا الجزائرية في العهد العثماني، والتي لا تزال متوارثة إلى اليوم في بعض المناطق، أنه بعد أن يرزق الزوجان بمولود، يؤذن له في أذنه اليمنى، ثم تقام له احتفالات بهيجة. وحتى في يوم ختانه، يأتي الأقارب لتهنئة الأم، ويقدمون لها الهدايا أو بعض المال، ويدعون الله أن يكون الطفل من الصالحين والمفلحين³.

1 - قشي فاطمة الزهراء: قسنطينة المدينة والمجتمع، النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة، دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة تونس، 1998، ص ص 179، 184.

2 - نفسه، ص 181.

3 - أحمد مريوش : الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ، منشورات المركز الوطني لدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول، 1954، الجزائر ، ص 227.

ثالثا: المناسبات الدينية:

1- استقبال شهر رمضان:

لم تكن القرى والأرياف الجزائرية في أواخر العهد العثماني تختلف كثيرا في طريقة استقبال المناسبات الدينية والتحضير لها. فعموماً، كانت مظاهر الاستقبال والفرح متشابهة، وإذا وُجد اختلاف، فهو لا يمس جوهر المناسبة، بل يقتصر على الإمكانيات والمستلزمات المتاحة للتحضير لها. وهذا يقودنا إلى الحديث عن المستوى الاقتصادي والمعيشي للأسر الجزائرية القاطنة في الأرياف والصحاري، والبعيدة عن تأثيرات المدينة، والتي كانت تعاني في أواخر العهد العثماني من الفقر وضيق العيش، مما انعكس سلبيًا على أدائها الثقافي والاجتماعي والروحي، وغيرها من الجوانب الحياتية الأخرى.

في عام 1675م، تحدث "توماس هيز" عن شهر الصيام عند المسلمين، مشيرًا إلى أن المسلمين المجتهدين يتربون رؤية الهلال الجديد لتحديد أول أيام رمضان. ولهذا، كانوا يصعدون إلى أسطح منازلهم لمشاهدة الهلال. وبعد فترة، كانت تعدم المناداة أرجاء المدينة إعلانًا عن بداية شهر رمضان، ويستمر الصيام إلى حين رؤية الهلال الجديد. وذكر أيضًا أنه خلال هذا الشهر، لا يحق للمسلمين الأكل إلا في الليل.¹ عند غروب الشمس، يفطر الصائمون بتناول شيء من الحلويات أو التمر مع ثلاث رشقات من الماء، ثم يتلون دعاء الإفطار ويبادرون إلى تناول وجبة الفطور مباشرة مخالفةً لليهود الذين يمتنعون عن الأكل لفترة طويلة. وفي الليل، تعد النساء طبق الكسكسي بالزيت مع اللحم المقلي وبعض الفواكه.² وهذا ما ذهب إليه الرحالة هاينريش عند تطرقه إلى الحديث عن الشهر الفضيل عند الجزائريين في كل سنة حيث تعد فرصة للفرح واکرام الضيوف وتوزيع الحلويات من

1- فاتح بلعمري: الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة قسنطينة 2017، الجزائر، ص350.

2 - أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1850، ص68

مختلف الأنواع أي من الشهور المقدسة والتي لا طقوسها الخاصة وهذه الميزة تتفرد بها الشعوب المسلمة غير أنها تختلف بعض الشيء في التحضير لها في كل سنة¹.

وفي هذا الصدد، يتطرق عالم النبات والرحالة الألماني "هابنسترايت"، الذي زار الجزائر سنة 1732م، للحديث عن بعض عادات وتقاليد الشعب الجزائري، حيث يقول: "لقد وصلت إلى الجزائر في الفترة التي تسبق الصيام، ولاحظت أن المسلمين يمتنعون عن الأكل والشرب أثناء النهار طيلة الشهر وحتى ظهور قمر الشهر التالي. هذا الصوم ليس مُنهكًا إلا للطبقة الدنيا، وهم جماعة البرانية، الذين يلتزمون به رغم ما يقومون به من أعمال مُنهكة جدًا، بينما الذين هم في مرتبة أرفع، وهم الحضر، يتجنبون هذا الإجهاد ويهيئون في الليل ما يقومون بعمله في النهار. ومع نهاية شهر رمضان ورؤية هلال العيد، يُنقل الخبر على جناح السرعة إلى الداي ليأمر بإطلاق المدافع إعلانًا بانتهاء شهر رمضان وحلول العيد".²

يتضمن كلام الرحالة "هابنسترايت" جانبًا كبيرًا من الصواب، فهو ينتقد التركيز على الامتناع عن الأكل والشرب وغيرهما من مظاهر الصوم، وإغفال الامتناع عن الشهوات المعنوية، وكأن رمضان مقتصر على ذلك. بالإضافة إلى ذلك، يذكر أن طائفة البرانية يرهقون في رمضان بسبب الأشغال الشاقة، وربما صادف وجوده في الجزائر في شهر جوان عام 1732م، وهو بداية فصل الصيف الحار في معظمه. قد يكون البعض يرهقون فعلاً، ولكن ليس كلهم، فهناك من يمتلك العزيمة والإرادة والقوة لصيام شهر رمضان. ولعل أجدادنا

1 - بلبروات بن عتو: المرجع السابق، ص 141.

2 - ج. او هبنسترايت : رحلة العالم الألماني ج أو هابنسترايت الى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م، تر.تقد.تعل،ناصر الدين سعيدوني،دار الغرب الإسلامي تونس، د ت، ص48.

صاموا الشهر في أشهر الصيف الحارة مع الساعات الطويلة تحت الشمس وهم يمارسون أشغالهم¹.

من جهته أشار "هينريش فون مالتسان (Maltzan Von Heinrich)" إلى شهر رمضان بقوله: "إن شهر رمضان من كل سنة هو شهر الحلويات و الضيافة والأفراح عند الجزائريين و تقام حفلات القرقوز التركي، و كان يحضره مئات الأشخاص و يتم ذلك بعد الإفطار².

ويرى أبو القاسم سعد الله أن من عادات الجزائريين في شهر رمضان ختم صحيح البخاري في المساجد، مع إضاءة الشموع فيها وفي غيرها. ويسهر الناس حتى آخر الليل في مختلف أنحاء البلاد، على خلاف الشهور الأخرى. وحتى النساء يخرجن للسهر مع الأقارب والجيران طيلة الشهر برفقة محارمهن، وهو ما يخالف عاداتهن في بقية شهور السنة³.

ذكر توفيق المدني عن شهر رمضان أن هذا الشهر له مكانة خاصة وقداسة عظيمة عند المسلمين، ويحتفلون به احتفالاً بالغاً على عكس بقية شهور السنة. وفي غالب المساجد، يحرصون على ختم القرآن الكريم في صلاة التراويح، ويعتنون أيضاً بختم صحيح البخاري، أما صحيح مسلم فكان له ختمة واحدة. ويبدأون في قراءته من اليوم الأول من شهر رجب ويختتمونه في نهاية شهر رمضان⁴.

تُقام في بعض بلدات الزيبان، ومنها بلدة سيدي خالد، تظاهرة ذات طابع ديني ثقافي في السادس والعشرين من شهر رمضان. تتجلى هذه التظاهرة في استقبال الحجاج والاهتمام

1 - محمد سريج: المظاهر الاجتماعية للمجتمع الجزائري في العهد العثماني وبداية الاحتلال من خلال الكتابات الغربية 1519-1850، في مجلة دراسات في التنمية والمجتمع، المجلد 07، العدد 01، سنة 2022، ص 40.

2 - هينريش فون مالتسان: المصدر السابق، ص 63

3 - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج1، ص160.

4 - احمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ص 181-182.

بهم، إذ تقع منطقة سيدي خالد على الطريق الغربي للحجاج القادمين من المغرب وبلاد السودان. وتتزامن هذه الظاهرة مع ليلة القدر، فأصبحت الاحتفالات بهذه المناسبة مُخصصة لاستقبال الحجيج؛ لذا يبدأ الحفل يوم 26 وينتهي ليلة 27 من رمضان، ويستمر إلى غاية انطلاق الأفواج إلى مكة المكرمة. فبعد منتصف النهار، يتوجه الزوار في حشد إلى مسجد سيدي خالد لأداء صلاة الظهر جماعة، ويدعو الإمام للحجاج بتيسير مناسكهم¹.

2- عيد الفطر والإضحى:

على غرار بقية شعوب العالم الإسلامي، يحتفل الجزائريون بهذه المناسبة الدينية التي تتسم بطقوس خاصة تميزها عن غيرها. ففي العهد التركي، كانت الأعياد الجزائرية تُعرف باسم "بيرامات" (Byrams)، وهو مصطلح ذو أصل تركي يشير إلى العطل الدينية المرتبطة بالإسلام، ومنها عيد الفطر الذي يسمى "سكر بيرام" (Seker bayram)؛ وذلك لكثرة تبادل الهدايا والحلويات الصغيرة ابتهاجاً بانتهاء شهر رمضان².

ويعرف عند عامة الشعب الجزائري باسم العيد الصغير مخالفة للعيد الأضحى ويطلق عليه بالكبير، حيث يتغافر فيه المسلمون ويفرحون لمدة ثلاثة أيام مع توزيع الحلويات المختلفة وتبادل الزيارات والهدايا وعبادة المرضى وزيارة المقابر عند البعض³.

تُعد هذه المناسبة إيداناً بانتهاء شهر رمضان وعاداته الاجتماعية والدينية المميزة. وكما يشير هابنسترايت، فإن زيارته للجزائر تزامنت مع الفترة التي تسبق حلول شهر رمضان، حيث يمتنع المسلمون عن الأكل والشرب خلال النهار طيلة الشهر. وعند انقضاء شهر رمضان، يتم إخبار الداى برؤية هلال العيد، فيأمر بإطلاق المدافع إيداناً بحلول العيد ونهاية شهر

1 - محمد العربي حرز الله: الظاهرة الثقافية في سيدي خالد، ص 622.

2 - وليام سبنسر: المرجع السابق، ص 120.

3 - بو العيد دودو: المرجع السابق، ص 69.

رمضان.¹ ، يرتدي المسلمون بهذه المناسبة أجمل ثيابهم ، كما تقدم الهدايا للاطفال² ، كما يطلق على هذه المناسبة اسم العيد الصغير أو عيد السكر (سكر بيرام) نسبة الى توزيع الهدايا المصنوعة من السكر، وتدوم الاحتفالات بهذه المناسبة ثمانية أيام وكذلك في العيد الكبير (عيد الأضحى)³.

أما الرحالة العياشي، فيشير إلى هذه المناسبة عند ذكره أنه أقام في بوسمغون في آخر يوم من أيام شهر رمضان. ومما لاحظته عند أدائه للصلاة مع المصلين أنهم يخرجون للصلاة قبل طلوع الشمس حاملين أسلحتهم معهم، كبارًا وصغارًا. كما يشير إلى أنهم "...بينون... أحجارًا يتخذونها غرضًا للرمي بالبنادق..."⁴.

كغيرها من مناطق الجزائر، تحتفل قبائل الجنوب البيضوي لقسنطينة بهذه المناسبة، مع وجود اختلافات طفيفة بين القبائل. ويعود ذلك إلى المستوى المعيشي لكل قبيلة، ومكانتها الاجتماعية، والنفوذ الذي تتمتع به بعضها لدى السلطة الحاكمة. فمستوى الاحتفال لدى القبائل الحاكمة والمتنفذة يختلف عن مستوى احتفال بقية القبائل الأخرى، على الرغم من أن المناسبة واحدة.

مع فجر اليوم الأول لعيد الأضحى، تُطلق نيران المدافع إيدانًا بحلوله، ويُعرف أيضًا في اللغة التركية باسم "قربان بيرامي" أو "كيوك بيرامي"، أي العيد الكبير للتضحية. وبعد إقامة صلاة العيد، تُفتح أبواب قصر الداوي على مصراعيها للعامة، ويُقدم الكسكس المطبوخ

1 - ج. او هينسترايت :المصدر السابق، ص 46

2 - بن عتو بلبراوات: المرجع السابق، ص 142.

3 - شوفاليه كورين :الثالثون سنة الاولى لقيام دولة مدينة الجزائر ،1510—1541 ترجمة جمال حمادنة ،ديوان

المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص.79

4 - عبد الله بن محمد العياشي : الرحلة العياشية 1661-1663م، تحقيق : سعيد الفاضلي ،سليمان القرشي، ج،2، ط،1

دار السويدي للنشر و التوزيع،الإمارات العربية المتحدة،2006، ص ص .548-549.

للحاضرين. ثم يستعد الداى لاستقبال التهاني والهدايا من أعضاء حكومته وممثلي الحكومات الأجنبية المقيمين في المدينة، وتُذبح الأضاحي على وقع طلقات البنادق وموسيقى الفرقة العسكرية¹.

3- الإحتفال بالمولد النبوي الشريف:

بدأ الإحتفال بالمولد النبوي الشريف في عهد الفاطميين في القرن الثالث الهجري، حيث عُرف عنهم الإحتفاء بستة مواليد في مصر وتونس، وهي: مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، ومواليد آل البيت عليهم السلام: علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وفاطمة الزهراء².

وقد كان أهل مكة المكرمة يحتفلون بدورهم بالمولد النبوي الشريف، وكما وصف ابن جبير، الرحالة الأندلسي، في كتابه "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" خلال زيارته لمكة المكرمة عام 579 هـ، فإن مقام مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة يُفتح في شهر ربيع الأول، وتحديدًا يوم الاثنين، ليدخله الناس متبركين³.

كان الإحتفال بالمولد النبوي الشريف من أهم المناسبات في المجتمع الجزائري، حيث تُقدّم فيه مختلف الأطباق والحلويات. واستمرت الإحتفالات لمدة خمسة عشر يومًا، تبدأ مراسمها بعد صلاة العصر وتستمر حتى وقت العشاء، تعبيرًا عن محبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم⁴.

¹ - وليام سبنسر: المرجع السابق، ص ص 120-121

² - كيم صبيحة وعابر حفيظة: أنثروبولوجيا الإحتفال الديني ببني عباس - المولد النبوي أنموذجًا، في مجلة أنثروبولوجية الأديان، المجلد 18، العدد 02، 2022، ص 422.

³ - نفسه.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 159.

تختلف مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي من قطر إلى آخر، وبين الريف والمدينة. إلا أن الأمر المتفق عليه هو استمرار الاحتفال بذكرى مولد خير البرية في كل من البايك والجزائر خلال العهد العثماني والعهد الفرنسي، وحتى وقتنا الحالي.

ثالثاً- الوضع الصحي والآفات الاجتماعية:

1- الظروف المعيشية:

تتفق المصادر المختلفة على وجود تباين في الأوضاع المعيشية¹ للسكان في المدن والأرياف الجزائرية. فقد كان وضع سكان المدن مريحاً بشكل عام مقارنة بسكان الأرياف الذين تحملوا أعباء الضرائب واعتمدوا في معيشتهم على الإنتاج الزراعي والحيواني وبعض منتجات الحرف التقليدية. وتفاوتت أوضاعهم المعيشية بين الشرائح المختلفة حسب ممتلكاتهم ومكانتهم ومداخلهم، فمنهم كبار ملاك الأراضي ومنهم الخماسين الذين يعملون لديهم، وقد كان التفاوت كبيراً في المستوى المعيشي بين هاتين الفئتين².

تفاوتت مستويات المعيشة بين الفئات الاجتماعية، حيث تمتعت فئة الأتراك العثمانيين، الذين شغلوا مناصب الحكم والوظائف العليا، بالإضافة إلى الأثرياء من الحضر والقناصل الأجانب، بمستوى معيشي أرقى بكثير مقارنة ببقية الفئات³.

لدراسة الظروف المعيشية في منطقة ما، يجب أولاً التعرف على الوضع الصحي للسكان، لما له من تأثير كبير على معيشتهم. لذا، سنشير إلى الظروف الصحية التي عاشها سكان

¹ - حول الوضع المعيشي، أبيات من الشعر تصف أيام القحط والمجاعات بقسنطينة خلال العهد العثماني ينظر الملحق:

رقم 30 ص 381

² - جليل بن عتو وقوراري زهاد: الأوضاع المعيشية والصحية والديمغرافية في الجزائر العثمانية من خلال المصادر

الغربية، في مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، المجلد 13 العدد 01، 2022، ص 634

³ - نفسه، ص 635.

بايلك الشرق خلال تلك الفترة. فمع نهاية العهد العثماني، كان للتدهور المتزايد في الأوضاع المعيشية والصحية تأثير سلبي واضح على النمو السكاني، وعلى الوضع الاجتماعي والاقتصادي، مما أدى إلى تناقص سكان المدن والأرياف، خاصة منذ أواخر القرن الثامن عشر.¹ شهدت الجزائر انتشار أمراض خطيرة مثل الطاعون والكوليرا، مما أدى إلى وفاة العديد من السكان، خاصة في المدن الكبرى مثل قسنطينة، حيث تفتت الأمراض والأوبئة بين الجزائريين².

بالرجوع إلى المصادر الأساسية التي تناولت الأوضاع المعيشية لقبائل صحراء قسنطينة، تبين لي تدني المستوى المعيشي للسكان نتيجة للظروف القاهرة، باستثناء الطبقة الحاكمة، وبعض أعوان إدارة البايك، وكبار التجار والفلاحين، والأسر المتنفذة، الذين تمتعوا بأوضاع معيشية حسنة مقارنة بعامّة الناس.

شهدت إيالة الجزائر عامة، وبايلك الشرق خاصة، في نهاية العهد العثماني، انتشاراً للأوبئة والأمراض المختلفة نتيجة تدهور القطاع الاقتصادي لأسباب متنوعة. وقد أثر هذا التدهور بدوره على الحياة الاجتماعية لسكان البايك والمناطق الجنوبية التابعة له. فالأمراض والأوبئة التي اجتاحت الجنوب القسنطيني تسببت في خسائر مادية فادحة وانعكست سلباً على الإنتاج، مما أدى إلى نقصه وتراجعته، وهو ما أثر سلباً على مستوى المعيشة³.

¹ ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي: الجزائر في تاريخ العهد العثماني، وزارة الثقافة والسياحة المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 87.

² رايح الله عبد القادر: تأثير النظام الاقتصادي على الدولة والمجتمع في فترة الدايات (1617-1830)، مجلة الفكر، مج 6، ع 1، جوان 2022، ص 165.

³ - محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 50.

يمكن إرجاع أسباب تردي الأوضاع الصحية إلى تدهور الحالة الاقتصادية، خاصةً بعد تراجع الإنتاج الزراعي وبسبب سنوات القحط، وارتباط هذه الظاهرة بالمجاعات التي عرفتها البلاد. من بين هذه الأسباب، نذكر ¹ :

-الأمراض:

باستثناء بعض الأمراض التي كانت تظهر من حين لآخر، يمكن القول إن الجزائر لم تشهد انتشارًا واسعًا للأمراض الخطيرة خلال العهد العثماني. ومن بين الأمراض التي كانت تظهر في بدايتي فصلي الربيع والخريف مرض الرمد، الذي كان يصيب الأطفال في أغلب الأحيان. وقد أكد حمدان بن عثمان خوجه هذه الحقيقة، إذ قال: "من حيث البنية الجسدية، فإن أجسام الجزائريين رشيقة، وذلك أن امتزاج العنصر التركي بالعنصر الأندلسي قد أنتج عنصرًا مختلطًا من النوع الرفيع، الأمر الذي جعلنا لا نجد في مدينة الجزائر رجالًا يعانون من هذه العاهات أو المصابين بالأمراض الكريهة أو أمراض الجلد، ولم يعرف مرض الزهري إلا حديثًا². وكان يسمى باريس ، و يعالج بحمية من أصعب ما يكون ، و لكن المريض كان يشفى شفاء كاملا في ظرف شهرين.

يُرجع البعض أسباب عدم انتشار الأمراض في المجتمع الجزائري إلى اهتمام الأهالي الشديد بالصحة، وعنايتهم بنظافة ملابسهم ومنازلهم، حيث كانوا يغسلون أيديهم قبل العمل وأداء الصلاة وتناول الطعام. هذا ما جعل الأوروبيين يعتقدون أن الغسل المتكرر عند الجزائريين سلوكًا غريبًا. ومن عادات الجزائريين خلع أحذيتهم قبل دخول المنازل. ومما يؤكد اهتمام الجزائريين، خاصةً سكان الحضر، بالنظافة هو العدد الكبير من الحمامات المنتشرة

¹ - راجع الله عبد القادر : المرجع السابق، ص 165.

² - أرزقي شويتام : المرجع السابق، ص 400.

في مختلف أنحاء المدينة. وقد خصصت الإدارة فريقًا لتنظيف أحياء المدينة وجمع القمامة، كما زُوِّدت مختلف الأحياء بالعيون العمومية.¹

في عهد الاحتلال الفرنسي، شهدت الجزائر عمومًا والأقاليم الجنوبية لبابك قسنطينة خصوصًا، تفشي العديد من الأمراض لأسباب متعددة، أهمها السياسة الاستعمارية التي ضيقت على السكان سبل العيش وأحكمت سيطرتها على المقدرات الاقتصادية للمجتمع. نتج عن ذلك تدني المستوى المعيشي والصحي، وانتشار الأمراض مع انعدام العلاج إلا بالطرق البدائية والتقليدية التي كان يمارسها الأهالي. من بين هذه الأمراض المنتشرة، نذكر ما يلي:

- **أمراض العيون:** من أهمها الرمد الحبيبي (Trachoma)، الذي يصيب العينين. يُلاحظ لدى المرضى تغير في لون العينين أحيانًا بعد فوات الأوان، وعندها تكون العتامة قد تكونت وأصبحت غير قابلة للعلاج.

- **السل الرئوي:** (Tuberculose) وهو منتشر بكثرة في المناطق الصحراوية، ومن عوامل انتشاره: المناخ المتقلب، وقلة النظافة، وتعاطي الخمر.

- **الروماتيزم:** ينتشر خاصة في الأقاليم الباردة، كما ينتشر في الصحراء، وخاصة في فصل الشتاء عند النوم على الرمال الباردة.²

- **الأمراض الجلدية:** تشمل الحصف، وبثر المطاوي، بالإضافة إلى التهابات فروة الرأس. أما حمى المستنقعات (المالريا)، فتنتقل عن طريق بعوضة المالريا، خاصة في الأوقات الحارة. وتعتبر ضفاف البحيرات المنتشرة في المناطق الصحراوية مأوى لهذه البعوضة.

1 - نفسه، ص 404.

2 - عبد الله بكوش: واقع مجتمع الجنوب الجزائري خلال الفترة الاستعمارية 1852-1914م، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2023، ص 111.

وفي هذا الصدد، أشار الأغواطي إلى انتشار الحمى في تقرت، وأنّ الأصحاء لا يدخلونها، ومما ورد في قوله: "ولا يأتي لهذا المكان عربي إلا المصاب بالحمى، حيث ينتشر هذا المرض المعروف بـ 'التهم' في فصول معينة من السنة".¹

- **ينتشر مرض الحصبة (Rougeole)** على نطاق واسع بين الأطفال بسبب سوء التغذية. وتشير بعض التقارير إلى أن هذا المرض كان تحت المراقبة الطبية الفرنسية، إلا أن عزوف بعض الأهالي عن التطعيم أدى إلى ظهوره بين الحين والآخر.

- **الجدري (Variole):** هو من أكثر الأمراض انتشاراً في المناطق الصحراوية والأكثر فتكاً بالسكان، لدرجة أن عائلات بأكملها قد هلكت في وقت قصير وأغلقت بيوت بسبب هلاك أفرادها.²

ومما فاقم الأمراض، جهل أغلب الأهالي بأبسط قواعد الصحة، وعدم اكتراثهم بمكافحة الأوساخ واستصلاح المستنقعات المنتشرة في البلاد، والتي كانت تتسبب في تفشي حمى المستنقعات، خاصةً في فصلي الربيع والخريف.³

في الجنوب القسنطيني، اعتمد الأهالي في علاج الأمراض على الطب الشعبي الذي يمارسه أفراد من المجتمع بأدوات بسيطة وغير فعالة. كان العلاج يستند إلى التجارب السابقة للحصول على الشفاء، وذلك باستعمال الأعشاب، والرقية، والتائم، والكي بالنار،

¹ - ابن الدين الأغواطي: المصدر السابق، ص 101.

² - نفسه، ص 112.

³ - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 54.

والكلل لأمرأض العفن؁ والأأامة؁ بالأضافة إلى أام الرمال؁ والأأبفر للأكور؁ وعلاج لأااا العأارب؁ وأفرها من أرق العلاج الأقلفءفة¹.

ألال الأأبة الأاأمارفة؁ أنأاأ سلأاا الأأاال بعض المسأوصفاا والمسأشففاا العسأرفة؁ كأأ أقامأ أوراا أأعمف فف الأأائل البأوففة؁ وقامأ بمراقبة عامة للأالاا الصأفة بأءف الوقافة من الأوبئة ومعالأها. ومع أنك؁ كان الأهالف فآرءوون على هأه المرافق بأكل مأووء بسبب كرههم ورفضهم لكل ما فمأ للأأاال بصلة؁ وهو ما فعدّ لوئاً من ألوان مأقائمة مشروع الأأاال الفرنسف للبلاد

2- الأوبئة:

فف مألع القرن الأامن عشر؁ أضرر بأفلك الشرق وأقالفمه الأنوبفة من وباء الطاعون والكولفرا وأوبئة أخرى. وورء فف أأء المصاار أنه فف عهد صالح بأف؁ وصل عءء الضأافا فف مءفنة قسنأفنة وءءها إلى ألف ومائآف ضأفة. ²؁ أفأ نأء سكان الأرفاف كانوا ففضلون الهروب الى المناطق البعفءة الأف لم فصلها الوباء³.

كان لهذا الوباء انعكاساا أأفرفة على الأوانب الأاااااا والأأاامافة. فقء أءى إلى أناقص ملاحظ فف عءء السكان فف المءن والأرفاف؁ مما كان له آاار سلبفة على مأأالف القأاعاا الأااااااا. ففف عام 1787م؁ سُجّل ارأفاع فف كمة الصوف المصدرة من

¹ - موسف بن موسف: الأركة الإصلاأفة بواءف سوف نشاأها وأطورها 1900-1939؁ رسالة مأأسأفر فف الأرفأ المعاصر؁ قسم الأرفأ والآار أامعة قسنأفنة؁ 2006؁ ص ص 62-63 .

² - ارزقف شوفاام: المرجع السابق؁ ص 114.

³ - نفسه؁ ص 422.

مدينتي عنابة والجزائر، وذلك بسبب وفاة عدد كبير من النساجين نتيجة الوباء الذي اجتاح البلاد¹.

في هذا السياق، يصف لنا حمدان بن عثمان خوجة حالة البلاد أثناء اجتياح الوباء، إذ يقول: "لقد عاصرت خلال حياتي التي تجاوزت الستين عامًا تفشي الوباء في الجزائر على فترات متقطعة، وبلغ مجموع هذه المحنة عشرين سنة. لقد شوه الوباء صورة الجزائر بعد أن كانت يانعة، فأفقرت معالمها، واضطربت أحوالها، وتضاءل العلم وذوو الكفاءات، وفقدت البلاد من المفكرين من كانوا عمادًا في الحضارة والقفار... فقد فشا فيها الفساد واستشرى، واتسع الخرق على الراقق، ويا لها من مصيبة تقشعر لها الأبدان، ويا لها من خسارة بدأت بإدخال مريض على سليم"².

وصف لنا العياشي الحالة الوبائية التي تفشت في الجزائر وإقليم صحراء قسنطينة، وذلك أثناء عودته من الحجّ مرورًا بمدينة بسكرة في طريقه إلى المغرب. وقد أشار إلى هذا الوباء الذي حلّ في أواخر القرن السابع عشر، قائلًا: "... وفي سيدي عقبة، تحقّقنا من وجود الوباء فيه وفي النواحي المحيطة به، وكذلك في بسكرة ..."³.
والجدير بالذكر أن العياشي كان دقيقًا في وصف الحالة الوبائية، إذ يقدّم لنا إحصائيات وأرقامًا حول عدد الموتى الذين قضوا بسبب الوباء، حيث قال: "... وفي تلك السنة، كان وباء مفرطًا، مات في بسكرة ما يقارب سبعين ألف نفس..."⁴.

بالإضافة إلى ذلك، تضررت قسنطينة عاصمة البايك بشدة سنة 1794م. وإلى جانب سوء الأحوال الصحية، ساهمت الكوارث الطبيعية بدورها في تناقص السكان وتضرر

1 - نفسه، ص423.

2 - حمدان خوجة: المصدر السابق، ص 67 .

3 - أبو سالم العياشي: المصدر السابق، ج،2، ص.539.

4 - نفسه.

الاقتصاد، وتتمثل هذه الآفات والكوارث الطبيعية في الجفاف والجراد والزلازل والفيضانات وغيرها¹.

ووفقًا للمصادر، خلف الوباء الذي اجتاح مدينة الجزائر في القرن السابع عشر ما بين خمسين وستين ألف ضحية. ولم تسلم المناطق الجنوبية من البلاد من هذا الوباء، وهو ما أكده العياشي الذي توقف بمدينة بسكرة أثناء عودته من الحج في منتصف القرن السابع عشر في طريقه إلى المغرب الأقصى، إذ قال: "ولما رجعت من الحجاز في سنة ستين، وجدت سيدي بو طيب الناصري قد توفي بالوباء الذي وقع تلك السنة، وكان الوباء شديدًا، مات به في بسكرة، كما قيل لنا، نحو سبعين ألف نفس، وقد دخلنا هذه المدينة (عقبة) فوجدنا أكثر حوماتها خالية ومساجدها دائرة".²

لقد حاول بعض الحكام الحد من خطورة الأوبئة والتقليل من أضرارها بوسائل مختلفة، مثل اتباع نظام الحجر الصحي لمدة أربعين يومًا ("الكرانتين") للحجاج والمسافرين على حد سواء، مع فرض رقابة صارمة على المناطق المصابة بالأمراض المعدية لعزلها عن باقي المناطق³، ركزت الدراسات الحديثة في مجال الأوبئة واللقاحات بشكل أساسي على مرض الجدري. ويمكننا فهم انتشار أوبئة الطاعون والكوليرا التي ضربت سواحل البحر الأبيض المتوسط في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بشكل أفضل من خلال الاعتماد على روايات المسافرين وأرشيف القنصليات، حيث تسببت هذه الأوبئة في انخفاض كبير في عدد السكان وركود في الحركة التجارية⁴.

¹ - ناصر الدين سعيدوني: الشيخ المهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص- ص 89-90.

² - نفسه، ص410.

³ - محمد الزين: نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر الدايات، في مجلة الواحات للبحوث و الدراسات العدد:2012،17،ص132.

⁴ - نفسه.

كما كان للأهالي دور في اتخاذ بعض الإجراءات الوقائية لمواجهة وباء الجدري بوسائلهم البسيطة الخاصة، كعزل المريض في غرفة خاصة معتدلة الحرارة، وتناوله بين الحين والآخر بعض حبات من التين المجفف الممزوج بالعلس. يستمرون على هذا المنوال حتى تظهر البثور على جسم المريض، ثم يدهنونها بالزبدة الطرية لإزالة آثارها، ويضعون الكحل على عيني المريض لوقايته من الجدري.¹

وما يمكن استنتاجه في الأخير بعد التطرق الى الأمراض والأوبئة التي شهدتها البلاد نذكر مالي:

- أن المجتمع الجزائري عموماً، لم يعرف أمراضاً كثيرة ربما يرجع ذلك الى طبيعة المناخ ونوعية التغذية.
- أن الأوبئة المنتشرة في البلاد خلال العهد العثماني كانت تتسرب اليها من الخارج، ولسيما الدول المشرقية، وبلاد السودان، وجنوب المغرب الأقصى، وبعض المناطق بأوروبا، نظراً لاتصالات المكثفة معها².
- وبالرغم من خطورة الأوبئة والأضرار التي ألحقتها بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية، فإن السكان عرفوا كيف يتكيفون معها مما ساعد على استمرار الحياة.
- أن عجز الدولة عن اتخاذ الإجراءات الوقائية، لم يمنع الأهالي من مواجهة الموقف بوسائلهم الخاصة³.
- كما أن قلة الأدوية زادت الحالة الصحية سوء، فالبلاد كانت تكاد تخلوا من الصيدليات او حوانيت بيع الأدوية، فحسب المعلومات المتوفرة لم تكن توجد بالبلاد سوى صيدلية واحدة بمدينة الجزائر، لم يكن لها أثر يذكر في الحد من هذه الآفات.

1 - ارزقي شويتام: المرجع السابق، ص 426.

2 - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830م، المرجع السابق، ص 54.

3 - ارزقي شويتام: المرجع السابق ، ص 427.

- أن هذه الأمراض والأوبئة التي كانت تفتك بالسكان طيلة الحكم العثماني للبلاد، زادت حدتها واشتدت وطأتها في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر¹.

أما بالنسبة لانعكاسات الأمراض والأوبئة على الحياة الاجتماعية، فكانت بدورها سلبية وخطيرة. فبالإضافة إلى آثارها على النمو الديموغرافي، تسببت في تحولات جذرية في نمط حياة بعض القبائل، ما أدى إلى اندثار أسر وقبائل بأكملها. كما أثار الوباء مشكلة الإرث، سواء على مستوى المدن أو الأرياف²، هذا ما نفهمه من كلام حمدان بن عثمان خوجة، حيث قال: "في زمن الطاعون، كان لإدارة بيت المال نشاط يفوق جميع الإدارات الأخرى؛ فهي التي تقوم بإحصاء الموتى، وتعمل على تجنب الفوضى التي قد تتسبب فيها كثرة الوفيات، كما أنها تتولى التركات المهملة وتقوم بعمليات الميراث"³.

ومما تجدر الإشارة بذكره في الأخير؛ وهو أن وباء الطاعون انطلقا من سنة 1822م قد اختفى بصفة نهائية من الجزائر والأقطار المغاربية عامة⁴؛ ويعود ذلك إلى قلة الوافدين من الولايات العثمانية المشرقية؛ إذ سجل تراجع في عدد المجندين القادمين من المشرق في السنوات الأخيرة من الحكم العثماني في الجزائر، خاصة بعد قضاء السلطان العثماني محمود الثاني على الفرق الإنكشارية في عام 1826م، والحصار البحري الذي فرضه الأسطول الفرنسي على السواحل الجزائرية؛ مما منع التجار والحجاج والطلبة والجنود من التنقل إلى الجزائر أو الخروج منها⁵.

1 - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830م، المرجع السابق، ص54.

2 - ارزقي شويتام: المرجع السابق، ص 425.

3 - حمدان خوجة: المصدر السابق، ص136.

4 - القشاعي فلة موساوي: المرجع السابق، ص 112-113.

5 - مجاهد يمينة: تاريخ الطب في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي، 1830-1962 كلية العلوم الانسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران، 2018، ص ص 24-25.

– المجاعات:

لقد تعرضت الجزائر خلال الفترة الأخيرة من الحكم العثماني إلى عدة مجاعات أدت إلى تردي الأوضاع الاجتماعية، وتراجع النمو الديمغرافي ونلاحظ أيضا أن ظاهرتي الجفاف والمجاعة مقترنتان ببعضها¹.

فاقم غزو الجراد لمختلف المدن الجزائرية الوضع، وهو ما سُجِّل مطلع القرن التاسع عشر الميلادي. ففي سنة 1779م، اجتاح الجراد قسنطينة فأهلك الزرع وتسبب في موت الناس. وبين سنتي 1813 و1815م، انتشر الجراد مرة أخرى وأتلف المزروعات، مما أدى إلى قلة الأوقات وارتفاع الأسعار في بعض النواحي، وهو ما خلف نتائج وخيمة على الوضع المعيشي لسكان قسنطينة².

عانى سكان الأرياف من عوامل عديدة أدت إلى انتشار الفقر، مما اضطرهم إلى التشرّد. وقد ذكرت بعض المصادر أن بعض القبائل كانت تضطر، أثناء المجاعات، إلى النزوح نحو المدن. وعندما وقعت مجاعة³ في بداية القرن التاسع عشر، قام الداوي باستيراد الحبوب من موانئ البحر الأسود نتيجة لظروف أخرى. لم يكن بالإمكان تزويد الأسواق بالحبوب بشكل كاف، مما أدى إلى تهافت الأهالي على الأسواق للحصول على الكميات القليلة التي تصل على فترات متباعدة. غالبًا ما كانت عملية توزيع الحبوب تنتهي بمشاجرات دموية تعجز الإدارة عن السيطرة عليها. كان العامل المناخي من الأسباب الرئيسية في انعدام الإنتاج وظهور المجاعات وتدهور الأحوال الصحية. المجاعات المهلّكة التي فتكت بالبلاد

¹ - رابع الله عبد القادر: المرجع السابق، ص 168.

² - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي في الجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 27.

³ - وعن المجاعات التي شهدتها الجزائر خلال القرن 19م ينظر الملحق رقم: 37.

ساهمت في تردي الأوضاع الصحية، واشتدت الضائقة الاقتصادية بسبب غلاء الأسعار وشح الأوقات وتلف المزروعات.¹

ومن الأسباب التي زادت من وطأة هذه المجاعات التي شهدتها قسنطينة الاضطرابات الداخلية المتمثلة في الحروب والفتن منها ثورة ابن الأحرش² تسببت هذه الثورة في إضعاف نفوذ البايلك في الأرياف وعزل المدن عنه، وخلفت خسائر مادية وبشرية فادحة تمثلت في الأموال والأرواح والأسلحة، إضافة إلى موت الباي عثمان سنة 1804م. ومما زاد الطين بلة تعرض المنطقة لمجاعة كبرى بين عامي 1804 و1805، طالت سكان الريف والمدن على حد سواء بعد اختفاء الأوقات. وتعتبر هذه المجاعة من أخطر المجاعات التي عرفت الجزائر، حيث دامت ثلاث سنوات، واضطر الناس إلى أكل الدم والميتة وكل ما هو محرم. وإلى جانب ذلك، تدهورت الأحوال الاقتصادية بسبب إهمال الجانب الفلاحي وتخلى الناس عن الحرثة نتيجة للاضطرابات، مما أدى إلى قحط شديد أضر بسكان قسنطينة، وتسبب في يباس الزرع وقلة الحبوب، وأصبح القليل من يجرؤ على جلبها إلى الأسواق خوفاً من انعدام الأمن في الطرقات.³

وهكذا، كان الشرق الجزائري، شأنه شأن سائر أنحاء البلاد، يعيش حالة من الاضطراب والفوضى نتيجة الصراع على السلطة بهدف جمع الأموال وكسب الثروات. وكانت القبائل

¹ - رايح الله عبد القادر : المرجع السابق، ص - ص 169-170.

² - ابن الأحرش : وهو محمد بن عبد الله الشريف الملقب بالبودالي " نسبة إلى أبادل الصالحين " الذي تزعم الانتفاضة في منطقة الشمال القسنطيني في عهد الداوي مصطفى باشا(1798-1850م)، وقد عرف ابن الأحرش بأنه رجل طويل القامة أشقر اللحية موفور الصحة وبفصاحة اللسان، وعليه فمسار هذا الأخير تميز على مسرح الأحداث كرجل دين وشريف لمزيد ينظر: حنيفي الهلالي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2008، ص - ص 20-23.

³ - فتحة مسعودي، حمدون بن عتون فارس العيد: المرجع السابق، ص 633.

تتمرد لأسباب تافهة، مما يعرض محاصيلها للضياع ويقضي على خيرة أبنائها الذين يمثلون القوة العاملة لديها¹.

أشار العنتري إلى تأثير انعدام الأمن في الأرياف على السكان والزراعة بقوله: "تراه الافتتان والأحوال التي لا تطمئن نفوس الناس معها". نستخلص من ذلك أن هذه الأوضاع المتردية والآفات الطبيعية المتكررة أدت إلى تدني مستوى المعيشة، خاصة في الأرياف، بالتزامن مع ارتفاع الأسعار وصعوبة الحياة بالنسبة لغالبية الناس الذين لم يعودوا قادرين على توفير ضروريات العيش².

شهدت البلاد استمرارًا للمجاعات منذ عام 1800م، حيث اختفت الأقوات واضطر الداوي مصطفى باشا إلى استيراد القمح من موانئ البحر الأسود. تبعت هذه المجاعات أخرى في سنتي 1806 و 1807م، كما تضررت المزروعات من أسراب الجراد في سنة 1816م، مما اضطر الداوي إلى فتح مخازن الحبوب أمام المتضررين لتفادي ثورتهم وتمردهم³، وقد عان بايلك الشرق وصحراء قسنطينة من هذه الجائحة والتي استمرت إلى سنوات متتالية وكانت آثارها وخيمة على استقرار السكان ومستواهم المعيشي والصحي⁴.

وقد استر ارتفاع الأسعار نتيجة المجاعات ببإيلك الشرق الجزائري، حتى بلغ صاع القمح 15 ريال، وصاع الشعير 7 ريال، ولم تعد الأسعار لحالتها الطبيعية إلا مع حلول سنة 1808م⁵.

1- رايح الله عبد القادر: المرجع السابق، ص 178.

2- فلة القشاعي المولودة موساوي: النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني 1771-1837م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: ناصر الدين سعيدوني، جامعة الجزائر، 1989-1990، ص 30.

3- ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي في الجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المرجع السابق، ص 56.

4- نفسه، ص 58

5- نفسه.

رابعاً:- المؤسسات الدينية و العلمية ودورها في الحياة الاجتماعية:

اشتهرت مدينة قسنطينة بكونها عاصمة بايلك الشرق ومركز إشعاع ثقافي للمناطق المجاورة لها، بما في ذلك الريف والصحراء التابعة لها، وذلك خلال الفترة قيد الدراسة. وباعتبارها حاضرة ثقافية وعلمية، فقد احتضنت العديد من المراكز الدينية والعلمية، واستوطنها الكثير من العلماء والأدباء، مما أدى إلى ازدهار الثقافة ووصول التطور الفكري إلى درجة كبيرة، لتتبوأ مكانة متقدمة تتنافس أكبر المراكز الفكرية والعلمية. كان لمراكز قسنطينة دور كبير في تطور الحياة الثقافية وازدهارها، وقد عرفت هذه المراكز بها منذ العهد الحفصي، واستمرت وتطورت خلال العهد العثماني، وكان لإنشائها في هذه الفترة دور كبير في إرساء دعائم النهضة العلمية والثقافية¹.

أ- الزوايا²:

¹ - فيلطة كريمة، بن بلة خيرة: الحركة التعليمية ومراكزها بمدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، مجلة الدراسات العلمية، مج17، ع1، 2019، ص63

² - الزوايا: جمع زوايا ولغة تعني زاوية البيت وركنه، ونقول أوى فلان المال أي خبأه وأخفاه وتعني الجمع والطي، أما اصطلاحاً فتعني ركن البيت، أطلقت في بادئ المر على صومعة الراهب، ثم على المسجد الصغير أو المصلى، فالزاوية في الأصل عبارة عن رباط. كما يميز العهد العثماني بالجزائر انتشار الطرق الصوفية وكثرة المباني المخصصة لها، فكانت منتشرة في الريف والمدن، وفي الجبال والصحاري عاش معظم المتصوفة، ييثون عقائدهم ويلقنون أتباعهم الأوراد مبتعدين عن صخب الحياة الدنيا، فإذا اشتهر أحدهم بين الناس أسس له مركزاً يستقبل فيه الزوار والعزباء والأتباع ويعلم فيه الطلبة، وكان يتم التبرع لهذا المركز فيكبر ويصبح هذا المكان يدعى بين الناس الزاوية ويسمى على صاحبها ، فإذا مات هذا الأخير ورثوا الأبناء والأحفاد المكان، كان بناء الزاوية يختلف عن بناء المسجد كالمدرسة، فالزاوية جمعت بين هندسة كليهما فهي عبارة عن حيطان منخفضة القباب كالعرضات قليلة النوافذ، وشكلها يوحي بالنقش والهدوء أكثر مما يوحي بالاختلاط والحركة، وأهم ما كان يميز بعض الزوايا والأضرحة كونها يلجأ إليها الهاربون من العقاب للمزيد ينظر: رشيدة شدرى معمر: الزوايا ودورها الديني والثقافي في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة المعيار: مج 24، ع49، 2020، ص 273. ومحمد بلقاسم: المؤسسات الدينية التعليمية في الجزائر خلال الحكم العثماني، في المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة، العدد 03، 2016، ص215.

تُعدّ الزوايا، إلى جانب الكتاتيب والمدارس والمساجد، من أبرز المراكز التعليمية التي شهدتها مدينة قسنطينة. وقد لعبت دورًا فاعلاً في نشر العلم والمعرفة، حيث كانت مؤسسة دينية إسلامية ذات طابع اجتماعي، تتمثل في مجتمعات من البيوت والمنازل مختلفة الأحجام والأشكال، تضم بيوتًا للصلاة وغرفًا لتحفيظ القرآن، واحتلت مكانة الصدارة بين المراكز الثقافية والتعليمية، خاصة في الأرياف.¹

ويرجع ذلك إلى هجرة بعض العلماء من المدن إلى الريف هربًا من تعسف السلطة أو رغبةً في نشر العلم، أو عودة بعض الطلاب إلى مسقط رأسهم في الريف بعد تلقيهم العلم في المدينة وتأسيسهم الزوايا، وتفرغهم لتعليم الطلاب.²

تُعدّ الزوايا من أهم المراكز التعليمية، فضلًا عن كونها ملتقى للمتصوفة للعبادة والذكر. يقصدها الطلاب لتلقي العلم، كما يُسمح لهم بالسكن فيها، ويظهر دورها الإيجابي، خاصة في التعليم بجميع مستوياته.³ في مدن الجزائر وقسنطينة وتلمسان، احتضنت مدينة الجزائر وحدها عددًا كبيرًا من الزوايا والأضرحة؛ ففي سنة 1830م، أحصى "دوفو" حوالي 32 ضريحًا و12 زاوية، بعضها منسوب إلى أفراد كزاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وبعضها الآخر منسوب إلى جماعات كزاوية الأشراف وغيرها.

¹ - زهية دباب، وردة بروس: السياسة التعليمية في الجزائر في العهد العثماني قراءة سوسيو تاريخية، مجلة العلوم الإنسانية، مج 21، ع1، 2021، ص180.

² - رشيدة شكري معمر: المرجع السابق، ص 278.

³ - فيلطة كريمة، بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 67.

أما بخصوص مدينة قسنطينة فقد وجد بها حوالي 16 زاوية¹ ، وذلك حسب الإحصائيات التي ذكرتها المصادر الأجنبية، والتي تعرضت للمدينة قبل الاحتلال الفرنسي سنة 1830م، وهي تتمثل في الزوايا الآتية:

– زاوية ابن محجوبة:

تم بناء هذه الأخيرة سنة 1594م من طرف المفتي يحي ابن محجوب المتوفي تحديدا سنة 1608م، وهي الأخرى بقيت منها كتابة تذكارية على لوحة خشبية².

– زاوية ابن نعمون:

وهي تعرف حاليا باسم الزاوية التجانية في الشط تقام فيها جملة من الطقوس إلى جانب الصلوات الخمس الدروس الخمس، وقد وجد بهذه الزاوية مدافن آل نعمون هؤلاء الذين هم من سلالة بايات مدينة قسنطينة، وتقع على نهج السويقة، نهج صلاح سليمان³.

– زاوية الفقون:

وحسب ما تشير إليه الكتابات فهي موجودة اليوم يحي الخرازين وتعرف أيضا بالزاوية التيجانية العلوية عرفت بذلك تميزا لها عن الزاوية السالفة الذكر (زاوية ابن نعمون) ويوجد بها رفاة الشيخ عبد الكريم الفقون والذي يعد من علماء القرن السادس عشر ميلادي⁴.

– زاوية بن رضوان:

تتسب هذه الزاوية إلى رضوان خوجة الذي كان يشغل وظيفة قائد الدار والمتوفي سنة

1220هـ/1805م⁵.

1- رشيدة شكري معمر: المرجع السابق، ص276.

2- عبد القادر دحدوح: الزوايا بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة دراسات في آثار الوطن العربي، 19، ص1171.

3- كمال غربي: المساجد والزوايا في قسنطينة الأثرية، تلمسان، 2011، ص173.

4- عبد القادر دحدوح: المرجع السابق، ص1171.

5- نفسه.

– زاوية سيدي عبد المؤمن:

تقع هذه الزاوية في شارع صلاح السعيد. لم تذكر الكتابات تاريخ بنائها، واكتفت بذكر مجددتها السيد صالح خوجة بن مصطفى، ويُقال إنه صهر إحدى حفيدات سيدي عبد المؤمن، وهو ما أكده أغلب الباحثين. ومن بين العلماء الذين درسوا في مسجد سيدي عبد المؤمن، العلامة الشيخ الصالح بن الموفق القسنطيني، القاضي الشرعي بمحكمة الخروب¹.

– زاوية سيدي التلمساني:

يرجع بنائها إلى النصف الثاني من القرن 16م على يد حسين آغا، غير أن جيش الاحتلال الفرنسي استولى عليها وقام بهدمها، وأصبحت بذلك تابعة لفرقة الهندسة العسكرية²، ثم استولى عليها اليهود وكانوا حينها مسيطرين على الإدارة الفرنسية وقد كانت الزاوية تابعة لأملاك الدولة وهي بالطبع إدارة مالية يسيطر عليها ويديرون شؤونها كما يريدون فتأمروا واستحوذوا على الزاوية وجعلوها معبدا لهم، ولم يبق منها إلا منها إلا لوحة الخشب المطلي محفوظة³ بمتحف المدينة عليها كتابة تذكارية على أصلها تمامًا.

– زاوية حنصالة.

– زاوية عبد الرحمان⁴.

– زاوية باش تارزي: وتقع هذه الزاوية في حي الشارع، وهي تتبع الطريقة الرحمانية⁵، أسسها عبد الرحمان بن أحمد بن حمودة بن مامش المعروف بباش تارزي، المتوفي سنة 1806م، وتشير الكتابات بأن رفاته لا تزال بزوايته هذه.

¹– كمال غربي: المرجع السابق، ص 173.

²– رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص 186.

³– صلاح مؤيد العقبي: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، لبنان، 2002، ص336.

⁴– فيلطة كريمة، بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 67.

- زاوية نعمان: على حسب اسمها يرجع أصل بنائها إلى الباي محمد نعمان (1226-1229هـ) إلا أن الاستعمار الفرنسي عمل على تخريبها.
 - زاوية أولاد جلول.
 - زاوية الصواري.
 - زاوية الخراشفيين¹.
- ب- المدارس:

المدارس، كما هو معلوم، مؤسسات ثقافية تتمثل وظيفتها الأساسية في تعليم مختلف العلوم، وخاصة العلوم الدينية. وقد عرفها أبو رأس الناصري بقوله: "المدرسة المتعارف عليها عندنا الآن هي التي تُبنى لدراسة العلم، أي تعلمه وتعليمه". والحقيقة أن الجزائر، خلال العهد العثماني، عرفت انتشاراً واسعاً لهذا النوع من المراكز التعليمية. ويذكر البعض أن الجزائر كانت تتوفر على ثلاث مدارس للمذهب المالكي. وكان من أهداف هذه المدارس في مختلف أنحاء الجزائر تحفيظ القرآن الكريم، إلى جانب تعليم مبادئ القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى كالحديث والنحو واللغة والفقه والتوحيد، واستكمال هذه الدراسات بعلم الحساب وقراءة المؤلفات الطبية².

نظراً للدور البارز الذي تلعبه المدارس، اهتم المسلمون بإنشائها وتعميمها. وقد جرت العادة على تأسيس هذه المراكز بجوار المساجد نظراً للصلة الوثيقة بين الدين والعلم، ولكن هذا ليس شرطاً، غير أنه لابد أن يؤسس داخل كل مدرسة بيت للصلاة. ولقد حظيت مدينة

⁵- الطريقة الرحمانية: وتنسب إلى العالم الجزائري الشيخ محمد بن عبد الرحمان القشوطي الأدربي الحسن الأزهري الذي جاء بها من المشرق حيث كان يتلقى دراسته، وقد ظهرت هذه الطريقة في النصف الثاني من القرن 12 هـ ، وعرفت انتشاراً واسعاً، وكان لها دوراً في المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي السيد الطوبوي بفضل شيوخها واتباعها الذين أعلنوا الجهاد على المحتلين الغزاة في القطاع القسنطيني. للمزيد ينظر: صلاح مؤيد العقي، المرجع السابق، ص 155.

¹- عبد القادر دحدوح: المرجع السابق، ص 1172.

²- زهية دباب، وردة برويس: المرجع السابق، 178.

قسنطينة خلال الفترة المدروسة بعدة مدارس، من بينها مدرسة الجامع الأخضر ومدرسة سيدي الكتاني، اللتان تتشران تعليمًا على المستويين الثانوي والعالى¹.

مما يُلاحظ في هذه الفترة أن التدريس كان من بين أقل المناصب تنافسًا بين العلماء، إذ كان يُعتبر من الوظائف العامة المتاحة لهم. وكان تعيين العلماء والمدرسين في الوظائف التعليمية لا يخضع لإرادة الحكام بشكل مباشر، بل ارتبط بوظائف أخرى كالإفتاء والخطابة. فالمفتي كان يتولى الإمامة والخطابة والتدريس، في حين كانت مهمة المدرس تقتصر على التدريس فقط، ولا يمكنه أن يكون مفتيًا أو خطيبًا. ويمكن تصنيف المدرسين إلى نوعين: معلمو المدن ومعلمو الأرياف، ويختلفون في التصنيف والدرجة؛ فمن يدرس الشباب يُعد أستاذًا وشيخًا، ومن يدرس الفتيان يُعد معلمًا أو مدرسًا، أما من يدرس الأطفال فهو مؤدب، وهو الذي يتم اختياره من قبل سكان الحي في المدن، بينما يقوم سكان الريف والدوار باختيار مؤدب الصغار. أما فيما يتعلق بتعيين المدرس، فيتم تعيينه من قبل الباشا أو خليفته، بينما في البايليكات يتم تعيينه من قبل الباى أو حاكم الدار².

في الريف، كان شيخ القبيلة يتولى الاختيار، كما وُجد معلمون زائرون عُرفوا بتقانيهم في التعليم دون مقابل. وهذا ما كان يفعله "الورتلاني" حينما يزور بجاية كل عام خلال شهر رمضان، قائلاً: "ناويًا الرباط، وتعليمي للطلبة راجيًا أن يكون لي حظ وافر منهم ونصيب كامل من عنده". وهناك العديد من علماء الجزائر خلال العهد العثماني اشتهروا بالتدريس وفضلوه على غيره من الوظائف. فقد عُرف "أبو الرأس الناصري" بطريقة تدريسه وفصاحة لسانه وإلمامه الواسع بالمواضيع التي يعالجها، مكرسًا حياته للتأليف والتدريس لمدة تزيد عن ستة وثلاثين سنة بلا انقطاع، مع توليه مناصب ومهام أخرى منها الفتوى والقضاء

¹ - فيلطة كريمة، بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 66.

² - مخفي مختار: دور علماء الجزائر اجتماعيا سياسيا خلال العهد العثماني (1830-1518م)، في مجلة متون، المجلد الثامن - العدد الرابع - جانفي 2017، ص 372.

والخطابة. وهذا "سعيد المقري" كرس حياته في التدريس وخرّج مجموعة من التلاميذ مثل ابن أخيه "أحمد المقري"، و"سعيد قدورة". واشتهرت أسرة "سعيد قدورة" وأبناؤه بالتدريس، خاصة محمد الذي عُرف بفصاحة لسانه وغازة علومه. ويعتبر "عمر بن محمد الكماد القسنطيني" المعروف "بالوزان"، و"أحمد بن عمار" من الذين كرسوا حياتهم للتدريس ورفضوا تولي منصب القضاء والتقرب من الحكام. ورغم ضعف الحركة الثقافية وتراجع دور العلم والعلماء، إلا أن حركة التأليف تميزت بغزارتها واستمراريتها، بحيث لا نكاد نجد عالماً إلا وله مؤلفات كثيرة في شتى العلوم¹.

– مدرسة سيدي الكتاني:

تعدّ هذه المدرسة في قسنطينة مركزاً للإشعاع الفكري أنشأه صالح باي (1771-1792)، الذي شهدت قسنطينة في عهده أزهى فتراتهما بفضل إصلاحاته المختلفة. وقد أكد شربونو أن "صالح باي لم يشأ أن يلفت الانتباه إلى الأشياء المتعلقة بعبادات الناس لأنها ستفهم منه، لكنه بذل جهوداً لكي يبين فوائد التعليم...". ووفقاً لما هو مكتوب على اللوحة، فقد تم بناء المدرسة في شهر ذي الحجة سنة 1193 هـ الموافق 1787م، وتُعرف بمدرسة سيدي الكتاني نسبةً إلى ولي مدفون فيها (لم يُعرف تاريخ وفاته بالضبط). ويوجد في صحن المدرسة الكتانية مقبرة صالح باي وأفراد عائلته. وقد وُضع للمدرسة نظام خاص، وهي تحتوي على مسجد يُستخدم للعبادة والصلاة، وخمس غرف: واحدة للدرس وأربع للطلبة، ويبلغ عدد المقبولين في النظام الداخلي ثمانية طلاب، حيث ينام كل اثنين في غرفة. يوجد في المدرسة وكيل (أو مقتصد) وهو المسؤول عن المصاريف، وبواب يقوم بتنظيف المدرسة وإشعال الفوانيس في الأقسام وقاعة الصلاة. يتقاضى المدرسون شهرياً 30 قرشاً، والوكيل 8 قروش، والبواب 7 قروش، وكل تلميذ من الثمانية يتقاضى 6 قروش.

¹- نفسه، ص373

فيما يتعلق بطريقة التدريس، كان المدرس مسؤولاً عن ثلاث حصص يوميًا: الأولى تبدأ مع طلوع الشمس وتستمر حتى الساعة الحادية عشرة صباحًا، والثانية حتى منتصف النهار، والثالثة تبدأ بعد الظهر وتمتد حتى غروب الشمس¹.

كان على الطلاب قراءة أربعة أحزاب يوميًا، حزين بعد صلاة الصبح، والاثنتين الباقيين قبل العصر، ثم يختمون بالصلاة شكرًا لله تعالى والدعاء لمؤسس المدرسة. أطفال يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب².

سواء كانوا من المدينة أو الريف، من المذهب الحنفي أو المالكي، يجب أن يكون أغلبهم عزابًا غير متزوجين. لا يُسمح لأي تلميذ داخلي بالنوم خارج المدرسة إلا بعذر مقبول أو لزيارة الوالدين في عطلة كل عشرين أو ثلاثين يومًا أو أكثر. وإذا لم يعد الطلاب بعد هذا التأخير أو لم يقدموا دليلًا على مرضهم، يُطردون ويُستبدلون بآخرين. كل طالب يبدي عدم اهتمام أو رغبة في العلم والتعلم يُطرد ويُعوّض بآخر³.

لقد لعبت هذه المدرسة دورًا بارزًا في الحياة الثقافية لقسنطينة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث استمرت في تقديم التعليم وفقًا للنظام المذكور آنفًا. وحافظت المدرسة على هذا النظام لسنوات طويلة، واكتسبت شهرة واسعة لدرجة أنها قورنت بمدارس أخرى خلال فترة الاحتلال الفرنسي. ثم تحولت لاحقًا إلى معهد وطني لتكوين الكوادر المتخصصة في إدارة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف⁴.

¹ - كمال خليل: المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر: التأسيس والتطور (1850-1951م)، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008، ص ص 73-74.

² - فيفلة كريمة، بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص - ص 70-71.

³ - كمال خليل: المرجع السابق، ص 74.

⁴ كمال غربي: المرجع السابق، ص 198.

– مدرسة السلام:

لاقت هذه المدرسة الكثير من الجدل بين أوساط النخب في مدينة قسنطينة كونها قد جاءت منافسة لمدرسة التربية والتعليم، غير أن ابن جلول وضح بأنها قد جاءت فقط لتوسيع دارة العلوم والآداب بين أفراد الأمة¹.

ج- المساجد:

اضطلعت المساجد بدور محوري في التعليم منذ فجر الإسلام، واستمرت محافظةً عليه على مر القرون، ويمكن اعتبارها النواة الأولى للمدارس. فالإي جانب أداء الصلوات الخمس، كانت تُعقد فيها حلقات العلم منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم. لم تقتصر وظيفة المساجد على كونها أماكن للعبادة، بل كانت أيضًا منبرًا للعلوم والمعارف المختلفة. وقد شهدت مدينة قسنطينة انتشارًا واسعًا للمساجد، خاصة في عهد صالح باي، حيث قُدِّر عددها بحوالي خمسة وسبعين مسجدًا وجامعًا، بالإضافة إلى سبعة مساجد أخرى تقع خارج المدينة.² وقد جاء في بعض الإحصاءات المتأخرة أن قسنطينة كانت تضم قبل الاحتلال الفرنسي خمسة وثلاثين جامعًا³.

ومن المؤسسات الدينية التي انتشرت ببابليك الشرق بقسنطينة⁴ والتي ارتبطت بها مدراس للتعليم مثل: جامع الكبير والذي يعتبر من أقدم مساجد المدينة حيث أنشأ سنة 1136م، وكان في ميدان التربية والتعليم دور بارز، حيث تعاقد على التدريس فيه الكثير من العلماء

¹ - محمد بسكر: الإنتاج المعرفي لمدينة قسنطينة، دار كردادة، 2018، ص 378.

² - فيلطة كريمة، بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 66.

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1998، ج1، ص 248.

⁴ - احتوت قسنطينة كغيرها على مؤسسات علمية واهتمت بها لاستقرارها السياسي خلال تلك الفترة وساعدها موقعها القريب من تونس استقطابها للعلماء، مما شجع صالح باي لتأسيس المدرسة الكتانية ووفر لها عدة إمكانيات من أساتذة كمستلزمات لهم وللتلاميذ. مما ساعد على نشر تعليم عالي المستوى بنظام داخلي دقيق. للمزيد ينظر: محمد بلقاسم: المرجع السابق، ص 217.

وأهل العلم، ومن أبرز هؤلاء شيخ الإسلام محمد بن أحمد بن عبد الكريم الفكون، وأورد العنابي أن مدينة قسنطينة تتوفر على أكثر من مائة (100) جامع ومسجد وزاوية وكتاب يعمر بها أئمة ومرشدون، ومؤذنون، ومعلمون للقرآن الكريم ومدرسون للعلوم الدينية والأدبية.

بعد سقوط قسنطينة، عاصمة بايلك الشرق، تحت الاستعمار الفرنسي عام 1837م، كان للجامع الكبير أربعة عشر موظفًا، منهم الأئمة والمؤذنون والقيمون والحراس والمدرسون و أهل التقوى. وقد تشرف بالتدريس في هذا المسجد بعض العلماء، منهم الشيخ محمد بن عيسى البوريدي، الذي تولى إدارة مدرسة قسنطينة للشيخ عبد القادر المجاوي... إلخ¹.

ومن أشهر المساجد الأخرى في قسنطينة أيضا وهو مسجد سيدي لخضر الذي تم بناؤه في القرن الثامن عشر، وتوجد به قبور بعض الأقدمين أهمهم حسان باي²، تأسيس هذا المسجد في عهد الباي حسن أبو حنك، كان له مكانة كبيرة في المنطقة فقد درس فيه مجموعة من العلماء من بين هؤلاء العلامة عبد الحميد ابن باديس هذا الأخير الذي ختم فيه تفسير القرآن تدريسيًا في 25 سنة، وعبد القادر الراشدي القسنطيني المتوفي في 1194هـ³.

– جامع سوق الغزل:

عرف هذا الجامع أيضا باسم جامع الباي نسبة إلى الباي حسن بوكمية الذي كان تحت اشرافه، والسيد ابن جلول، وطيلة فترة الاحتلال الفرنسي كان هذا الجامع قد تم تحويله إلى كنيسة بالمنطقة وبعد الاستقلال تم ارجاع هذا الجامع إلى واجهته الأصلية⁴.

¹ - كمال خليل: المرجع السابق، ص 110.

² - أحمد توفيق المدني: الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 233.

³ - كمال خليل: المرجع السابق، ص 110.

⁴ - فاطمة الزهراء قشي: قسنطينة في عهد صالح باي البايات، ط2، دارمداد يونيفارسييني براس، قسنطينة، 2013، ص

كان هذا الجامع كما أشارت إليه الكتابات التاريخية من أجمل المساجد التي شهدتها مدينة قسنطينة كونه يتميز بمحرابه وقبابه، بالإضافة إلى منبره وزخرفة جدرانه وأبوابه الذي امتاز بها¹، ومن مساجد الأخرى أيضا مسجد سيدي الكتاني الذي يعتبر أحد مكونات مركب الكتاني².

أنشأ هذا المسجد صالح باي الذي تولى حكم قسنطينة من سنة 1185هـ/1207م، و أنشأ بجانبه مدرسة، وجلب دعائمه الرخامية ومواد بنائه من إيطاليا، و أوقف على المسجد، وعلى المدرسة أوقافا عقارية من خالص ماله³.

– جامع سيدي قموش:

يرجع بناء هذا الجامع إلى القرن التاسع الهجري 16م، ويعد من أملاك آل باديس في مدينة قسنطينة، وبعد الاحتلال الفرنسي للمنطقة تمكن من احتلاله نظرا للدور الفعال الذي يلعبه لما يقدمه من دروس للعلم بهدف إيقاظ الفكر، وتحفيظ القرآن الكريم وتعليمه للصغار⁴.

من بين المساجد الشهيرة الأخرى في قسنطينة: جامع القصبية، وجامع سيدي علي بن خلوف. وقد تميز بعضها بزخارف ونقوش رائعة، واستخدم في بنائها الرخام والزليج المستورد. ويعود ذلك إلى الدور الذي قام به البايات في تشييد هذه المساجد في المنطقة، ومنهم الباي حسين – الذي ذكرناه سابقًا – والذي بنى جامع سوق العزل عام 1143هـ، وهو جامع على المذهب الحنفي، وأنفقت عليه أموال طائلة.

1- محمد بسكر: المرجع السابق، ص 66.

2- فيفلة كريمة، بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 66.

3- محمد بلقاسم: المؤسسات الدينية التعليمية في الجزائر خلال الحكم العثماني، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، ع3، جوان 1437هـ/2016م، ص214.

4- كمال غربي: المرجع السابق، ص 110.

يتضح مما سبق أن مدينة قسنطينة كانت تزخر بالمساجد التي أسسها الأهالي والعثمانيون على حد سواء. وقد اهتم هؤلاء ببناء المساجد بدوافع دينية خالصة في أغلب الأحيان، وجعلوها لخدمة المذهب الحنفي، بل إن وظيفة المدرس عندهم لم تكن تتجاوز ذلك أيضًا¹.

كان موظفو المساجد يتقاضون رواتبهم من السلاطين أو الملوك أو من مداخيل الأوقاف التابعة للمساجد. كانت أموال الأوقاف تُخصص للإنفاق على المدرسين والقائمين على شؤون المساجد. وأحيانًا، كان الأهالي يقدمون للمدرس هدايا تعبيرًا عن احترامهم وتقديرهم، خاصة عند ختم أبنائهم جزءًا من القرآن، كتقديم الطعام أو البيض أو التمر... الخ².

د- الكتاتيب والمعمرات:

تُمثل الكتاتيب، التي تُعد من المؤسسات الدينية التي عرفت الجزائر خلال الفترة المدروسة، أصغر وحدة في التعليم الابتدائي. وهي مشتقة من كلمة "الكتاب"، ووظيفتها الأساسية تحفيظ القرآن الكريم للأطفال وتعليمهم ترتيله. كما أنها المكان الأولي لتعليم الأطفال الحروف الهجائية، وتوجد غالبًا في أضرحة الأولياء، والدكاكين، والمساجد التي تُقام فيها صلوات الخمس³.

كانت الكتاتيب تفرش بحصائر وزرابي، وتزين جدرانها مسامير لتعليق الألواح وعصا المعلم. يُطلق على الأطفال فيها اسم طلاب، وعلى المعلم اسم المؤدب. تميزت الكتاتيب بالنظام والانضباط والتزام الطلاب بالأدب والاحترام التام للمعلم، فكانوا يحترمون المواعيد، ويتركون نعالمهم عند الباب، ويأتون بلباس لائق، ويقبلون يد معلمهم احترامًا له⁴.

¹ - أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص ص 261-262.

² - عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص 147.

³ - محمد بلقاسم: المرجع السابق، ص 218.

⁴ - فيللة كريمة، بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 65.

كانت هذه الكتاتيب تنشأ بشكل مستقل في تجمعات سكنية، وانتشرت على نطاق واسع. وقد تحدث عنها الجامعي الفاسي في رحلته عن الكتاتيب القرآنية في مدينة الجزائر، قائلاً: "... كان في هذه الحاضرة نحو مائة مكتب مكتظة بالأولاد، فالمكان الذي لا يتسع للتلاميذ يجعلون فيه سُدّة يصعدون إليها بالدرج، يتعلمون القراءة والكتابة ويحفظون القرآن الكريم، وكان الحفاظ كثيرين. أما الدروس العليا فكانت تُلقى في المساجد والزوايا، وخاصة الجامع الأعظم الذي كان يضم تسعة عشر أستاذًا."

المعمرات تشبه إلى حد كبير الكتاتيب، فقد عرفت انتشارًا واسعًا في الأرياف الجزائرية أو المناطق الجبلية خلال العهد العثماني. لكن تسيير هذا النوع من المؤسسات كان يتم من قبل التلاميذ الدارسين بها، من حيث القيام بأعمال النظافة والصيانة، وتحضير الطعام بصورة منتظمة ودورية. انقسم طلبة الكتاتيب إلى عدة فئات حسب السن والقَدَم والثقافة، وصُنِّفت الفئات كالتالي:

- فئة القدادشة: التلاميذ الصغار.

أ- فئة الطلبة: هي فئة فوق القدادشة يركز اهتمامهم في حفظ القرآن الكريم.

ب- فئة المقدمين والوكلاء والشيوخ والكبار: تمثل أعلى منزلة في المعمرات، هذه الفئة تقوم بمهنة التوجيه وفكرية، وتتمتع بكل الصلاحيات في حل المشاكل المطروحة بالمعمرات وهي معفية من كل الأعمال التي تقوم بها كل من الفئة الأولى والثانية¹.

هـ- الأوقاف والمكتبات:

أ- الوقف:

الوقف لغةً يعني الحبس، فيقال: وقفت الدابة إذا حبستها في مكانها، ومنه الموقف لأن الناس يُحبسون فيه للحساب. أما اصطلاحًا، فهو حبس الأصل عن التملك مع إطلاق

¹- محمد بلقاسم: المرجع السابق، ص218.

منفعته، وبالنظر إلى هذا التعريف الاصطلاحي، يتضح لنا أن الوقف نوع من أنواع الصدقات، بل هو -في نظري- صدقة جارية.¹

يُعدّ الوقف من أبرز مظاهر الحضارة الإسلامية، وقد شهد تطوراً ملحوظاً في الجزائر خلال العهد العثماني لأسباب سياسية واقتصادية. اكتسبت المؤسسة الوقفية مكانة مرموقة بفضل تأثيرها في مختلف جوانب الحياة، إذ كانت من أولوياتها كفالة احتياجات الفقهاء والطلبة والمعلمين، وتغطية نفقات القائمين على المساجد والمدارس والزوايا. كما اعتُبرت أداة لحماية الفقراء والمحتاجين وسدّ حاجاتهم.²

الوقف، كما أشار ناصر الدين سعيدوني، عمل خيري ذو صبغة دينية، يقوم على توفر الواقف الذي يتبرع بما يملك من أصول أو منافع، ووجود الموقوف، وهو الأصل أو المنفعة المحبوسة، بالإضافة إلى وجود الموقوف عليه، وهو المستحق لصرف ذلك الأصل أو المنفعة، وقد يكون مصلحة عامة كالمسجد والمدرسة والزاوية... ويشترط لصحة الوقف وجود صيغة تدل عليه، ولو كانت بالكتابة على المسجد أو المؤسسة الموقوفة.

تتوزع الأوقاف على العديد من المؤسسات الخيرية، سواء كانت دينية أو ذات شخصية اعتبارية. وقد اشتهرت في الجزائر مؤسسات مثل: أوقاف الحرمين الشريفين (مكة والمدينة)، وأوقاف سبل الخيرات، وأوقاف الجامع الكبير، وغيرها. كما تُعد مؤسسة بيت المال من المؤسسات الهامة في الجزائر بشكل عام خلال القرن الثامن عشر الميلادي، حيث اهتمت برعاية اليتامى وأبناء السبيل والفقراء. وتتولى التصرف في الغنائم العائدة للجزائريين من

¹ - الأمير بوغداد: المؤسسات في الجزائر أواخر العهد العثماني (القضاء أنموذجاً)، مذكرة ماجستير في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، إشراف: د. حميدة عميراي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2008، 2007، ص 48.

² - محمد بلقاسم: المرجع السابق، ص 218.

الجهاد البحري، بالإضافة إلى الاهتمام بإنشاء الطرق والمساجد والزوايا، وبعض الأعمال الخيرية الأخرى مثل: دفن موتى الفقراء. ويشرف على بيت المال "بيت المالجي" يعاونه قاضٍ بصفة وكيل، ويساعده العدول.

لذا، يمكن القول إن الأوقاف (الحبوس) لم تشهد هذا النوع من التطور في الجزائر إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي، وقد ساعد على انتشارها وتوسعها محاولة الحكام كسب تأييد الطرق والزوايا والتأثير عليها. من هنا بدأ التوسع الكبير للأوقاف لتشمل الدكاكين والفنادق والمزارع والبساتين، الأمر الذي استدعى الاعتناء بها وترتيبها وتصنيفها والاهتمام بحساباتها واحترام عقودها¹.

نظرًا لأهمية الوقف كمصدر للتمويل والرعاية، يقول سعد الله: "... ويظهر ذلك أهمية الوقف في الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية، فهو مصدر عيش الزوايا والأضرحة وغيرها من المؤسسات التعليمية الدينية كالمساجد والمدارس والكتاتيب، ومعيشة العلماء والطلبة. ومن جهة أخرى، لعب الوقف دورًا بارزًا في الحياة الاجتماعية...". وكان الوقف بالإضافة إلى ذلك يلعب دورًا في التأثير الديني والسياسي خارج الحدود كإرسال النقود سنويًا إلى فقراء مكة والمدينة مع ركب الحجيج².

شهدت قسنطينة في عهد الحاج أحمد باي، وتحديدًا في القرن الثامن عشر الميلادي، اهتمامًا بالغًا بالأوقاف؛ حيث أعاد تنظيمها وضبطها وترتيبها في سجلات وُزعت على كل من ناظر بيت المال، وشيخ البلد، والقاضي الحنفي، والقاضي المالكي، حرصًا على عدم التهاون في شؤونها³.

¹ - نفسه، ص - ص 5-6.

² - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 231.

³ - كمال خليل، المرجع السابق، ص 6.

لذا، وُجِّهت أملاك الأوقاف نحو تسيير المؤسسات الثقافية التي لم تكن تملك دخلاً مُعيَّناً، وساهمت مداخلها بشكل مباشر في تطوير المساجد وسد حاجة الطلاب، فضلاً عن دفع أجور القائمين عليها¹.

ب- المكتبات²:

تبوّأت المكتبة مكانة مرموقة في المجتمع خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين؛ فقد أسس العثمانيون المكتبات في الجوامع والتكايا، واحتفظوا بمجموعات خاصة في بيوتهم³.

خلال الفترة قيد الدراسة، كانت الجزائر تُعتبر من بين الدول الرائدة في وفرة الكتب والمكتبات. كانت الكتب تُنتج محلياً عبر التأليف والنسخ، أو تُستورد من الخارج. وقبل وصول العثمانيين إلى المنطقة، وُجد عدد كبير من المكتبات، حيث كانت قسنطينة مدينة علمية مزدهرة بلغت فيها صناعة الكتاب، من تأليف ونسخ وجمع، درجة عالية من التطور⁴.

أكد الباحثون الفرنسيون الذين جمعوا المخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية غداة الاحتلال الفرنسي، أنهم دُهِشوا من كثرة الكتب وتنوعها وجمالها والعناية بها⁵.

¹- نفسه.

² - تعرف المكتبة من الناحية اللغوية بأنها مكان الكتب والأدوات الكتابية ومكان جمعها وحفظها، أما اصطلاحاً فهي مؤسسة فكرية تجمع فيها الكتب بكافة أنواعها وأشكالها، وتنظم وتحفظ وتحلل محتوياتها، كما أنها مؤسسة علمية وثقافية وتربوية، تحوي مجموعة من الكتب والمواد الأخرى بهدف استخدامها من قبل عامة الناس أو من طرف فئات مخصصة أو مجموعة تابعة لهيئة أو جمعية. للمزيد ينظر: محمد علي الصلابي: فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح، دار الايمان، الإسكندرية، 2001، ص 138.

³- نفسه .

⁴- أبو القاسم سعد لله: المرجع السابق، ص- ص 286-287.

⁵- محمد بلقاسم: المرجع السابق، ص 219.

في هذا الصدد، اعترف ديسلان البارون، الذي كتب تقريرًا عن مكتبات مدينة قسنطينة بعد وقوعها تحت سيطرة الاحتلال مباشرة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكذلك أدريان بيربروجر، الذي رافق الحملة الفرنسية على قسنطينة وجمع المخطوطات منها. بالإضافة إلى ذلك، ذكر شارل فيرو، الذي كتب عن المؤسسات الدينية والعائلات الكبيرة في المدينة، أن بعض هذه المؤسسات والعائلات كانت تحتفظ بمخازن من المخطوطات في حالة جيدة، وأشار إلى مكتبة شيخ الإسلام بقسنطينة (عائلة الفكون)، واصفًا إياها بأنها كانت غنية بالكتب، ليس فقط في الجزائر، بل وحتى بالكتب المتعلقة بالدراسات الإسلامية المجاورة.

تتوّعت طرق اقتناء الكتب؛ فمنهم من ينسخ لنفسه، ومنهم من يستأجر ناسخين. وقد انتشرت ظاهرة النسخ حتى ظهر متخصصون فيها. ففي مدينة قسنطينة، اشتهر أبو عبد الله الطمار بنسخ الكتب بالخط الأندلسي الذي غلب على غيره من الخطوط في المغرب العربي، بالإضافة إلى الخط العثماني الذي جلبوه معهم¹.

ومن بينهم أيضًا الشيخ إبراهيم الحركاتي الذي اشتهر بإتقانه فن النسخ بالخط العربي حتى أصبح علمًا فيه. واشتهر كذلك محمد الزجاجي بالنساخته، فبلغ فيها مهارةً وقدرةً كبيرتين، ومن مهاراته الالفة أنه كان "يكتب ويحدث الجالسين دون ملل أو خطأ". وتشير المصادر إلى أنه كان في مدينة قسنطينة بعض المهتمين بصناعة الكتب على نطاق واسع، من نسخ وتجليد وتوريق وغيرها. فقد ذكر (منشور الهداية) أن الطالب محمد النقاوسي كان سمسارًا للكتب في قسنطينة.²

¹ - نفسه.

² - أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، 291.

تضمنت الكتابات تفاسير وأحاديث دينية، وعلوم الفقه والأصول والتوحيد، وعلومًا لغوية وعقلية ودينية، إضافة إلى الأدب والنحو والصرف والبلاغة. أما التاريخ والجغرافيا والفلسفة، فكانت مؤلفاتهم فيها قليلة، في حين كان الحساب والطب أقل حظًا.¹ وينطبق الأمر نفسه على المكتبات الريفية، فكل هذا يشير إلى وفرة الكتب في مختلف المدن الجزائرية، حتى في المناطق النائية، حيث كان العلماء يحتفظون في بيوتهم بصناديق وخزائن خاصة للكتب والمخطوطات.²

بشكل عام، لعبت المؤسسات الدينية والتعليمية في مختلف المدن الجزائرية، بما في ذلك قسنطينة عاصمة بايلك الشرق، دورًا مهمًا في نشر العلم والحفاظ على مقومات الدين الإسلامي. فقد اعتنت هذه المؤسسات بمختلف العلوم الدينية والدنيوية، والنقلية والعقلية، مما يعكس مدى اهتمام سكان مدينة قسنطينة والجزائر عمومًا في تلك الفترة بالعلم والعلماء. ولذلك، أنشأوا المساجد والزوايا والكتاتيب والرباطات، وأقاموا عليها الأوقاف، واقتنوا الكتب من كل أنحاء البلاد الإسلامية، وأنشأوا المكتبات. بعض هذه المؤسسات لا يزال شاهدًا على تلك الفترة، بينما دمر المحتل الفرنسي البعض الآخر.³

نظرًا لأن النشاط العلمي والثقافي في المنطقة العربية والإسلامية خلال القرون الماضية لم يخضع لقوانين سياسية أو رقابة من السلطات الحاكمة، ولم تكن هناك أي عوائق تحول دون تنقل العلماء وطلاب العلم، فإن الحياة العلمية في الحواضر الجنوبية لبايلك الشرق لم تكن منعزلة عما يجري من نشاط علمي وثقافي في المناطق العربية الأخرى. لذلك، من أهم المظاهر الثقافية التي برزت في صحراء قسنطينة خلال فترة الدراسة ظاهرة الاتصال العلمي

¹ - محمد بلقاسم: المرجع السابق، ص 219.

² - زهية دباب، وردة برويس: المرجع السابق، ص - ص 179-180.

³ - محمد بلقاسم: المرجع السابق، ص 220.

والتقافي المستمر بين العديد من علماء المنطقة ونظرائهم من أهل العلم، وبين المؤسسات العلمية في الحواضر العربية والإسلامية كالقاهرة وفاس وتلمسان وقسنطينة وتونس وطرابلس وتمبكتو وغيرها. وقد تم هذا الاتصال بعدة طرق، منها تبادل الرسائل والفتاوى وأخذ الرأي في بعض المسائل الدينية بين علماء ومشايخ المنطقة ونظرائهم من العلماء والقضاة من خارجها، ومنها السفر لطلب العلم والتتلمذ على مشاهير العلماء والفقهاء في الأماكن المشهورة كجامع القرويين والأزهر والزيتونة وغيرها¹.

من المظاهر التي يلاحظها الباحث في أعمال أغلب علماء المنطقة، خاصة الذين كانوا يميلون إلى التصوف، الاهتمام بكرامات الأولياء وأصحاب البركة. فنادرًا ما يعثر الباحث على مخطوط أو أوراق من إنتاج علماء المنطقة تخلو من ذكر بعض الكرامات ومناقب بعض العلماء والمشايخ. ولعل ذلك يعكس بعض المفاهيم الثقافية والمعتقدات التي كانت سائدة في المجتمع العربي الإسلامي في تلك الفترة، حيث كان للعلماء ومشايخ الإسلام وأصحاب الطرق الصوفية مكانة خاصة بين عامة الناس، وكانت لبعضهم علاقة مميزة مع السلطة الحاكمة.²

نظرًا لمكانة قسنطينة كحاضرة للعلم والثقافة، فقد نالت المناطق والأقاليم المجاورة لها نصيبًا من هذا الإشعاع. تجلّى ذلك في تنقل أبناء القبائل والمناطق الريفية للتزود بالعلم وفروعه، حيث كانت مساجد قسنطينة وزواياها وكتاتيبها مركزًا لهذا الإشعاع. وقد شهدت المنطقة بروز طبقة من العلماء والمتقنين من ريف قسنطينة والصحراء، والذين ذاع صيتهم ليس في قسنطينة فحسب، بل أيضًا في الأقاليم المجاورة كالجزائر وعنابة وسطيف وتونس

¹ - بوسليم صالح: الحياة العلمية والثقافية في منطقة توات خلال القرنين 18 و19 مصادرها وبعض مظاهرها، في المجلة الجزائرية للمخطوطات، دت، دد، ص 89.

² - نفسه، ص 91.

وغيرها. على الرغم من مكانة هذه الحاضرة في العهد العثماني، إلا أن هذا الدور لم يكن دائماً على نفس المستوى، بل اختلف من فترة إلى أخرى متأثراً بالأوضاع العامة للبلاد والتغيرات السياسية التي يشهدها نظام الحكم وسياسات الحكام في هذا المجال. ومع احتلال قسنطينة سنة 1837م، تراجع هذا الدور نتيجة لسياسة الاحتلال الفرنسي الرامية إلى التضييق على الأهالي والسعي بكل الطرق إلى تجهيلهم وطمس هويتهم العربية الإسلامية، بالإضافة إلى قيامها بسرقة مكتبات قسنطينة ومحتويات زواياها وملاحقة علمائها ومثقفها في تلك الفترة.

الفصل الخامس

التوسع الاستعماري وانعكاساته على الأوضاع

الاقتصادية والاجتماعية (1837-1848م)

أولا : الاحتلال الفرنسي و مقاومة أحمد باي(1836-1848)

- محاولات الاحتلال الفرنسي للاستيلاء على قسنطينة 1836م.

- الهجوم الثاني 1837 وسقوط قسنطينة.

ثانيا: التوسع الاستعماري نحو الجنوب وانعكاساته

- الانعكاسات الاقتصادية

- الانعكاسات الاجتماعية

-مظاهر التكافل الاجتماعي لمواجهة سياسة الاحتلال الفرنسي.

ثالثا: علاقة الأسر الحاكمة بالسلطة الفرنسية.

رابعا: أثر الكوارث الطبيعية والحروب والثورات على الحياة

الاقتصادية والاجتماعية

أولا : الإحتلال الفرنسي ومقاومة الحاج أحمد باي (1836-1848)

بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر العاصمة في 05 جويلية سنة 1830م اتجهت أنظارهم مباشرة إلى الشرق الجزائري لاحتلال عاصمته قسنطينة، فقد صرح الحاكم العام "دورفيكو" (1831-1833م) أن فرنسا لا يمكنها بحال من الأحوال أن تثبت أقدامها على أرض الجزائر دون السيطرة على مدينة قسنطينة والشرق الجزائري بصفة عامة¹.

في تلك الفترة، كان أحمد باي يدير شؤون البايليك ويقاوم تهديدات فرنسا المتكررة ولا سيما بعدما احتلوا مدينة عنابة سنة 1832م، ويتصدى لبعض المنافسين له مثل ابراهيم باي الذي كان يحكم قسنطينة سابقا²، وكان الفرنسيون يستهدفون الحاج أحمد باي وسلطته على الإقليم وهذا الأمر جعل سكان الإقليم يتمسكون به ويلتفون حوله ويرتبطون معه ارتباطا مصيريا وثيقا، فقام أحمد باي باستدعاء الجيوش من مختلف أنحاء البايلك ومن القبائل المختلفة فلم يتخلف أحد منهم عن النجدة والمساهمة في الجهود الحربية، فأقام حامية عسكرية في الداخل تتكون من 1400 جندي تحت قيادة "ابن عيسى" وقائد الدار " علي بن محمد البجاوي " ونحو 1000 شخص من المتطوعين المكلفين بحماية المدينة وحراستها، وكان المارشال "كلوزيل" يحلم بتحقيق الاستلاء على مدينة قسنطينة عاصمة بايلك الشرق لأن الحاج أحمد باي لم يعد يفيد الدولة الفرنسية³.

¹ - العياشي رواجي: الاحتلال الفرنسي لقسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري عام 1837م وردود فعل أعيان الأرياف، قسم

التاريخ، جامعة باجي مختار، عنابة، 2010م، ص 366.

² - عبد العزيز فيلالتي: جرائم الجيش الفرنسي مقاطعتي الجزائر وقسنطينة 1830-1850م، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 69.

³ - نفسه: ص74-75.

وفي سنة 1837م أبرم الجنرال "بيجو" مع الأمير عبد القادر معاهدة التافنة استغلتها فرنسا لتكريس جهودها لغزو قسنطينة فاتصل الجنرال "دامريمون"¹ للمرة الأخيرة بأحمد باي مكررا طلب فرنسا، ولكن الباي أحمد رفض وبعث برسالة إلى القائد الفرنسي وهو محاصر لمدينة قسنطينة يتكلم فيها نيابة عن سكانها ومن جملة ما ذكر: " من سكان مدينة قسنطينة المحافظين على دينها وشرفها إلى الجيش الفرنسي المعتدي على حقوقه لقد وصلتنا رسالتكم، وفهمنا ما ذكرتموه فيها نعم إن مركزنا أمس في خطر ولكن استلائكم على قسنطينة موقوف على قتل آخر واحد منهم واعلموا أن الموت حث جدران مدينتنا أشرف لنا من الحياة تحت علم فرنسا"².

1- محاولات الاحتلال الفرنسي للاستيلاء على قسنطينة 1836م.³

كانت الحملة في نظر المارشال وتقديره سهلة وبسيطة يغير أثناءها الباي المكروه بالباي الجديد وسيلقى الترحيب من أهل البلد لإبعادهم عن حكم الحاج أحمد باي وتحريرهم منه وما عليه إلا أن يوجه نداءه إلى السكان⁴، وتشير المصادر الفرنسية إلى أن المارشال لم يضع خطة عسكرية واضحة لهذه الحملة مستصغر المقاومة ودفاع أحمد باي، وبدأ الزحف على

¹ - دامريمون: اسمه الكامل شارل ماري دينيس دامريمون (Charles marie de Denys Damrémont)، جنرال فرنسي، من مواليد 8 فبراير 1783 بشومان(المارن العليا)عسكري، قائد سلاح المدفعية خلال الحملة الفرنسية على الجزائر عين في 12 فبراير 1837 حاكما عاما للمكتسبات الفرنسية بشمال إفريقيا، شارك في معركة الثنية بتاريخ 17 ماي، 1837 لقي حتفه بتاريخ 13 أكتوبر 1837 خلال حصاره لمدينة قسنطينة للمزيد ينظر: فاتح زياني: سياسة الجيش الفرنسي في دعم الاستيطان الأوروبي في الجزائر خلال حكم المارشالين كلوزيل وبيجو (1830-1847) في مجلة الإحياء، المجلد: 20، العدد: 26، سبتمبر، 2020، ص 676

² - عمار عموره: موجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة، ط1، القبة، الجزائر، 2002م، ص 142.

³ - يصف الرحالة الألماني والأسير لدى الحاج أحمد باي فنديلين شلوصر حصار قسنطينة سنة 1836م من طرف القوات الفرنسية وانهزام الجيش الفرنسي آنذاك بكل حسره وأسى على ما حل بقومه من خسائر، وانطلاق أفراح قسنطينة فيقول: " وأقيمت أفراح حقيقية شبيهة بأفراح الهمج استمرت ثلاثة أيام، وذلك ليحتفلوا برسولهم، الذي هزم الفرنسيين في اعتقادهم ووضعت رؤوس الأعداء خارج المدينة في مكان قريب " للمزيد ينظر: فنديلين شلوصر: المصدر السابق، ص 59.

⁴ - رسالة العقيد دوفيفي الي قبائل بايلك قسنطينة ردا على اعلان الحاج أحمد باي الجهاد. للمزيد ينظر الملحق رقم: 39

مدينة قسنطينة يوم 08 نوفمبر سنة 1836م من مدينة عنابة ومرت بعدة مراحل بحيث تجمع مساء هذا اليوم جميع القوات، وفي اليوم الموالي انطلقت الحملة من جديد نحو مدينة قسنطينة وعبرت "مجاز عمار" والوصول إلى بلدة "وادي زناتي" حيث أقيم معسكرا في "سيدي طمطم" الذي انسحب منه الحاج أحمد باي بقواته لاستدراج العدو إلى قسنطينة حسب الخطة التي وضعها مستعملا المناوشة الخفيفة (الكر والفر) لأن قوات العدو تفوق قواته عددا وعدة لا يستطيع مواجهتها والالتحام معها مباشرة من جهة لأن جيوشه لم تكن قادرة على التحرك¹. ثم عاد أحمد باي متبعا الساحل حيث الكثير من المدافع والذخيرة الحربية وقد تمركز مدة ثلاثة أيام في نواحي الدار البيضاء ليجمع الخيل والبال التي كانت للدولة وكذلك كل ما استطاع إليه من مزارع للدولة، فجمع حوله ثلاثة آلاف تركي وعددا كبيرا من أسر مدينة الجزائر التي تركت المدينة ولقد أخذ أحمد باي كل هذا العدد من الناس تحت حمايته، وكان يوجد ضمن هذا العدد حوالي 500 امرأة².

وفي صبيحة يوم 21 نوفمبر كانت قوات العدو قد وصلت بصعوبة إلى موقع الصومعة (الخروب) حيث يوجد ضريح "ماسينيسا"³ بقيادة "المارشال كلوزيل"⁴ الذي لم يتمكن من

¹ - عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص 76-77.

² - حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تق: محمد الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006م، ص 188-189.

³ - ماسينيسا: ولد عام (238ق م)، وهو ابن غايا بن نارفاس في العقد الذي شهدت فيه حرب المرتزقة مع لجيش القرطاجي بعد نهاية الحرب البونيقية الا 241-264ق وهو من أشهر الملوك النوميديين، وقائد عسكري وسياسي محنك يستجيب مع كل. المتناقضات، اشتهر بثورته الزراعية التي غيرت الحياة اليومية للنوميديين من حياة التنقل، والبدو إلى حياة الحضارة والتمدن، حيث تحالف مع قرطاجة، وشارك معها في عدة حروب ضد الرومان من بينها الحروب في إسبانيا وتقلد عدة مناصب عسكرية، ثم انقلب وتحالف مع الرومان ضد قرطاجة، بعد تأكده ان النصر حليف الرومان. للمزيد ينظر: حساني محمد و حمادوش بولخراس: الدور العسكري لماسينيسا ويوغرطة، في مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، المجلد 07، العدد 02، جوان 2024، ص ص 28-29.

التحكم في طليعة قواته بسبب غارات ومناوشات خيالة أحمد باي¹، وفي صبيحة يوم 22 نوفمبر انطلقت المعارك من جديد على جميع الجهات بحيث كشف العدو رشق المدينة بالمدافع والبطاريات فرد عليه "بن عيسى" بالمثل في الوقت الذي كان فيه أحمد باي خلف العدو يناوش مؤخرة الجيش الفرنسي ولاسيما تلك التي كانت تحمل المؤن والذخيرة فتمكن من القضاء على قوات الحراسة واستولى الجزء الكبير من قافلة التموين والامدادات والذخيرة وغنم ما كان معها فعمدت العدو تكثيف الهجومات لاحتلال المدينة بسرعة قبل أن تنفذ المعدات والمؤونة، وكثف أحمد باي من مناوشاته بعد هذا الانتصار وواصل حربه، وركز على ارهاقهم بالقتال المستمر في الجهتين الشرقية والغربية².

- الهجوم الثاني وسقوط قسنطينة 13 أكتوبر 1837م:

انطلق الهجوم على الساعة صباحا، فتقدم الطابور الأول بقيادة "لامورسيار" ، وتحت قيادته "فرقة زواوه"³ نحو الثغرة المستحدثة، وعند وصلها وجدوا تحصينا دفاعيا ثنائيا، وتوجهت فرقة من

4 - كلوزيل: ، من مواليد 12-12-1772 تولى عدة وظائف في الجيش الفرنسي و السفارة الفرنسية باسبانيا ، كما تولى قيادة الجيش في سان دومنيك و أرسل إلى هولندا و ايطاليا ، و عين أيضا نائبا في البرلمان ، ثم تولى قيادة الجيش الفرنسي بالجزائر في أوت 1830 ، ثم حاكما عاما سنة 1835 ، ثم عزل بسبب فشله في حملة قسنطينة في 12 - 02 - 1837م، للمزيد ينظر: أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية 1838 - 1900 ، ج 1 ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي، 1992م، ص 36.

¹ - عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص 78.

² - نفسه، ص 83.

³ - عرفت زواوة عبر تاريخها بمشاركاتها وانضمامها للجندية، فقد كانت تدخل بقوة كعنصر محلي، وقد شكلت عنصر دعم فاعل للجيش الجزائري خلال الفترة العثمانية، بقسميه البري والبحري، حيث وجدت فيهم إيالة الجزائر حلا ناجعا لسد النقص العددي الكبير الذي كانت تعاني منه القوات النظامية بسبب كبر مساحة البلاد، فكونت فرقة زواوة التي أخذت اسمها من قبائل زواوة المتمركزة بين دلس وبجاية وهذا حتى تساعد الجيش الإنكشاري في أداء مهامه، ففي كل مرة تحتاج الدولة للجيش كانت تلتجئ لفرقة زواوة التي عرفت عنهم مشاركتهم في معظم المعارك الكبرى الداخلية والخارجية ضد الإسبان والحفصيين والسعديين.، وقد ظهرت تشكيلة زواوة رفقة صالح رايس أثناء حملته على بجاية في جوان 1555م، وأثناء سيره الى بجاية جمع أكثر من 30 ألف من القبائل والفرسان والمشاة من زواوة الذين أرسلهم ملك كوكو والمشايخ الآخرين وعلى رأس هذا الجيش يأتي ليضع الحصار، ويقصف المدينة بستة

جنود الهندسة المكلفة بتفجير الحواجز والأسوار نحو ثغرة السور، وبعد معركة عنيفة، ومجزرة حقيقية تعرض لها جنود العدو ولم يمنع منها بعض السكان (مدينة قسنطينة)، ولما بلغ جنود العدو حيا تجاريا واسعا في المدينة أصبح لزاما عليهم أن يقتحموا الديار الواحدة تلو الأخرى تحت وابل من الرصاص¹، وقد اندفع الناس بعد الهزيمة نساء ورجالا وأطفالا نحو المنحدرات فارين من جنود العدو لكن الكثير لقي حتفه، وقد تابع الجيش الفرنسي هجوماته فزاد عدد الضحايا في الوقت الذي انتهت فيه حالة الحرب وعندما اقتحم العدو المدينة، وعاث فيها فسادا، ولم يكن من رجاء للسكان الذين بقوا فيها، عند ذلك تقدم ابن شيخ المدينة بورقة (وثيقة) وجهها أعيان² المدينة يعبرون فيها عن تسليم المدينة إلى الجنرال "فالي"³ فدخلوها، ثم توافد اليهود أيضا

مدافع... الخ. واستمر حضورها بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر باقتراح من دي بورمون كفرقة محلية تابعة للجيش الفرنسي، ويتولى كلوزيل القيادة في الجزائر أوت 1830م قامت السلطات الفرنسية بإعادة هيكلتها في فيلقين وفرقة من الخيالة بموجب أمر ملكي في 31 مارس 1831م، انضمت عدة عناصر من هذه القبائل الى القوات الفرنسية، وأصبحت تشكل قوة هامة في الجيش الفرنسي كما عرفت أيضا مقاطعة قسنطينة الإبقاء على هذه الفرق من قبائل المخزن وتأسيسها على يد السلطة الاستعمارية حيث بعد احتلال قسنطينة من طرف السلطات الاستعمارية قام سي حمودة مباشرة بعد تعيينه حاكما على قسنطينة باعتماد الفرق المخزنية في سياسته لتسيير المدينة. للمزيد ينظر: عائشة نافل، كريم ولد النبية: فرق الصبايحية واستغالها داخل الاستراتيجية الاستعمارية في الجزائر، 1845-1830، في المجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشلف، الجزائر، مج 12، ع، 01، 2019، ص 142-143 وتركي عباس: الأدوار العسكرية والأمنية لفرقة زاوة، خلال العهد العثماني -1519 1830، في مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، المجلد: الرابع 04 العدد: 01، جانفي 2022، ص ص 27-28 و.

فراي ديبغو ديهايديو: تاريخ ملوك الجزائر، ترجمة. أبو لؤي عبد العزيز، دارالهدى، الجزائر، 2013، ص 105. 1- نفسه: ص ص 105-107.

2 - بعد احتلال مدينة الجزائر و سقوط مدينة قسنطينة في يد قوات الاحتلال الفرنسي بادر أعيان وأكابر قسنطينة بالاتصال بالفرنسيين وذلك خوفا على مصالحهم الشخصية فيقول: صالح بن العنتري في ذلك «... حيث تمكن الفرنسيين ببرج مولاي حسين فلم يبق ينفعنا معه فتن... وتضيع تجارتنا الذي في البلدان والذي هي بين ايدينا... ولكن تعلمنا تأويل الذي يليق بنا و يكون به حياتنا هذا الوقت تراهم تكلموا مع المارشال بورمون الذي هو كبير الرمادة الفرا نسوية فسلموا له البلاد بشرط أن لا تكون ضرورة من الفرنسيين... فحينئذ تقدم عسكر الفرنسيين ودخل الجزائر... كفوا أنفسكم

وامسكوا ايديكم، وابقوا في احترامكم، وخلفوا الامر بيد الفرنسيين والباشا...». للمزيد ينظر: محمد الصالح العنتري: تاريخ قسنطينة، المصدر السابق، ص 91.

يشدن على أيدي ضباط العدو إنها ملحمة جهادية قدمها أهل قسنطينة قربانا للحرب والوطن أظهر فيها المقاومون بطولة كبيرة وشجاعة نادرة وثبات في القتال ليس له نظير بشهادة ضباط العدو الذين تلقوا خسائر كثيرة في الأرواح والمعدات فقد قتل القائد العام للجيش "دي مرمون" بالإضافة إلى الجنرال "بيريقو" والكولونيل كامب والعقيد "لامورسيار" والعديد من الضباط في هذه الملحمة القسنطينية التي تدافع فيها أبناء المدينة إلى أن تغلغل فيها العدو دربا يرب وبيتا بيت ودارا دار¹

- لم يستسلم أحمد باي رغم طلب فرنسا، وواصل مقاومته وعندما تخلى عنه أعوانه استسلم للسلطات الفرنسية يوم جوان 1848م².

- أصبحت قسنطينة تابعة للمستعمر الفرنسي نهائيا بتاريخ 23 أكتوبر 1838م تأمين احتلال قسنطينة وتهزير الهيمنة في المنطقة الشرقية كان من الضروري الاستلاء على ميلة لذا عملت الإدارة الفرنسية الاستعمارية على تأسيس مدينة جديدة باسم "فلبيفيل" على أنقاض المدينة

³ - سيلفان شارل فاليه Sylvain Charles Valée ولد شارل سيلفان فاليه في برين -لوشاتو بفرنسا في 17 ديسمبر 1773. ترقى في الجيش وتولى وظائف هامة، واشترك في حربي بروسيا واسبانيا وأحيل على الإستيداع سنة 1830. عاد إلى الخدمة سنة 1834 وتمت ترقيته إلى رتبة ماريشال بعد الاستيلاء على قسنطينة في 13 أكتوبر 1837. وقد قام بتأسيس مدينة سكيكدة، وقام ببناء أكبر مسرح روماني في الجزائر بتلك البلدة. وقد بناه على أنقاض أطلال فينيقية ورومانية. عين حاكماً عاماً بعد مقتل الجنرال دامريمون وظل في المنصب حتى 1840. وأثناء فترة حكمه الجزائر اندلعت ثورة الأمير عبد القادر وقد مات في باريس يوم 15 أغسطس 1846. <https://www.marefa.org/> تاريخ التصفح: 2025/02/06.

¹ - عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص 110-111.

² - عمار عموه: المرجع السابق، 143.

الرومانية القديمة "روسيكادا" والتي انتهت بعد شهرين، أما بتاريخ 12 ديسمبر 1840م أصبحت مركزا ثقافيا مجانيا للمعمرين الأجانب¹.

وبسقوط هذه المدينة تكون الإدارة الاستعمارية قد بلغت الهدف الذي خطت له مباشرة بعد احتلالها للجزائر العاصمة، وهو السيطرة على عاصمة الشرق الجزائري، رغم المقاومة الباسلة التي أبداهها الحاج أحمد باي².

ثانيا : التوسع الاستعماري نحو الجنوب وانعكاساته:

على الرغم من سقوط قسنطينة، الا أن ذلك لم ينتش الفرنسيون بنصرهم بسبب نجاه الحاج أحمد باي ومواصلته المقاومة، و بقاء خطر الأمير عبد القادر في الجهة الغربية قائما رغم أنهم وقعوا معه معاهدة تافنة في شهر ماي 1837م، و جعلوا قسنطينة مركزا مهما لتوجيه قواتهم نحو الجنوب القسنطيني؛ و عينوا بها قائد مقيما برتبة جنرال مقره قصر الباي السابق واستغلوا الإرث العثماني في إدارة الأهالي بتعيين رؤساء القبائل الذين قبلوا الخضوع للعمل معهم³.

بعد سقوط مدينة قسنطينة إثر الحملة الثانية يومي 13 و 14 أكتوبر 1837م، والتي كانت فيها قوة الاستعمار كبيرة وبطشه فضيحا مما اضطر أفراد المقاومة تحت قيادة أحمد باي إلى الانسحاب من قسنطينة لكن مع التفكير في محو الهزيمة فكان من رأي المقام أحمد باي قطع

¹ - وابل بخته: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للجزائر من خلال حوليات استيطان الجزائر بين 1852 - 1858م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: غازي الشمري، جامعة وهران، 2020-2021م، ص 50.

² - العياشي رواجي: المرجع السابق، ص 368.

³ - هواري مختار: المرجع السابق، ص 36.

جميع القواعد التي تعم العدو من الخلف، في حين عارضه بوعزيز بن قانة¹ الذي أشار إليه أن فرحات بن سعيد يهدد الزيبان واقترح عليه الإسراع إلى الصحراء ذلك لمحاربة خصمهم العنيد فرحات بن السعيد وطره من منطقة الزيبان ثم يتوجهان - بعزيز بن قانة وأحمد باي - بقوات كبيرة وموحدة لمهاجمة الفرنسيين بقسنطينة. غير أن أحمد باي لم يستحسن هذه النصيحة وقد جاء فيما يرويهِ م نفسه في مذكراته قوله: "... لم أستحسن هذه النصيحة، ولكنه لم يكن لي أهل، عدا أبنائي، أقرب من بعزيز فلم أكن اعتقد أنه يستطيع أن يقترح علي ما من شأنه أن يضرني، عليه انضمت إلى رأيه ولولا أن الله هداني في ذلك الوقت، لفهمت أنه يريد جلبي إلى الصحراء ليأخذ أموالاً عن آخرها..."².

بعد أن صول أحمد باي إلى بلدة منطقة الوطاية -شمال مدينة بسكرة- علم أن فرحات بن سعيد يلاحقه وإلى جانبه قبائل أولاد عبد النور البلزمة والحصنة، ثم قام بهجوم كاسح على مدينة بسكرة، وكان النصر من حليف فرحات بن السعيد الذي احتجز بعض الرهائن من قوات أحمد

¹ - ترعرع بوعزيز بن قانة في أسرة ذات مكانة اجتماعية وسياسية، فجدّه محمد الحاج بن علي بن سليمان أول من تولى مشيخة العرب سنة 1762م بعد تعيين أحمد القلي بايا على قسنطينة (1756-1771م)، كما تولى والده بو لخراص قيادة منطقة الحصنة، أما أخوه محمد بلحاج فعين شيخاً للعرب في الفترة ما بين (1826-1819م) إضافة إلى أخته المدعوة رقية التي تزوجت بمحمد الشريف بن أحمد القلي، هذا الأخير الذي تولى بابيك الشرق لسنوات طويلة أثناء العهد العثماني، و تكلم زواجهما بإنجاب أحمد باي آخر بايات الشرق الجزائري، و قد ظلت الأسرة تتداول على منصب مشيخة العرب إلى غاية 1839م، شغل بوعزيز بن قانة منصب شيخ العرب سنة 1830م، في عهد الحاج أحمد باي، ونتيجة لذلك نال بوعزيز العديد من الامتيازات المادية، والتي انعكست على حياته، وهو آخر شيوخ العرب وخال أحمد باي وحليفه الذي بقي إلى جانبه إلى أن سقطت قسنطينة سنة 1837م، أين تخلى عنه وانتقل إلى جانب الفرنسيين، للمزيد ينظر: أسماء شمول، فريدة شرفة: دور بوعزيز بن قانة في دعم الاحتلال الفرنسي في إقليم الزيبان من خلال المكتب العربي. 1864-1844، في مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد 8، العدد 2، ديسمبر 2023، ص 181. و حمدان بن عثمان خوجة، 2005، صفحة 44. و أوجرتي محمد: المرجع السابق، ص 121.

² - محمد العربي الزبيرى: مذكرات الحاج احمد باي، وحمدان خوجة وبوضربة، المصدر السابق، ص 77.

باي وأقسم أن لن يرأس إلا الجنرال فالي FALLEE¹ وهدف التقرب من الجنرال وكسب وده ومن خلاله الوصول الى السلطة الفرنسية لتحقيق مآربه².

أهم ما يمكن أن نصف به هذه المرحلة هي تميزها بطابع التحالفات³ القبلية العشائرية لأسرة دون أخرى مثلا عائلة بن قانة يدعمها البوازيد والحاري، عرش الغرابية (السلمية رحمان) أما عن عائلة بوعكاز مدعمة من طرف أهل بن علي الشرفة، الغمرة... إلخ.

وهذا ما سينجر عنه معارك مأساوية بين أهل البلد الواحد وهذه الظروف ستكون لصالح فرنسا التي تقوم باستخدامها كوسيلة لأغراضها التوسعية، ذلك حسب سياسة فرق تسد⁴.

1- انعكاساته على الحياة الاقتصادية:

عملت السياسة الزراعية الفرنسية بالجزائر في بدايتها على تحويل المستوطنة الى خزان إستراتيجي للمنتجات الزراعية الاستوائية، التي باتت تشهد إقبالا متزايد في أوروبا، وعرفت أسواقها نموا مطرد لتواكب التطور الاقتصادي في فرنسا بعد نهاية الحروب الاوربية، كما حاولت فرنسا من جراء هذه السياسة تعويض خسائرها جراء فقدان العديد من مستعمراتها الاستوائية التي كانت

1 - اتفاقية بين الحاج احمد باي والجنرال فاليه للمزيد ينظر الملحق رقم: 32 ص 383

2- إبراهيم مياسي: روح الأمير عبد القادر عبر المقاومة الجزائرية، دار هومة، 2012، الجزائر، ص72.

3 - استعملت الإدارة العثمانية في الجزائر سياسة فرق تسد، لضرب أية مصلحة بين القبائل، خاصة منها المتمردة والتي تشكل خطرا كبيرا على التواجد العثماني بالجزائر بما تمثله من قوة بشرية ومادية ليس في إمكان القبيلة العثمانية البعثرة في أنحاء البلاد رده، كما استغل الأتراك القبائل لخدمة مصالحهم والحفاظ على وجودهم وظهر هذا الأسلوب في إثارة الأحقاد والضغائن بين السكان، وتعميق الهوة بين صفوفهم بدفع طرف ضد الآخر ، وعبر احمد باي أحد رموز النظام العثماني في الشرق عن ذلك بقوله: " ... إن الحرب من عادة العرب، و إن الذي يريد أن يحكم ويسيطر عليهم، يتوجب عليه إبقاءها بينهم،

وإثارة المشاحنات والمنافسات بين القبائل المختلفة الأصول والأجناس...". للمزيد ينظر: رفاف شهرزاد: القبيلة خلال العهد العثماني ديناميكية الخضوع والتمرد "نموذج قبائل الغرب الجزائري" في مجلة المعيار، مجلد: 25 عدد: 53 السنة 2021، صص 986-

تمثل الخزان الإستراتيجي لفرنسا وموردها الأساسي من هذه الأصناف الزراعية، ويظهر ان التنظير الزراعي بتحويل المستعمرة الجديدة الى مزرعة للمنتوجات الزراعية لم يكن يستند الى ادلة علمية، بقدر ما تمليه الحاجة الاقتصادية الجامعة في استدراك النقص من هذه المنتجات وارتفاع تكاليفها في الأسواق الأوروبية¹.

أ- الزراعة:

شرعت فرنسا مجموعة من القوانين التي استطاعت بها حشد أكبر مساحة ممكنة من الأراضي بدءا بمرسومين 1844-1846م، هذه القوانين صدرت في مجال الأرض التي صاغتها مختلف الأنظمة التي تعاقبت على الحكم في فرنسا بمختلف مشاربها الفكرية وتوجهاتها المذهبية، وقد استهدفت السكان لتجريدهم من أراضيهم بمختلف الوسائل والأساليب².

- المرحلة الثالثة: وتمتد من عام 1846 إلى 1847م يتم فيها مدن وقرى فلاحية على أراضي الجزائريين وبالفعل تم وضع وتنفيذ قرار 1846م الذي نزع 168000 هكتار من 2000 عائلة جزائرية وبهذا كان بيجو³ يريد تطبيق هذه السياسة بقوة السلاح من دون مراعاة أدنى حقوق الجزائريين.

¹ - بوركنة علي: زراعة التبغ بالجزائر 1843-1930، قراءة في الآليات والنتائج، في مجلة دراسات تاريخية، المجلد 06، العدد 01، السنة 2019، ص 81.

² - عبد الرزاق قشوان: الواقع الاقتصادي والاجتماعي في الشرق الجزائري 1219-1282هـ / 1804-1871م، أطروحة دكتوراه علوم في تاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد المجيد قدور، جامعة الأمير عبد القادر، الجزائر، 2017-2018م، ص 149.

³ - بيجو: ولد في ليموج 15 أكتوبر 1784 توفي بباريس في 10 جوان 1849، لقب بدوق ايسلي، ينتمي الى عائلة ميسورة الحال تمتهن حرفة الحدادة، جند في الجيش في جوان 1804 ثم ارتقى الى رتبة ملازم في خط المشاة في 30 جوان 1808، عين ملازما عاما في 02 اوت 1836، وحاكما لمقاطعة وهران، هذا الأخير الذي ارغم أن يعقد معاهدة التافنة مع الأمير عبد القادر سنة 1837، تم استدعائه لمنحه رتبة مارشال سنة 1840، تعيينه حاكما عاما على الجزائر وقائد أعلى لجيش افريقيا. للمزيد ينظر: بن

وفي 15 جانفي 1840م، صرح بيجو في خطاب ألقاه أمام مجلس النواب قائلا: " في إفريقيا لا يوجد سوى قطاع واحد هو الزراعة، مع ذلك فإنه من الصعب النيل من هذا العصر من أي مكان آخر لأنه لا توجد لا قرية ولا مزارع، ومع ذلك فإنه يزرع ويحصد وتوجد مواشي أيضا..."، وأمام هذا الواقع أفصح بيجو عن السياسة الواجب إتباعها لإخضاع البلاد¹. وذلك بعد نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر ونجد بمقاطعة قسنطينة حوالي 200 حيازة استعمارية بلغ مجموعها 20000 هكتار وبعبارة نسجل منذ 1837م ملكيتين مساحتها أكثر من 1000 هكتار.

أمام سياسة الاستعمار لم يسلم هؤلاء المستوطنون من الأهالي بسهولة، بحيث كان الهجوم على أصحاب الأراضي الشرعيين دورا كبيرا في القضاء على محاولات المستوطنين أو تعطيلها إلى حين، وكانت المقاومة المسلحة التي امتدت من 1832 إلى 1847م، قد شكلت عائقا كبيرا وأحدثت الاضطرابات في المناطق التي تركز فيها المستوطنون، واسهمت في تعطيل نمو الرأسمالية الفرنسية، الأمر الذي جعل الاستيطان في الريف بطيء مقارنة مع الاستيطان الحضري بسبب المقاومة الشديدة التي أبدوها الريفيون في وجه المستعمر، وخلال المدة 1840-1850م نشأ 132 مركزا استيطانيا جديدا منه 45 في عمالة وهران و62 في عمالة الجزائر و24 في عمالة قسنطينة، وكان نصيب الشرق الجزائري أقل عددا من هذه المراكز نظرا لتأخر احتلال فرنسا لقسنطينة، وكان عدم استقرار الأوضاع فيها، وقد تواصلت سياسة نزع الملكية حتى في

اعمارة زوينه ولونيسي إبراهيم: الحاكم العام الفرنسي في الجزائر الجنرال بيجو وأثر سياسته على الجزائر 1841-1847 في مجلة الإحياء، المجلد 22، العدد 30، جانفي 2022، ص 1034.

¹ - نفسه: ص 159-160.

ظل الإمبراطورية الثانية إذ فقد المزارعون 365000 هكتار، رغم زيارة نابليون¹ التي قام بها من أجل الصلح².

كانت هذه الأفكار التي صدرت عن بيجو مرة أو مرتين، بل طوال مراسلاته الرسمية مع الوزير أو مع شخصيات أخرى، كانت سياسة جيدة، ولكن كان يجب عليه أن يعمل على التخفيف من الحساسية والمخاوف التي تسببها المشاكل، فيجب تخفيف من عدم رضا العرب، وذلك باستفادتهم من مزايا الحالة الاجتماعية والزراعة المتقدمة، وجزء من المبالغ المالية التي تم التصويت عليها في الميزانية من أجل الاستعمار كل هذا يجب أن يستغل لبناء قرى للعرب، أو على الأقل مساعدتهم في هذه البناءات، وكذا تنفيذ أعمال ذات منفعة عامة، وقد أكمل بيجو فكرته هذه المقولة: "سنضع في الخط الأول سقي الحقول والبساتين والجسور والطرق والمسالك".

بهذه النظرة فإن بيجو أكد بصفة خاصة على تثبيت العرب، خصوصا في المناطق التي مسها الاستعمار الأوروبي، حيث يمكن تجريدهم من بعض أراضيهم، وهذا ما يؤدي إلى عدم

¹ - شارل لويس انبليون بونبارت : ولد بباريس في 20 أبريل 1808 ثالث أبناء لويس بوانبرت (1778 - 1846) و شقيق نابليون الاول ترعرع بسويسرا اتبع دراسته في أوكس بورغ ثم التحق بالمدرسة العسكرية بتون thoun سويسرا ، أين تخرج برتبة ضابط في المدفعية ، نفي سنة 1836 الى باريس ثم الى الولايات المتحدة ومنها الى إنكلترا بسبب مشاركة النشطة ضد الملكية وفي 25 ماي 1846 فر من منفاه متقمصا شخصية بناء ، عاد الى فرنسا في فبراير 1848 . بعد سقوط النظام الملكي وفي شهر ديسمبر من نفس السنة أنتخب رئيسا للجمهورية الفرنسية الثانية مدة 4سنوات ولما شعر استحالة انتخابه مرة الثانية دبر في ديسمبر 1852 انقلاب ضد الجمهورية ، وأعلن النظام الإمبراطوري مسميا نفسه الإمبراطور نبلليون الثالث تزوج سنة 1853 من إجين دو منتيقو الإسبانية . أطلق سراح الأمير عبد القادر في ديسمبر 1853 . خاض الحرب ضد بوروسيا في معركة سودان في 2 - 1870، أين ألقيا عليه القبض ، توفي سنة 1873 عن عمر يناهز 75 سنة للمزيد ينظر: بوضرساية بوعزة: سياسة نبلليون الثالث نحو الجزائر 1870-1848، في مجلة تاريخ المغرب العربي - مخبر الوحدة المغاربية عبر التاريخ المجلد: 05 العدد: 01- جوان

الاستقرار باستمرارية، فالمزايا التكتيكية للتثبيت جلية تتضح في المقتبس التالي:¹ "فالعشائر التي تتحرك غالبا تصبح مستقرة وتصبح تحت رحمة قواتنا على الأقل وفي أملاكها، ثم أنه بإمكاننا أن نتوقع فقدانها مع مرور الزمن لعداتها غير مستقرة لأنها في حركة متنقلة التي لا تخدم النظام بصفة خاصة، فيجب تحويلهم إلى ملاكين مستقرين وإعطائهم طعاما للحياة المستقرة والزراعات المعنى بها، كما يجب مساعدتهم على البناء بالخشب والحديد مما يربطهم بالأرض، ويعطيهم فيها مصالح دائمة وثابتة تجعلهم أقل استعدادا للانتفاضات".

والإجراءات التي يمكن أن تفعل وتتمحور على مستويين: بالنسبة للعشائر المنتصبة على أراضيها فيجب أن تعطي لها عقود الملكية، ومساعدات لدفعهم إلى البناء، أما بالنسبة للأهالي الذين سلبت منهم أراضيهم، فإن بيجو لرغبته الشديدة في الاستعمار وتثبيت العرب، ذهب إلى حد تثبيتهم على أراضي الدولة نفسها².

كما أن الأراضي التي لم تكن تزرع إما مخصصة لأراضي الرعي أو متروكة للراحة لمدة سنتين أو أكثر حسب النظام التقليدي الذي كان يتبعه الفلاحون، وكانت سياسة فرنسا تبنى على التفرقة

¹ - يميل الكثير من الفرنسيين الذين اهتموا بتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني الى اعتبار المجتمع الجزائري قبل الاستعمار، مجتمعا إقطاعيا، وأشهر هؤلاء "شارل فيرو" الذي ردد هذه العبارة عند تناوله لتاريخ الجزائر، وأشار الى تمتع بعض القادة من الأهالي بسلطات مدنية واسعة كما حاول "لويس رين" في دراسته التي انجزها تحت عنوان: مملكة مدينة الجزائر في عهد الداوي الأخير (Le Royaume D' alger sous le dernier dey) أن يثبت من خلال التركيبة الطبقيّة الإقطاعية في الريف الجزائري، أن قسم من سكان الريف "الرعية" يمارس عليها الاستغلال من طرف عشائر المخزن، وكذلك النبلاء أو الأجواد والمرابطين بحكم الامتيازات المرتبطة بالقيادة التي أدت الى الفوارق الاجتماعية بل ذهب الى ابعاد من ذلك حيث وصف المجتمع الجزائري في تلك الحقبة بعبارة "أكلة ومأكولون" وهو نفس الرأي الذي خلص إليه "غاليسو" في دراسته للمجتمع الجزائري بقوله أن هذا الأخير كان مجتمعا إقطاعيا قبل الاستعمار، وان الارض باعتبارها الدعامة الاساسية للإنتاج، هي بقبضة فئات ارسنقراطية يرتبط أعضاؤها فيما بينهم بروابط شخصية ويشكلون الطبقات العليا للجهاز السياسي، وحسب غاليسو أن هؤلاء الأرسنقراطيون هم القادة المحليين، ورؤساء القبائل و الأجواد، الى جانب ذلك هناك ارسنقراطية ثانوية ممثلة في العائلات ذات النفوذ الديني وصوفي وتحوز الأعباس. للمزيد ينظر: رفاف شهرزاد: المرجع السابق، ص983.

² - عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، ص165.

بين أفراد المجتمع ولقد جاء في رسالة مؤرخة 13 مارس 1834م يقل: "الجنرال فوارول" لأحد الحاقدين على الحاج أحمد باي وهو فرحات بن سعيد يقول: "كن مرتاح البال، فإن الوقت قد حان ليصبح من ساعدنا هو الأقوى في هذه الأرض وليدحر اعداؤه وتتحقق كل رغباته"¹.

إن مرسومي 1844-1846م كانا قد أثارا قلق السكان سواء بالنسبة للقبائل التي لم تكن تملك عقد ملكية، وهي كل قبائل أراضي العرب والتي كانت تترك قطعاً من أراضيها للراحة لمدة معينة، أو بالنسب إلى القبائل التي تركز حياتها على الخصوص لتربية المواشي طالما أن أراضي الرعي أصبحت طبقاً للمراسيم الأنفة الذكر من أراضي "الدومين" وتتمن الأراضي بالزويجة².

الملفت للانتباه في بايلك قسنطينة هو المساحة الهامة للأراضي العزل (الإقطاع) بمعنى أن البايليك يقطع أرضاً من أراضي الدولة لشخص ما وكان هذا في الفترة العثمانية، وبما أن هذه الأعزال كانت تمنح لذوي الامتيازات والموالون لسلطة الباي، فإن هذه الأعزال أبحت تابعة للسلطة الفرنسية، لأن القوانين الفرنسية رصدت ذلك، وإذا عرضنا وضعية الأعزال في الفترة العثمانية في الشرق الجزائري أثناء الفترة العثمانية نجدها ذات نوعين هما:

عزل كراتب أو مكافئة لكبار المحظوظين أو الموظفين الكبار العموميين ، وفي هذا الإطار نجد 10 أعزال مخصصة لأقارب معاوني باي قسنطينة (خمسة منا لخليفة الباي، واثنان لكاتبه الثاني واعزال أخرى يستفيد منها المرابطون مثل شيخ البلد من العائلة المشهورة الفقون) وهذه

1 - لويس رين: تاريخ انتفاضة 1871 في الجزائر، دار الرائد للكتاب ترجمة مسعود حاج مسعود، الجزائر، 2013 ص 231

2 - الزويجة تساوي ما بين 10 و15 هكتار في مساحة أراضي الضيعات مجتمعة تساوي ما لا يتجاوز الثالثة آلاف هكتار وهذه المساحة ضيقة بالمقارنة مع ما هو موجود من أراضي البايليك المستغلة عن نظام الخماسة أو غيرها في بايليك الشرق، لكن ما هو مهم هو تزايد عدد هذه المزارع. للمزيد ينظر: عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، ص167.

الاعزال ليست قابلة للتحويل وكان الاستثناء نادر جدا، غير ان إعفاء آخر البايات،الباي احمد

لبعض المستفيدين من كل ضريبة يوضح وجود تطور نحو الامتلاك الشخصي الأعزال¹.

سعى منها لتنظيم الاقتصاد الكولونيالي قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية بإنشاء مؤسسات جديدة وتتمثل في المشاتل، وذلك للقيام بتجارب على النباتات التي تناسب كل منطقة من جهات الشرق الجزائري، وجهزت هذه المشاتل بتقنيين مختصين ، وتزويد البعض منها بمكتبة متخصصة ، ويعتبر هذا التطور إيجابي في الجزائر عامة والشرق بصفة خاصة رغم أنه يحمل في طياته الطابع الاستيطاني هذه المشاتل شملت مختلف المدن الساحلية ثم انتشرت في الشرق الجزائري حسب طبيعة كل منطقة².

قامت السلطة الفرنسية بإنشاء مجموعة من المشاتل في الشرق الجزائري وذلك لتحقيق زراعة حديثة ذات طابع رأسمالي وليس ذلك بالسهولة كان بإمكان أن تقوم السلطات الاستعمارية أن تقوم بتجارب عن النباتات التي تراها استراتيجية لنظام اقتصادها في الشرق الجزائري الذي تعتبره مكملا لمقتضيات حاجاتها، وأخذت تتشأ في كل مدينة مشتلة تقوم بتجارب فيها عن النباتات التي يكون نموها ومضاعفة مردودها الانتاجي، ولقد اختلفت أنواع الأشجار التي كانت تحضر في هذه المشاتل بين الأشجار التجميلية للمدن والأشجار الخاصة بتثبيت التربة على حواف الطرقات والمسالك، وأشجار أخرى لكسر هب الرياح في البساتين والضيعات الزراعية وأخرى للإنتاج الزراعي، ومن أهم هذه المشاتل نذكر منها:

1 - صالح عباد، الجزائر خلال العهد التركي، 1514-1830 دار هومة الجزائر، 2012، ص 392.

2 - MINISTÈRE DE LA GUERRE. TABLEAU DE LA SITUATION DES ÉTABLISSEMENTS FRANÇAIS DANS L'ALGÉRIE. 1843-1844. PARIS. IMPRIMERIE ROYALE. MAI 1845. P. 274.

- مشتلة قسنطينة:

أنشئت سنة 1842م وتمتد إلى طول 2500 متر، تقع وسط المدينة على شارع باردو ويصل إلى طريق عنابة وتقدر مساحتها بحوالي 20 هكتار وأهم المشاتل التي شرع في إنتاجها في هذه المشتلة هي شجيرات الكرم لإعادة غرسها في الحقول التي تخصص لذلك، أنشئت داخل المشتلة بيت لإيواء المدير المشرف على المشتلة. ولقد أنشأ أيضا مكتبة مخصصة للمشتلة وخصص لها عشرة أفراد يقومون بالأشغال فيها، جربت فيها سنة 1844م حالي 10900 نبتة معظمها جلبت من الخارج وجربت فيها ثلاث أنواع من القطن ومجموعة أنواع من التبغ¹.

إن الزراعة الاستراتيجية للقمح² في الشرق الجزائري لم تظهر بالقوة التي كان ينتظرها الاستعمار الفرنسي، بعد 24 سنة من الاحتلال الفرنسي لعاصمة الإيالة وبعد 18 سنة من الاحتلال الفرنسي لعاصمة الشرق الجزائري قسنطينة، بسبب الأوضاع الأمنية غير مستقرة التي فرضتها المقاومة المسلحة في المنطقة، وهذا أدى إلى ارتفاع قيمة المواد الغذائية في الشرق الجزائري، هذا ليس على الجنود الفرنسيين بل على الجزائريين المقيمين في الشرق الجزائري، فالوضع الاقتصادي في هذه المنطقة كما يصفها أحد الفرنسيين سنة 1842م³.

¹ - IBID.P276

² - تميزت الجزائر منذ القدم باقتصاد قائم على الزراعة بشكل واسع وخاصة زراعة الحبوب إذ شهد الاقتصاد الجزائري قبل الاحتلال نموا ملحوظا لرأس المال التجاري الذي جعل الجزائر تبلغ في هذا المجال ما يسمح لها ان تصبح مصدرا كبيرا للحبوب والصوف والزيت، وبعد الاحتلال بلغت اهداف الرأس مالية الكولونيا لية بعض غايتها الاقتصادية والاجتماعية في تعطيل نظام التعاون والتكامل الإنتاجي في نظام الحياة القبلية، حيث عرفت الجزائر حركة استيطانية كبرى ابتداء من بواخر القرنم 19 م بعد انتهاج الإدارة الاستعمارية أساليب متعددة لمصادرة الأراضي من الجزائريين. للمزيد ينظر: مبخوت سهام، طاعة سعد: مشاكل القطاع الزراعي الجزائري وتحديات الإستعمار 1945-1956 زراعة الحبوب نموذجا، في مجلة حوليات جامعة الجزائر 1، العدد 31، الجزء 04، ص 58.

³ - نفسه، 179.

وحسب ما أورده أحد الفرنسيين خلال احتلال مدينة قسنطينة على الوضع الاقتصادي وخاصة التموين بالقمح: " أن الجنود يعيشون في قسنطينة خلال سنة 1841م بالقمح الفرنسي، هذا القمح يأخذ من سكيكدة بسعر متوسط يقدر بـ 25 فرنك فرنسي للقنطار ونفس الوضع بالنسبة للشعير للخيول تقدر بـ 15 فرنك فرنسي للقنطار، إن استهلاك القمح في قسنطينة يقدر بـ 15000 قنطار أما بالنسبة للشعير فيقدر بـ 15000 قنطار، أما استهلاك سطيف فيقدر بـ 6000 قنطار من القمح و4000 قنطار من الشعير"¹.

إن معظم المناطق غير منتجة للقمح اللين، والسبب في ذلك هو عدم اهتمام الفلاحين بهذا النوع من الإنتاج، وإن المنطقة لم تستقر بعد بسبب المقاومة المسلحة وإن السكان الجزائريون كانوا يهتمون بزراعة القمح الصلب²، لأنه أكثر مردودية وعدم ملائمة المناخ لزراعة القمح اللين، لهذا كان الإنتاج في معظم الجهات منعدم لكن السلطات الفرنسية اهتمت به في المستقبل، لأن القوانين التي تسمح بنقل الملكية ومصادرة الأراضي للقبائل الثائرة، والاستحواذ على الأراضي العزل تدخل حيز التطبيق وتنقلب كفة الإنتاج لصالح الكولون الذين يستأثرون بالأراضي الزراعية³.

¹ - عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، 179.

² - القمح الصلب تختص به مناطق الأطلس التلي والهضاب العليا، فهي تنتج نوعا جيدا من القمح الصلب الذي يعتبر مادة رئيسية للتصدير وتزويد الأسواق الأوروبية منه، ونظرا لأهمية الحبوب لكونها مادة رئيسية للاستهلاك المحلي والتصدير الخارجي، فقد عملت الدولة جاهدة للسيطرة على المساحات المخصصة لزراعة الحبوب والتي كانت تنتشر حول مدينة قسنطينة وجهات غريس وقلعة بين راشد ومستغانم وتلمسان والتيطري وبهذه المساحات من الأراضي المستقلة في زراعة الحبوب كانت تمد الدولة بإنتاج ضخم بعضه يستهلك محليا من طرف الفلاحين وسكان المدن وبعضه يصدر للخارج. للمزيد ينظر: خضير عقبة: النشاط الاقتصادي بالجزائر في العهد العثماني ما بين القرنين 17-19م، في مجلة المعارف التاريخية، العدد 06، ص 236.

³ - نفسه: ص 181.

- إنتاج الشعير:

لقد أشار الضابط الفرنسي بوتان في تقريره سنة 1808م الى الإدارة الفرنسية الى أن مردود الأرض الزراعية من الحبوب التي هي عماد الزراعة في الجزائر خلال العهد العثماني بين 8 و16 قنطار في الهكتار الواحد ، ويظهر أن ملاحظات بوتان كانت ملاحظات عامة ونسبية ولكل منطقة خصوصيتها الزراعية¹.

ويعتبر محصول الشعير من أهم المنتجات الزراعية والذي يحظى بالاهتمام والمتابعة، فيستعمل في الفترة الفرنسية كعلف للحيوانات، وأن منطقة الشرق الجزائري كانت أكبر المجالات الجغرافية للاستثمار في هذا المحصول للاعتبارات الآتية:

- لا يحتاج الشعير الى تربة جيدة الخصوبة.
- يعتبر غذاء للإنسان والماشية.
- مردوده أفضل من مردود القمح
- ولقد أشارت الدراسات أن بعض الحقول تستطيع أن تلبى الحاجيات الغذائية لعدد كبير من السكان، والبعض الآخر يمكنها تصدير حبوبها الى الأسواق الاوربية².

إن الملاحظ من إنتاج الشعير شمل كل المناطق الجغرافية للشرق الجزائري، وذلك لملائمة المناخ لإنتاجه، إن ذلك أدى إلى المحافظة على الغذاء في الشرق الجزائري، وأصبح من الاستهلاك العام للأهالي، ولقد اهتمت السلطة الاستعمارية على تنميته وتطويره وأصبح يدخل في صناعة المشروبات الكحولية، فهذا التطور فسح المجال إلى إنتاج مضاف، لكن حتى بدايات الخمسينيات

1 - بلبروات بن عتو: المدينة والريف المرجع السابق، ص 309.

2- نفسه.

سنة لم يبلغ أشد الإنتاج نظرا لعدم استقرار الأوضاع الأمنية بسبب استمرار المقاومة الوطنية، وإن مواقع إنتاجه تكون في الأرياف التي لا تحتاج إلى كمية كبيرة من الأمطار والتربة أقل خصوبة وهذه المناطق لم تكن قد استقرت بعد في هذه المناطق وإن معظم الإنتاج ما يزال بالطرق التقليدية التي يمارسها السكان الأهالي، لكن هذه الكمية سوف تتضاعف في السنوات المقبلة بتدخل الكولون في زراعته ودخل الوسائل الحديثة¹.

- إنتاج التبغ:

يعتبر التبغ من بين أهم البضائع التجارية ذات القيمة الاقتصادية الكبيرة، وعرفت تجارته تطورا كبير منذ مطلع القرن 19م، على أن العوامل السياسية التي عرفت أوروبا عموما وفرنسا بالخصوص، أثر على موارد الأسواق وقلص من نشاط الشركات العاملة في القطاع إلى الثلث، في ظرف عقد واحد من الزمن، مما بات يهدد هذه الصناعة في فرنسا وينهي بريقها، لذا عملت الحكومة على البحث عن مورد يعوضها فقدان مصادرها في جزر المحيط الهادي وبتكاليف منخفضة وبهذا وجدت البديل في الجزائر.

ونظرا لتسهيلات الحكومية ارتفع إنتاج هذا المحصول الزراعي سنة 1843 إلى 3000 قنطار، وانتشرت زراعته في عدة مناطق في الجزائر ومن بينها بابلك قسنطينة وبعض مناطق الجنوب كالزيبان ومنطقة سوف².

شهدت المنطقة الجنوبية لبابلك قسنطينة زراعة التبغ³ والتي كان لها مردود معتبر واستمرت

المنطقة في إنتاجه طيلة العهد الفرنسي وحت بعد استقلال البلاد، ويأتي في الدرجة الأولى من

¹ - عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، ص 184.

² - بوركنة علي: المرجع السابق، ص 82.

حيث الاستهلاك فهو موجه للاستهلاك المحلي داخل الأسواق بين مختلف مناطق البلاد الجزائرية.

إن تنامي الطلب على التبغ في السوق الفرنسية الملازم للتنافس الاقتصادي الأوربي عزز من هذه التوجهات الزراعية من خلال ارتفاع تكاليف وانقضاء آليات التبغ ومشتقاتها من موطنها الأصلي، مما جعل السلطة الاستعمارية تبحث على إيجاد بيئة زراعية توافق التوجهات الاقتصادية، رافقها في ذلك تنظيم زراعي ساهم في توسيع مساحات التبغ بشكل متواصل قصد سد الطلب الفرنسي المتزايد¹.

إن بايلك الشرق الجزائري يحتل المراتب الأولى في إنتاج الزيتون وإنتاج الزيت، وهذا حسب إحصائيات الموسم 1853-1854م، وغرسة هذه الأشجار توجد في مناطق عديدة من الشرق الجزائري، وعمليات الغرس نجحت في الكثير من المناطق التي تمت فيها وبكل سهولة، وبالنسبة لإنتاج الزيت أنشئت عدة مصانع رغم المصانع المتواجدة في المناطق المنتجة لهذا المحصول، وهي تعمل بالموازاة مع المعاصر المتواجدة من قبل، ولقد أحصيت عدد المعاصر في سنة 1854م بـ 24 معصرة، وزعت في جميع أنحاء المنطقة التي تحتاج هذا النوع من المصانع، والجميع تابعة للمستثمرين الأوروبيين، وهذا العدد لإنتاج زيت أكثر جودة².

³ - بدأ إهتمام الفرنسيون بزراعة التبغ منذ سنة 1844م باعتبار أن المناخ ملائم لهذه الزراعة، رغم أن زراعتها وبيعها كانت بشكل حر إذ يكلف الهكتار الواحد ما بين 600 الى 800 فرنك لإنتاج 1500 كلغ أوراق جافة من التبغ، وبلغت مساحة زراعته في بايلك قسنطينة 1000 هكتار وهذا ما يدل على إهتمام الكولون بالزراعات النقدية الموجهة للتجارة الخارجية والربحية رغم العوائق المناخية في الكثير من الأحيان التي تواجه هذه الزراعة. للمزيد ينظر: مراد سعودي والياس نايت قاسي: نماذج من الزراعات الكولونيلية في الجزائر 1830-1918. في مجلة الباحث، المجلد 14، عدد خاص، سنة 2022، ص ص 21-22.

¹ - بوركنة علي: المرجع السابق، ص 94.

² - نفسه: ص 187.

إلى جانب إنتاج زيت الزيتون ظهرت نباتات أخرى منتجة للزيت في مناطق عديدة من الشرق الجزائري، مثل الفول السوداني الذي يحتل المرتبة الأولى من المساحة المستغلة من طرف الأوروبيين، وهي تحمل فوائد كبيرة من حيث الإنتاج الكبير أو من حيث نوعية الزيوت المستخلصة منه¹.

- إنتاج التمور:

اشتهرت مناطق الجنوب القسنطيني بإنتاج كميات معتبرة من مختلف أنواع التمور²، وهذا نظرا لتوفر المناخ الملائم لغراسة النخيل بالإضافة الى وجود الثروة المائية القريبة من السطح، ويعد إنتاج التمور في مقدمة المحاصيل الزراعية التي تنتجها قبائل جنوب بايلك قسنطينة، وبعد احتلال البلاد حاولت إدارة الاحتلال الفرنسي السيطرة وضبط مجال إنتاج التمور وتسويقه الى فرنسا، وقد انعكس هذا السلوك على الفلاحين واجبارهم على دفع مبالغ مالية طائلة في شكل ضرائب لصالح إدارة الاستعمار ولعل من أبرز أسباب ثورة الزعاطشة بالزيبان تعود الى هذا العامل. وكذلك إنتاج بعض المحاصيل الزراعية الأخرى مثل الفول السوداني والكروم³.

¹ - نفسه، ص 189.

² - تعد التمور احدى المنتجات الرئيسية للزراعة الصحراوية، وأهم مناطق انتاجها في الجنوب القسنطيني هي: وادي ريغ، الزيبان، سوف، تنتج الجزائر أنواع كثيرة وأهمها "دقلة نور" ذات جودة عالية مطلوبة في السوق الأوروبية إضافة الى أنواع أخرى ، وحسب المجلة الإفريقية فان تعداد النخيل في وادي سوف بلغ أواخر القرن التاسع عشر حوالي: 217.909 من النخيل، ولم يساهم الكولون في زراعته لعد خبرتهم ، والاكتفاء فقط بشرائه وبتسويقه الى السوق الفرنسية. للمزيد ينظر: مراد سعودي والياس نايت قاسي: المرجع السابق، ص ص 25-26.

³ - لقد وجه المعمرون ضربة قاسية مازالت بصماتها واضحة المعالم على فلاحتنا وتتمثل في تخصيص حوالي نصف مليون هكتار من أحسن الأراضي لغراسة الكروم المنتجة لعنب الخمر، مع العلم أن الجزائريون مسلمون ولا يستهلكون المشروبات الكحولية، مما أدى للقضاء على زراعة الأرز في معسكر - تذكر المصادر التاريخية أن أرز معسكر كان من أجود أنواع الأرز في العالم - حتى يفسح المجال لتوسيع مساحات الكروم، وكذلك الأمر في شمال شرق للجزائر حيث أهملت زراعة القمح وسائر أنواع الحبوب الغذائية لفائدة الكروم أيضا ،وإذ كانت مغارس الكروم قد أنشئت على حساب زراعة الحبوب، فإن إقتصار المعمرين على

لقد أثر تدخل سلطات الاحتلال الفرنسي على الحياة الزراعية للسكان، نتيجة للحاجة الملحة والتي فرضتها المرحلة بالنسبة للاقتصاد الفرنسي مما جعل الإدارة الإستعمارية تفرض راقبتها وسلطتها على مناطق إنتاج التمور في مناطق الجنوب القسنطيني وهذا ما أجبر السكان على الرفض أحيانا تجسد في شكل انتفاضات وتمردات شهدتها البلاد خلال القرن التاسع عشر.

ارتبط الإنتاج الزراعي في الشرق الجزائري بالتوسع الفرنسي بالمنطقة، فلم يشهد تطورا كبيرا في الفترة الأولى للاحتلال إلا في المناطق التي تقع في الشمال القسنطيني، نظرا للظروف السياسية التي شهدها الشرق الجزائري، فالمناطق الساحلية هي الأكثر تسعا خاصة السهول والمناطق التي كانت تحت سلطة البايليك في الفترة العثمانية¹.

بعد سقوط قسنطينة عاصمة بايلك الشرق، عرفت المنطقة بروز العديد من التجارب الاستعمارية في الحقل الزراعي منها المستعمرات الزراعية منها المستعمرة الزراعية جومبييز JEMMAPUES والتي تأسست سنة 1848م، وكذلك مستعمرة فالي، والتي خصصت لزراعة القمح والتبغ والفواكه

استغلال المساحات التي وجدوها عند الغزو، وعدم التفاتهم نحو الجنوب حيث تتكاثر المياه الجوفية وبسبب ارتفاع تعداد السكان وتزايد الحاجيات تحولت الجزائر من بلد مصدر للحبوب الى بلد يمد يده ليحصل على قوت أبنائه. وقد توسعت مع مرور الوقت زراعة الكروم التي حققت إنتاجا غزيرا لملائمة المناخ ووفرة المياه، ووفرت فرنسا غالفا ماليا معتبرا ارتبط بوادرها من منتوج الخمر الاوربي وتحولت نطاقات إنتاج القمح في متيجة، وهران وعنابة الى زراعة التبغ والكروم على وجه الخصوص، ونتيجة لتوسع النشاط الزراعي ازدادت حركة مصادرة الاراضي وتحويلها الى المستوطنين وقد تحصلت شركة جنيف على مساحات هامة من الأراضي المحيطة بمدينة سطيف باقليم الشرق الجزائري فاقت مساحتها 20 ألف هكتار وفيها أنجزت الشركة ذاهتا 11 قرية استيطانية عمرها مهاجرون سويسريون قدموا الى سطيف، والعلمة وعين أرناط. للمزيد ينظر: محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1984، ص41. وعباد صالح:، المعمرون والسياسة في الجزائر 1870-1900، د، م، ج، الجزائر ص ص 23. 24. والغربي الغالي: العدوان الفرنسي على الجزائر، دار هومة، الجزائر. دت ص 202.

¹ - عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، ص 191.

وخصص لها ميزانية قدرة ب4000 فرنك فرنسي ويتم توجيه المحاصيل الى فرنسا ومناطق استقرار الكولون¹.

يمثل الاهتمام بالقطاع بالزراعة ضرورة للرأسمالية الفرنسية، لأنها وجدت في الجزائر مناخا ملائما لتنمية استثماراتها، ولإشارة فقد كانت مرحلة القرن التاسع عشر ولا سيما النصف الثاني منه مرحلة مرور الرأس مالية الأوروبية عموما والفرنسية خصوصا بطور تميز بتراكم رؤوس الأموال وأصبحت الاستثمارات ذات فائدة ضعيفة، وهو ما دفع الى توظيف الأموال في المستعمرات ومنها الجزائر وهو ما يفسر بروز الزراعات بشكل كبير خاصة الكروم، والتي أصبحت مصدر ربح كبير للمستثمرين الرأس ماليين سواء أفراد أو مؤسسات مالية.²

ب- الثروة الحيوانية:

كان اهتمام الإدارة الاستعمارية واضح لهذا المورد من خلال تكليف المكتب العربي بإفادته بتقارير مفصلة عن أهم احصائيات هذه الأخيرة، بغرض النظر بكيفية استغلالها، الاستفادة وكيفية توزيعها، بإظهار المستوطن فرد فاعل بممتلكاته الجديدة والتي كانت على حساب الأهالي³ عن طريق عمليه المصادرة الجائرة وسنوضح بعض الأرقام الخاصة بتقديرات الثروة الحيوانية في أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينات من القرن التاسع عشر:

ماشية	ثور	بقر	الغنم	الخيول	البغال	الحمير	الماعز
5.461	4.348	1.113	7.160	900	530	393	2.608

1 - وابل بخته: المرجع السابق، ص ص 119-120

2 - رضوان شافو عمر لمقدم: ملامح حول التجارة الخارجية للجزائر خلال الفترة الاستعمارية من القرن 19، في مجلة المعارف، العدد 07، ص 298.

3 - نفسه، ص 138

من خلال أرقام الجدول يتضح لنا اهتمام الإدارة الاستعمارية بالثروة الحيوانية¹ منذ احتلال البلاد حيث أنها ملكت الكولون عن طريق مصادرات هذه الثروة من الجزائريين عن طريق ترسانة ضخمة من القوانين الجائرة، كما أنها اهتمت بدعم الكولون عن طريق تثبيتهم ومنحهم القروض لاستثمار في هذه الثروة وقد لوحظ التركيز على الماشية بصورة خاصة وقد عكفت إدارة الاحتلال على تسويق المنتج خارج المستعمرة الى فرنسا وباقي أوروبا².

نظرا للممارسة سكان البوادي حرفة الرعي على نطاق واسع تعتبر قطعانهم المصدر الأساسي للثروة، ولأن خصائص البلد الطبيعية حيث يتوفر فيه العشب، تسمح بتغذية الحيوانات، فإننا نجد هنا جميع أنواع الدواجن بكثرة، بما في ذلك الفرس، الثور، الجمل، الحمار، البغل، الغنم، المعاز والخيول العربية، تتمتع بشهرة عالمية³.

الناج لوضعية الثروة الحيوانية لبايلك للشرق الجزائري وقبائله المجاورة⁴ التي أحصيت سنة 1844م، والتي أعطت 354644 ثورا وبقرة، و2270131 من الغنم و291451 من الماعز و92194 من الأحصنة، و75253 من البغال و270087 من الإبل، تمثل هذه الثروة

1 - تعداد الثروة الحيوانية حسب التقارير الفرنسية سنة 1845 ينظر الملحق رقم: 25

2 - نفسه.

3 - وليام شالر: المصدر السابق، ص33.

4 - كانت الحيوانات مصدر العيش الرئيسي في الجهات السهبية كمنطقة النمامشة التي كانت تعتمد أساسا على تربية الأغنام والجمال ، وتتنقل معها عبر مجال رعوي قدرت مساحته بمليون هكتار تكفي لتربية ما يمتلكه السكان هناك من حيوانات وهي: 32000 خروف، و1000 عنزة، و1000 بقرة، و2000 بغل، و700 حصان وعدد ضخم من الجمال. ونجد ان بايلك الشرق الجزائري يتميز بثالث سلالات يختص بها هذا الإقليم دون غيره من باقي المناطق ولكل نوع خصائص ومميزاته:

- السلالة العربية الملقبة (أولاد جلال) وتعتبر من أكثر السلالات أهمية ، ويقال انها تعود الى القبائل العربية الذين جلبوها معهم أثناء الغزو الهلالي، وسلالة الخروف البربري ذو الصوف الأعم تعيش في جبال الأطلس التلي وفي المرتفعات الشمالية، توجد في سوق أهراس وجبل والإيدوغ، وسلالة البربرين وتتركز في وادي سوف والحدود التونسية، تتحمل هذه السلالة مناخ الصحراء والكثبان الرملية ودرجة الحرارة المرتفعة. للمزيد ينظر: ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ،-الجزائر في العهد العثماني، ج4، ص ص 60-61. والعربي اسمهان: الحياة الاقتصادية في بايلك الشرق في العهد العثماني(1713-1792)، ص ص184-185.

3353780 رأس، إن الخسائر التي شهدتها الشرق الجزائري من الثورة الحيوانية، بسبب المقاومة والأعمال الفرنسية جعلها تفقد الكثير من رؤوس الماشية والحيوانات. الجزائر غنية بثروتها الحيوانية وأكبر نسبة تستأثر بها قبائل الشرق الجزائري، فالجيش الفرنسي لاحظ ذلك أن تناقص هذه الثروة الحيوانية يضر بتواجدهم في المنطقة، بسبب تزايد نفقاتهم على الجيش الذي يقوم بعملية الاحتلال وأرهقته عن توسعته المقاومة الوطنية المستمرة، لكن هذه الثروة الحيوانية واجهت الكثير من الانخفاض، بسبب الحروب التي كانت تقوم بها القوة العسكرية الفرنسية، وكثير من الأحيان كانت تجرد القبائل من مواشيهم وحيواناتهم بسبب المشاركة في المقاومة، ثم تقوم بتوزيعها على الكولون لاستعمالها في عملية الزراعة¹.

وقد شجعت الحكومة العامة توسيع مثل هذه التجارب الزراعية بداية ببناء العديد من المشتلات منها حديقة التجارب ببسكرة والتي انطلقت بتاريخ 26 ديسمبر 1851م من قبل السيد بولونوي POLONUI السكرتير العام للحكومة الفرنسية في الجزائر².

عموما نقول إن الإنتاج الحيواني الذي كان تشتهر به قبائل الجنوب القسنطيني، ورغم الغناء بهذه الثروة، إلا أنها شهدت تراجعا نظرا للظروف الطبيعية التي شهدتها المنطقة من تقلبات مناخية كالجفاف وارتفاع درجات الحرارة وقلة اليد العاملة المؤهلة لهذا القطاع، وكذلك الظروف السياسية من حروب مستمرة بين القبائل وبين القبائل والسلطة الاستعمارية أدى الى عدم استقرار الرعاة، خاصة بدايات الاحتلال لبايك قسنطينة.

سعت السلطات الاستعمارية إلى تسخير ثروات الجزائر لخدمة اقتصاد المتروبول، من خلال سياسة التدعيم الرأسمالي للكولون للاستثمار في الجانب الحيواني من القطاع الزراعي الذي عمل

¹ - عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، ص 191.

² - نفسه، ص 122.

على تطوير تعداده ومنتجاته قصد توجيهه نحو السوق الفرنسية عن التجارة الخارجية، التي تحكمت فرنسا فب إيراداتها وصادراتها في الجزائر، وقضت على المنافسة الأجنبية تنافسها في خيارات المستعمرة، وهذا الذي يؤكد النظرة الاستغلالية والاستعمارية للجزائر، وقد غلبت في بنية الصادرات الجزائرية نحو فرنسا المنتجات الزراعية ذات الأصل الحيواني مقارنة ببنية الواردات، التي طغت عليها المنتجات المصنعة، وبالتالي تتأكد فكرة حرص الإدارة الاستعمارية على عدم تطوير القطاع الصناعي في الجزائر، والتركيز على القطاع الزراعي في خدمة مصالح الفئمة المستوطنة، وخدمة اقتصاد البلد الأم¹.

امتلكت الجزائر حضيرة حيوانية متنوعة، عمل الكولون على رفع المردود الاقتصادي لها وثم تصديرها الى أوروبا هذا ما حقق لهم أرباحا ضخمة نتيجة للاستنزاف المنتجات الحيوانية وارتفاع أسعارها² في المستعمرة الجزائرية وجعلوها تابعة لها ومكملة لاقتصادها³.

وقد كان لهذه السياسية عميق الأثر على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للفلاحين الجزائريون وعامة سكان البلاد من تدني المستوى المعيشي والصحي وانتشار الفقر بين مختلف مناطق البلاد.

ج- التجارة والصناعة:

خلال الاحتلال الفرنسي للبلاد قامت سلطات الاحتلال بإجراءات أكثر مراقبة وصرامة وضبط الرسوم والاشراف وتخصيص أيام فتح الأسواق⁴، وأصبح عدد سكانها يقدر بـ 300 أوروبي و 900

¹ - حورية عباس: الإنتاج الحيواني في الجزائر المستعمرة ومساهمته في التجارة الخارجية مع فرنسا خلال الفترة 1870-1914، في المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 06، لعدد 01، 2022، ص ص 939-940

² - حول أسعار الثروة الحيوانية في الجنوب القسنطيني عشية الاحتلال الفرنسي ينظر الملحق رقم: 26

³ - حورية عباس: المرجع السابق ، ص 940.

⁴ - نفسه، ص 224.

من الأهالي، أما عن الصناعة المحلية فتركزت على استغلال الغابات¹ الغنية بغابات الفلين في الجبال المحيطة، خدمة الأرض وبعض النشاطات التجارية مثل الزيت والجلود التي كانت من قبل في كل يوم جمعة من طرف القبائل، وفي الأخير تظهر لصناعة مصبرات السردين وبعض الأسماك الطازجة، للسيد شوفان².

إن انخفاض أسعار المنتجات والمواد المصدرة من الجزائر والتي هي في الغالب مواد أولية أو منتجات زراعية، في المقابل ارتفاع أسعار المنتجات المستوردة والتي تسود فيها المنتجات المصنعة، وعلى اعتبار ان فرنسا تستحوذ على معظم المبادلات التجارية للجزائر، تتأكد هنا النظرة الاستعمارية الرأسمالية التي ميزت الإدارة الفرنسية اتجاه الجزائر مستعمرتها المتوسطة الهامة التي جعلت منها مجالا حيويا لصالح الاقتصاد والصناعة الفرنسية، حيث شهد القرن التاسع عشر لاسيما النصف الثاني منه تطورا حتمية تصدير رأس المال الى المستعمرات، اذ وصلت الرأس مالية الى درجة التشبع ولم يعد الاستثمار يجلب فائدة في البلدان الأصلية وهو ما

¹ - بالرجوع الى الخرائط التي أنجزت في العهد الاستعماري من طرف "شوارزليه Schwaezlié" عن توزع الغابات الجزائرية من سنة 1847، ان الغطاء الغابي في الجزائر كان متوزع أغلبه في الجهة الغربية كما نجد في الجهة الشرقية من الجزائر مجموعة معتبرة من الغابات مثل غابات الأوراس، كما نلاحظ أيضا ان كل الغابات تقع في الجهة الشمالية من الجزائر على اعتبار ان الجهة الجنوبية من الجزائر عبارة عن صحراء شاسعة وتتنوع تغطية هذه الغابات بين حوالي 50% لمنطقة القبائل، 2% للجنوب، أما 48% الباقية فتتوزع بين وسط وشرق الجزائر. وتتألف غابات الجزائر من الآتي:

- الغابات الطبيعية بمساحة إجمالية تقدر 1329400 هكتار.
- غابات تمت عملية تشجيرها بمساحة تقدر ب972800 هكتار.
- المروج والمناطق المعشوشبة بمساحة تقدر: 2800 هكتار. ونجد من الانواع الرئيسية للأشجار التي تتألف منها هذه الغابات هي:
- 50 % تتكون من الأشجار الصنوبرية، ممثلة أساسا من الصنوبر الحلبي، أشجار العرعر والأرز.
- 50% تتكون من أشجار بلوط الفلين liège-chêne والبلوط الأخضر verte-chêne والبلوط زين chène zeen. للمزيد ينظر: سراج عاطف وشلاي عبد الوهاب : الاستغلال الاستعماري للغابات الجزائرية وانعكاساته على سكان الأرياف، في مجلة الرسالة للدراسات و البحوث الإنسانية، المجلد 02، العدد 09، 2018، ص 199.

² - نفسه: ص172.

شكل دافعا للبحث عن المستعمرات للاستثمار وتصريف المنتجات المصنعة وجلب المواد الضرورية للصناعات وهي الظروف التي أدت الى تنافس كبير بين القوى الاستعمارية الأوروبية¹. قدمت الغابات الجزائرية أرباحا هائلة للاستعمار الفرنسي واقتصاده الذي بدأ في استغلالها منذ سنة 1830م، غير أن الاحتلال الكلي للبلاد واحكام السيطرة عليها وضعف شوكة المقاومة في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر أدى الى اطمئنان الفرنسيين على وجودهم الاستعماري ومن ثم الشروع في استغلال أقصى ما تتيح لهم أرض الجزائر من ثروات. وقد توزع هذا الاستغلال على فئتين أساسيتين هما: الإدارة الاستعمارية والمعمرون الذين حضوا بامتياز استغلال مناطق غابية محددة، أما بالنسبة للإدارة الاستعمارية فنجد أنها وضعت برنامجا ضخما للاستغلال الخشب، و رصدت نفقات كبيرة، واتبعتها بقوانين تهدف الى خدمة وازدهار هذه الصناعة.

أما القبائل الجزائرية المجاورة للغابات فقد أتيح لبعضها إمكانية الرعي حيث يعطى لهم حق الاستغلال كتعويض في حالة تحويلهم من مواقعهم الأصلية التي كانوا مستقرين بها².

كما أن ضعف الصادرات الجزائرية يعود الى كون مصدرها الرئيسي لايزال القطاع الاقتصادي التقليدي الجزائري المعاشي بالأساس والمنهك بفعل الحروب وهجرة السكان بسبب السياسات الاستعمارية المجحفة، فضلا عن وجود رسوم جمركية كانت تفرض على السلع الجزائرية المصدرة الى فرنسا قبل 1851م، بالإضافة الى كون المناطق التي وصلها النفوذ الفرنسي كانت محدودة في هذه المرحلة وهو ما أدى الى قلة التعامل مع الفرنسيين تجاريا، كما لا يمكن اغفال عامل ضعف

¹ - رضوان شافو عمر لمقدم: المرجع السابق، ص 301.

² - سراج عاطف وشلاي عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 200-201.

شبكة الموصلات في الجزائر والذي أثر بشكل بالغ في اضعاف صادرات الجزائر، حيث ان السكة الحديدية مثلا لم يبدأ برنامج إنشائها إلا في سنة 1857م¹.

ومما أضعف النشاط التجاري الخارجي للجزائري في بدايات الاحتلال الفرنسي يمكننا حصره في النقاط الآتية:

- لتعزيز هذه السياسة أنشأت إدارة الاحتلال خط السكة الحديدية لنقل البضائع من المناطق الداخلية لبابيك قسنطينة نحو ميناء عنابة وهو الأقرب لأسواق البابيك لنقل منتجاتها لفرنسا.
- ربط التجارة الخارجية للجزائر بالاقتصاد الفرنسي.
- ربط العمليات التجارية البيع والشراء بالعملة الفرنسية مما أسهم لرفع قيمة الميزان التجاري لفرنسا.
- كان الجزائريون محرومين من القروض التي كانت تعطى بسخاء كبير للتجار والصناع والفلاحين الأوربيين الذين سيطروا على التجارة الداخلية والخارجية معا، وكونوا شبكات متداخلة مسيطرة على كل المرافق الاقتصادية في البلاد حتى أصبحت الجزائر سوقا رئيسة للتجارة الفرنسية مع جلب المواد الخام التي تحتاجها الصناعة الفرنسية وبأثمان زهيدة.
- إنشاء السكة خلق نوعا جديدا من التنقل فحل الاعتماد على وسائل النقل الميكانيكية محل الاعتماد على الجمال والبغال فبدأت بعض المهن المرتبطة بوسائل النقل التقليدية في الانقراض².

¹ - عبد اللطيف بن أشنهو: تكون التخلف في الجزائر محاولة لدراسة حدود التنمية الرأسمالية في الجزائر بين عامي 1830-

1962 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 105.

² - بوذراع ايمان: حركة التجارة في ميناء بونة خلال الفترة الاستعمارية للجزائر (1830-1914)، في مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 07، العدد 01، 2021، ص 465

وعليه فان حجم الاستيراد فاق حجم التصدير، ويعزى ذلك الى بداية ظهور سكة الحديد من جهة وتطوير الموانئ والتركيز على الصناعات الاستخراجية وظهور الشركات الاستثمارية بتشجيع من الإدارة الاستعمارية وتنظيم النظام البنكي والمالي¹.

كانت التجارة في الجزائر بداية الاحتلال الفرنسي محتكرة من قبل اليهود الذين كان لهم دور كبير في رواج المنتجات الأوروبية ولقد ظهر اختلاف حول ما إذا كانت الجزائر استفادت تجاريا من الاحتلال الفرنسي لها أما لا، من هذه الزاوية يرى أبو القاسم سعد الله على انه ليس هناك ما يدل على ان الجزائر استفادت تجاريا من الاحتلال، فقد كانت تجارتها الداخلية نشيطة قبل الاحتلال ولها طرقها الخاصة من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب، غير ان السلطات الفرنسية كانت حريصة على تأمين الأسواق الموجودة، وفتح أخرى جديدة، وكان التحكم في الأسواق يتم بمراقبة البضائع الداخلة والخارجة، وتنظيم المكوس وعد الاحمال ومعرفة البضائع المحلية والمجلوبة من مناطق أخرى او من بلدان أخرى، والسهر على الأمور الممنوعة كالأسلحة ولوازمها ومراقبة الغرباء، وإذا ارادت السلطات تشجيع بعض الأسواق فغنها كانت ترفع عنها المكوس بعض الوقت، وتبعا للأمن كانت السلطات الاستثمارية تفتح أسواقا في أماكن جديدة وتلغي القديمة، وأبرز ما كان الناس يتاجرون فيه المواد الاستهلاكية كالحبوب والزيت والماشية².

د - الضرائب:

أبقت السلطة الفرنسية على الضرائب المعهودة في العهد العثماني واضيفت لها ضرائب اضافية منها تغريم القبائل الثائرة الرسوم على الأسواق أصبحت أكثر تقنين وصرامة وانتزعت

1 - نفسه.

2 - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائري، المرجع السابق، صص 70-71.

شيئا فشيئا الموكلين على الضرائب وجعلتهم اجزاء وموظفين تحت السلطة الحاكمة، وقد شهدت عمليات الاستيطان التوسع السريع انتشرت على منوالها المستوطنات الفلاحية وأنشئت لذلك مراكز للتجارب الفلاحية في كل المدن لغرض تجسيد الزراعة الحديثة، والتي أصبح الشرق الجزائري مسرحا لظهور المدن الحديثة والمزارع الاستيطانية للمهاجرين¹.

أرهقت سلطات الاحتلال كاهل الأهالي بضرائب متنوعة، ولا شك أن هذا الإرهاق كان مقصودا لتجريد الجزائريين من ثرواتهم وحرمانهم من وسائل المقاومة واجبارهم على الاستسلام والخضوع². وخلال هذه المرحلة قسمت الضرائب الى قسمين رئيسيين وهما:

أ- الضرائب العربية³:

عند احتلال البلاد فرض الاستعمار الفرنسي مجموعة متنوعة من الضرائب على الأهالي وقتنت لأول مرة بموجب مرسوم ملكي في 17 جانفي 1845م، وبدورها قسمت الضرائب العربية الى:

- **العشور:** كانت ضريبة العشر في سلم الهيكل الضريبي بشكل أساسي من عشر المنتجات الزراعية، وإذا كانت العشور يتم احتسابها باقتطاع عشر الإنتاج، فإن هذه الطريقة لم يعد يعمل بها في العهد العثماني وتم تغييرها واستبدلت بطريقة أخرى تعتمد على أساس الجابدة أو

¹ - عبد القادر قشوان: المرجع السابق، ص 225.

² - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص 77.

³ - للمزيد حول الضرائب العربية في البايلك في الفترة 1844-1845 ينظر الملحق رقم 27-30

⁴ - توفيق دحماني: الضرائب في الجزائر 1792-1865 دراسة مقارنة، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2008،

الزويجة، وهي وحدة متقلبة بحسب طبيعة الأرض وتقدر ما بين 12 و14 هكتار في السهول الخصبة وبين 08 و10 هكتار في المناطق الوعرة¹.

- **الحكور:** ضريبة خصت بها بايلك الشرق قسنطينة، وعرفت منذ العهد العثماني كإيجار على أراضي العزل وأراضي البايك وذلك منذ عهد صالح باي². أي أنها كانت تمثل إيجارا يدفعه الفلاحون في المزارع المقتطعة من الأهالي أصحاب الأرض³. وتم توسيع هذا النوع من الضرائب لتشمل إضافة الى أراضي العزل أراضي العرش والقبائل، ولم تكن هذه الضريبة تجبى إلا في بايلك قسنطينة والظاهر أنها كانت تكملة لضريبة العشور، وقد حددت تعريفها بـ20 فرنكا للجابدة عندما يتم اقتطاع العشور بـ25 فرنكا، و10 فرنكات عندما يكون العشور أقل من 25 فرنكا.⁴ لإضافة الى كونه ضريبة عقارية ثانية الى جانب العشور فقد تواصل دفعه عندما يصرح بتحول أراضي العزل الى ملك، إثر تنازل أو هبة من طرف الدولة⁵.

- **الزكاة:** تم فرض هذا النوع من الضرائب على الجمال والأبقار والماعز والاعنام⁶ وأطلق عليها كذلك بـضريبة النصاب او التحديد وكانت تقطع على النحو الآتي: شاة عن خمسة جمال، والأبقار 30/1، وبالنسبة للأغنام والماعز 40/1، واحتفظت بشكلها الى غاية بداية ستينيات القرن التاسع عشر، حيث تم ضبطها بتحديد زكاة الجمال بـ 4 فرنكات لكل رأس، و3 فرنكات لكل رأس بقر و0.15 فرنك لكل رأس غنم و0.20 فرنك لكل رأس ماعز⁷.

1 - نفسه، ص165.

2 - نفسه، ص351..

3 - شارل روبير أجرون: الجزائريون السامون وفرنسا، المرجع السابق، 464.

4 - توفيق دحماني: المرجع السابق، ص351.

5 - شارل روبير أجرون: المرجع السابق، ص464.

6 - نفسه، ص466.

7 - توفيق دحماني: المرجع السابق، ص353.

عرف هذا النوع من الضرائب في بايلك الشرق وقد اعتمدها الحاج احمد باي أثناء إدارته للبياك، وكانت تحسب وفق عدد المحاريث المسخرة للزراعة، وكانت هذه الضريبة كأهم ضريبة فرضتها سلطات الاحتلال على الجزائريين، اما عملية تحصيلها فتتم بصورة مختلفة في مقاطعتي الجزائر ووهران من جهة وفي مقاطعة قسنطينة من جهة آخر¹.

- **ضريبة العسة:** فرض هذا النوع من الضرائب على القبائل الصحراوية والرحل أصحاب الأنعام والتي كانت تبحث عن الكلاء لمواشيها نحو المناطق الشمالية من البلاد، وألغيت هذه الضريبة سنة 1858م.

- **حق البرنوس:** تدفع هذه الضرائب كحقوق لتولية المناصب وتعتبر بمثابة هبة او صدقة، وقد كان يقدمها الأهالي لمحصلي الضرائب كتغطية مصاريف لعملية تقدير الضرائب العربية وجباية مختلف أنواعها².

- **مكس الأسواق:** نوع آخر كانت تفرضه سلطات الاحتلال على الأهالي القادمين للأسواق لبيع منتجاتهم المختلفة.

- **السخرة:** تفرض على الرجال البالغين السن 18 و55 سنة تقتضي أن يقدم كل فرد في هذا العمر واجبا خاصا في كل بلدة بإصلاح الطرق ومدتها ثلاثة أيام وبإمكان الفرد أن يعوض هذا الواجب مقابل أموال يدفعها ، ويعرف اليوم في مجتمعاتنا المعاصرة باسم العمل التطوعي لكن دون مقابل مادي.

1 - شارل روبيير أجرون: المرجع السابق، 465.

2- توفيق دحماني: المرجع السابق، ص361.

- **حقوق التسجيل:** ويقصد بها تلك الأموال التي يتحصل عليها أعوان إدارة الاحتلال من الأهالي مقابل تقييد الأعمال القضائية من أحكام وأنواع العقود والوثائق المتعلقة بالبيع والمبادلة والإعارة والهبة وغير ذلك من الأنشطة¹.

ب- الضرائب الأوربية:

- **ضريبة المهن:** تم تطبيق هذا النوع من الضرائب منذ احتلال البلاد سنة 1830م، ثم تم ضبطها في شكلها النهائي سنة 1847م، وبمقتضاها أن كل شخص يقطن في مدن الجزائر وبلدياتها، وكل الذين يمارسون الأنشطة الاقتصادية من تجارة أو صناعة أوي مهنة أخرى فهم يخضعون لدفع ضريبة المهنة، ولا تختلف في طريقة استخلاصها عن ضريبة العقارات، إلا أنه كان يراعى فيها تعداد كان البلدة التي يقوم فيها الحرفي بعمله نظير ثمن كراء المحل المخصص للنشاط².

- **ضريبة رسم البحر:** وقد كانت تعرف بضريبة مكس البحر خصصت هذه الضريبة لدعم واعانة البلديات وتغطية تكاليف الجباية المفروضة على سفن استيراد المنتج المخصص للبلديات، الى جانب ذلك نجد ضريبة الكراء المفروضة على المستوطنين وتدفع على كل مسكن فيه أثاث ويقدر بالنسبة الى ثمن كراء النزل³.

وقد أسندت إدارة الاحتلال جباية الضرائب العربية الى المكاتب العربية، وقد كانت تستعمل القيادة الاهلية لتنفيذ قراراتها وارادتها، فقد كانوا يضعون القوائم في كل سنة ويشرعون في تنفيذ

1 - نفسه، ص ص364-365.

2 - نفسه، ص 368.

3 - نفسه، ص ص 370-371.

عملية التحصيل في شهر ماي من كل سنة، وهذا وجه آخر من سياسة القهر والظلم المسلط على الأهالي من قبل غدارة الاحتلال الفرنسي¹.

كانت الضرائب أحد أهم أنواع التمييز والظلم الذي سلط على رقاب الجزائريين منذ احتلال البلاد، وهو أحد مصادر القلق والشكوى، وعلى الرغم من التزام الجزائريين بدفع أنواع مختلفة من الضرائب إلا أنهم لا يستفيدون منها بتاتا، بل كانت توجه لخدمة المستوطنين الأوربيين والإدارة الاستعمارية، ولو نظرنا الى البنية التحتية من مرافق مختلفة مخصصة للأهالي لا نجد لها هشة وغير فعالة ونافعة بتاتا لما تظهره من تخلف وتدني، في حين يختلف الامر لما ننظر لواقع المدارس الأوربية أو المشاريع الاقتصادية المخصصة للكولون وإدارة الاحتلال وهنا قمت التمييز والقهر والظلم والاضطهاد الذي يعانيه الجزائريون طيلة فترة الاحتلال².

لقد أجبرت إدارة الاحتلال الأهالي على دفع مختلف أنواع الضرائب وإلا العقوبات ستسلط على رقابهم، حتى وصل معدل ما يدفعه الجزائري يصل قرابة 75 فرنكا في الوقت الذي لا يتجاوز معدل ما يدفعه الأوربي 105 فرنكا ويضاف الى ذلك الجباية التي قد تصل الى حد نزع أسقف المنازل واحتجاز العائلات حتي يتم تسديد ما يفرض عليهم من ضرائب وهو ما يختلف بطبيعة الحال مع المستوطنين في هذا الاتجاه³.

د - شبكة الطرق والمواصلات:

بعد سقوط قسنطينة عاصمة بايلك الشرق سنة 1837م، جرت تحولات كبرى في استراتيجية الاحتلال الفرنسي لتسيير المستعمرة الجزائر ونقل خيراتها الى فرنسا وأوربا، وأمام بنية هشة وعتيقة

1 - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص 77.

2 - نفسه، ص 78.

3 - جمال قنان: التوسع الاستعماري ظاهرة تسلطية عدوانية واستغلالية، أعمال الملتقى الدولي حول الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص 64.

ومتهالكة متوارثة من العهد العثماني، أصبح من الضروري التوسع في شبكة الطرقات، وعلى هذا الأساس جاء في تقرير الحكومة الفرنسية وسر الأشغال المهمة بإدارة الطرقات الإسراع في إنجاز شبكة طرق للقوافل الكبرى التابعة للإقليم العسكري في الجزائر أو في قسنطينة ، ذلك لأهمية الشبكة كمرد للتجارة والتطور الاقتصادي، أهمه شريان الاتصال بين عنابة إلى قالمة من حيث تطره، والتحسين الذي وصل إليه من حيث مستوى الطرق¹.

إن عملية شق الطرق كانت أول عمل قام به الجيش الفرنسي حيث أجبر الجيش الفرنسي في المرحلة الأولى من الاحتلال على بناء شبكات من الطرق المحلية حول العاصمة وفي متيجة وعلى طول ساحل العاصمة، والجهة الشرقية من البلاد بإشراف مهندسين عسكريين وباستخدام الجنود والأسرى ، هذا لكون أن "مصلحة الجسور والطرقات" المؤسسة في شهر أفريل سنة 1832م بمدينة وهران والتي يفترض أن توكل لها مهمة شق ورصف الطرق ذات المنفعة العامة كانت في حالة ضعف إداري ومالي وهذا يرجع إلى أن الحكم في الجزائر كان عسكريا وكانت الأولوية للعمل العسكري على العمل المدني².

لقد ضمت الفرق العسكرية الفرنسية مجموعة من المهندسين التابعين لمصلحة خاصة كانت تعرف بـ"الهندسة العسكرية"، وقد أوكلت إليهم مهمة إعداد خرائط طبوغرافية خاصة بمختلف مناطق الجزائر ، وإعداد المشاريع الخاصة بالطرق البرية، وذلك لتحقيق أهداف بمختلف مناطق البلاد، وذلك لتحقيق أهداف استعمارية ولمساعدة الجيش في عملياته التوسعية³ غير أن اشتعال لهيب

¹ - وابل بخته: المرجع السابق، ص144.

² - رضا حوجو: شبكة السكك الحديدية الفرنسية في الجزائر وأثرها في تدعيم سلطة الاستعمار (1830-1914)، رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006، ص5.

³ - خديجة بختاوي : التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في عمالة وهران (1830-1914)، أطروحة دكتوراه، في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2012، ص216.

المقاومات الشعبية ونقص رؤوس الأموال وانعدام هيئة متخصصة ومنتظمة تهتم بإعداد المشاريع الخاصة بشبكة المواصلات قد أعاق عملية تهيئة الجزائر بالطرق البرية، وقد بلغ مجمل تعداد شبكة الطرق في الجزائر خلال سنة 1840 بقرابة 350 كلم عبر تراب الجزائر المحتلة¹.

أنشئت الطرق البرية الأولى في العهد الاستعماري وفق الاحتياجات العسكرية دون الأخذ في الحسبان متطلبات القطاع التجاري، وهذا كون مستعمرة الجزائر كانت تعيش حالة حرب ومقاومة شديدة حيث احتاج الاستعمار الفرنسي إلى عدة سنوات لتثبيت دعائمه وتحقيق ما يضمن له الاستقرار والانطلاق في المشاريع الاقتصادية والتجارية والتي من أولوياتها شق وتعبيد الطرق التي كانت نادرة وغير معبدة².

بعد توسع الاحتلال طرأ تحول عام على الأوضاع في كل الجوانب خاصة الاقتصادية والاجتماعية منها، وظهرت الحاجة الملحة إلى تكييف الطرق مع هذه الأوضاع الجديدة بهدف تسهيل انتقال الأشخاص والبضائع إضافة لتسهيل مراقبة مختلف المناطق، فأقيمت مصلحة خاصة بالطرق عرفت بـ "مصلحة الأشغال العمومية"، هي نفسها المصلحة التي قامها العسكريون ولكن أخذت تنظيماً جديداً، فإلى جانب المهندسين العسكريين نجد إطارات مدنية تعمل على دراسة المشاريع وتنفيذ مختلف البرامج المتعلقة بالتهيئة العمرانية وترتبط مهامها انطلاقاً من القرارات الوزارية المتعددة، وكان لها تنظيم إداري محكم، يضم إطار يقيم في فرنسا منتدباً في الجزائر، خاضعاً للقوانين الفرنسية، يساعده بعض الإطارات الأوروبية في الجزائر، وكانت خاضعة لسلطة الحاكم العام³.

1 - نفسه.

2 - رضا حوجو: المرجع السابق، ص 6.

3 - خديجة بختاوي: المرجع السابق، ص 216.

أوكلت "مصلحة الأشغال العامة" مهمة شق وتعبيد شبكة الطرق الجزائرية إلى مصلحة فرعية هي "مصلحة الطرق والجسور"، وهي شبيهة بنظيرتها بفرنسا مهمتها إقامة الطرق والجسور وصيانتها، وتهيئة الموانئ وغيرها، هذه المصلحة ذات التنظيم الفرنسي بها دوائر وتقنيين متخصصين في صيانة الطرق، يشرف عليها مفتش عام يقيم في الجزائر ويشرف على مجموعة من المصالح والإطارات التابعة لها¹.

تمثلت أهداف هذا المشروع في ربط مركز التل بحدود المغرب وتونس ما جعل نمط اقتصاد السكان الأصليين مفتوح أمام الأوروبيين من خلال تنظيم أسواق أسبوعية لأهم القبائل من كل المقاطعات الثلاثة بدوره سهل عملية تنقل المستوطنين إلى جانب خدمة الاقتصاد الصناعي وتطويره، بتوفير وإيصال المواد الأولية للبناء بمختلف أنواعها، من رخام وجبس وطين باعتبارها المنطقة الأكثر غنى بذلك، بالإضافة إلى الحصول على مادة الخشب من أشجار غابات الجزائر وضواحيها نذكر منها على سبيل المثال غابات وهران 35.200 هكتار أكبرها مساحة غابة أولاد اسماعيل².

و- مصادرة أملاك الأهالي:

لقد نادى المستوطنون بضرورة تفكيك ملكية الأهالي، ورأوا أن أسلوب الملكية الجماعية للأراضي الممتلكات لا يساعد على التطور، وقالوا على الملكية الأهلية: "هي مدرسة مؤسفة للكسل، ومصدرا للبوؤس"، قالوا أن القبائل كانت تشغل أراضي لا تتناسب عدد أعضائها، وحاجياتهم، لذلك جمعت سكان القبيلة من جزء من أرض العرش، واستلت الدولة على الباقي

1 - نفسه.

2- وابل بخته: المرجع السابق، ص149.

لأنها مالكة الرقبة على هذه الأرض، ثم سلمتها لاحقا للمستوطنين وهكذا لبت الإدارة الاستعمارية نداء غلاة الاستعمار، وشرعت في تنفيذ تفكيك الملكية الأهلية من خلال إصدار تشريعات جديدة¹.

مع دخول المستعمر الفرنسي للمنطقة، وتوسعه فيها، تغير نمط حياة السكان، ولقد أدرك الفرنسيون أن المورد الأساسي الذي يمكن من خلاله قهر السكان وجعلهم يخضعن لإدارتهم هو الاستيلاء على الأرض² عن طريق مراسيم تنظيمات تفكك من خلالها البنى الاقتصادية للمجتمع الأهلي من جهة، وتسلب العنصر الاستيطاني من جهة ثانية، فما كان على السكان إلا أن لا يسكتوا على تلك الممارسات، فانتفضوا، وكانت بذلك الفرصة مواتية للاستعمار³، لمصادرة أراضيهم وممتلكاتهم وحجزها بدعوى أنهم قبائل معادية، أو متخلفة ع الأرض، أو لأجل بيعها في المزاد لتسديد الضرائب الجائرة، غرامات الحرب المفرطة⁴.

عملت الإدارة الاستعمارية بالتدرج على السيطرة على أراضي الجزائريين، وكانت هذه السياسة مدفوعة بعدة عامل منها: التوسع العسكري الفرنسي، وطبيعة المقاومة، وتوافد المستوطنين واختيارهم لمناطق الانتشار، ازدياد نفوذهم في منظومة الحكم في الجزائر المستعمرة وكذا مراحل تنفيذ التشريعات العقارية، وما صاحبها من مطالب المستوطنين على تحسينها لصالحهم، ربما كان حظ منطقة الجنوب القسنطيني سيئا، ذلك أن تطبيق القوانين العقارية في المنطقة جاء في

¹ - مختار هواري: نماذج من القمح الإداري الاستعماري تجاه بعض القبائل في الجنوب القسنطيني 1871-1916م، أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: سليمان قريبي، جامعة الحاج لخضر - باتنة 01، 2016-2017م، ص 191.

² - نفسه، ص 189.

³ - مختار هواري: المرجع السابق، ص 188.

⁴ - نفسه: ص 189.

فترات متأخرة بعدما قعت فيه تحسينات كثيرة ولصالح المستوطنين المضاربين عل حساب الأهالي، وقبل التطرق لكيفية تنفيذ القوانين في المنطقة لابد من التطرق لأهمها.

1- مرسوما 21 جويلية 1846م و16 جوان 1851م:

فرض المرسوم الأول على كل ساكن أهلي سندات ملكية¹، وعمل على تحديد الملكات انطلاقا منها، أما الأراضي التي ليست لها سندات ملكية، وتلك التي لا يستطيع أحد إثبات ملكيتها، فتحوّلت إلى ملكية الدولة التي سلمتها إلى المستعمر، كما طالت ملكية الدولة أيضا الأراضي البور لافتراض أنها بدون مالك.

كانت القوانين العقارية تميز بين الملكية التامة والتي تشير لها "بالمك"، وبين الحيازة عن طريق الانتفاع والتي تسمى "عرش" وكانت الإدارة الاستعمارية تعتقد بفكرة "الحق السامي" للدولة في أراضي العرش، وبذلك يكون لها حق النظر في مشروعية أوضاع هذه الأراضي، وحق الدولة في حمايتها، وهكذا جاء قانون 16 جان 1851م ليعلق حق القبائل والبطون في امتلاك واستعمال الأرض، وأعطى هذا القانون أرض العرش للسلطة العامة للدولة، وحق ملكية الرقابة على الأراضي الجماعية، استند هذا القانون إلى الفكرة القائلة بأنه ليس للقبائل حق في ملكيتها، بل لها الحق فقط في الانتفاع بها، بينما للدولة حق ملكية جميع أراضي العرش (الرقبة)، هكذا اعتبرت الضرائب التي كانت تدفعها القبائل بمثابة بدل إيجار للأرض².

¹ - تعرف شهادة الملكية على أنها سند رسمي يثبت حق الملكية الخاصة الزراعية في حالة عدم وجود وثيقة لدى الحائز تثبت هذه الملكية، رغم أنه صاحب الأرض بدون منازع، وتتوصل لجنة إحصاء أراضي البلدية أثناء التحقيقات التي تجربها إلى ثبات ملكية الحائز للأرض الزراعية وتسلم هذه الشهادة من مصلحة أمالك الدولة المختصة محليا بناء على قرار الوالي. للمزيد ينظر: عبد الحفيظ بن عبيدة : إثبات الملكية العقارية والحقوق العينية العقارية في التشريع الجزائري ، الجزائر : دار هومة، 2004 ص127.

² - مختار هواري: المرجع السابق، ص189-190.

لقد تقرر الاستلاء على أراضي الجزائريين منذ الهلة الأولى، وشملت كل المناطق التي وصلها الاستعمار، ففي مدينة قسنطينة ومن خلال شهادة "بول بورد" الصحفي في جريدة le moniteur univerel¹ ومن خلال زيارة وفد من مجلس الشيوخ الفرنسي للجزائر عام 1879م، فقد لاحظ هذا الأخير أن الأوروبيين استولوا على جميع الأراضي السهلية والمستوية بالمنطقة لأجل بناء سكنات للمستوطنين، ما أدى بالضرورة إلى تناقص عدد السكان الأصليين في مقابل زيادة عدد المستوطنين²

حاجة الاستيطان³ إلى المزيد من الأراضي كشف عنها تصريح الجنرال bugeaud أمام مجلس النواب في 1840م الذي أعلن فيه: "عليكم بإسكان المستوطنين حيث الماء الغزير والأراضي الخصبة دون الاهتمام لمن تعود تلك الأراضي" ورغم اختلاف وجهات النظر حول

1 - Le Moniteur Universel : هي جريدة فرنسية تأسست في باريس في 24 نوفمبر 1789 ، في 24 نوفمبر 1789، تولى تشارلز جوزيف بانكوك (1736-1798)، وهو بائع كتب وناشر مشهور، والذي كان قد تولى بالفعل، في نهاية النظام القديم، مسؤولية نشر La Gazette de France وMercure de France، المرتبط بهوغ برنارد ماري، La Gazette nationale أو Moniteur Universel، والتي سرعان ما احتفظت بالنصف الثاني فقط من العنوان. بأثر رجعي، في عام 1797، وكمقدمة للمجموعة، كتب ثاو-جرانديفل الأعداد من 5 مايو (تاريخ اجتماع المجالس العامة) إلى 23 نوفمبر 1789. ومن أجل الاستجابة للفضول الهائل لدى الجمهور بشأن الأحداث الهائلة للثورة، كان الأمر يتعلق بمنحهم صحيفة تقدم وصفاً تفصيلياً لجلسات الجمعية الوطنية وسرداً كاملاً لآلاف الأخبار عن الأحداث الجارية. وقد جريت كل من Le Journal des Estates Générales (يونيو)، و(25 Le Courier français يونيو)، و(29 Le Journal des Débats et Décrées أغسطس) التجربة بالفعل، لكن أصالة Moniteur تكمن في حجمها الكبير (33 × 24 سم) والجودة الرائعة لمعلوماتها. للمزيد ينظر: <https://www.universalis.fr/encyclopedie/le-moniteur-universel> تاريخ التصفح 2024/02/19.

2- عابد بيبلي: انحصار نشاط المدن العثمانية في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، تخصص تاريخ الجزائر العمراني الحديث والمعاصر، 1962-1519م، إشراف أحمد رنيمة، جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف، 2021-2022م، ص187.

3 - تعني كلمة الاستيطان تعمير مكان أو منطقة جغرافية معينة بالسكان للإقامة بها واستغلالها، ويمكن ان تشمل النبات او الحيوان، وتعرف باللغة الفرنسية بـ PEUPLEMENT. وهذا ما حاولت فرنسا فعله في الجزائر عندما أقدمت على احتلالها سنة 1830م، وبعد أن تأكدت عملية الاحتلال، تحولت الفكرة الى سياسة استيطانية التي املتتها التطورات التي طرأت على الساحة الأوربية. للمزيد ينظر: ارزقي شويتام: سياسة الاستيطان الفرنسي في الجزائر 1830-1914م، في مجلة التاريخ المتوسطي، المجلد 02، العدد 02، 2020، ص 191.

تصور الاستيطان بين bugeaud و لاموريسيير معبران عن وجهتي نظر بين شتى شرائح البرجوازية في فرنسا وشتى اتجاهات السياسة في تعمير المستعمرة - فإن المجال فتح أمام تدفق المهاجرون الذي تزايد من 1845 إلى 1851م حيث بلغ 11507 معمر في 31 ديسمبر 1846م، و 21148 معمر في سنة 1848م و 19551 معمر في سنة 1849م، و 24672 معمر في سنة 1850م، و 27382 معمر في سنة 1851م، هذا المد البشري سيحول وجه الريف القسنطيني خاصة أنه تزامن مع سنوات أزمة اقتصادية، فهل يمكن للاستيطان المتزايد مع هذا المد البشري أن ينتج أزمة اقتصادية في الريف القسنطيني؟ هل يبدو الاعتماد على عامل الاستيطان كافيا لإعطاء تفسير لحدوث أزمة اقتصادية وغذائية في الريف القسنطيني في 1845-1850م؟، أم أنه عامل مكمل تزامن مع مجموعة عامل؟.

يعطي الإحصاء تزايد عدد المعمرين في الريف القسنطيني بين 1845-1850 بنسبة 2.38% وكان تأسيس مراكز استيطانية لهذا التدفق البشري على حساب أراضي الريف مع نيقري وحملاته على الحروش لتأمين المواصلات مع البحر مما مثل بادرة للاستيطان وبناء على طلب d'aumal duc صدر مرسوم وزاري مؤرخ في 22 مارس 1844م يعطي لمركز الحروش وجودا فعليا وذلك بتخصيص إقليم خصب تقدر مساحته ب 1600 هكتار¹.

ومهدت التشريعات العقارية الصادرة منذ 1844م إلى انتزاع الملكية ففي 01 أكتوبر 1844م صدر أحد أهم التشريعات العقارية الذي فتح عهدا جديدا للاستيطان عن طريق إرسائه نظام يؤمن عمليات انتقال الملكية وبتطور الاستيطان في الريف القسنطيني مع سنة 1845م عد في نواحي

¹ - جمال الدين سعيدان: الأحوال المعيشية والصحية في الريف القسنطيني فيما بين 1830-1919م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر، ص78.

قسنطينة حوالي 259 مستعمرة وتنامت بعدها مجموعة مشاريع استيطانية كبرى ظهرت بارزة بقري استيطانية كبرى خاصة بعد سنة 1845م، حيث يشير féraud إلى إنشاء ثلاث ضيعات فلاحية في 1845م منها vallée التي أنشئت في أخصب الأراضي في الجهة اليمنى لوادي الصفصاف و damrémont في الجهة اليسرى، و saint antoni حوالي 7 كلم إلى الجنوب من وادي الصفصاف في قمة وادي زرمان، ومنحت هذه الضيعات لأصحاب الامتيازات ومعمرين صغار مثل "يارو" الذي أعطى 600 ألف هكتار من أخصب الأراضي دون أن يستغلها¹.

لقد باركت فرنسا خطواتها في تشجيع الهجرات بصفة عامة حين قامت حكوماتها بتشجيع هجرة الأوربيين إلى الجزائر و استقرارهم فيها بمنحهم الأرض مجانا أو بأسعار رمزية تدفع في آجال طويلة، وتجهيزهم بالعتاد، و امدادهم بالقروض الميسرة وتشديد القرى وتعبيد الطرق، ومد سكك الحديد، وبناء السدود، ومد قنوات الري، وغير ذلك من المرافق والخدمات².

في سنة 1846م استمرت العملية الاستيطانية لكنها بدت أقل تطورا رغم تركيز الجنرال bugeaud على الاستيطان الزراعي مما سمح بإحداث تغير في الموارد المعيشية، وإلى غاية هذه المرحلة بلغت المساحات المصادرة الملحقة بأمالك الدولة domaine في الريف القسنطيني 170127 هكتار من أخصب الأراضي وأكثرها سقيا، منها 113698 هكتار في المنطقة الوسطى لقسنطينة، وأثرت عمليات المصادرة بفقدان مصادر رزق القبائل التي كانت تعيش على هذه الأراضي الأكثر خصوبة وإنتاجا في البايك مما أدى إلى حلول البؤس فيها³.

1- نفسه.

2 - بشير بلاح: تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1989، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص 187.

3 - نفسه.

إن حركة الاستيطان في بدايتها الأولى رافقتها مناقشات فكرية، و ظهور نظريات متعددة حول المناطق الأصلح للاستيطان الأوربي فكانت المناطق الشمالية والخصبة ومنها مناطق بايلك الشرق وأحوازه لما يمتاز به من أراضي خصبة وقبائل متعددة تمكن إدارة الاحتلال من سلب أراضيهم وممتلكاتهم، ويتطلب هذا جهود حثيثة وامكانيات مادية وعسكرية لترجمة هذا المشروع وفرض أيديولوجية التوسع والتوطين والنهب والسلب والاستغلال من اجل إحكام السيطرة الكلية على منابع و منافذ الثروة الاقتصادية¹.

وفي اطار سياسة مصادرة أراضي الأهالي قامت سلطات الاحتلال الفرنسي في 21 جويلية 1846م بإصدار لائحة قانونية جديدة تهدف لمصادرة المزيد من الأراضي، استنادا إليها ومع تزايد ضغط المد الاستيطاني منذ 1846م، وضع مشروع استيطاني اعتبره الجنرال بيجو ضخما بلغ ضعف ما خصص له في مخطط lamoricière في وهران، يقضى بمنح 160000 هكتار أغلبها من أخصب الأراضي البايكسية وأكثرها سقيا بضواحي مدينة قسنطينة (من 30 إلى 40 كلم) تسمح باستقرار أكبر عدد من المعمرين، وأثر هذا على بداية مرحلة جديدة في الاستيطان: "تكثيف الاستيطان الرسمي"، هذا التكثيف أثار عند الأهالي رد فعل بالنظر إلى أن أراضيهم أصبحت محل مصادرة وكان إنذارا بإحداث قلب للوضع المعيشي خاصة مع مرسوم 1846م الذي جاء أيضا بفكرة الكنتنة (الحشر)²، ورغم أن العملية لم تشمل كل الريف القسنطيني إلا أن العديد من القبائل

¹ - عميرواي أحميدة: "، آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري 1830 1954 منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، 1954 الجزائر، ص ص 73-74.

² - الكنتنة: قد تكون الكنتنة هي ظاهرة سلوك عشائري او قبلي او مذهبي ا فصائلي يلعب لاعبيها في داخل الايقونة المجتمعية الواحدة بثقافات مختلفة، وهذا ما يبطل او يفسد اي برامج وطنية من تنمية وتحقيق اهداف موضوعة لرقى المجتمعات، وهذا ما تعاني منه كثير من المجتمعات العربية التي تحتوي مكوناتها لكل تلك العناصر السابقة. للمزيد ينظر: <https://qudsnet.com/post/442947> تاريخ النصف: 2025/02/19.

قد تعرضت للحشر خلال هذه المرحلة والتي مست أخصب الأراضي التي كانت محل أنظار الاستيطان¹.

وفي 30 جويلية 1846م صدر مرسوم من الحاكم العام ينص على دراسة ثلاث مناطق لإنشاء مراكز استيطانية: وادي بومرزوق حيث صادرت اللجنة فيه 15 ألف هكتار، وادي سيقوس، وادي قانتز على بعد 04 أميال من مدينة باتنة، ووادي حجر على بعد 04 أميال من قسنطينة، كما أنشئت لجنة أخرى في 04 من أوت سنة 1846م لتحضير مركز آخر لاستقبال المعمرين في دائرة ايدوغ وعنابة، وبمقتضى مرسوم 25 سبتمبر 1846م أسست لجنة لدراسة مراكز استيطانية بين عنابة وقالمة وتبسة إلى القالة والذرعان، وبرزت خلال هذه المرحلة مسألة أساسية تتمثل في حصول أصحاب الامتيازات على مساحات شاسعة، فمنذ 1846م مع تطور الاستيطان حصل "ذوو الأيادي العاطلة والأسنان الشرسة" من العسكريين على مساحات تجاوزت 1000 هكتار في أخصب المناطق، ورغم إداء هؤلاء باستغلالها إلا أنهم تركوها بورا².

ولقد أتخذ قرارا بجعل كل الأملاك تحت إدارة أملاك الدولة "الدومين" بإشراف السيد "جيراردان" (مترجم جيش الحملة)، هكذا دخلت الجزائر في قبضة الإخطبوط الجائع الذي رأى المال في يد السكان جريمة يعاقبون عليها³، كما استولت سلطات الاحتلال الفرنسي وباستعمال القوة والقانون معا على ما أسموه بأملاك البايك أو الدولة الجزائرية، على اعتبار أنهم حلو محل السلطة السابقة ثم على أملاك أخرى سموها أملاك الأتراك⁴.

¹ – Bugeaud, Par l'épée et par la charrue: écrits et discours. P.U.F, Paris, 1948,, p.20

² – جمال الدين سعيدان: المرجع السابق، ص 79.

³ – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي -1830، 1945، ج5، ص 154.

⁴ – أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص74.

كما أرسى هذا القانون على تحويل الملكية الجماعية لأراضي القبائل إلى ملكية فردية، والتي طالب مناصروها أمام مجلس الشيوخ بقولهم: "جميعنا متفقون أن الملكية الجماعية ستكون عقبة يصعب تجاوزها أن الملكية الفردية الحرة هي السبيل الأفضل نحو استعمار خصب" وهو الأمر الذي ساهم في القضاء على وحدة القبيلة الجزائري والنظام الجماعي لاستغلال هذه الأراضي.

حيث تم نزع الملكية من الجزائريين تقدر بـ 61000 هكتار من أحسن الأراضي لـ 16 قبيلة أي ما يقارب 22% من ممتلكاتها استفادة من السياسة إقامة المعمرين¹.

لم يدخر المحتل الفرنسي أي جهد في سبيل الاستحواذ على أراضي الجزائريين ولتحقيق ذلك التجأ إلى إصدار عدة قرارات ومراسيم قانونية لتحقيق أهدافه الاقتصادية الاستيطانية الاستعمارية. إن المرسوم 1844م و1846م نلمس فيهما إصرارا على تطبيق صفة أراضي العرش لأراضي الملك، حتى تصنف هذه الأخيرة في أملاك الدولة، وهكذا ضاعفت المكاتب العربية جباية الضرائب، انطلاقا من عام 1855م، وتوصلت حتى فرض قانون الأيجار الذي حددته بـ 50 فرنك لكل هكتار صالح للزراعة، و250 فرنك لكل هكتار صالح للزراعة من المراعي بالسهول الداخلية².

كانت عملية مصادرة الأراضي لها نتائج كثيرة منها تدمير المحاصيل، وانخفاضها وتخريب الحدائق والمجاري المائية والروافد الضرورية للري، في هذه المرحلة الأولى من نزع الملكية بدأ الاستيطان يشق طريقه، حيث كانت سياسته من أخطر العوامل التي أثرت تأثيرا مباشرا على التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري، والتي اعتمدت نواته الأولى على بناء القرى والمراكز

¹ - Mahfoud Kaddache e, l'Algérie des algériens de la prehistoric à 1945, Alger, 2000, p 643.

² -DJILAL SARI.OP-CIT.PP26-27

الاستيطانية واستصلاح الأراضي من طرف العسكريين، ليشرع فيما بعد في عملية الهجرة المستوطنين من فرنسا وأوروبا إلى الجزائر بشكل مكثف، وإخضاعهم للعمل الجماعي بعد خمس سنوات يصبحون الملاك الحقيقيون للأراضي التي يشغلونها.

تضافرت جهود العسكريين والسياسيون ورجال الدين على حد سواء في عملية إرساء الاستيطان الفرنسي في الجزائر، وذلك لإنشاء مجتمع أوروبي مسيحي يرتبط بقوة شديدة بأرض الزراعة، وبهذا كان العسكريون محور أساسي في عملية الاستيطان وأدائه الأكثر فعالية، فهم الذين قاموا بالدور الاقتصادي والعسكري في تحضير الأراضي الزراعية وتهيئتها للمهاجرين الذين كونوا فئة الكولون¹.

أعقب في الأخير هذه القرارات الرامية الى توطين الأوربيين وطرد الأهالي، توزيع منشورات في كامل القطر الفرنسي تتوسل فيه إدارة الاحتلال الى الأوربيين، بل وتحثهم وتحفزهم على الهجرة والاستيطان في الجزائر، تعدهم بالاستفادة إثر وصولهم الى الجزائر من قطع أرضية زراعية تتراوح مساحتها من 04 حتى 12 هكتار مقابل 1.200 حتى 1.500 فرنك، وكذلك حق المرور مجانا مع عائلاتهم داخل الأراضي الفرنسية، وعاهدتهم بتوفير الامن، والمعدات الزراعية، والقروض المالية بشكل مؤقت².

وقد أثمرت هذه الدعاية بسرعة، فقابلتها سلطات الاحتلال الفرنسية بخلق 17 مركز استيطاني سنة 1842م، و14 مركز سنة 1843م، وفي العام الموالي ب17 مركز جديد، وتمكين للكولون من الحصول على سكنات وأراضي زراعية صدر مرسوم ملكي في 21 جويلية 1841م

¹ - قشوان عبد الرزاق: المرجع السابق، ص 157.

² - بن داهاة عدة: الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962، ج1، ط1، المؤلفات للنشر والتوزيع، 2013، الجزائر، ص ص 55-56.

نص في مادته الثانية على أن جميع الأراضي الشاغرة والغير مزروعة تعتبر املاكاً عامة يمكن الاستفادة منها واستغلالها في تأسيس المدن والقرى والتجمعات السكنية، كما حددت المادة الثالثة من ذات المرسوم مساحة الأراضي الزراعية الممنوحة للفرد الواحد من الكولون باقل من مئة هكتار¹.

هـ - على المستوى المعيشي:

كان وقع الجباية كارثياً في الريف القسنطيني والنتاج عن عمليات التحصيل التي قامت بها السلطة الفرنسية في فترة الأزمة ما بين 1845-1850م، يظهر ذلك من خلال ما دفعه الريف القسنطيني من ضرائب خلال سنوات الأزمة.

مست الضريبة فئات فقيرة مثل خماسة الذين لم يعفو من الضريبة وكانوا محل دفع الجباية، ورغم الأزمة والمجاعة والحرب وانخفاض المحاصيل الزراعية إلى انعدامها، ظلت القبائل تدفع الضريبة مما أدى إلى عجزها عن الوفاء بالتزاماتها الجبائية، ففي تقرير 1850م جاء فيه: "إن قبائل أخرى في حالة عجز عن الوفاء بالتزاماتها الضريبية بسبب الخراب الذي خلفته عمليات الحرب والمصادرة وتوالي السنين العجاف".

وارتسم البؤس وأنهك الفلاح الذي يزرع ولا يجني ويدفع الضريبة على أساس الإنتاج النظري، فباع القبائل ثرواتها الحيوانية والنباتية ومخزوناتهما من أجل دفع الجباية وتراجعت قبائل أخرى عن الحرث وتحولت إلى نشاطات أخرى مما عمق الأزمة في الريف القسنطيني².

1 - نفسه.

2 - عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص 28.

ارتفعت فئات كثيرة جراء الدفع الجبائي في الجوع، وتراجعت ثروة الغنم والماعز وفقدت القبائل ثروتها وهاجرت أخرى فرارا من وقع تلك الضرائب وثقلها وحرص السلطة على تحصيلها¹.

لقد طرأ تغير جذري على الحركة الاقتصادية حيث استبدلت المقايضة والدفع العيني بدخول الأهالي في دائرة النقدية دون أن يكونوا مستعدين ماديا، وكرس هذا صدور قرار 17 جانفي 1845م الذي قضى بالدفع الضريبي² نقدا وألزمت القبائل على الحصول على القطع النقدية وهذا ما دفعها إلى بيع احتياطياتها من القمح وثروتها وإفراغ أهرائها والتي تحتاجها في الأزمة، أين كان من الصعب جدا على الفلاح أن يحصل على مبلغ 55 فرنك لمتوسط دفع الجباية، فكان بيع الحيوانات والثروات ويخرج مكنوزات القبائل من النقود القديمة التي كانت ضعيفة القيمة بالمقارنة مع عملية الدفع النقدي: الفرنك، مما أدى إلى تدهور الثروة حتى في السنوات الوفيرة، لأن ارساء هذه القاعدة النقدية التي لا يستفيد منها الفلاح لانخفاض الأسعار أيام الوفرة فيكون من الصعب جدا عليه أن يجمع مبلغ الجباية إذا لم تكن الأسعار المتدنية لا تسمح للفلاح بأن يدفع الجباية وأن يأكل ويخزن في الأهراء ويكون هذا محتاجا لشراء القمح في موسم الطلب أين ترتفع الأسعار³.

لقد كرس الاقتصاد النقدي الأزمة في الريف القسنطيني ولم يقتصر ذلك على الجباية النقدية فقط، بل صدرت مجموعة قوانين كرس الاحتكار وارتباط الاقتصاد الفرنسي بالجزائري ومنه جاء انفتاح التجارة الخارجية، فكان التجار الأوروبيون ينقلون الحبوب نحو المرافئ لتصديرها إلى مرسيليا ليشكل الطامة الكبرى بالنسبة للفلاح لأن أسعار القمح كانت شديدة التقلب، وبذلك أدى

¹ - جمال الدين سعيدان: المرجع السابق، ص 81.

² - توزيع الضرائب بين قرى الزيبان والواحات التابعة والخاضعة لسلطة شيخ العرب بن قانة بوعزيز، للمزيد ينظر الملحق رقم 35 ص 388

³ - نفسه، ص 82.

الاحتكاك بالاقتصاد الفرنسي وهو من نوع ليبرالي رأسمالي إلى ارتفاع الأسعار الذي يضر ويسبب الأزمة، فانقل من نمط اقتصادي مغلق إلى نمط اقتصادي مفتوح دون أن يكون مستعدا ماديا لمثل هذا التغير وكان عليه أن يخضع لأوليات لا يعرف كيف يقدرها، وبالتالي كانت أزمة 1845-1850م امتدادا للربط الاقتصادي إلى أزمة اقتصادية شهدتها فرنسا في هذه الفترة حيث نقلت إلى الجزائر عن طريق سوق القمح¹.

اجمالا لا يمكن أن نفصل أزمة 1845—1850م عن سياقها التاريخي الذي شهده الريف القسنطيني قبل 1845م وسياقها الاقتصادي والسياسي وبذلك تفسر مجموعة الأسباب السابقة الذكر حول الأزمة الاقتصادية في الريف القسنطيني حيث تظهر جليا في حركة الأسعار. مثلت حركة الأسعار انعكاسا لمجموع هذه الأسباب ولطالما عبرت فترات ارتفاع الأسعار عن حالات الأزمة ونقص الغذاء في مجتمع الريفي القسنطيني، حيث أن تحليل مستوى المعيشة وأثر الأزمة انطلاقا من حركة الأسعار يعطي صورة واضحة عن الواقع المعيشي ويؤكد ما ذكرته مجموعة التقارير الخاصة بالوضع المعيشي للمجتمع الريفي خلال هذه الأزمة، وبذلك نحاول أن نقارب المستوى المعيشي انطلاقا من حركة أسعار المواد الأساسية خاصة بالحبوب (القمح والشعير) واعتبارها محل طلب لتأمين غذاء المجتمع الريفي ومصدر القاعدة الإنتاجية².

من خلال النظر الى مؤشر النقود يظهر حالة أزمة وتقلبات نقدية باختفاء النقود انخفاض قيمتها، أي ظاهرة التضخم النقدي، التي كبدت الفلاحين خسائر مضاعفة وأثرت هذه العملية مع طول الفترة على نواف اقتصاديات الريف حيث كان الفلاحون عرضة إلى عمليات الخداع لكن كيف

1 - الهوارى عدي: الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسة التفكيك الاقتصادي والإجتماعي 1830-1960 ترجمة جوزيف عبد الله، المطبعة الأولى دار الحدائق، بيروت 1983، ص، ص 70-71.

2- جمال الدين سعيدان: المرجع السابق، ص 82.

يمكن أن نقيس أثر التضخم النقدي على اقتصاديات الريف. يظهر ذلك في انخفاض القدرة الشرائية لدى الفلاح الأكثر قربا من مواطن الاحتكاك بالنقد مع تهاوي مؤشر النقود إلى النصف، فقبل 1830م كان الريال ب 1.80 فرنك ليصل إلى 0.93 فرنك بعدها وبذلك حمل هذا التهاوي أثرا عميقا على اقتصاد البايليك بإحداث أزمة نقدية نجد انعكاسها في الأسعار التي ارتفعت خاصة بعد احتلال عنابة، إذ يقول schlosser: "بعد احتلال عنابة صار صاع القمح ب 14 ريال عوض الريالين"، وهو تصوير لبداية الأثر الذي سببته السنوات الألى للاحتلال أكثر مما ينبئ بحقيقة تطور الأسعار¹.

لقد أرغمت الطبقة الدنيا في هذه الظروف على أن تعيش على الكفاف، فوزع عليها البايك في المدينة الخبز وفي الريف كانت القبيلة هي المأوى، واستمر الغلاء في الأسعار ومعه الغلاء في المعيشة وضعف القدرة الشرائية مع الاضطرابات التي أحدثها الاحتلال على نشاط الاقتصادي للمقاطعة، تحول الاتجار نحو الداخل بدل الساحل، وفقدت العلاقات التجارية بين بونة وقسنطينة والمدن الكبرى وحدث بتر في الحركة التجارية التي كانت تلقح الاقتصاد الريفي، وزاد نت تأثر الوضع حملات اخضاع القبائل وما تبعها من فرض ضرائب ونهب للأرياف واحتلال الأرض التي تأثرت بصورة أعمق باعتبارها قاعدة الإنتاج في المجتمع الريفي، إذ كانت فكرة الاستلاء على الأرض حاضرة منذ بداية الاحتلال².

1 - نفسه ص 70،

2- نفسه.

ورغم عدم قدرة الباب العالي¹ عن وقف هذا التدهور والتراجع في القوى الإنتاجية للبلاد بعد احتلالها وسقوط مدينة قسنطينة عاصمة بايلك الشرق، واصلت القوى المحلية المقاومة في التصدي لمشروع الاحتلال بكل ما تملكه من قوة، ولعل الحاج احمد باي ابرزها في ناحية الشرق.

اجمالا تكشف لنا الاتصالات الأولى بين الاقتصاد والمجتمع الريفي القسنطيني بجوهره التقليدي والاحتلال باقتصاده الرأسمالي الليبرالي وتوجهاته وأهدافه المعلنة منذ البداية، أنها لا تتيح المجال لهذا النسق الاقتصادي في أن يتلاءم، إذ أن اقتصاديات الاكتفاء الذاتي عندما تتصل باقتصاد رأسمالي فإن ذلك لا يؤدي إلى تطويرها بل إلى تقليصها وتحويلها إلى اقتصاد كفاف، ليبرز هذا الاحتكاك في أزمة 1838م التي مثلت بداية مرحلة الأزمات في الريف القسنطيني، وهي مقياس يبين أثر السياسات في كل مرحلة².

لاحت بوادر الأزمة منذ سنة 1835م فقد أثرت حالة عدم الأمن التي خلقها الاحتلال تأثيرا كبيرا على إنتاج الغذاء في الريف القسنطيني فالقبائل المزارعة التي أذعنت للغزو تعرضت لحمات أحمد باي خاصة قبل احتلال قسنطينة وعن عدم الأمن والاضطراب الذي أعاق العملية الإنتاجية في الريف خاصة بعد الحملة الأولى على قسنطينة سنة 1836م كانت بداية التراجع الحقيقي للإنتاج الريفي، في حين مثلت الحملة الثانية ونجاح الاستيلاء على قسنطينة في سنة 1837م واتخاذها قاعدة مرحلة جديدة من عدم الاستقرار التي أحدثها الاحتلال بحملات الغزو

¹ - عن مسألة تدخل الباب لعالي بقسنطينة لرد الاحتلال الفرنسي نوقشت كثيرا بديوان الحكومة، ففي 7 أفريل 1836م، أرسل كميل باي وهو عقيد بالفيلق الثاني التركي في مهمة الى قسنطينة وصلها في شهر جويلية ولم تكن مهمة العقيد تتجاوز مجرد وعود يقدمها الباب العالي الى الحاج احمد باي والأمير عبد القادر، إذا استطاعا اخراج المستعمر، يسند منصب الخليفة لكل منها على التوالي: بايلك قسنطينة وبايلك الجزائر، هذا في الوقت الذي بات فيه من الصعب التقارب بين الرجلين. للمزيد ينظر: صالح فركوس: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، 1830-1925، مديرية النشر لجامعة قالم، 2010، ص 48.

² - جمال الدين سعيدان: المرجع السابق، ص 72.

والنهب على مجموعة القبائل، التي تحالفت مع أحمد باي وعلى رأسها: الحراكطة، التلاغمة، الزمول، وأولاد عبد النور، مما خلق حالة من الصراع في الريف فيما بين 1838-1840م، يضاف إلى ذلك صراع الأمير في بايلك الشرق فيما بين 1839-1840م والي أدى إلى ضياع أخصب السهول. كل ذلك أعاق العملية الانتاجية في السنوات 1838-1840م وشل الحركة التجارية واعتبر الإخلال بالاستقرار الذي سببه الاحتلال عاملا رئيسيا في وقوع أزمة غذائية في المجتمع الريفي¹.

تظهر في المجاعات التي أصابت القبائل حالة الاختلال نتيجة تراجع المعروض بتراجع الانتاج وزيادة الطلب وأشار العنتري تذهب إلى أكثر من ذلك بالنسبة لأسعار الشعير والقمح حيث وصل القمح حسب Nouschi من 35 إلى 40 فرنك، في حين جاء تأكيد العنتري أنه تراجع من 80 إلى 100 فرنك، أما الشعير فيقول العنتري أنه وصل إلى 40 فرنك.

وفي سنة 1838م، وقع فيها قحط شديد أضر بسكان قسنطينة، بأهلي عمالها بناحية الجنوب وقد ذكر أن علل هذه الأزمة تنحصر في ما يلي:

- حدوث جائحة في سنة 1838 أصابت الزروع وتلفتها.
- انقباض الفلاحين عن الحراثة لما غمرهم من فتن وأهوال باعتداء بعض الأعراس على بعض نتيجة البلبلية التي تركها احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة عاصمة الولاية².
- كثرة الأمطار التي نزلت في هذه السنة وكثرة الثلوج التي تهاطلت على المنطقة طيلة فصل الشتاء مما حال دون القيام بالأعمال الفلاحية. وقد نتج عن ذلك نتيجتان قاسيتان وهما:

¹ - نفسه: ص71.

² - صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص15.

- ارتفاع أسعار الحبوب من قمح وشعير وغلاء أسعار اللحم والسمن والتمر حتى بلغ سعر الصاع من البر برحبة البلد ما بين 80 و90 فرنك.

- ضياع أملاك الناس وعقارتهم تحت تأثير الحاجة الى النقود بما كان يقدمون عليه من ابرام عقود ربوية تحت أسماء مختلفة¹.

- أزمة 1847م: وقع قحط باهل قسنطينة ووطنها فارتفعت الأسعار فيها ودام الحال على ذلك مدة ثلاث سنوات متتالية، ومن أسباب ذلك هو اجتياح أسراب الجراد الذي أتلّف المزارع الأشجار المثمرة وقد قامت السلطات الفرنسية بجلب الحبوب من كل الجهات وكانت توزعها على السكان المحتاجين عن طريق المكاتب العربية، وقد ذكر العنتري بأن أحوال الناس تحسنت ونزلت أسعار الحبوب حت ان العنتري أثني على جهود السلطات الفرنسية طيلة فترة القحط التي مرت بها البلاد.²

إن تراجع العملية الإنتاجية لم يرتبط فقط بحالة الاضطراب وإنما باجتياح جديد لوباء الكوليرا القاتل في سنة 1837م، وعمقت العوامل الطبيعية الجراح بجفاف قحط سنة 1838م بالإضافة إلى الجائحة التي أصابت الزروع خلال شتاء تلك السنة مدمرة الاحتياطات الموجودة في المطامير ويقول العنتري في 1838م: "تدمرت المطامير وماتت الكثير من الحيوانات والمواشي بسبب تلك الكارثة"، خاصة أن أحمد باي قبل هذه الأزمة قد دمر الاحتياطات من القمح مع توجه الحملة إلى قسنطينة، وبذلك قضى على السند الذي كان يؤمن من المجاعة وحرثة الأرض سموات القحط.

1 - نفسه، ص16

2- نفسه، ص ص 53، 51.

اكتملت عناصر الأزمة في الريف القسنطيني بأزمة مالية خلقتها المضاربة النقدية التي استغلت بشكل كبير خاصة في فترات الاشداد فيما بين 1838-1839م والتي أرهقت الفلاحين، ومما جعل الخسارة مضاعفة وأكثر عمقا رعونة السلطة وجشع اليهود، حيث أقرت عملية التبادل بالعملة الفرنسية والاسبانية والتلاري وبديل الريال بيجو الذي فقد قيمته بعد الاحتلال، وأدى التبادل غير المتكافئ بين الفلاحين والقطاع الاستعماري إلى إرهاب الفلاحين، وخاصة أن الحركة المالية النقدية تزايدت بقوة خلال الأزمة مما خلق اختلالات وفقدان الأرزاق، فبيعت الأملاك بأرخص الأثمان وانتشرت عملية الربا والرهن والتي تمثل ظواهر مالية ناتجة عن أي أزمة، وساهم كل ذلك في تقهقر الاقتصاد الريفي وتراجع القدرة الشرائية من 5 إلى 6 مرات عما كانت عليه، مما يظهر أن الأزمة المالية والنقدية فقد عمقت الجراح وأدت إلى إعادة توزيع الثروة والأملاك ونمو ثروة المضاربين¹.

أندر مع استمرار الأزمة بوقوع الكارثة، ففي رسالة وجهت إلى الجنرال الحاكم العام في 1838م تؤكد بأن حالة فقدان الغذاء قد مست المجتمع، وأكدت التقارير أنه في هذه الظروف لا يمكن تحقيق المستوى الأدنى من المعيشة، رغم هذا يقارن العنتري عمق الأزمة بمجاعة 1804م فيقول: "إن الضرر الفادح لم يحدث للضعفاء". لكن محاصيل 1840-1841م كانت أفضل حالا فأنقذت المجتمع الريفي من أزمة حفظتها الذاكرة الشعبية باسم "عام الطين الحمراء"².

- سنوات بين 1840-1845م:

¹ - جمال الدين سعيدان: المرجع السابق، ص 72.

² - العنتري: المصدر السابق، ص 48.

اعتبرت سنة 1840 انفراج من المجاعة لبابيك قسنطينة إلا أن حملات الغزو لإخضاع القبائل بالإضافة إلى الاضطرابات التي أحدثها صراع أحمد باي في وجه الاحتلال الذي أخذ في التوسع بالبابيك وتأكيد سيطرته خلال هذه المرحلة ووقد أحدثت اضطرابات في الوضع المعيشي ولا ندخل هنا في تفاصيل الغزو والحملات التي قادها قادة عسكريون من "تيقيري" إلى "بيدو"، في هذه الفترة الاخضاع ومواجهة مقامة أحمد باي وإنما نحاول ابراز أثرها على الوضع المعيشي.

ارتكزت سياسة الاحتلال على اتلاف الأرزاق والإمكانيات المعيشية للقبائل باجتياح الحقول والمراعي وحرقها ونهب وقتل القطعان (سياسة الأرض المحروقة)¹ وتؤكد شهادات "ديفو" في مذكراته هذا الأثر: "إن الغزوات الهجومات العديدة والحرائق حطمت مخازن الحبوب في بني ولبان في منطقة برج بوعريريج وفي زرداية لدى أولاد جبارة"². والغرض من ذلك الإذلال والإخضاع للأهالي واجبارهم واکراههم واخضاعهم.

كما أن رسائل "الدوق دومال" في 09 جوان 1844م بخصوص قبائل بلزمة تؤكد ذلك إذ يقول: "... ضربناهم وسطونا على أرزاقهم وبساتينهم وطردهناهم من أراضيهم..."³، بذلك فقدت القبائل مقومات عيشها وفرت من أراضيها وتركت أرزاقها وثرواتها كما فرضت غرامات حرب باهضة على التي أبدت مقاومة ففي تقرير عن غرامات الحرب المدفوعة في 1843م في الشرق

1 - نفسه، ص 49.

2 - اندري نوشي وآخرون: المرجع السابق، ص333

3 - نفسه.

الجزائري قدر معدل الدفع بـ 865192 فرنك مما يؤكد ثقل الغرامات وأثرها على تغيير الوضع المعيشي¹.

ومما زاد من تفاقم الوضع نمو الصادرات والمضاربات التي شملت الأملاك خلال هذه الفترة خاصة منها الأملاك الحضرية- الريفية والتي جاءت قوانين 01 أكتوبر 1844م لتشجيعها مركزة على زيادة المصادرات تحفيز المضاربة العقارية²، يضاف إليها مسألة الاحتكار التجاري تجه الحياة الاقتصادية في المقاطعة إلى مسارات تجارية جديدة خاصة بعد احتكار الدولة للتجارة الخارجية وتحكمها في الصادرات والواردات مما خلق حالة اختلال اقتصادي وقضى على متنفس اقتصادي للمقاطعة، وفسح المجال أمام احتكار تجاري خنق الاقتصاد الريفي، حيث تكبدت التجارة في المقاطعة عدة ضربات مع ارتباط اقتصادي تجاري للمقاطعة مع المتروبول لا يستفيد منه الفلاح دائما وإنما يكون ضحية للاستغلال والمضاربة، هكذا كان أثر إدماج اقتصاد ريفي تقليدي مع اقتصاد رأسمالي ليبرالي يتعرض لانعكاس أي تذبذب في اقتصاد الوطن الأم، وبذلك سيكون له أثر بالغ في الاقتصاد التقليدي هذا ما يظهر في سنوات 1845-1850م³.

تتبع كرونولوجيا إشارات المصادر لا يبرز تأثير الجفاف كمسبب للأزمة وتراجع محصول المواسم الفلاحية لسنوات 1845-1846-1847م، إلا مع بداية موسم 1846-1847م حيث جاءت المحاصيل سيئة خاصة مع الجراد، لكن يظهر تأثير الجفاف في السنة الزراعية 1847-1848م أي في فترة قمة الأزمة، أين تكاثفت مجموعة عامل عمقها العامل المناخي ورداءة المحصول خلال السنة الزراعية 1847-1848م الناتج عن تراجع المساحات المزروعة، هذا

¹ - جمال الدين سعيدان: المرجع السابق، ص 74.

² - جلال يحي: السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1960، دار المعرفة القاهرة، ص 224.

³ جمال الدين سعيدان: المرجع السابق، ص 75.

التراجع الذي يؤكد انخفاض كميات العشور المدفوعة خلال هذه السنة مقارنة مع سابقاتها، وزاد في أثر العامل المناخي حل الشتاء البارد مع امطار طوفانية امتدت من ديسمبر إلى فيفري مما أدى إلى انجراف البذور المزرعة انعدامها وكانت هذه الظروف المناخية أكثر تأثيراً في المناطق الجنوبية من المقاطعة مفضيه إلى ضعف انعدام المحاصيل وموت الماشية مما خلق المجاعة¹.

وبالفعل أحدثت هذه الظروف خسائر وأهلكت القطعان، ليس فقط في السهل العليا إنما أيضاً في المناطق الساحلية التي مستها، مثل قبائل ساحل بونة التي ضيعت 3/1 من حيواناتها (الحشاشة، المشمولة، الغمامسة، العمارنية، قبيلة الحنانشة الرعوية تكبدت خسائر كبيرة)، وفي دواخل الإقليم كانت الخسارة أكبر، كما قطعت أمطار الشتاء ما بين 1847-1848م الاتصالات بين مناطق التبادل بين سكيكدة وقسنطينة لتعرقل الطرق ووسائل نقل الحبوب، وهذا ما أدى إلى فقدان الغذاء².

بدأت اجتياحات الجراد الألى للريف القسنطيني منذ سنة 1845م وتشير تقارير 1845م إلى أن كافة قبائل المقاطعة قد شهدت في هذه السنة هجمات الجراد خاصة منها قبائل التل، إلا أن الأوصاف لتلك القبائل زرعت بشكل اعتيادي إلا أن المشاكل برزت في أهم مناطق إنتاج الغذاء، ففي سنة 1845م وفي قبائل التل خاصة منطقة السهول العليا سمح لافاسير لهؤلاء باستغلال السبخات تجنباً للقط، إذ كانت خسائر الجراد أكثر أهمية في قبائل مجانية وأولاد عبد النور التي خرب 5/1 حصادها، بالإضافة إلى قبائل الجبلية والساحلية في جهات قالمة، إلا أن الخسائر لم تكم بالحجم الذي يحدث الكارثة، أما مناطق سكيكدة المناطق الجبلية الأخرى فتقارير 1846م تؤكد

1 - نفسه، ص 76 .

2- جمال الدين حسين سعيان: المرجع السابق، ص76.

أنها كانت محمية من هجمات الجراد، وبذلك لا يبدو جراد 1845م سببا في تفاقم الأزمة لانحساره في بعض القبائل دن أخرى¹.

وشهدت سنة 1846م اجتياحا آخر للجراد بشكل متصاعد في فترات نضج الحبوب، ففي السهول خرب حصاد أولاد محبوب التي تمثل فرعا من السقنية مما اضطرها للهجرة كذلك الأمر أيضا في مجانة وقبائل التل الجنوبي والحضنة وفي القبائل الجنوبية وونوغة التي التهمت قمحها الجراد، إلا أن الشعير لم يهلك رغم أن معدل الحصاد كان منخفضا أقل من 2.3 قنطار/ هكتار، أما عند الحراكتة وأولاد محوش استمر الجراد إلى 1847م وكان أكثر خلال هذه السنة، وبعد هذه الفترة لا نجد ذكرا لاجتياحات الجراد حيث تتوقف التقارير عن ذكره.

وعن الحصيعة التي أحدثها الجراد فقد اختلفت في بعض القبائل من 2/1 إلى 3/1 إلى 5/1 من حصادها إلا أنها اقتصت فقط ببعض القبائل الأمر الذي يجعلنا نقر بعدم قدرة الجراد على إحداث الأزمة في الريف خاصة مع تعود المجتمع على ذلك، مما يؤكد أن تفسير الأزمة وفقدان الغذاء وتراجع المواسم الزراعية بالجراد بعيد عن الحقيقة، رغم أن العنثري يربط المجاعة باجتياح الجراد في المقام الأول².

أكدت حركة الاسعار الخروج من الأزمة مع أواخر سنة 1848م وبدايات 1849م التي شهدت انخفاضا إلى 15 فرنك لهكتولتر من القمح و6.25 فرنك للشعير، حافظت الأسعار على انخفاضها خلال 1849م مما يؤكد الخروج من الأزمة مع حصاد 1849م لتصل الأسعار إلى مستويات دنيا في سنة 1850م بهكتولتر من القمح الذي بلغ 8.66 فرنك وهكتولتر من الشعير

1 - نفسه، ص 77.

2- جمال الدين سعيدان: المرجع السابق، ص 77.

الذي بلغ 3 فرنك، هذا الانخفاض في الأسعار لم يحفظ حالة التدهور التي وصل إليها المجتمع الريفي مع استمرار فترات سوء التغذية والارهاق وأوبئة 1848م التي كانت مؤشرا فعليا على بلوغ مجتمع أهلي حالة العجز الغذائي وبذلك قضى على الأجساد الضعيفة وعلى قبائل بأكملها مع اشتداد الجوع عبر الريف على مبلغ التدهور واستمرار الأزمة بثورات بينت واقعا عاما خلال الأزمة، هذه الأزمة التي مثلت تجليا لقطيعة التوازن وحلول الاختلال في الوضع المعيشي للمجتمع الريفي¹.

وانجر عن ذلك ارتفاع في أسعار الحبوب ، وغلاء المواد الاستهلاكية العامة مثل: اللحم والسمن والتمر حتى بلغ سعر الصاع من البر برحبة البلد ما بين 80 و90 فرنك فرنسي، وضع السكان أملاكهم وعقاراتهم تحت تأثير الحاجة إلى النقود بما كانوا يقدمون عليه من إبرام عقود ربوية تحت أسماء مختلفة، أما سكان سكيكدة في سنة 1830م هذه المناطق البحرية كانت نظم 450 إلى 500 ساكن يعيشون في فقر مدقع ليست لهم زراعة ولا تجارة ولا صناعة يسكنون في بيوت طينية أو في أكواخ، الحقول أهملت والحدائق بدون زراعة سببه في الأخير قهر الاحتلال². وازداد عدد المهاجرين من يوم إلى يوم وكان هؤلاء الفقراء من الشعب ليس لهم من يحميهم من سكان الجبال من قبائل العشاش، الذين يأتون في وضح النهار يأخذن حيواناتهم ومنتجاتهم وحتى نسائهم³.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه السياسة الاستعمارية الجائرة يمكن تفسيرها والتي ترجمت من خلال العمليات العسكرية التي كانت مصحوبة دوما بمصادرات قاسية، شملت مصادرة الثروة

¹ - نفسه، ص84.

² - مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص125.

³ - عبد القادر قشوان: المرجع السابق، ص171.

الحيوانية، وغلل السكان، بالإضافة الى الأراضي الخصبة التي كانت وجوده في السهول الساحلية والداخلية، وهي المناطق التي شهدت الإبادة والمجازر والتي منها مناطق الجنوب القسنطيني، وباقي المناطق، وهكذا دفع سكان هذه المناطق ضريبة ثقيلة نهاية الخمسينيات، وكان ارتفاع الوفيات ان يعرض مستقبل شعب بكامله الى الخطر¹.

يتحدث مصطفى الأشرف في هذا الصدد عن تحدي المجتمع الريفي للاستعمار الذي قضى على اطارته وكفاءته واحل محلها الإقطاعية الأوروبية المرتزقة: " ان هذا المجتمع الذي ارغم على التخلي عن أرضه بطرق النهب والقوانين الجائرة، هذا المجتمع آل به الأمر الى الفقر والدمار بفعل مخططات خطيرة، ولكن المجتمع الجزائري صمد بعد الأن بكل الوسائل ولاسيما الوسائل السلمية وهلك منه من هلك في المجاعات والأوبئة ومع ذلك، حاول أن يصد ثغرة بفضل تجمع طاقات فئاته الاجتماعية، ولم يستلم"².

في الأخير يمكننا القول أن الانتهاك الاستعماري للعقار بجنوب بايلك قسنطينة أحدث خلخلة في التوازن الاقتصادي القائم سابقا فتغير الى اقتصاد الجوع الذي هو نتيجة لتحطيم الأساس الاقتصادي والاجتماعي للتنظيم القبلي، لأن سياسة الاستيطان التوسعية دفعت على حساب الممتلكات الجزائرية دفعت بالضرورة السكان الأصليين الى النزوح للمناطق النائية التي تفتقر لمؤهلات الاكتفاء الذاتي من الناحية الزراعية والرعية، هذه الظاهرة مست السواد الأعظم من

1 - محمد دادة: الأرياف الجزائرية في عهد الإمبراطورية الثانية، في مجلة العلوم الإنسانية، المجلد 12، العدد 2024، ص 45.

2 - نفسه.

السكان، حيث أنه أكثر من 90 بالمئة من السكان يمتهنون هاذين النشاطين الاقتصاديين دون أن نغفل عن الدور المأساوي الذي أدته الضرائب في مضاعفة مأساة هؤلاء¹.

ولم تكف إدارة الاحتلال بمصادرة الأراضي وتضييق الخناق على القبائل فحسب، بل سلكت بجانب ذلك سياسة عنف ممنهج، تتمثل في: التجويع الجماعي وسياسة الأرض المحروقة عبر إتلاف المحاصيل ومصادرة المواشي هذه الانتهاكات الصريحة لمقومات الاقتصاد الجزائري جعلت بالسكان يعانون الأمرين، الاستعمار، والفاقة فبالقضاء على الدعامة الأساسية في الاقتصاد الجزائري صار الأهالي عرضت لمختلف الكوارث والأزمات أتت على أعداد منهم².

3- أثره على الأوضاع الاجتماعية:

لقد كان لاحتلال البايك القسنطيني سنة 1837م، أثارا وخيمة على الواقع الاجتماعي لسكانة الجزائر عامة وقبائل جنوب بايلك الشرق خاصة حيث تجلت مظاهرها في العديد المجالات يمكننا ذكرها على النحو الآتي:

أ- انخفاض عدد السكان³:

اتبع بيجو سياسة تدريجية في تطبيق عمليات الترحيل للسكان، ورغم أنه كان يرى أن هذه العملية تشكل خطرا كبيرا على التواجد الفرنسي في الجزائر، وتخوفه من ردود الفعل القوية

1 - كوثر العايب ومحمد السعيد عقيب: استراتيجيّة الاستعمار الفرنسي في تفكيك القبائل الجزائرية خلال القرن التاسع عشر ميلادي وأثارها، في مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 05، العدد 01، 2021، ص 1243.

2 - نفسه.

3 - حول تعداد سكان ايلة الجزائر والجنوب القسنطيني ينظر الملحق رقم: 21-44

للسكان عن طريق الثورة، لذلك كان يرفض الترحيل التدريجي، ولقد ندد بصراحة بهذه العملية، لكنه يعود ويصرح بضرورة لإتباع هذه الساسة ويصفها ببقعة الزيت التي تنتشر في انسيابية وليونة وهي المقولة الشهيرة له: "بقعة الزيت الشهيرة، حلم رجال ذوي اعتبار كبير؛" والتي مفادها أن الاستعمار مثل بقعة الزيت يجب أن تمتد بتأني دافعة العرب بأمامها¹.

إنها تدفع المرشحين إلى القبائل المجاورة والمناطق التي لم تصل إليها يد فرنسا، وتكون نتائج ذلك نقل أخبار غير سارة، تزيد في غيظ الجزائريين على حالتهم وسياسة فرنسا فيتناسمون همومهم وشقاهم، ويوحد صفهم بعدما يفهم الجزائريون أن مصيرهم هو مصير من سبقهم من المرشحين، هو المصير المحتوم عليهم هو الدفاع لبقائهم بحمل السلاح والمقاومة، وتبقى الحرب مستمرة إلى غاية إبادة الأهالي أو الغزاة².

وإن هذا الأسلوب يكلف فرنسا الكثير من الموارد المالية والمادية والبشرية، وتطول عمليات الاستثمار والاستيطان التي كانوا يرغبون في تجسيدها بأقل التكاليف، وفي هذا الصدد يصرح بقوله: "فكيف يمكننا إجبارهم على مغادرة البلاد؟ وترحيل العرب دفعة واحدة إلى القفار واحتوائهم فيها عمل أكثر استحالة من الأولى"³.

أما الحل السريع الآخر؛ فهو الإبادة الكلية، فإن بيجو لم يكن يقبل بها، لأن ذلك يزيد الجزائريين تلاحما وتآزرا وتوحدا، وهذا لم ترض به فرنسا لأن سياستها التي نجحت فيها هي سياسة تعتمد على التفرقة والتشتيت وسياسة فرق تسد، وأنها ترغب في عدم إظهار للشعب

1 - سيساوي احمد : المرجع السابق، ص 225

2 - نفسه، ص 258.

3 - نفسه، ص 259.

الجزائري أن فرنسا لم تأتي إلى الجزائر إلا بصيانة كرمتهم ومساعدتهم في هذا الصدد يصرح بقوله: " نتكلم عن الإبادة فهي ضد تقاليدنا"¹.

لقد أصبح هاجس المقاومات يهدد سياسة بيجو لأنه تحقق بأن سياسة الإبادة غير مجدية، فهي توحد القبائل وتجعل لهم الفكر الجمعي لأوضاعهم وحياتهم المهددة، التجأ إلى سياسة تذيب تميع المجتمع الجزائري باتباع سياسة التفرقة في هذا الصدد يقول: " أننا من جهة لا نستطيع ولا نريد ترحيل الأهالي ولا إبادتهم، لكن من جهة أخرى نقرر تأسيس مستعمرات"، فقد كان يفكر في تطبيق سياسة تمتاز بالمرونة والتي يمكن أن تتماشى مع الواقع، وهو ما يظهره المقتبس التالي: "أظن أنني قد قلت لكم عدة مرات أن اعتقادي السياسي ليس ترحيلهم إنما إشراكهم في الاستعمار، وليس تجريدهم وطردهم إلى أرض أخرى، وإنما التضييق عليهم في الإقليم الذي يملكونه عندما يكون هذا الإقليم كبيرا لعدد سكان القبيلة"².

وهي عملية سهلة ومربحة للغاية لأن أثرياء المدينة الذين فروا من مساكنهم وتركوا ممتلكاتهم في بيوتهم، لم يبق في المدينة إلا السكان الذين لم يتمكنوا من الفرار والأترك وبعض القبائل وطائفة من المحاربين وفئة من اليهود والمسنون والمساكين.

يشير الباحث "سديو" إلى هذه الأعمال الفضيحة لقول: " كان الفرنسيون ينهبون متاع الناس ويسلبونهم من غير تمييز بين الشيوخ المسنين أو الأطفال وعندما يستولون على أحد المنازل فإنهم يدمغون بابه (بجواز مرور) ثم يحكمون غلقه من الداخل ويختبئون داخل المنزل، ويكسرون أقفال الصناديق ولا يتركن متاعا إلا ويفتشونه، ثم يشرعون بهدوء تام في حمل ما يرق لهم"، ود

¹ - عبد الرزاق قشوان: المرجع السابق، 164.

² - نفسه:ص166.

وصل بهم الأمر إلى حمل هذه الأشياء الأمتعة وأقاموا بها نوعا من الأسواق الخاصة، يبيعون فيها هذه الأسلاب، يتبادلون ببعضها قد تبين فيما بعد أن أفر الغنائم والأساليب وأغلاها ثمنا كانت من نصيب قيادة الجيش وضباط الأركان¹.

ب- التهجير والاستيطان:

ومن بين أهم الطرق والمناهج التي استعملت في تحقيق السيطرة الكاملة على البلاد ومحاولة محو شخصية الشعب الجزائري التي تكونت بفعل التراكمات التاريخية، هو الاعتماد على عمليات تهجير السكان² الأصليين وإعمار مكانهم من الفرنسيين الأوروبيين، أو بمعنى آخر تطبيق سياسة الاستعمار الاستيطاني ومعناه التوطين في الأرض المحتلة، ذلك الذي يعد من أقدم أشكال الاستعمار، إذ تتوفر في هذه المستعمرات نسب كبيرة من المستعمرين بسبب الهجرة من البلد الأم لاستغلال ثروات هذه المستعمرة والإقامة فيها.

إن الاستيطان بصفة عامة هو أخطر أنواع الاستعمار، خاصة إذا ما تمكن من سلب مصادرة الأراضي من أصحابها في مقابل جلب المهاجرين وإتاحة لهم فرص الاستقرار الاستثمار فيها، وهذه الأخيرة كانت تجربة ونموذجا جربته فرنسا في الجزائر وحاولت تعميمه وتطبيقه على دول

¹ - عبد العزيز فيلاي: المرجع السابق، ص 113.

² - في اطار القضاء على حركات التمرد وقمع المقاومات الشعبية المنتفضة ضد ساستها نفذت الإدارة الفرنسية حكم الإعدام في حق المشاركين في المقاومات الشعبية التي اندلعت عبر التراب الجزائري كما أنها قامت بنفي العديد منهم الى مستعمراتها في قيان وكاليدونيا الجديدة، وكان هدفها من هذه الإجراءات مصادرة أراضيهم من جهة وتعمير بهم مستعمراتها البعيدة من جهة أخرى، ومنافسة في نفس الوقت بريطانيا المحتلة لأستراليا، وكان ذلك يندرج في اطار التنافس الدولي حول مناطق النفوذ الذي احتدمت حدته في القرن 17م بين الامبراطوريات الأوروبية الحديثة، ولهذه الاعتبارات عرفت ظاهرة النفي والتهجير انتشارا واسعا اثر فشل ثورة سنة 1871، وفي هذه الظروف أصدرت سلطات الاحتلال قانون الانديجينا- الأهالي- الذي حرم الفرد الجزائري حقوقه الطبيعية فكان يخضع في محاكمته الى قانون خاص. وقد سلطت جميع محتوياته على رقاب الجزائريين دون رحمه أو شفقة. للمزيد ينظر: C. R. -AGERON (2005), Les Algériens musulmans et la France 1871-1919, 2T. Paris, éd.

ومستعمرات أخرى، بالرغم من أن عملية اجتثاث الشعب من أرضه ليست بالعملية السهلة، وهذا ما وقع فعلا مع الاحتلال الفرنسي للجزائر. لقد عرف موضوع الاستيطان في الجزائر جدلا كبيرا حول إمكانية مباشرته قبل إكمال السيطرة وانتهاء الحرب¹.

وهذه إحدى الدلائل على تأثير الاستيطان على الناحية الاجتماعية للسكان المحليين فكلما زاد عدد المستوطنين كلما نقص عدد الجزائريين، وهي معادلة منطقية لما قام به هؤلاء المستوطنين بعدما تملكوا الأراضي وأملاك الجزائريين وطردوهم من مدنهم وحتى من وطنهم. ولقد باركت فرنسا خطواتها في تشجيع الهجرات بصفة عامة حين قامت حكوماتها بتشجيع هجرة الأوروبيين إلى الجزائر واستقرارهم فيها بمنحهم الأرض مجانا أو بأسعار رمزية تدفع في أجال طويلة، وبتجهيزهم بالعتاد، وامتدادهم بالقروض الميسرة، وتشبيد القرى، وتعبيد الطرق، ومد سكك الحديد، وبناء السدود، ومد قنوات الري، وتوزيع الكهرباء وغير ذلك من المرافق والخدمات².

وهذا ما يدل على حرص الاحتلال الفرنسي على تشجيع وتوسيع حركة الاستيطان لتمس مختلف الجنسيات الأوروبية، وتوطينهم في الجزائر والسعي لإغرائهم خاصة بمنح وتوزيع الأراضي الخصبة عليهم، بعدما تطلب ذلك انتزاعها قسرا من أصحابها الشرعيين تارة، ومن خلال إصدارها لترسانة من القوانين والتشريعات تارة أخرى، لنقوم بتوزيعها على هؤلاء المهاجرين والقادمين من مختلف أنحاء بلدان أوروبا، وبذلك يتخلص معظمهم من الفقر والبطالة التي كانوا يعانون منها في بلدانهم، إلى أن أصبحوا أصحاب أملاك وعقارات، وفي المقابل اضطر الكثير من الجزائريين إلى الهجرة والهروب إلى المناطق الجبلية والناحية والصحراء وحتى إلى خارج

¹ - عابد بيبى: المرجع السابق، ص 186.

² - بلح بشير: المرجع السابق، ص 251.

البلاد، خاصة إذا علمنا أن المجتمع الجزائري مجتمع زراعي والأرض ومنتجاتها هي مصدر وأساس رزقه¹.

إن عملية نزع الأراضي من أصحابها الشرعيين أدى إلى تصدع وخلخلة في البناء الاجتماعي والاقتصادي للسكان، حيث امتدت أثارها طيلة مدة الاحتلال، وقد اتبع الفرنسيون سياسة صارمة في اقتلاع القبائل من أماكنهم بالقوة ووضع مستعمرين أوروبيين محلهم، غير أن ذلك لم يكن حلا معقولا للمشكلة الاستعمارية إذا لم يكن من الميسور طرد جميع العرب والبربر نحو الصحراء وكان من الضروري احتلال الجبال والسهوب الداخلية ووضع خطة شاملة لتوزيع القلاع والحصون في أنحاء البلاد.

اجتهدت السلطات الاستعمارية الفرنسية وسعت لأجل تسهيل توطين المستوطنين بالمدن الجزائرية وإزالة كل العراقيل التي من الممكن أن تؤثر على استقرارهم فيها، بعدما أرغموا السكان الأصليين للمدن على النزوح منها كرها، لذا كان احتلال المدن سريعا على خلاف القرى والريف الذي كان بطيئا، فحاجة المستوطنين لدور ومساكن المدن كانت من أولوياتهم، وقد أسفرت هذه السياسة عن انتشار المستوطنين وتركيزهم في المدن الكبرى لتوفرها على البنية التحتية من دور ومساكن ومحلات تؤدي عرض الاستقرار لهؤلاء المستوطنين، الذين أصبحوا يكتفون بالأغلبية في المدن الكبرى².

لم تعرف البدايات الأولى للاحتلال الفرنسي ابناء القرى الاستيطانية بشكل كبير في الجزائر، إلا أنه مع زيادة الهجرات تم التفكير في بناء قرى استعمارية، حيث تم بناء قريتين فقط على

¹ - عابد بيببي: المرجع السابق، ص 188.

² - نفسه، ص 189.

المستوى الوطني سنة 1835م، لكنه بداية من سنة 1850م تم بناء 126 قرية استعمارية شكلت المقاومة التي قادها الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي عائقا مهما أمام سياسية الاستيطان والتي أربكتها لمدة عقدين من الزمن على الأقل، وما إن جاءت سنة 1850م حتى بلغ عدد الأوروبيين المدنيين في الجزائر 130 ألف، فأصبح الغزو مدنيا واقتصاديا بعد الغزو العسكري، وبانتهاء العمليات الحربية تبين للسلطات الفرنسية أنه من الميز للمعمرين أن تقضي على وجود الجزائريين إلى حد أدنى من الأراضي، إن تغيير الحكم في فرنسا من نظام ملكي إلى نظام جمهوري لم يتبعه تغيير يذكر بالنسبة للسياسة الفرنسية في الجزائر¹.

بعد نجاح الحملة العسكرية تبعها المهاجرون من كل الأصول، الفرنسيون والاسبان والايطاليون هاربين من البطالة والفقر، وهكذا صارت الجزائر مستعمرة استيطانية لكل أولئك الأوروبيين الذين كانوا يبحثون عن أحسن ظروف الحياة أو عن الثراء فكان لا بد من تمكينهم من الأراضي المنبع الأول للثراء والعمل على بناء القرى والمدن وأن تستغل الثروات الباطنية وتحت تأثير السلطة العسكرية أراد هؤلاء القادمون الجدد أن يكونوا قادة المؤسسات الإدارية المماثلة للوطن الأم وأن يتعاملوا كالسادة مع الجزائريين².

المرحلة الثانية: وتمتد من عام 1844م إلى 1845م يتم فيها إعداد الظروف لاستقبال الهجرة الأوروبية التي قدرها بيجوب ب 4000 عائلة سنويا تكون في مقاطعة قسنطينة وحدها³.

إن فئة الفرنسيين والأوروبيين الوافدين إلى الجزائر والمستقرين في الرق الجزائري، أول استقرارهم كانت المدن الكبرى والسكنات التي كانت في يد السلطة العثمانية، وكأنها حقا الوريثة الرعية للسلطة

¹ - عابد بيبى: المرجع السابق، ص190.

² - نفسه: ص191.

³ - عبد القادر قشوان: المرجع السابق، ص159.

العثمانية، ثم بدأت تنتشر أين تتواجد المراكز العسكرية لتكون في مأمن من أي هجوم أو مباغطة من طرف السكان، وهذا ما استدعى بعد فترة من امتلاك الأراضي التي وزعتها عليهم السلطة بطريقة بأخرى واصبحوا يشيدون القرى الاستيطانية التي تحولت بعد ذلك إلى مدن ذات الطابع الكولونيالي الاستيطاني¹.

وفي سنة 1845م، أصدر الجنرال بيجو أمرا بالاستلاء على أراضي القبائل التي تعادي فرنسا وتؤيد الأمير عبد القادر وبموجبه استولت الإدارة الفرنسية على حوالي نصف مليون هكتار في جهات كثيرة من البلاد، وفي العام الموالي سنة 1846 أصدر أمرا آخر للاستلاء على أراضي القبائل المشاعة، وتحويل ملاكها الى عمال اجراء فيها، خاصة إذا ما عجزوا عن اثبات ملكيتهم بعقود تعود الى ما قبل شهر جويلية 1830. وبما أن معظم أراضي القبائل مشاعة وجماعية وعقود الملكية بينهم نادرة لان البيع والشراء، كان يتم عن طريق العرف، ومجالس الجماعات، فإن السلطات الاستعمارية تعمدت إصدار هذا الأمر والقرار حتي تتمكن من الاستلاء على المزيد من الآلاف الهكتارات ويمكن تلخيص مشاريع بيجو الاستيطانية في النقاط الآتية²:

- مصادرة أملاك أراضي الأوقاف الإسلامية.
- مصادرة أراضي المخزن أو الدولة العثمانية.
- وضع الحراسة القضائية والإدارية على أراضي الفارين والهاربين.
- تفتيت أراضي الأعراش وتوزيعها بواسطة قوانين ومراسيم. وفي ما بين أعوام 1842-1845م أنشا 35 قرية استيطانية وارتفع عدد المهاجرين الأوربيين حتى وصل الى 46180 شخصا

¹ - نفسه: ص365.

² - يحي بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري، والحركة الوطنية الجزائرية، 1830-1945 ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، الجزائر، ص ص 9-10.

وابتكر سنة 1844 أساليب جديدة في نزع ملكيات الأهالي، واستولى بمقتضاها على 132 ألف هكتار انشئت عليها 27 قرية استيطانية.

يمكننا القول أن سياسة الاستيطان والتهجير وتجريد الأهالي من أراضيهم وتقليص مساحات الأراضي قد خلق اضطرابا لدى القبائل، حيث سارعت المكاتب العربية إلى تهدئة بكل الطرق والوسائل وبهذا نقول أن الاحتلال حرم القبائل الجزائرية من مصدر عيشها وعمق الأزمة لدى القبائل المنتشرة حول بايلك الشرق بخلقه قبائل دون موارد عيش مختلفة¹.

ويؤكد مصطفى الأشرف على العوامل البشرية حيث يقول: " كان الهدف الصريح أو الخفي للاستعمار، هو إبادة الشعب الجزائري، وإحلال شعب آخر محله ولنا ادلة قوية على حرب الإبادة بنتائجها المباشرة وغير المباشرة أدت بين 1830-1870 إلى هلاك عدة ملايين من السكان والضحايا، وهم سكان الأرياف الذين اهلكتهم المجاعات واعمال التدمير والمعارك الطاحنة والتشريد"².

ج- تشجيع الآفات الاجتماعية:

يتجلى انعكاس سياسة الإدارة الفرنسية تجاه الأوقاف الاسلامية من خلال انتشار ظواهر اجتماعية سلبية في المجتمع الجزائري، حيث أدت كل هذه المحاولات التعسفية الفرنسية من عمليات المصادرة والاستيلاء، إلى توقيف وامتناع الأفراد من تحبيس أوقاف جديدة، وبالتالي ضاعت فئات من المجتمع من خلال ارتفاع معدلات البطالة، بسبب فقدان الجزائريين لمصدر رزقهم، فأصبح المجتمع من الفقر والحاجة، وترتب عنها أيضا تصاعد نسبة الأمية وانتشار

¹ - جمال الدين حسين سعيدان: المرجع السابق، ص 80.

² - محمد دادة: المرجع السابق، ص 45

الجهل والآفات الاجتماعية بسبب تدهور مستوى التعليم وعزوف الناس عنه ل فقرهم واختفاء الطبقة من علماء وطلبة، إما بالتهجير أو بالتهميش، وما تقاصرت عن إدراكه همجية الاستعمار تكفلت به الحوائج التي ساهمت سياسة الإبادة الفرنسية في استفحالها، فانتشرت الأمراض وظهرت المجاعات سنوات (1866-1869م) وأودت بأرواح الكثير من الجزائريين، وبذلك فقدت الجزائر الكثير من أبنائها، وتراجع عدد سكانها من حوالي 03 ملايين سنة 1830م إلى نحو 205 مليون سنة 1852م، وظل هذا العدد من السكان يراوح مكانه حتى سنة 1870م¹.

لم تكن الفترة الفرنسية خالية من الأزمات الطبيعية التي تركت مجاعات وآثارا اقتصادية واجتماعية سيئة على سكان الشرق الجزائري، ومن أهم هذه الآثار التي خلفتها انتشار الأمراض الفتاكة والأوبئة القاتلة مثل التقييس والكوليرا وضياع الثروات والمداخل وهجرة السكان وإهمال مناطق الإنتاج، وقلة مدخرات المنطقة وبيع العقارات والأراضي تحت ضغوط مختلفة، خاصة سلطة البايليك وسياسة جباية الضرائب وظروف أخرى قاهرة².

لقد تأثرت الفئات الاجتماعية في مستوى معيشتها في الفترة العثمانية، باجتماع جملة من العوامل الطبيعية (الجفاف وانتشار اسراب الجراد وانتشار الأوبئة الفتاكة) والبشرية (تمرد القبائل وارتفاع الضرائب والحملات العسكرية التأديبية) وزادت الفاقة وانتشرت البطالة وعزف الناس عن ممارسة مهنتهم، ذلك كله استمر بأكثر حدة في الفترة الفرنسية فهجرت قبائل مضاربها وابتعدت عن هول الاستعمار واعماله التعسفية واصبح الفرد الجزائري لقمة سائغة أمام استعمار لا يرحم ولا يهتم سوى مصالحه الاستغلالية لتجسيد الاستيطان والاستغلال العنصر الطبيعي والبشري، حيث جاءت سنة

¹ - البشير بلاح : المرجع السابق، ص.163.

² - عبد القادر قشوان: المرجع السابق، ص170.

1867-1868م سنة المجاعة التي اهلكت الكثير من الأفراد وخلت المدن والأرياف من سكانها أم سياسة استعمارية استغلالية لا ترحم¹.

د- الاستيلاء على الأوقاف:

نظرت سلطات الاحتلال الفرنسي بالجزائر إلى الوقف على أنه أحد المشاكل العويصة والقضايا الصعبة التي تحد من سياسات الاستعمار وفي هذا الشأن قال seys: هو أحد الكتاب والقانونيون: "إن الأوقاف تحد من السياسة الاستعمارية وتتنافى مع المبادئ الاقتصادية التي تقوم عليها وجود الاستعمار الفرنسي بالجزائر"، لقد كان الوقف في حد ذاته وسيلة اقتصادية فعالة، تحول دون المساس بالمقومات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية للجزائريين وهذا ما دفع قادة الجيش الفرنسي للعمل على مراقبة المؤسسات الدينية وتصفيتها، والاستيلاء على الأوقاف التابعة لها بشتى الوسائل، باعتبارها أحد العوائق التي كانت تحول دون تطور الاستعمار الفرنسي².

- أساليب وأهداف الإدارة الاستعمارية من الاستيلاء على الأوقاف:

شهدت المؤسسات الوقفية في الجزائر العثمانية تنظيماً إدارياً وقانونياً عريقاً، لكن عراقة قانونها داسته همجية التعليمات والنصوص الاستعمارية، والتي لم تكن في الأصل إلا خدمة لهذا الاحتلال، والتي كانت تصدر تباعاً، وعلى هذا الأساس سارعت الإدارة الفرنسية إلى أخذ الاحتياطات

¹ - نفسه.

² - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، ص 165.

الضرورية واللازمة لتغيير مضمون أملاك الحبوس، تماشيا مع مصالحها وقد جاء هذا التغيير ضمن مجموعة من التشريعات وسلسلة من القوانين والمراسيم¹.

إن طبيعة الأملاك الوقفية في الجزائر تتعارض وإدراجها ضمن المعاملات العقارية والوسيلة الوحيدة التي تؤخذ بها هذه الأملاك، إما بالقوة عن طريق المصادرة والسلب، أو استعمال قوانين عقارية جديدة²، لذلك وبمجرد الاستيلاء على مدينة الجزائر وقع الغدر بالمادة الأساسية في معاهدة الاستسلام، وهي المادة التي تنص على احترام الأملاك واحترام الدين الإسلامي³.

أما الأوقاف فقد بقيت في يد وكلائها المسلمين إلى حين من الزمن، ويقدم الجنرال كلوزيل مباشرة، اتخذت الإدارة الفرنسية الخطوة الأولى بشأن الأوقاف، تمثلت في قرار 08 سبتمبر 1830م الذي أصدره هذا الأخير وتضمن مصادرة أوقاف الحرمين (مكة والمدينة) فكانت أول ضربة توجه للإرث الوقفي وأول ثلمه تفتح في الهيكل الاجتماعي للجزائريين، ويعتبر كلوزيل من أكثر الضباط الفرنسيين تحمسا لسياسة الاستعمار الاستيطاني، وامتاز عهده بالغطرسة والارتجال والمغامرة والعنف ضد الجزائريين في المدن والأرياف، وتميزت مدة حكمه بمشاريع الاستعمار والتنظيم الإداري في مجالات عديدة اقتصادية والتوسعية⁴.

ويعد قرار 08 سبتمبر 1830م هو الأول الذي أصدره كلوزيل بشأن الأملاك، وهو حجز كل الدور والدكاكين والمخازن والحدائق والأراضي والمحلات والمؤسسات مهما كانت والتي يشغلها

¹ - بوعزة بوضرساية وآخرون: الجزائر الفرنسية والإبادة الجماعية خلال القرن 19م، الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، 8111 ص 204.

² - محفوظ قداش، جزائر الجزائريين تاريخ الجزائر، 1830-1954 الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، 2008، ص152.

³ - Aumerat, La propriété urbaine à Alger, in R A, V 889, p p 168- .

⁴ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص70

الداي والبايات والأتراك الذين خرجوا من الجزائر أو التي يشغلها أناس باسمهم وضمها إلى أملاك الدولة، كما غير كلوزيل الموقف أيضا من الأوقاف، فقد أمر بضم المؤسسات التابعة لمكة والمدينة أيضا إلى (الدوامين)، كما أمر المكلف بإدارة أملاك الحرمين بأن يدفع إلى صندوق أملاك الدولة كل ما تحتفظ به من أموال، وأن يسلم في نفس الوقت جميع الدفاتر والسجلات، مع إبقاءه في منصبه، والغريب فيما نص عليه القرار الجائر ضرب أجل ثلاثة أيام فقط للاستظهار بإثبات الملكية، إلا فإن سلطات الاحتلال تصادها بدون انتظار، وإن كثيرا من أصحاب تلك الأملاك غائبون أو منفيون فكيف لهؤلاء أن يستدركا الوضع لإثبات حقهم أو أن يحتجوا¹.

وحسب ما أورده حمدان بن عثمان خوجة في مذكراته أن الإجراءات الجديدة التي سنتها السلطات الفرنسية، فإن الفقراء لا يحصلون إلا على جزء من موارد هذه المؤسسات أما الباقي فيدفع لصندوق أملاك الدولة، وتلك لم تكن نية المؤسسين، ويعد ذلك تغيير لوجهة تلك الأوقاف، وحصل انتهاك لحقوق الإنسان كما أن هذه الإجراءات الظالمة ولا أخلاقية، وإنما تدخل اليأس على سكان الإيالة وتجعلهم يكرهون سائر الأوروبيين بوجه عام².

لقد لقي ضم الأملاك الوقفية التابعة لمكة والمدينة إلى أملاك الدولة استنكارا واحتجاجا كبيرين، وقد جاء هذا الاحتجاج من العلماء والمفتيين وعلى رأسهم ابن العنابي، والأعيان والوكلاء، الذين أوضحوا أن الأوقاف لها قدسيته وأنها لا تمس، وأن لها أغراض دينية وتعليمية واجتماعية أخرى، بالإضافة إلى أن الأوقاف ليست ملكا للأتراك، وإنما هي جزائرية من مصادر مختلفة.

1 - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص ص 74-75.

2- حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص ص 239-240.

لكن هذا القرار مع صرامة لهجته لم ينفذ كله، فقد طبق منه ما يتعلق بالمباني العامة وأجل منه ما يتعلق بالمساجد، ومع ذلك فقد وضعت الإدارة الاستعمارية يدها على شيء في الأملاك الدينية، واستمرت إدارة أملاك الدولة تشرف مباشرة على أوقاف مكة والمدينة والأندلس وسبل الخيرات وبيت المال، بينما تركت الكلاء مؤقتا يؤدون خدمتهم في المساجد والزوايا القباب ووضعهم تحت الرقابة الإدارية الضيقة.

أقدمت سلطات الاحتلال عن طريق الجنرال كلوزيل الى اصدار قرار 08 سبتمبر 1830م، وهو قرار مكمل ومدعم للقرار السابق، الذي لم يشرع في تنفيذه إلا في 7 ديسمبر 1830 والذي أمت بموجبه أوقاف الممتلكات الإسلامية¹، ووضعها تحت تصرف مصلحة أملاك الدولة، ويشمل ذلك أوقاف مكة والمدينة والمساجد والأندلس وسبل الخيرات وبيرها، وكان يحتوي على ثمان مواد منها²:

جاء في المادة 01: أن كل المنازل والمتاجر والدكاكين والبساتين والأراضي والمحلات وأية مؤسسة مهما كانت لها ريع مهما كان عنوانه، موجهة إلى مكة والمدينة أو المساجد أو جهات محددة، ستكون مستقبلا تحت إدارة الدومين، وهي التي تؤجلها وهي التي ستحصل منها على المداخل تقدم عنها الحساب إلى من يهمله الأمر³.

أما عن المادة 04: فتقر على أنه خلال ثلاثة أيام سيضع المفتون القضاة والعلماء (وهم المقترحون إلى الآن لتسيير المؤسسات المذكورة لدى إدارة الدومين)، الأسماء وعقود الملكية

¹ - إبراهيم لونيبي: بحوث في التاريخ الاجتماعي والثقافي للجزائر ابان الاحتلال الفرنسي، دار هومة، الجزائر، 2013، ص 222

² - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، ص 77.

³ - Albert Dévolux, Les édifices religieux de l ancien Alger, in R A, V , pp 44-45 .

والسجلات والثائق التي تهم تسييرها، وكذلك قائمة اسمي بالمحلات، وعليهم أن يكتبوا عليها أيضا مبال الإيجار السنوي لها وآخر دفع مستحق.

أما المادة 05 : فهي تلزم مسيري الأملاك الدينية على تقديم كل شهر عرضا أ كشافا إلى مصلحة أملاك الدولة، يتضمن مصاريف الصيانة والخدمات الخاصة بالمساجد وأعمال الإحسان وغيرها من المصاريف التي كانت في العادة تؤخذ كمعونة من مداخيل هذه الأملاك، كما يتم الدفع كل شهر مسبقا وهذا ابتداء من 01 جانفي القادم، وكل هذا لا ينطبق على أوقاف المساجد والزوايا ونحوها وبهذه الطريقة تخلصت مصلحة أملاك الدولة من مسؤولية التعليم والمدارس الاسلامية والمساعدات العامة للفقراء¹.

أما المادة 07 فقد نصت على: أن كل شخص يكشف للحكمة عن وجود بناية غير مصرح بها سيكون له الحق في نصف الغرامة التي ستفرض على المتسترين².

ودعم هذا القرار بقرار آخر صادر في 1 أكتوبر 1844م ينص صراحة على ان الوقف لم يعد يتمتع بصفة المناعة وانه بفعل هذا القرار أصبح يخضع لأحكام المعاملات المتعلقة بأملك العقارية الامر الذي سمح للمعمرين بالحصول على مساحات شاسعة من هذه الأراضي التي كانت تقع بضواحي مقرات الباياليكات. و الى جانب هذه القرارات التي خصصت للأوقاف بشكل عام هناك قرارات أخرى تصدر من حين الى آخر لوضع اوقاف جهة معينة تحت تصرف الدومين مثل ذلك

1 - بو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي -1830-1954، المرجع السابق، ص ص 161-162.

2- Aumerat, La propriété urbaine à Alger, in R A, V , p172

القرار الصادر في 4 جوان 1843 الذي ينص على أن كل البيانات التي يرجع دخلها تحت وصاية مصلحة أملاك الدولة الفرنسية¹.

إن الجانب الخطير في هذه القوانين أن الإدارة الاستعمارية تحاول ضرب روح الأخوة والتضامن عند الجزائريين، وتزرع العداوة، وتعمل على استهواء ضعاف النفوس مقابل عرض مادي خدمة للاحتلال. ومهما يكن فإن هذا القرار قد مكن الإدارة الفرنسية من وضع اليد مباشرة على كل الأوقاف، باستثناء المساجد والزوايا والأضرحة، فقد أبقّت وكلائها يديرونها وقد قال "ميشال هبار" في هذا القرار: "إن هذا القرار قد كان ضربة للدين والثقافة الإسلامية لانعكاس آثاره على الحياة الدينية والاجتماعية للسكان"².

4- مظاهر التكافل الاجتماعي لمواجهة سياسة الاحتلال الفرنسي:

أما أسرة الحنانشة، فقد وقفت هي الأخرى إلى جانب الحاج أحمد باي في دفاعه عن مدينة قسنطينة، لأن الشيخ رزقي قائدها كان ضمن القادة الذين نكروهم الحاج أحمد باي في مذكراته، وذلك في معرض حديثه عن الزعماء الذين لبوا نداءه لمواجهة الاحتلال الفرنسي حينما كان يهدد مدينة قسنطينة.

ويبدو أن أسرة الحنانشة كانت علاقتها بالحاج أحمد باي تشبه إلى حد ما علاقة أسرة المقراني بهذا الباي، فإن كانت مواقف هذه الأخيرة متباينة من هذا الباي بين مناصر ومعارض له، فإن أسرة

¹ - إبراهيم لونيبي: المرجع السابق، ص 222-223

² - بشير بالمهدي علي: "السياسة العقارية الاستيطانية الفرنسية اتجاه الوقف أو الحبوس في الجزائر"، أعمال الملتقى الوطني الأول والثاني حول العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، 1830-1962 الجزائر، منشورات وزارة المجاهدين، 2007، ص 207.

الحنانشة كانت هي الأخرى كذلك إلا أن الفرق بينهما أن هذه الأخيرة انتصبت شوكة في حلق الاستعمار رغم الخلافات القائمة بين بعض زعمائها والحاج¹.

رغم ما تكبده الجيش الفرنسي في جبهة النمامشة من خسائر كبيرة إلا أن فيلق فلوني الذي انطلق من باتنة وخنشلة نحو نقرين أجبر أولاد خليفة وأولاد سيدي عبيد على اللجوء نحو تونس².

ومن مظاهر التقارب والتكافل التي تتحدث عنها المصادر التاريخية بين قبائل جنوب بايلك قسنطينة، المصاهرة والتقارب الاجتماعي الذي كان دوما من العوامل المحركة لتناسي الأحقاد بين القبائل المتصارعة حيث أنها تضطر الى مواجهة العدو معا من اجل الحفاظ على بقائها.

ثالثا: علاقة الأسر الحاكمة بالسلطة الفرنسية:

بعد الاستيلاء على بايلك الشروق وسقوط مدينة قسنطينة سنة 1837م، ومع تطور حركة الاستيطان واستمرار عمليات الغزو والاحتلال لباقي مناطق المقاطعة دعت الحاجة إلى توسيع هذا النظام الإداري ليشمل مناطق أخرى جديدة. و بموجب مرسوم صدر في 30 سبتمبر، 1838م تقرر أن يعهد بتسيير المناطق الداخلية من المقاطعة للسكان الأصليين بمنحهم مناصب وألقاب متعددة كالخليفة و القايد والشيخ، كما تقرر أيضا أن يتشكل مجلس إدارة مكون من ثمانية من المواطنين جزائريين وثلاثة من كبار المسؤولين الفرنسيين ومن بينهم القائد الأعلى كرئيس، يتولى هذا المجلس اتخاذ القرارات بشأن جميع القضايا ذات الاهتمام العام والجانب المالي المتعلق بالمحافظة وتنفيذا للمرسوم السابق الذكر قسمت المحافظة إلى خمس مناطق كبيرة على رأس كل منها خليفة وذلك على النحو التالي:

¹ - العياشي رواجي: المرجع السابق، ص 370.

² - مختار هواري: المرجع السابق، ص 73.

- خلافة الساحل تحت قيادة ابن عيسى وتشمل المنطقة الممتدة من جيجل إلى الإيدوغ.
- خلافة فرجوية وأسندت القيادة عليها لأبن الحملاوي وتشمل المنطقة الممتدة بين قسنطينة وسطيف.
- خلافة مجانة بقيادة المقراني وتشمل الجزء الغربي من المقاطعة.
- قيادة العواسي الخاصة بقبيلة الحراكته الكبيرة عين على رأسها علي بن بن أحمد¹.
- منطقة الصحراء والزيان فقد عين على رأسها ابن قانا ومنح لقب شيخ العرب ، بعد أن عرض استسلامه و خدماته للسلطة الجديدة² حيث ذهب إلى قسنطينة بنفسه، وقدم عرضه هذا للجنرال غالبوا وجاءه الرد بعد مدة، وتم قبوله و تنصيبه شيخا للعرب في جانفي 1839م³.
- هذا إضافة إلى تعيين قادة بعض القبائل الكبرى كالحنانشة وعامر الشراقة وغيرهما، ومع غزو القوات الفرنسية لمناطق أخرى في المقاطعة وضمتها للمناطق المحتلة توسع النظام الإداري ليشملها. حيث كان هدف القوات الاستعمارية بعد سقوط قسنطينة والسيطرة عليها هو إخضاع القبائل والسكان لسلطتها الأمر الذي جعلها تلجأ إلى سياسة الحيطة والحذر في التعامل مع الأوضاع وتجنب المواجهة مع السكان، و في اطار هذه السياسة دخل قائد القوات الفرنسية الماريشال فالي في مفاوضات مع الباي أحمد سعيا منه إلى إنهاء المقاومة و تجنب الحرب التي كلفت قوات الاحتلال كثيرا⁴.

1 - ياسين وادفلي: الأزمات الاقتصادية والاجتماعية في مقاطعة قسنطينة، 1837-1900، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة باتنة، 2025، ص 71.

2 - استقبالي وتنصيب بن قانة بوعزيز كشيخ عرب من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي للمزيد ينظر الملحق رقم: 11

3 - محمد العربي الزبيري: مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص ص 16-17.

4 - حميدة عمير اوي: جوانب من السياسة الاستعمارية الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع الشرق الجزائري (بداية الإحتلال) دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، 1984 ، ص 56.

لم يحدد قادة الأسر المنتفذة في بايلك الشرق موقفهم الصريح من الاحتلال الفرنسي إلا بعد 1832م، إذ أنهم لم يشعروا بأي خطر يهدد مستقبلهم ومناصبهم و ثرواتهم، إلا بعدما أخذ الأمير عبد القادر البيعة وشرع يقود مقاومته الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي. كما شهدت تلك الزعامات المحلية صراعا داخليا فيما بينها، ففي منطقة الحضنة كان التنافس على أشده خصوصا بين عرش أولاد ماضي وأولاد دراج حيث حلت محل هذه العروش عائلات كبيرة، احتكرت قيادة كما أنها عرضت خدماتها على الاحتلال الفرنسي، ومن بين الزعامات المحلية أيضا التي عرفتها منطقة الجنوب القسنطيني نجد قيادة شيخ العرب التي آلت إلى ابن قانة، ومن بعده فرحات بن سعيد. تلك هي أهم الأسر التي شكلت الأرستقراطية التقليدية الحربية، والإدارية، والسياسية والدينية في المجتمع الريفي بالجزائر، وهي الأرستقراطية التي أطرت القبائل وكنفدراليات العروش والعائلات، التي بدورها أنتجت زعامات محلية تعاونت مع الاحتلال الفرنسي، اعتبرت هذه الزعامات أعوان وموظفين خدموا العلم الفرنسي بالرغم مما اشتهروا به من عجرفة¹.

فرنسا التي قلدم الوظائف الشرفية وأكرمتهم وغمرتهم بالامتيازات لم تلبث أن سارعت في إقصائهم لاسيما عقب انتفاضة المقراني سنة 1871م ، وفي هذا الشأن يذكر لويس رين " أن هذه الزعامات المتعاونة قد أبرمت فرنسا معهم ومع أباؤهم من قبل عقود رسمية تتعهد لهم بمقتضاها الإبقاء على امتيازاتهم الاجتماعية المكتسبة... وضعوا تحت سلطتنا مناطق شاسعة بسهولة كبيرة وبدون قتال في معظم الحالات، ولا إن تصرفوا بهذه الطريقة فلأنهم ارتأوا أن ذلك يتمشى ومصالحهم الأنانية ولأننا أعطيناهم مقابل ذلك وعدا بالحفاظ على مكانتهم ودعمهم بقوتنا العسكرية فتحالف هؤلاء معنا ورضوا بأن يكونوا أتباعا لنا ولم نطلب منهم شيئا آخر غير أن

1 - بوحوص شهيناز: دور الزعامات المحلية في تحقيق المشروع الاستعماري الفرنسي بالجزائر 1871-1830م، في المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة، المجلد 07. العدد 02 -ديسمبر -2021، ص ص105-106.

يقاتلوا ويموتوا بذلنا ويدفعوا لنا الأتوات مقابل ما وعدناهم من تشريف وتكريم وامتيازات كانوا يعتبرونها حقا من حقوقهم المكتسبة... لقد أوفينا بالعهد طالما كنا بحاجة لهؤلاء الحلفاء في مرحلة توسيع رقعة الاحتلال فكنا نستعملهم وسائط بيننا وبين مرؤوسيهم ولكن اليوم شعرنا بأننا أصبحنا أقوياء بما فيه الكفاية قررنا التخلي عنهم واتضح لنا أن تعهداتنا لهم كانت مجازفة كبيرة وصرنا نعتبر هؤلاء الذين تحالفوا معهم في وقت الحاجة مجرد عراقيل في مسار الحضارة والتمدن اللذين أزمعت فرنسا نقلها إلى الجزائر لتبرير احتلالها...¹.

وبعدما أن أحكم الفرنسيون قبضتهم على مدينة قسنطينة عام 1837م واصل سلطانها اتصالاته بالسلطات العسكرية الفرنسية قصد التعاون معها، والثابت أن موضوع الإطاحة بالحاج أحمد باي ومحاولة القضاء على مقاومته شكل إحدى نقاط المركزية في هذه المراسلات. أن السياسة التي درج عليها الحاكم العثمانيون وبايات قسنطينة تجاه الأسر القسنطينية المتنفذة هي التي صنعت مواقفها من الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة، فعلاقة الحاج أحمد باي غير المنسجمة ببعض الأسر هي التي دفعت بهم دفعا إلى الميل نحو الفرنسيين، وهو موقف مشين مجوج لأن الارتقاء في أحضان الغزاة لا مسوغ له، فمهما اختلفت هذه الأسر مع الحاج أحمد باي ومهما تباينت مواقفها معه واصطدمت مصالحها فيما بينها، فإن التعاون مع الاستعمار والاحتواء به سلوك مرفوض، فكان عليها أن تضع خلافاتها جانبا وتقف وقفة رجل واحد في مواجهة الاستعمار الفرنسي وذلك من باب أولي².

والواقع أن موقف هذه الأسر من احتلال مدينة قسنطينة، هو في الواقع الأمر امتداد لمواقفها السابقة من الاستعمار الفرنسي، فقد دخلت في علاقات مع الإدارة الفرنسية عن طريق علي بن

1 - نفسه، ص 106

2- العياشي رواجي: المرجع السابق، ص 376.

جلاب الذي اتصل بالفرنسيين عام 1833م حينما أرسل خطابا إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر العاصمة عارضا عليه التعاون معهم قصد الإطاحة بحكم أحمد باي، بل أكثر من ذلك، فإن تعاون هذه الأسرة مع الاحتلال الفرنسي لم يتوقف عند هذا القدر حيث أن سلطان الأسرة عبد الرحمن شيخ توقرت أرسل خطابا إلى الحاكم العام الفرنسي الجنرال فوارول بتاريخ 24 فيفري سنة 1834م عرض فيه فكرة التعاون مع الإدارة الاستعمارية بهدف تحطيم شبكة الحاج أحمد باي¹.

وبهذا يمكن القول أن أسرة بوعكاز الذواودة ساهمت إلى حد ما في إضعاف المقاومة الرسمية التي تزعمها الحاج أحمد باي من خلال موقفها السلبي الذي وقفته حيث أنها لم تنضم إلى المعسكر الرافض للاستعمار والمدافع عن مدينة قسنطينة².

لكن فرحات بن سعيد لم يقتنع بهذا الوضع فأعاد الاتصال سريا مع الضباط الفرنسيين³ ليجدد العلاقة معهم، فراسل المارشال فالي وكذلك الجنرال نيقريه غير أنه تم القبض على رسولي فرحات بن سعيد وسلمت رسالته إلى الحسن بن عزوز الذي حولها في الحين إلى الأمير عبد القادر، وشاع مثل شعبي على هذه القضية وهو "ضبع ميده القارة ومعه ثعلب الغيران، تغامزوا على سيد الغابة". وأما فرحات بن سعيد تم زجه في السجن ونتيجة لذلك قام أخ فرحات بن سعيد - الحاج الباي بن سعيد- بمراسلة الجنرال حاكم قسنطينة في مارس 1839م، يحمل فيها بن قانة وحلفائه مسؤولية سجن أخيه من طرف الأمير عبد القادر⁴.

¹ - نفسه: ص375.

² - نفسه، ص374.

³ - رسالة فرحات بن سعيد الى السلطة الفرنسية يعرض عليهم التعاون للمزيد ينظر الملحق رقم:29، ص380

وانطلاقا من انضمام بوعزيز بن بولخراس بن قانة¹ للفرنسيين، أصبح خادما مطيعا ومحاربا معهم، فكانت أغلب حروبه ضد خلفاء الأمير ومنهم فرحات بن سعيد والحسن بن عزوز، هذا الأخير الذي خاض معه حربا ضروسا وانهزم أمامه بادي سلسا في 24 مارس 1840م، وكانت سببا في زوال هيبة خليفة الأمير عبد القدار، كما قام بن قانة في هذه المعركة بقطع 500 زوج من آذان الناس الذين قتلتهم أو أسرتهم، وبعث بها إلى الجنرال غالبا الذي كافأه على عمله هذا في حق الموالين للأمير وبالفعل استطاع فرحات بن سعيد أن يضايق عائلة بن قانة ومنعهم من الارتياح والانتجاع بمواشيهم للبحث عن المأوى والكأ وهذا خلال سنتي 1840-1841م، كما قام بجمع الضرائب، غير أن البوازيد قد غدروا به وقتلوه أثناء ذهابه إليهم، وعلى أغلب الظن أن قاتله هو قويدر بن معيم البوزيدي، الذي حمل معه طابع فرحات بن سعيد وسيفه وأذنيه بعد قطعهما وسلمهم إلى بوعزيز بن قانة، هذا الأخير قام بكتابة رسالة مؤرخة في 20 نوفمبر 1842م إلى الحاكم العام المارشال فالي بالجزائر بواسطة الجنرال نيقرييه، ونص الرسالة جاء كالتالي: "يسرني أن أعلمكم أن فرحات بن سعيد خليفة الأمير عبد القادر بالصحراء قد قتل في معركة نشبت بينه وبين عرش البوازيد، وقعت غربي الصحراء، استطاع شيخ العرب بوعزيز بن قانة أن يأخذ خاتمه سيفه وأرسلهما إلي وليس عندي معلومات أخرى دقيقة في هذا الحادث".

وعليه فإن الخلافات التي حصلت بين القبائل والعشائر فيما بينهم ساهمت في تشتيت المقاومة الجزائرية وإعطاء الاستعمار الفرنسي الفرصة للتوغل داخل البلاد، خصوصا العداء الذي استغلته

1 - وما لبثت أن اندلعت الحروب بين بن قانة المتعاون مع الفرنسيين والحسن بن عزوز خليفة الأمير، وطلب بن قانة العون من فرنسا لكنه لم يحصل على شيء ومع ذلك استطاع أن يلحق الهزيمة بقوات بن عزوز في 24 مارس، 1840 وأعتبر المارشال فالي ذلك انتصارا لفرنسا في الصحراء الجزائرية ونتيجة لهذه الهزيمة وقلة كفاءة الحسن بن عزوز قام الأمير عبد القادر بعزله وعين مكانه فرحات بن سعيد، فتعهد هذا الأخير بالولاء والطاعة، وتمكن من تشديد الخناق على القبائل الموالية لابن قانة، لكن فرحات بن سعيد قتل غيلة على يد البوازيد، الأمر الذي أثلج صدر بن قانة فسارع إلى إرسال البشري إلى الفرنسيين. للمزيد ينظر: لخضر بن بوزيد: السياسة الاستعمارية تجاه القبائل والعائلات المنتفذة في منطقة الزيبان 1830-1844م، في المجلة التاريخية الجزائرية، العدد: -05 ديسمبر 2017، ص ص98-99.

لصالحها بين عائلتي بعاكاز وبن قانة، وضرب كل واحد منهما على الآخر لإضعافهما وإنهاك قوتهما فيما بينهما، هذا على الرغم من الدور الذي لعبته هذه العائلات في خدمة فرنسا¹.

يمكننا القول في الأخير أن الصراع الذي احتدم بين بن قانة وبوعكاز جنوب بايلك قسنطينة، قد مهد الى احتلال المنطقة، فقد كانت كلا العائلتان تتنافسان لكسب ود الفرنسيين مما ساعد على توغل الفرنسيين في المنطقة، وتقتضي سياسة فرنسا التوسع أكثر في الصحراء، ونلمس ذلك من خلال الرسالة التي أرسلها المارشال "سولت" الى الملك تحت إشراف وزير الحربية قال فيها: "إنه يجب أن تؤلف الصحراء الجزائرية ثالثا من الجهات الإدارية، ففي هذه الجهات لا يتواجد معمرين، وأن الجيش يجب أن يتواجد لقمع الفوضى وفتح طرق للتجارة، وهي المناطق ستفتح لنا طرق هامة للتجارة، وعلامات تغلبنا عليها تقتضي تعيين قواد من الأهالي في هذه المناطق"².

وعلى الرغم من الدور السلبي الذي لعبه بعض الشيوخ وقاده القبائل في التقرب من الإدارة الاستعمارية وعرض خدماتهم عليها ومحاولة كسب رضاها على حساب أبناء القبيلة والشعب الجزائري ككل، إلا أن روح المقاومة ظلت مشتعلة في نفوس الجزائريين في مختلف مناطق المقاطعة ولا أدل على ذلك من المقاومات والثورات التي لم تهدأ في المقاطعة منذ غزوها من طرف القوات الفرنسية 1836م³.

¹ - العياشي رواجي، المرجع السابق: ص 56-58.

² - لخضر بن بوزيد: السياسة الاستعمارية تجاه القبائل والعائلات المنتفذة في منطقة الزيبان 1830-1844م، في المجلة التاريخية

الجزائرية، العدد: 05 ديسمبر 2017، ص 102

³ - ياسين وادقلي: المرجع السابق، ص 80

- رابعا: أثر الكوارث الطبيعية والحروب والثورات على الحياة الاقتصادية والاجتماعية:

- 1- أثر الكوارث الطبيعية:

شهد بايلك الشرق قسنطينة أزمة جفاف كبيرة بسبب تزدى الأوضاع الطبيعية، فقد وقعت به مجاعات خطيرة سنة 1805م، في عهد الباى عثمان وقد استمرت المجاعة الى غاية ثلاث سنين اضرت بالسكان ضررا كبيرا وتسبب الجفاف في نقص الإنتاج الفلاحي وجفاف الأودية والانهار المستعملة للري، أثر كل ذلك بالسلب على العلاقة بين السكان مما أدى الى الشجار والخصومات حول موارد المياه¹.

وقد كان الزهار شاهدا على سنوات المسغبة التي شهدتها الجزائر والتي أدت الى ارتفاع فاحش في الأسعار ومما أورده في هذا الصدد بقوله: « وقد حضرت انا سنوات الغلاء فوصل القمح عندنا في الجزائر سنة 1804م، وكنت صغير دون البلوغ بخمسة عشر بجة، وهي خمسة دورو للصاع الجزائري»².

وكان لسلسلة الزلازل أثر على عدم تستقر جيولوجيا طيلة هذه الفترة من الوجود العثماني وقد أسهمت هذه الظاهرة الطبيعية في تدهور الوضع الصحي والاجتماعي والاقتصادي للبلاد ووقوف السلطات الحاكمة موقف المتفرج عما يجري لهولها وكثرة خسائرها. كما شكلت هذه الظاهرة الطبيعية أحد مصادر الخوف والارتباك في المخيال الجمعي لدى الساكنة وقد كانت مادة دسمة لشعراء في وصفها.

وقد خلفت هذه الزلازل خسائر بشرية فادحة وتخریب للمدن والقرى وفرار الناس الى مناطق آمنه، حتى أن صاحب المرآة حمدان بن عثمان خوجة تطرق لها بقوله: «...فشوهت خلقت الجزائر العذراء مستحسنة فأفقرت معالم البلاد وتشوهت أحوال البلاد...»³.

¹ - مسعودي فتيحة: الكوارث الطبيعية في الجزائر خلال القرنين 18-19م بين التأثيرات السياسية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف، 2024، ص68.

² - نفسه.

³ - حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق.

ومن الكوارث الطبيعية التي كانت لها أثر على الأوضاع الاقتصادية الفيضانات فقد تضررت للبلاد مما أدى الى تشتت الكثير من سكانها وهلاكهم، فاشتدت الضائقة الاقتصادية بفعل غلاء الأسعار، وشح الأقوات، واتلاف المزروعات، وبذلك تناقص عدد السكان، فبقيت مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية غير مستغلة¹ فتحول جزء من هذه الملكيات الى مؤسسة الأوقاف، كما أدت الى تدمير المباني فأدت الى تدمير السكان، نتيجة انعدام الأمن، وتدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية بصفة عامة².

ورغم أن النشاط الاقتصادي في إقليم بايلك الشرق كان منتعشا في بعض الفترات إلا أنه كان يتراجع من فترة لأخرى نظرا للأوضاع السياسية والعسكرية التي تمر بها البلاد، ومن بين الأسباب التي أثرت على الإنتاج الفلاحي بشكل سلبي نجد: الاهتمام أكثر بفرض الضرائب لا سيما في العقود الأخيرة من التواجد العثماني بالجزائر، وهذا نتيجة تراجع مداخيل القرصنة والذي يرجع ذلك أيضا إلى الأوضاع العسكرية التي كانت تمر بها البلاد كتطور البحريات الأوروبية والاتفاقيات الدولية التي كانت تعقدها إيالة الجزائر مما حد من نشاط القرصنة، ونتج عن ذلك رفع قيمة الضرائب على حساب الإنتاج الفلاحي داخل البلاد لتغطية العجز المالي الذي حدث بسبب تراجع نشاط القرصنة، ونتيجة لذلك أصبح الفلاحون يدفعون أضعاف المبالغ التي كانت مفروضة عنهم سابقا، وهذا ما جعلهم يتخلون عن النشاط الزراعي ويلجؤون إلى الجبال والصحاري فرارا من

¹ - توفيق دحماني: الأوضاع الصحية والكوارث الطبيعية في الجزائر عشية الاحتلال، في المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، مج5، العدد2، الجزائر، 2013، ص3.

² - محمد بن جبور: الوضع الصحي، المرجع السابق، ص ص 4-5.

الضرائب المفروضة عليهم، وأصبحت بذلك معظم الأراضي الزراعية خالية من الزراعة جرداء مهجورة¹.

-2- الحروب والثورات:

شهدت الجزائر مطلع القرن التاسع عشر عديد التمردات والثورات الشعبية ضد السلطة العثمانية الحاكمة، ولعل من أبرزها الثورة التي قادتها الطريقة الدرقاوية بقيادة ابن الاحرش في بايلك الشرق بقسنطينة سنة 1804م، وثورة الزعاطشة ضد قوات الاحتلال الفرنسي في منطقة الزيبان سنة 1848م، وقد كان لهذه الثورات ظروف وأسباب وانعكاسات على بايلك الشرق والجزائر عامة.

أولاً- ثورة ابن الأحرش في بايلك الشرق:

أ- شخصية ابن الأحرش:

هو الشيخ الحاج محمد بن عبد الله بن الاحرش المكنى "بالبودالي" نسبة الى الأبدال الصالحين، وعرف عند البعض بالشريف المغربي²، وقد ذكر عنه أنه فتى مغربي مالكي المذهب درقاوي الطريقة درعي النسب³، وذكر الأستاذ ناصر الدين سعيدوني أن انتسابه الى المغرب لا يعني انه فعلا من المغرب، بل جرت العادة في هذه الفترة على أن كل غريب يدعى النسب الشريف الى الادارسة بالمغرب الأقصى. وقد دعي الى الطريقة الدرقاوية التي كانت بمثابة حركة ثورية، وغالبا ما ينسب نفسه الى الساقية الحمراء أو منطقة السوس، وهذا حتى يكسب هيبة ومكانة لدى

¹ - أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص 219.

² - ناصر الدين سعيدوني: أبحاث وأراء المرجع السابق، ص 169. ودراسات وأبحاث: المرجع السابق، ج2، ص170.

³ - أبو عمران الشيخ: وآخرون: معجم مشاهير المغاربة، الجزائر، 1995، ص 25.

العامّة¹. ويبعد عن نفسه الانتماء الجهوي أو الانتماء القبلي، الذي يتسبب في حدوث المنافسات و
العداوة بين القبائل المختلفة².

ومما يذكره ناصر الدين سعيدوني عن ابن الأحرش، أنه رجل في مقتبل العمر، طويل القامة،
اشقر اللحية، موفور الصحة، يتصف بالحيلة والمكر والطموح، ويشتهر ببلاغة أسلوبه في الحديث
وفصاحة لسانه في مخاطبة الناس، ويتميز عن غيره بسعة أفقه وشجاعته وقدرته على الإقناع³.
وبعد قيامه بأداء فريضة الحج استقر بزاوية سيدي الزيتوني بناحية جيجل لتفقيه نفسه، وأسس
معهدا ببني فرقان لتلقين الصبية القرآن وتعليم الطلبة مبادئ الفقه، ومن هنا راح يلقي دروسا دينية
على زائريه الذين أعجبوا بها وبفصاحته مما زاد عدد الملتفين حوله، ثم قام بعد ذلك بمحاربة
النصارى الفرنسيين، فقام بتسليح عدة سفن بميناء جيجل وأرسلها لتعقب البواخر الفرنسية التي
اعتادت التردد على سواحل القل وجيجل للصيد والتجارة⁴.

وقد تمكنت إحدى سفن ابن الأحرش سنة 1803م من الاستيلاء على سفينة مرجان تمتلكها
الشركة الفرنسية التي كان مقرها مدينة القالة، بعد مقتل وأسر البحارة الفرنسيين مما زاد في شعبيته
من بين السكان المحليين (أولاد عيدون، وبني مسلم، وبني خطاب وغيرهم)، وأصبح له انصار
كثرتجاوز 10.000 مقاتل حسب ما أورده العنتري⁵.

1 - ناصر الدين سعيدوني: ثورة ابن الأحرش بين التمرد المحلي والانتفاضة الشعبية، في مجلة الثقافة، عدد 1983، 78، الجزائر، ص 201.

2 - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث: المرجع السابق، ج2، ص170.

3 - ناصر الدين سعيدوني: وراقات جزائرية، المرجع السابق، ص 266.

4- Féraud ch. les chérifs kabyles de 1804-1809 dans la province de Constantine R.A 1869-p.217

5 - محمد الصالح العنتري: المصدر السابق، ص 29-30.

ب-ظروف وأسباب ثورته ضد الحكم العثماني:

لقد ثار ابن الأحرش ضد السلطة العثمانية في بايلك الشرق لعدد الأسباب يمكن ايجازها في

النقاط الآتية:

-توتر العلاقات بين تونس والجزائر في ذلك الوقت، ولهذا عما حمودة باشا الحسيني باي تونس (1756-1814م) على تحريض ابن الاحرش على الثورة لما التقاه عندما كان راجعا من مصر حيث قام بإكرامه وحرصه ضد السلطة العثمانية فقبل ابن الأحرش العرض¹، وهذا ما أكده صاحب تحفة الزائر ذلك حيث قال: " فعندما كان ابن الاحرش راجعا من مصر ولقيه حمودة باشا، قام هذا الأخير بإكرامه منزلته، وفاوضه في القيام على حكومة الجزائر، ووعده بالمظاهرة بالمال فاستكان له ابن الاحرش"².

وفي هذا الصياغ يورد لنا الشريف الزهار أن باي تونس استقبل ابن الاحرش واکرم وفادته، واوز اليه إمكانية الثورة على دايات الجزائر ووعده بالعون والمساعدة قائلا: " إن رجلا مثلك شجاعا يجب ان يذهب الى ملك الترك بالجزائر وينزعه من أيديهم ، ونحن نمذك بما يخصك والعرب يتبعونك لكثرة ما ظلمهم الترك."³ وهذه استراتيجية بعض حكام تونس تدخل ضمن سياسة إلهاء حكم الجزائر بمشاكلهم الداخلية وعدم الالتفات الى مطامع خارجية خاصة وان تونس غير قادرة على خوض حروب مع حكام الجزائر في هذه المرحلة.

- التنافس بين الأنجليز والفرنسيين من أجل الحصول على امتيازات في الجزائر وحظوة فرنسا لدى الداى، مما جعل الانجليز يحرضون ابن الأحرش للثورة لأثارة الفتن والقلق ضد العثمانيين في الجزائر، وذلك بقيادة الداى مصطفى بسبب طبيعة علاقته مع فرنسا، خاصة بعد ما قدم

1 - زينب جعني: ثورة ابن الاحرش في بايلك الشرق(1800-1807)، في مجلة عصور جديدة، العدد 18، 2015، ص130.

2 - محمد ابن عبد القادر: تحفة الزائر، المصدر السابق، ص117.

3 - الزهار: المصدر السابق، ص 85.

الانجليز لابن الأحرش عددا من السفن لنقل الحجاج المغاربة الى بلادهم، وأغروه بالهدايا والأسلحة للثورة ضد الوجود العثماني، وهذا من اجل القضاء على المصالح الفرنسية في الجزائر بسبب التنافس مع فرنسا التي تمكنت من الحصول على عديد الامتيازات داخل الجزائر في التجارة وصيد المرجان في السواحل الشرقية للجزائر¹.

- انتشار الطريقة الدرقاوية في الجزائر في هذه الفترة التي استقطبت عددا من العلماء الذين أصبحوا من مريديها، فتوسع نطاقها بزيادة الزوايا وعدد المريرين لها ، وتعد الثورة الدرقاوية من أكبر وأخطر الثورات التي شهدتها العثمانيون منذ بداية تواجدهم بالجزائر، حيث كانت هذه الطريقة تتلقى الدعم من المغرب الذي لعب دورا هاما اثناء قيامها. وذلك من خلال تأييد ودعم السلطان المغربي مولاي سليمان لاتباع الدرقاوية وقائدهم من أجل الوقوف ضد الحكام العثمانيين في الجزائر².

- تحول النظام العثماني في الجزائر الى جهاز لجمع الضرائب من السكان بسبب تدهور الوضع السياسي والاقتصادي بعد تراجع مداخيل القرصنة، وتكالب الدول الاوربية على ممتلكات الدولة العثمانية، مما أدى الى تدمير السكان وبداية الصراع بين الطرق الصوفية والسلطة الحاكمة التي تراجعت مداخيلها، فطالبت المرابطين وقادة الطرق الصوفية وشيوخ القبائل بالتخلي عن جزء من امتيازاتهم ولكنهم رفضوا مما جعل السلطة العثمانية تشن حملات تأديبية ضدهم، فتمردوا وحرصوا السكان ضدهم، ولهذا تغيرت سياسة العثمانيين تجاه الزوايا بعد ان كانت تحاول كسب ودهم وتأييدهم أصبحت تحاول إخضاعهم لإجبارهم على دفع الضرائب، وهو السبب الذي أدى الى حدوث نوع من القطيعة بين الزوايا وأتباعها، وبين السلطة التي حاول موظفوها تطبيقها دون مراعاة لأوضاع الصعبة التي كان يعاني منها سكان الريف، وهذا ما دفعهم الى إعلان العصيان والوقوف وجه ما كانوا يعتبرونه ظلما وتعسفا³.

1 - زينب جعني: المرجع السابق، ص 130.

2 - نفسه.

3 - نفسه، ص 131.

- سياسية الإقصاء والإجفاف التي انتهجها بعض حكام البايك ضد الرعية، ومما عرف من تلك السياسة هي القتل، والاستبداد، وتسليط ممثليهم غير الأكفاء في التعامل مع السكان خاصة أثناء تحصيل الضرائب، مع التركيز على مصالحهم الخاصة وتبذيرهم الأموال، وإهمال شؤون الرعية، وفي هذا الصدد يرصد لنا ابن العنتري جزء من تلك السياسات التي كان ينتهجها بعض حكام البايك في تلك الفترة حيث يقول: "...الأتراك في بادئ امرهم عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحد، وحيث تمكنوا صاروا يظلمون الناس، ويسفكون دمائهم، يأخذون أموالهم بغير حق، ويعدون ولا يفون، يؤمنون ويغدرون، لم يزل ظلمهم يزداد حتى تم وجاوز الحد".¹

- استعداد السكان لثورة والانتفاضة ضد جور وغطرسة الأتراك، وذلك نتيجة لتجريد عديد العمليات العسكرية ضد السكان تارة تحت دافع تأديب بعض القبائل لعدم امتثالها وعصيانها لأوامر السلطة الحاكمة وتارة أخرى من أجل تحصيل مزيد من الضرائب التي ارهقت كاهل الرعية في ظل الظروف التي تمر بها القبائل الجزائرية، وقد طانت تصل تلك الحملات التي كانت تنطلق من مقر البايك بقسنطينة الى أقصى جنوب حدود البايك جنوبا وغربا وبالضبط قرابة جبال أولاد نايل ، والى ورقلة وتقرت جنوبا ، وقد تجلى هذا خلال عهدي الباي أحمد القلي وصالح باي².

ج- نتائج وآثار ثورة ابن الأحرش: كان لهذه الثورة آثار وانعكاسات وخيمة على البايك والبلاد يمكن ايجازها في النقاط الآتية:

- إضعاف نفوذ البايك بالأرياف وازدياد عزلة المدن، كما شجعت القبائل على عدم دفع الضرائب، وهو ما يؤكد ناصر الدين سعيدوني حيث يقول: " في هذه الظروف المتأزمة اقتصاديا والمضطربة اجتماعيا، تحولت المدن الجزائرية الى بيئات منكمشة على نفسها متخوفة من سكان الريف القريبيين منها، كما غدا الريف الجزائري مجالا مغلقا على نفسه يكاد يفقد

¹ - محمد الصالح العنتري: المصدر السابق، ص 130.

² - على خنوف: السلطة في الأرياف المالية لبايك الشرق الجزائري (نهاية العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي)، منشورات انيس، الجزائر، ص 43.

صلته بالمدن وينقطع تفاعله مع سكانها، فأصبح منكفئاً على نفسه وغير مستعد للتعامل مع السلطة المركزية بعد أن تحول أغلب سكانه المؤطرين بشيوخ الزوايا الى موقف عدائي صريح من إدارة البايلك والمتعاملين معها... في مثل هذه الأحوال أصبحت الظروف مهياًة في الجزائر لانهايار داخلي أو لوقوعها ضحية عدو خارجي، وبالفعل كان الغزو الفرنسي سنة 1830م.¹

- اهمال الزراعة وتضرر الناس من قلة القوت، مما أدى الى حدوث المجاعات، وفي هذا الصدد يذكر الأستاذ عبد الرحمان الجيلالي أن الجزائر ما كادت تنتهي و تستريح من ويلات الحرب المخزية حتى فاجأها الجذب والقحط بكامل البلاد وأصبحت تعاني من ازمة مجاعة حادة وخانقة ارتفعت فيه الاسعار وغلاء المعاش غلاء فاحشا حتي بلغ سعر الصاع الجزائري وهو ما يزن قرابة 34 كلغ من الشعير بقيمة خمسة عشر بوجو فمات الناس جوعا واستمر الحال على ذلك سنين². كما يذكر العنتري وهو يسرد الحال التي وصل اليها سكان قسنطينة من شدة القحط وانتشار المجاعة فيقول: " حصلت للناس شدة ومجاعة اشرف فيها الضعفاء على الهلاك خصوصا بعض نواحي القبلة فانهم تشتتوا عن منازلهم وتفرقوا بسبب الهول الواقع في وطنهم مع الشر والمصائب التي حلت به من قبل، من يبس الزرع وعدم الحرث ونزول القحط والفتن الى غير ذلك مما تقدم، حتى صاروا يقتاتون الدم والميته وغير ذلك مما لا يباح إقتياته"³.

- بالرغم من صداها الواسع الذي لقيته هذه الثورة والتفاف القبائل حولها في مختلف مناطق الشرق الجزائري، إلا ان ابن الاحرش فشل في تحقيق مسعاه الرامي الى القضاء على الحكم العثماني، فلم ينظم الى حركته شيوخ الزوايا والمرابطين إلا من كان معاديا للسلطة العثمانية مثل المرابط الشيخ الزبوشي، بسبب تباين ميولها وانحصار نفوذها في جهات دون اخرى كما أن الطريقة الرحمانية المنتشرة في الجهات الوسطى والشرقية اتخذت موقفا محايدا منها⁴.

1 - ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر الجزائري، ط1، مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري، الكويت ، 2000 ، ص12

2 - عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، شركة دار الامة، 2010، ص ص 263-264.

3 - محمد الصالح العنتري: المصدر السابق، ص ص 33-34

4 - ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص 39.

لقد كان لهذه الثورة وغيرها من الثورات التي شهدتها المنطقة تأثيرا بالغا على أوضاعها المختلفة، وخاصة الاقتصادية منها وقد تزامنت هذه الثورة مع ضعف الإنتاج وظهور المجاعات وقلت الأقوات، وقد القى هذا الوضع بظلاله على الحياة الاجتماعية في مختلف ربوع المنطقة خلال هذه الفترة من تاريخ الوجود العثماني بالجزائر. وقد عبرت الأشعار الشعبية التي كان يتناقلها الناس بصدق وعمق عن الحالة المعاشية المتردية التي أعقبت ثورة ابن الأحرش، كما جاء في البيتين التاليين.

تحزمت رجالي للفتن التل يخلي وتزول منه الذخائر

وتصير النخلة برخلة ولا شك تخلي الجزائر

وكذلك قول الشاعر الشعبي "الرحموني" الي عاصر أحداث ثورة ابن الأحرش:

الأسعار راه غلات وحتى أمطار الصيف اذفاقوا

الحرث راه صعب نبتة والبس والحجر يكثر¹.

لقد كان لهذه الثورة آثار وخيمة على الواقع الاقتصادي والاجتماعي للمنطقة برمتها وحتى الجانب السياسي، إذ فقدت المنطقة الاستقرار السياسي، وتوالى الحملات التي تقودها السلطة المركزية على العصاة والمتمردين في كل أنحاء البايك، ناهيك عن الاغتيالات والفوضى التي كانت السمة الغالبة على رأس باييك قسنطينة واستمر هذا الوضع الى غاية نهاية الوجود التركي في البايك.

¹ - ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 197.

- ثانيا: ثورة الزعاطشة 1848-1849 م :

يرجع الاهتمام الفرنسي بمنطقة الزيبان الى الفترة التي تلت احتلال مدينة الجزائر، حيث ربط القادة العسكريين الفرنسيين الذين تعاقبوا على مقاطعة قسنطينة بالاتصالات بالعائلات الكبرى للزيبان، لتمهيد الطريق لضم هذه الناحية. وفي سنة 1844 اجتاحت القوات الفرنسية مدينة بسكرة وفرضت هيمنتها على كل المناطق المحاذية لها. بعد فترة من الهدوء ساد فيه الاعتقاد ان الفرنسيين قد حكموا سيطرتهم النهائية على الجزائريين، جاءت ثورة الزعاطشة لتفند هذه الرواية معبرة عن استمرار مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي الغاشم.¹

1-أسباب الثورة :

لهذه الثورة أسباب عديدة مترابطة ومتداخلة مع بعضها البعض يمكن حصرها في النقاط التالية:

- أن أول سبب لهذه الثورة هو رفض الشعب القاطع للاحتلال الفرنسي وهو بذلك يعتبر من أقوى الأسباب وأهمها لكفاح الشعب الجزائري ومقاومته للاستعمار الدخيل عن البلاد والعباد.
- صدى الأحداث الخطيرة التي حصلت على الساحة الفرنسية ذاتها والمتمثلة في وقائع الثورة الفرنسية لسنة 1848م وعزل الملك الفرنسي " لويس فيليب" والإطاحة بنظامه وقيام الجمهورية الفرنسية الثانية كل ذلك أثر على الحياة السياسية بالجزائر فقد عزل الحاكم العام للجزائر الدوق دومال ابن الملك الفرنسي لويس فيليب وتعويضه بالجنرال "كافانك" وذلك يوم 3 مارس 1848م ثم تلاه رحيل عدة كتائب من الجيش الفرنسي من الجزائر لتشارك في الثورة الفرنسية بفرنسا نفسها وتعمل على إخماد الفتن. وفي نفس الوقت انتشرت أخبار مفادها أن بريطانيا قد

¹ - ستار او عثمانى: وثيقتان للشيخ بوزيان عن ثورة الزعاطشة، في مجلة المرأة، المجلد 4، العدد 01، السنة 2023، ص 53.

أعلنت الحرب على فرنسا وانها تستعد لشن حملة عارمة على الاحتلال الفرنسي في الجزائر، وقد وصلت هذه الاخبار الى منطقة الزيبان عن طريق العمالة البساكرة في العاصمة ، فأشاعوا هذه الانباء المثيرة والتي فهمها أهل الزعاطشة على انها ساعة الخلاص والتحرر قد حانت. فرفعوا لواء الثورة والجهاد¹.

- كان للظروف العسكرية التي عاشتها مقاطعة قسنطينة الدور الهام في تهيئة الفرص المواتية للشيخ بوزيان لإعلان الجهاد. ذلك ان جيوش القاطعة قد جهزت لقمع الثورات المشتعلة هنا وهناك، في كل من زواغة وبني يعلي وبني مليكش بجبال جرجرة... وثورة أولاد دراج بالحضنة وأولاد فرج بمنطقة بوسعادة وغيرها . وقد ذلك الى تناقص عدد القوات الفرنسية المرابطة بمركزي باتنة وبسكرة. والتي لم يزد عددها عن 800 رجل بالإضافة الى غياب قائدهم سان جرمان عن دائرة بسكرة فاستغل الشيخ بوزيان كل الظروف لإعلان حركته الجهادية.
- أمل الشيخ بوزيان في مواصلة الثورة التي قادها الأمير عبد القادر طيلة سبعة عشر عاما. ذلك انه ان تابعا لدولة الأمير عبد القادر، وكان يشغل منصب شيخ على واحة الزعاطشة ضمن موظفي إدارة الأمير بالمنطقة.
- انتشار الروح الدينية والوطنية للحفاظ على كيان الشعب الجزائري المسلم الذي بدأ يتعرض للتحطيم والقضاء على شخصيته الوطنية من طرف السياسة الفرنسية في الجزائر، ذلك ان المواجهة ليست عسكرية فقط بل هي حرب حضارية أيضا².

1 - إبراهيم مياسي: ثورة الزعاطشة ، في مجلة دراسات تاريخية ،مج 08، العدد01، السنة2000، ص87،89

2 - نفسه.

- كان السبب المباشر لاندلاع الثورة هو قيام السلطات الفرنسية برفع الضريبة المفروضة على أشجار النخيل دون مراعاة الوضعية السيئة ، لسكان حيث يذكر Louis De Baudicour في كتابه La Guerre Et Le Gouvernement بان الضرائب كانت تفرض على كل مئة نخلة وكانت النخيل تابعة للمؤسسات الدينية والعائلات الأرستقراطية الحاكمة المعفية معفيه من هذه الضرائب¹.

- حصار واحة الزعاطشة:

بعد عديد العمليات العسكرية التي قام بها المقاوم بوزيان، قامت القوات الفرنسية بحصار الواحة وقصف أسوارها لإحداث فجوة، والمرور عبرها الى الواحة المحصنة، وقد شهدت المنطقة عدة معارك فيما بين 7 و8 أكتوبر 1849م قتل فيها عدد كبير من الفرنسيين، وقد قامت قوات العدو بقصف أسوار القرية والتسلل منها، وفي الليل قامت قوات المقاومة بالتسلل الى مواقع العدو وقتل الكير منهم.

تلقى الشيخ بوزيان الدعم من سكان منطقة النوب القسنطيني حيث ظلت الوفود تتوافد يوميا الى واحة الزعاطشة ومعها المؤن والسلاح الذي يحتاجه المقاومون. ولوقف هذا المدد الهائل جند الجنرال "هربيون" عدد من قواته لقطع هذا الدعم عن بوزيان من الخارج ولم ينجح في خطته².

وأمام نقص الرصاص استخدم الشيخ بوزيان نواة التمر بجمع كل ثلاث منها في ورقة بسيطة من الرصاص وبالمقابل كانت الإمدادات الفرنسية متواصلة حيث جاء الكولونيل Jourmel على رأس

¹ - جيلاني حورية: الاستراتيجية الاستعمارية ضد مقاومة واحة الزعاطشة عام 1849م، في مجلة المرأة، العدد 04، السنة 2015، ص99.

² - ستار او عثمانى: المرجع السابق، ص57.

عدد كبير من القوات وهكأا قوبلت رصاصات التمر بقنابل المدافع، وسرعان م بدأ بقصف الأسوار التي كان بداخلها حوالي ستة آلاف محارب بينما كانت قوات العدو تفوقهم بأكثر من الثلثين. ومما عجل الهجوم الفرنسي الكلي على المنطقة هو انتشار داء الكوليرا بينهم واصابة العديد من القوات بالنيران التي واجهتهم في الفتحات التي استخدموها للنفوذ الى الواحة¹.

في ظل هذه الظروف ورغم بسالة المقاومة إلا أن قوات العدو تمكنت من الواحة وبدأت عملية تتبع عناصر المقاومة من جهة الى أخرى وقد كان القائد "بوزيان" و"الشريف سي موسى" وعائلتيهما وبعض المقاتلين يتخذون من دار حسان بن عزوز كمرز مؤقت لهم وبعد وقت من المقاومة تمكنت قوات العدو من قصف أحد جدران المنزل ليفاجئاً الفرنسيون بحوالي 150 رجلا وامرأة بداخله ليقتل عدد منهم ويتم إلقاء القبض على الشيخ "بوزيان" وقتله والاحتفاظ برأسه حسب تعليمات الجنرال "هريون" التي بقيت معلقة عدة أيام على أحد أبواب بسكرة².

لم ينج من سكان الزعاطشة بعد تلك المذبحة سوى خمسة نسوة وشيخ مسن حسب الجنرال "هريون" ، وبعدها أعطيت الأوامر لقوات المدفعية وغيرها الى تحويل الزعاطشة الي ركام وقطع ما يمكن من نخيل لمحو كل آثار للمقاومة لكي لا يستحضر الناس تلك البطولات التي صنعت في تلك الواحة . كما ان قوات الاحتلال استخلصت دون شك مجموعة من الدروس حول البطولة والصمود والتضحية من أجل العزة والكرامة، وهذا ماكده في ما بعد الضابط "بورسال" الذي أشار إلى أن المقاومة أو كما سماها بالعصيان كانت مثل النار في الهشيم حيث هددت كل الإقليم

¹ - جيلاني حورية: المرجع السابق، ص 100.

² - نفسه.

الشرقي للجزائر، وعدم إبادة الواحة عن آخرها قد يكون مصدر خطر في المستقبل على التواجد الفرنسي في البلاد برمتها¹.

- نتائج وإنعكاسات الثورة: لهذه الثورة نتائج عديدة يمكن اجمالها في ما يلي:

1- لا ننكر أن المقاومة فشلت عسكريا وانتهت بخسائر فادحة حيث خربت الواحة بأكملها وعن آخرها، حيث أباد الجيش الفرنسي سكانها وقطع نخيلها واستعمل العدو عنف وقسوة وإرهاب يندى له جبين الإنسانية. من قطع الرؤوس البشرية وتعليقها على خناجر البنادق والأبواب نكاية وتشفي في المقاومين. ولعل شهادة المؤرخ الفرنسي بوديكور Baudicour تضعنا في حقيقة المشهد حيث قال: " عن الجنود الزواف قد أنقضوا على الذين لم يسعفهم الحظ الهروب، حيث شاهد جنديا مبتورا يداعب ثدي امرأة مسكينة وهي تطالب سوى الإجهاض عليها لتتخلص من هذا العذاب "².

2- أظهرت ثورة الزعاطشة تضامنا دينيا ووطنيا رائعا بين كل الأهالي ثم ذلك التصميم العنيد الذي أفشل كل مخططات العدو وأثار استغرابه وهو أن أحدا لم يأتيه لطلب الأمان رغم فظاعة الحرب واليأس من الانتصار.

3- تم احتلال مدينة بوسعادة حيث قامت فيها ثورة بقيادة محمد علي بن شبيرة وهو زعيم ديني دعا الى الجهاد أثناء ثورة الزعاطشة وأرسل النجدة الى بوزيان وهاجم الحامية الفرنسية التي كانت في بوسعادة منذ 1843م، فانضم اليه أولاد نايل وعدد آخر من سكان الناحية. وقد

¹ - العربي بالعروز: مقاومة الشيخ بوزيان بالزعاطشة سنة 1849 على ضوء الكتابات الأجنبية، في مجلة العصور الجديدة، المجلد 08، العدد 01، السنة 2018، ص 139.

² - إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 97.

وصلت نجدة فرنسية من البرج ومن مجانية وحاولت فك الحصار عن الحامية التي الثجات الى الجامع الكبير ببوسعادة وكانت القوات الفرنسية بقيادة العقيد دumas قد هاجمت المدينة يوم 14 نوفمبر 1849م. واستطاعت فك الحصار و إنقاذ الحامية¹.

4- قامت القوات الفرنسية بتوسع دائرة الانتقام بمهاجمة المناطق المجاورة وأهمها واحة " نارة" الواقعة على واد عبدي بالأوراس حيث استبيحت أرضها بالقتل والحرق والهدم لتلقى نفس مصير واحة الزعاطشة حيث قطعت اشجارها وغاباتها ونخيلها على يد القائد " كانروبير" الذي ادعى ان سكانها رفضوا دفع الضرائب المفروضة عليهم².

5- قامت القوات الفرنسية الغازية بالتنكيل بالجنث ومحاولة نشر الذعر أوساط السكان وإخضاعهم عسكريا ومعنويا وإبراز فرنسا بصفتها الدولة التي لا تقهر ولا تقاوم حيث نكل الفرنسيون بالجرحي أما فيما يتعلق براس الشيخ بوزيان فقد تم الاحتفاظ به حيث ذكر الطبيب Reboud في رسالة بعثها الى قادته يقول فيها: "... هذه هي الظروف التي وجدت فيها رأس بوزيان: كنت قد جمعت مجموعة من الرؤوس التي كانت لازالت جيدة ومن بينها رأس كل من بوزيان، بوبغلة وشريف تبسة كان قد تم تقديمها الى الدكتور Vital الذي كان قائدا للأطباء بقسنطينة..."، ونقلت رأس بوزيان بعد ذلك الى المتحف الأنثروبولوجي بباريس³.

ما يمكن قوله في الأخير أن المنطقة - مجال الدراسة - قد تأثرت بتلك الأزمات والحروب التي شهدتها، وكانت أثارها وخيمة على الصعيد الاجتماعي حيث ازدياد الفقر والحرمان وتفشي الآفات

1 - نفسه.

2 - عميراي حميدة، زاوية سليم، قاصري محمد السعيد: السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية، 1844-1916، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص43.

3 - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، 1830-1900، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1972، ص 338.

الاجتماعية، وتدني المستوى المعيشي والصحي ناهيك عن ازدياد حدة الصراع بين الأسر الحاكمة لضفر بلقب أو رتبة أو منصب تمنحه سلطة الاحتلال الأكثر قربا وولاء لها، ويذكرنا الصراع المحتدم الذي كان بين الأسرتين المعروفتين في المنطقة أسرة بوعكاز واسرة ابن قانة، كما كان لهذه الحروب آثار اقتصادية وخيمة، منها مصادرة مزيد من الأراضي من قبل إدارة الاحتلال الفرنسي وخاصة للقبائل والأعراش المتمردة على سلطتها إضافة الى نهب المزيد من خيرات المنطقة المتنوعة لصالح إدارة الاحتلال ، وظهور المجاعات وتزايد تعداد الوفيات بين القبائل والأعراش لتسلط الفرنسيين على أقوات السكان وقد انجر عن هذه الآثار هجرة السكان الى مناطق أكثر أمنا وتوفر متطلبات الحياة وان كانت في جلها معدمة لكافة القطر الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي.

خاتمة

بعد دراستي للموضوع والموسوم بـ " الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبائل الجنوب القسنطيني 1710-1848م"، توصلت إلى جملة من النتائج تتمثل في ما يلي:

إن الموقع الجغرافي المتميز لبابك الشرق جعله ثرياً من الناحية الاقتصادية؛ فقد كان من أكبر أقاليم الإيالة مساحةً، وأكثرها إنتاجاً في عملية التدنيش السنوية والموسمية. فكانت السهول تنتج مختلف المحاصيل الزراعية، وتزخر بالثروة الحيوانية المتنوعة، إضافة إلى النشاط التجاري الحيوي بفضل الأسواق النشطة والاتصال بالفضاء المغربي عبر تونس، وبأقطار السودان الغربي عبر المسالك التجارية المعروفة. كل ذلك كان له آثار إيجابية في كثير من الأحيان على استقرار نظام الحكم من جهة، واستتباب العيش وتحسين الظروف المعيشية للسكان من جهة أخرى، فضلاً عن مواجهة الأزمات والجوائح الطبيعية والاجتماعية التي عرفها البابك خلال تلك المرحلة.

إن أهمية بابك الشرق، واتساع مساحته، وتنوع مناخه وتركيبته البشرية، جعله على رأس بابلكات الدولة الجزائرية في العهد العثماني. إلا أن هذه الميزات لم تُمكن السلطة الحاكمة في كثير من الأحيان من فرض سيطرتها الكاملة، خاصة في المناطق النائية عن عاصمة البابك، مثل صحراء البابك المترامية الأطراف، مما أوجد نوعاً من الاستقلال الذاتي لهذه الأقاليم وانفراد الزعماء المحليين ورجال الدين بإدارتها.

إن بروز العائلات المنتفذة كقوة موازية على مسرح الأحداث السياسية، غالباً ما يوجب على السلطة الحاكمة التعامل معها بحذر. فتارةً تستخدم القوة العسكرية لسيطرتها ونفوذها وتحصيل الموارد المالية اللازمة، وتارةً أخرى تلجأ إلى أسلوب اللين والمهادنة، وذلك بتقريب بعض أفراد هذه الأسر لتولي مناصب مهمة، وعلى رأسها مشيخة العرب.

خاتمة:

بالنظر إلى الوضع الصحي في المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي، نجد أنه لم يشهد انتشاراً واسعاً للأمراض، ويعزى ذلك غالباً إلى طبيعة المناخ وجودة التغذية. ومع ذلك، فإن معظم الأوبئة التي تفشّت في البلاد خلال أواخر العهد العثماني كانت تتسرب إليها من الخارج، خاصةً من دول المشرق العربي، وبلاد السودان، وجنوب المغرب الأقصى، وبعض المناطق في أوروبا، وذلك نتيجة استمرار التواصل معها. أما بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، فقد أصبح الوضع الصحي كارثياً بكل المقاييس، إذ انتشرت الأمراض بجميع أنواعها وبوتيرة متسارعة وبشكل وبائي، وظهرت أوبئة بسلاسلها القاتلة لم يعرفها المجتمع الريفي من قبل، وعلى رأسها الكوليرا والتيفوس، بالإضافة إلى أشكال وبائية أخرى. كل هذا يؤكد على كارثية الوضع الصحي، وتشير المعلومات المتوفرة إلى أن سلطات الاحتلال الفرنسي لم تتخذ أي إجراءات وقائية أو علاجية لصالح الجزائريين عند اجتياح الأوبئة أو تفشي الأمراض، واقتصرت هذه الإجراءات على خدمة مصالح المعمرين فقط.

ورثت قبائل الأقاليم الصحراوية عن الحكم العثماني وضعاً معيشياً مزريراً تمثل في المجاعات، وندرة الموارد، بالإضافة إلى سلسلة الحملات العسكرية التي كانت تشنها إدارة البايلك بين الحين والآخر لتحصيل الضرائب، خاصة في أواخر العهد العثماني عندما انحسر النشاط البحري وانكمش في ظل تراجع الدولة العثمانية وسيطرة الدول الأوروبية على حوض البحر الأبيض المتوسط.

مع تراجع غنائم الجهاد البحري وانحساره، كان لا بد للسلطة والحكام من الاهتمام بالقطاع الفلاحي وجعله ذا أهمية وألوية في المجال الاقتصادي. وقد صاحب ذلك إنشاء أجهزة إدارية تشرف على تحصيل الضرائب على أكمل وجه، ودعم الأجهزة التابعة للدولة التي تقوم بالتحصيل الضريبي، مثل قبائل المخزن والقياد وأتباعهم. ورغم الصعوبات والعراقيل التي واجهت النشاط الزراعي في البايلك وأقاليمه الجنوبية، إلا أن المردود الفلاحي كان معتبراً وكفي لسد حاجات السكان إلى حد ما، وكانت السلطة الحاكمة تصدر الفائض منه، خاصة محصول القمح والشعير والتمور، بالإضافة إلى الثروة الحيوانية التي كانت موزعة على مناطق متعددة من أراضي البايلك.

خاتمة:

عند الحديث عن التنظيم الإداري في منطقة البايليك، نجد أن العثمانيين حافظوا على الهياكل التنظيمية القديمة، خاصة في المناطق النائية عن السلطة المركزية. فقد عهدوا بإدارة شؤون هذه المناطق البعيدة، مثل الصحراء، إلى القياد والشيوخ، الذين يتم اختيارهم بعناية من بين الأسر القوية والغنية وذات النفوذ الديني، كأسر ابن قانة وبوعكاز والحنانشة، وغيرها من الأسر التي تقع ضمن نطاق دراستنا.

تتفق المصادر على أن سكان الأرياف شكلوا الأغلبية الساحقة خلال العهد العثماني، حيث عاشوا في قبائل متناثرة. اعتمدت القبائل القاطنة في المناطق التالية على الزراعة في حياتها اليومية، نظرًا لخصوبة التربة ووفرة المياه. بينما اعتمدت القبائل المنتشرة في الهضاب والصحراء على الرعي كحرفة رئيسية.

شهدت الفترة الممتدة من 1710 إلى 1848م ظهور علاقات مصاهرة بين البايات والأسر الكبرى في الريف والصحراء. سعى بعض البايات إلى تعزيز مكانة أسر معينة على حساب غيرها، كما هو الحال مع أسر مثل: ابن قانة، بوعكاز، وبني جلاب. استفاد الحكم العثماني من هذا التنوع في القبائل والأسر النافذة التي لعبت دورًا هامًا، تجلّى في الدعم الاقتصادي والعسكري الذي قدمته لسلطة البايك، ويتضح ذلك جليًا عند محاولة الفرنسيين احتلال مدينة قسنطينة سنة 1836م.

إن تتبع مسار السياسة العثمانية المختلفة، التي نُهجَت في الجزائر منذ عام 1519 وحتى عام 1830م، يُظهر كيف تمكن المجتمع الجزائري من الحفاظ على تماسكه ووحدته، وامتداده التاريخي من خلال الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية المختلفة. هذه الأنشطة، التي كانت سائدة في الأرياف والمدن قبل الوجود التركي، استمرت بفعالية أكبر، لأن السلطة الحاكمة حرصت على تنظيمها عبر مجموعة من القوانين التي تخول لها ذلك.

خاتمة:

بالاطلاع على مصادر ومراجع الدراسة، تبين لنا أن الجزائر غنية بتنوع ثقافتها وموروثها الحضاري، وأن لكل إقليم من أقاليمها خصوصية تميزه عن غيره، سواء في المناسبات الاجتماعية أو الدينية كالزواج والختان واستقبال رمضان وعاشوراء وغيرها. كما اتضح لنا أن المجتمع الجزائري، على الرغم من التحديات الداخلية والخارجية، حافظ على العديد من عاداته وتقاليده التي ورثها عن الأجيال السابقة. ومع مجيء العثمانيين والتأثر ببعض تقاليدهم الدينية والاجتماعية، بدأت تظهر عادات وتقاليد جزائرية ممتزجة بالموروث العثماني، حيث استحسن الجزائريون بعضها واندمجت مع تقاليد المجتمع، حتى أصبحت بعض العادات والتقاليد العثمانية، بمرور الوقت، جزءاً من الموروث الجزائري ذي الأصول التركية.

شهد الوضع الثقافي والتعليمي في الجزائر في أواخر العهد العثماني استقراراً نسبياً، على الرغم من هجرة العديد من العلماء بسبب الركود الثقافي وعدم اهتمام السلطة الحاكمة بالواقع التعليمي والثقافي للجزائريين. وغلب الطابع الديني على معظم المعارف والعلوم في تلك الفترة، وذلك في إطار الثقافة العربية الإسلامية. ومع ذلك، حافظ علماء الجزائر على مكانتهم المحترمة داخل المجتمع وخارجه. كما كان للزوايا والطرق الصوفية دور بارز في نشر العلم والمعرفة، ورغم محدودية إمكاناتها، لم يدخر مشايخها جهداً في تثقيف وتعليم الجزائريين، انطلاقاً من حرصهم على الحفاظ على الشخصية الجزائرية والهوية العربية الإسلامية. وقد ازداد دورها في ظل الهجمة الشرسة لسلطات الاحتلال الفرنسي على مرافق التعليم والثقافة في الجزائر، وذلك في إطار سياستها الرامية إلى طمس الهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري.

مع التدهور التدريجي للموارد المالية لخزينة الدولة العثمانية في الجزائر، خاصة في أواخر العهد العثماني، لجأت السلطات الحاكمة إلى فرض المزيد من الضرائب على الأهالي من خلال الأسواق، وتبني سياسة ضريبية تهدف إلى تأمين مداخيل للخزينة. واعتمدت السلطات في ذلك على استخدام قوات محلية من الأهالي لمساعدتها في مهام التحصيل، مثل القبائل المخزنية. وهكذا، أصبحت الضرائب مصدراً مالياً هاماً لخزينة

خاتمة:

الدولة، خاصة في الفترة الأخيرة من الوجود العثماني. ورغم ثقلها على كاهل الرعية، فقد كان يُراعى في تحصيلها خصوصيات كل منطقة وتركيبها الاجتماعية. إلا أن الاستعمال المفرط للقسوة خلال جباية الضرائب في بعض الأحيان أدى إلى حدوث تمردات وثورات ضد السلطة الحاكمة، وهي سمة بارزة خلال هذه المرحلة، تجسدت في ثورات مثل ثورة ابن الأحرش، والتيجانية، وغيرها.

أدت السياسة الاستعمارية المجحفة إلى تدهور أحوال الجزائريين المعيشية والصحية في مختلف أنحاء البلاد، وخاصة المناطق الجنوبية، وذلك من خلال القضاء على مصادر رزقهم ومصادرة أراضيهم عبر سلسلة من القوانين العنصرية الظالمة.

لم تكف إدارة الاحتلال الفرنسي بسن ترسانة من القوانين الجزائية الجائرة القائمة على المصادرة والحرمان وتضييق الخناق على الأهالي، بل انتهجت أيضاً سياسة العنف الممنهج، والتي تجلّت في التجويع الجماعي والتقتيل وسياسة الأرض المحروقة من خلال إتلاف المزروعات ومصادرة الثروة الحيوانية. هذه الجرائم والانتهاكات الصارخة لمقومات الاقتصاد الأهلي جعلت المعاناة السمة الأبرز في حياة السكان اليومية، فبالقضاء على الركيزة الأساسية للاقتصاد الجزائري، أصبح السكان عرضة لمختلف الكوارث والجوائح والأزمات.

في الختام، يمكن القول إن العهد العثماني في الجزائر مثّل مرحلة هامة في تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية. فمن خلال الأنشطة المختلفة، تمكنت إيالة الجزائر من بناء اقتصاد يلبي حاجات السكان من جهة، وتصدير الفائض إلى الأسواق الأوروبية في بعض الفترات من جهة أخرى. وإضافة إلى ذلك، أسهم الثراء العرقي والديني، وتأثيرات الوجود العثماني في تنظيم المجتمع، في تشكيل مجتمع غني بالثقافات والعادات والتقاليد المحلية. وعلى الرغم من التحديات والصراعات المحلية والخارجية، استطاع الحكام العثمانيون تحقيق قدر من الاستقرار والازدهار الاقتصادي الذي أثر بشكل عميق على الجزائر حتى بعد الغزو الفرنسي. وقد حافظ الاحتلال الفرنسي في البداية على العديد من التقاليد العثمانية، سواء في أجهزة تسيير الإيالة أو بعض التقاليد في الشأن الاجتماعي، للحفاظ على استقراره، قبل أن يجتاح البلاد

خاتمة:

.....
ويفرض سياساته المختلفة القائمة على العنصرية والطمس والإبادة والقضاء على كل ما هو جزائري.

السلامة

رسائل أعيان مدينة قسنطينة الى السلطان محمود الثاني حول إعلان طاعتهم الى الحاج أحمد باي عقب الاحتلال الفرنسي للجزائر



محمد المزيني علما ان نام بعبارة لا يتعمق وقاضيا لا كلام الفرض مع منارسة الاسلام وايد قوام الدين تأييدا من بلادنا واد الفقام وصلاته تاتينا كالمس على نينا محمد خير ايقين الذي قام به
 اوله اوس وتم به ارسال المرسلين وعلو الطهاريس وصحابة انا كرمين منبجها من اصادنا الله وصافي الطوبى لمن فلكه ولكون وانكنا والجزر والمجرب و فاض احوال
 الفرح من جميع المسلمين من ايتو مولد مع بلاد عمية الصالحه اللطوبى كل عضو وواجهه لستحقها يتمول الفقم العام اما لوف دفع المضاير والمطلب الفوز ملكا لوك
 الزمان و اعيروا اعصرنا وان شجنا ذكرا و اربلا و ملاذ المستغيت ملا ارتياح لفل الله في أرضه وخليقته على خلقه ملكا لبرين وها خا الفخرين مولانا النشاطا دنت
 السلطان المشطان الغار بمحمود خنا لانا لورا عظيم الشان منصورا عزير لخباب جزرة و جلالة وى العزات اما به مستحسانه دنتها على كل حال وسؤاله تدرك
 انما لفا في الخفية في سائر الاحوال ومناولة بر وجوده واحسانه و اكد في الشان فان الفقام العلى والفا به الاعظم اسنى لا يعزب عنه ما كان دجوا لورا من اسيا لربنا
 الكفار بقضا في ذوقه لورا عزيرنا اقرار يفعل يا يشا لا يشل بما يفعل ولقد كتمت دنت بعدكنا لولم وراحت العلوب الخناجر ووقع التشتيت وانا همام وسأت الا خلا في الاحوال
 وتابعت المطلوب وتبا صد الفجب صا كحبيب و فقام كبريس واشمازت النفوس وكان نهض لورا تتجمع المقترب منم الفقام من اعادة القسنطينية انما لست على سليل
 الكواية الكشمية عبدكم المباح اجداى برامم مجة الدت على احمد باي نموذ جديد واجتهدا وسلكنا سعوية مسالكنا لستكنا جميع المقترب والهم المايح واجار المستجير واطا
 التشتيت وكسب لبرين ولم يتخلل افويطه ولا اسما ذر هذا الشان واسترحاله انى ان ابلغ لنا ممنة كذا كى بالانبياء مة والتفكير وحسن التلطف والتدبير وعا عاينا ما تيسر
 من جميع العزبة وناه المنم ونبات المباش والتوفيق وما انقهر في الصالح العامة مضا لورا العك وتدم من اسلا في التحقيق من غير منفعته عايدك عليه والاستفادة قبالة ذلك حصلت اليه
 ولغيره لنام مابته وادقار رعيته وسعيه في تامين المرف وسيا مته بأيعتاه على السمع والطاعة دفعا لخا برى الابرار واطا ولا يتوليتة على المايح حتى يقين لورا مراكنا
 مفعولا لتقتسبين من تمام مولانا ايوامونين حلا العباد في اعلاوه اعلام الدين واحسين مخرج الحسنة واخلاتة الكونية الشكسنة وفيه السديد وتعميه اسباب
 التوسيد تجييزه اقترحنه وادبا لعلنا من الباب الفه لمرتناه ويداى عينا عيونا عيونا المايح احمد بن المرحوم احمد باي فان قوليتة مع جلالة همة الدولة السنية المبحر أحمد ثم لفت
 مقامه ان دعما لورا عليه لهاد مريض لورا ناسيا بوجدة الفكل ان الحاج احمد يهد رعيه لير لاسا به وتتمتع لديه المطلب وانا بان لانه ليس له مرسى يرتفع دجا ويروم مع من ممتسا

HAT.47971-D

مصطفى بوداق وآخرون: الجزائر في الوثائق العثمانية، رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، أنقرة 2010، ص 196-197.

صورة تتعلق بأخبار انهزام الفرنسيين على أسوار مدينة قسنطينة و انسحابهم منشورة في الصحف الفرنسية

فرانسوا غزيرتسك قطيعة جده سنة 1808 بمصره مؤرخك نزه سيدة

جزيرة قوسماندي فلوزل نام جنرال فرانچ المورجيه ناطية قطيعة اسطخى اوليه عناية ديه كوندريكي تحيدنك مائة نظر قطيعة اودريه
 ايل اوليانه علكه مظفر اودريه ويري اوليه ملاحظه دندار لانك ضرفي اوليه عاكركوك وقوعات غريبه وكهفيت كامدوب وديار
 اوليه ديك بريفت كسب ايمتج اودريه جنرال مرسوم طرضه بذل وهتمام اوليه ره تقريبا قطيعة بلك سنة اوج كوده مسافره كانه كليل
 نام كحل عاكركوك موقع انتخاب المير وعكركمينت مرسوم موات سبيله اغراضه وركت ابرك لاس العقبه سميه اوليه نور بوغازي
 بوع طولو دبارنه تروبلد بونه فده برنه صغ سنه ايمتج كيج وقفي الكرك هلك ودينايت وقفي ذفيه دن بطالت طاري ايشي وقطيه
 اوج كلس فده تومل نام نرك بيشين مودا فده عاكرك حسنة وكنته وتقليد سبب جديدا فده بوع جنرال مرسوم اسكباب الميديكي
 عاكرك اول شاه معينه الكريسي موجود اولوب وخالص ساعت ايجي صولتيه مرسومه وصول اوليه ره كحل مرسومه تقريبا بوع كليم
 فودج بعديك ترتيب اقامت اوليه قطيعة طرضه بلوب صديقه فري سببانه ظهور ايمتج وهنوزي شديد ذمه وعكرك ايل باصديقه
 دعب لرض جاموك بوع بلانده ضابع اوليه جند بلافاة وقت كدميه اخل ايه ملاحظه سني كودلفا ايمتج وبعونه بنق عاكرك
 باي ثبات وقربه ايرت نزل ايمتج واهلا مملك كوي اعطرك عددي اودريه محاصره سنة درسي اوليه مرقدي قبوليه قبلي اقلان
 ايجي كوده كحل مرقدي شرموب طوب انلاقت اولوب قطيعة نام فونك هرس مرقدي اوصلي كوفي رض اذم ووازم اوليه ايمتج باب
 مذكور لايقيد هدم اوليه مرقدي وبع دوده بوع رضون اجموده كحل مرقدي جميعي وبارك جيل وضع وتعبه اقمي مراد اوليه ايمتج
 بوس وعبرت نيجي بدير اوليه مرقدي اول شاه ذخير مراك فضدي وعاكرك اعراك مرامر غلبه سي صيد عودنده بنق مراك بوندي
 وموجود اوليه ذخائر رض مرسوم نام كحل جاموك دارنه ره زمان مرقدي ناي محافظه سنة ماموعه عاكرك طرضه عانته واطرف اذمته
 ستم مرقدي كحل كوفي على الصبح مرسوم نام بوع بيل مسافره كانه قونياتي نام مجله فراديس انشا اوليه
 بوع فده ادم درسي تعقيب ايمتج كحل طرضه ايجي باي فده مرقدي ظهور ايمتج ابره سي كوندري عاكرك كوك ناي عددي اوليه
 باشلوب دردي كوده لاس العقبه نام كحل بوع بوع غانبا ايشي اوج رض مظفر

HAT, 47261-D

23

1

وأما أول سلطان تغرت في قرن التاسع هو الحاج سليمان
المريني الجلابي

Le premier des Sultans de Tougourt, au IX^e siècle de l'hégire,
est El-Hadj Seliman El-Merini El-Merini El-Djellabi.

2

وبعد ابنه علي رحمة الله عليه

Après lui son fils Ali, que Dieu lui accorde sa miséricorde.

3

وبعد ابنه السلطان أحمد

Après lui son fils le Sultan Ahmed.

4

وبعد سلطان عمر ابن المذكور

Après lui le Sultan Amer, fils du précédent.

5

وبعد سلطان سليمان أخ المذكور

Après lui le Sultan Seliman, frère du précédent.

6

وبعد أحمد ابنه وبع وقته فتحوا الترك مدينة تغرت
ومدينة ورجلان

Et après lui Ahmed son fils. Et de son temps les Turcs s'emparèrent de la ville de Tougourt et de celle de Ourdjelan (Ouargla).

Digitized by Google

24

7

وبعد السلطان المنصور ابن أحمد

Et après lui le Sultan Mansour, fils du Sultan Ahmed.

8

وبعد شيخ عثمان ابنه

Après lui son fils Atman.

9

وبعد السلطان علي ابن اخته

Après lui le Sultan Ali, fils de sa sœur.

10

وبعد السلطان المبروك بن عثمان

Et après lui le Sultan Mabrouk ben Atman.

11

وبعد شيخ علي العمور الذي غزى إلى ورجلان

Après lui le cheïkh Ali, le borgne, qui envahit Ourdjelan (Ouargla).

12

وبعد السلطان المصطفي بن العمور

Après lui le Sultan Moustapha, fils du borgne.

13

وبعد الشيخ سليمان ابنه

Après lui son fils le cheïkh Soliman.

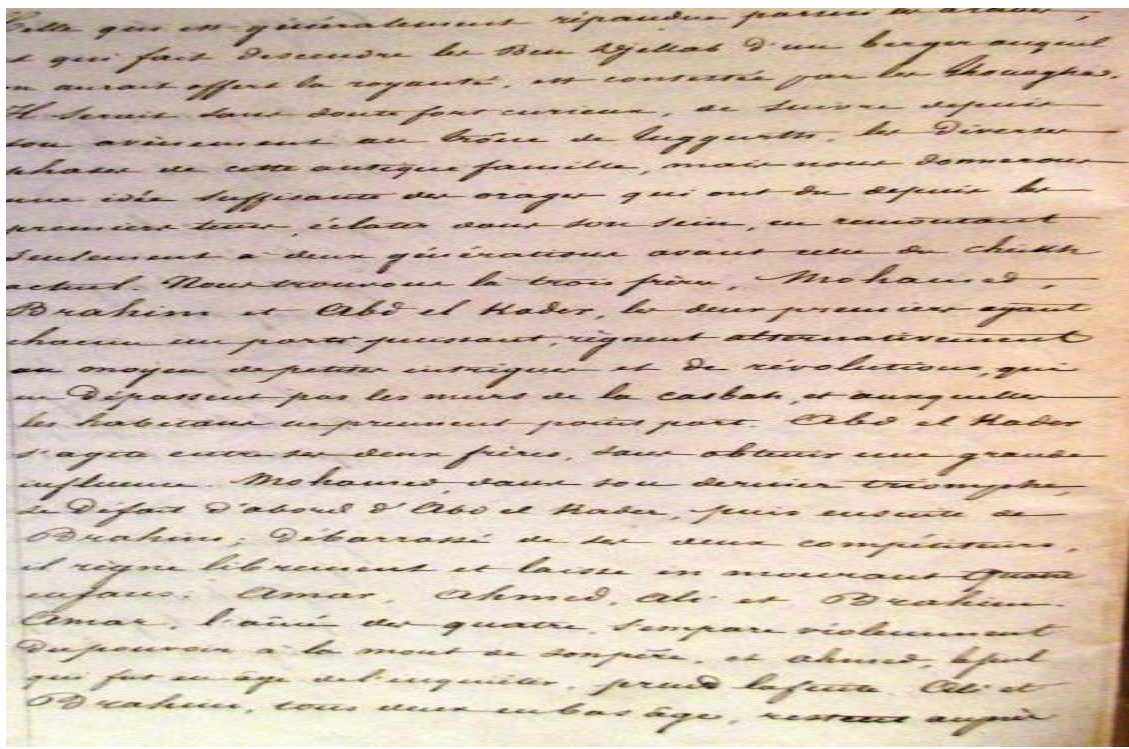
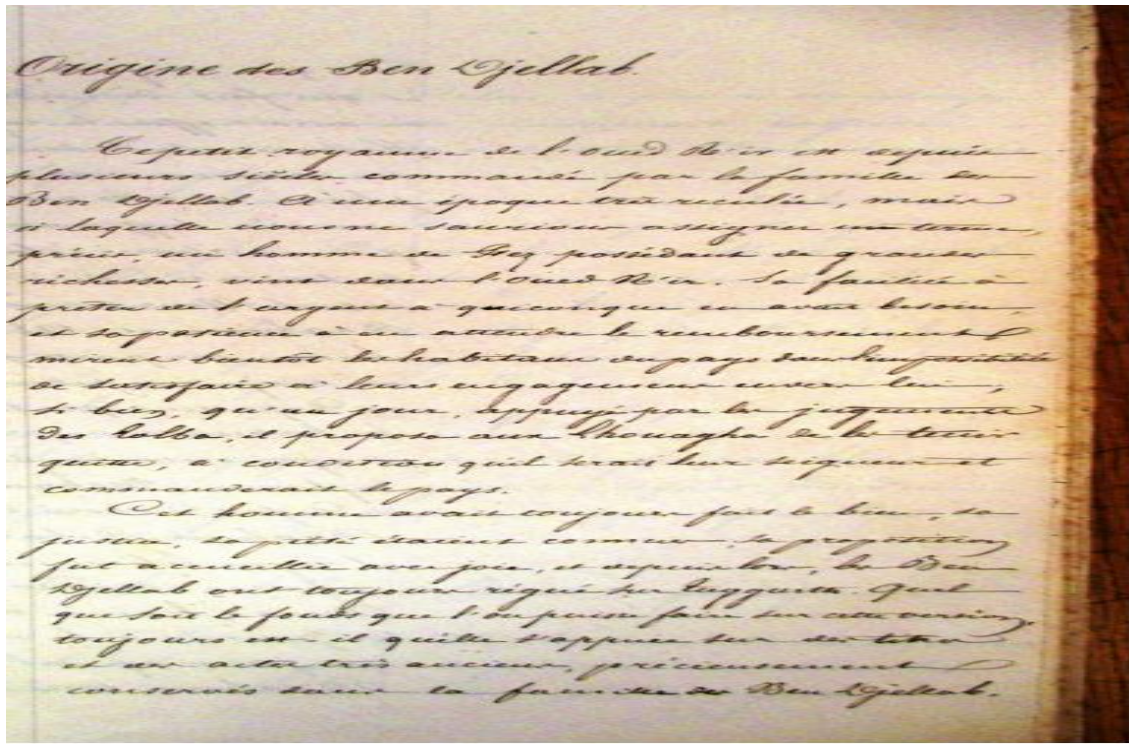
Digitized by Google

25

14

وبعد الشيخ محمد بن سليمان

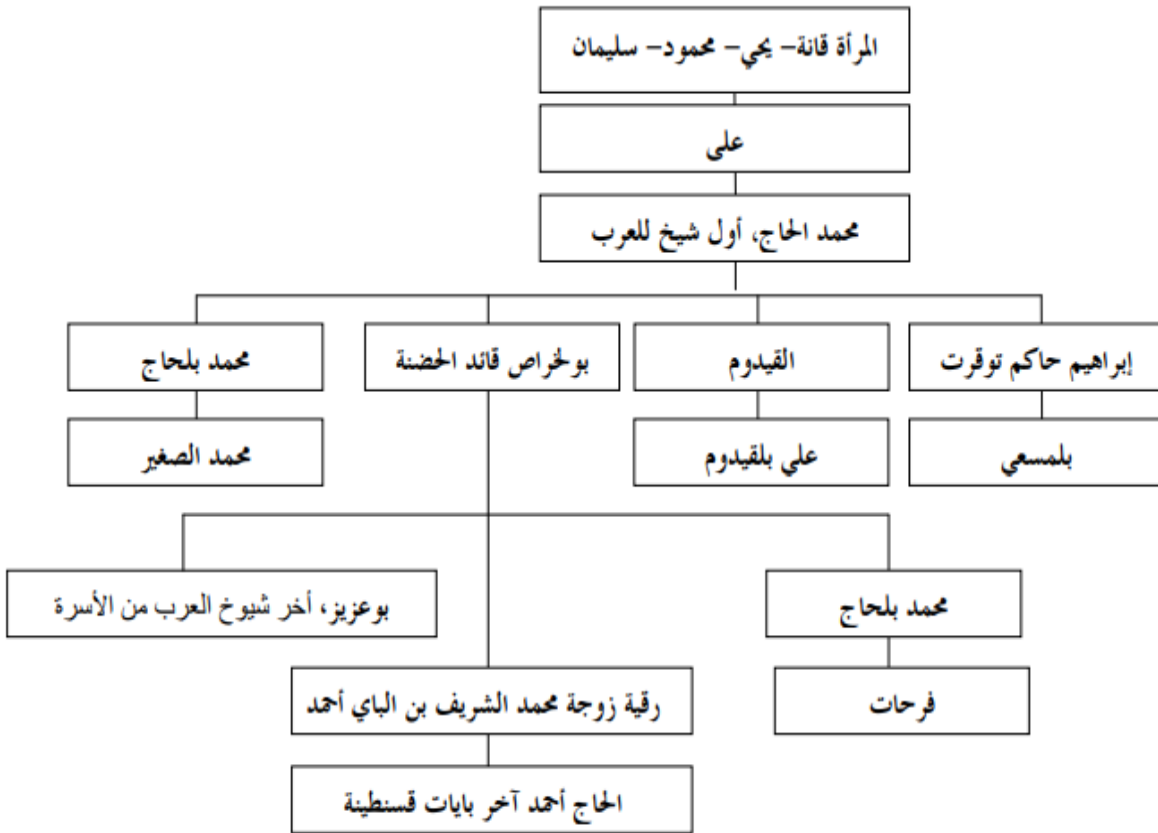
Et après lui son fils Mohammed ben Soliman.



المصدر: A.O.M, 2H22 نقلًا عن: رضوان شافو: المقاومة الشعبية في الجنوب الشرقي الجزائري 1850-1875 أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 02، قسم التاريخ، ص 302

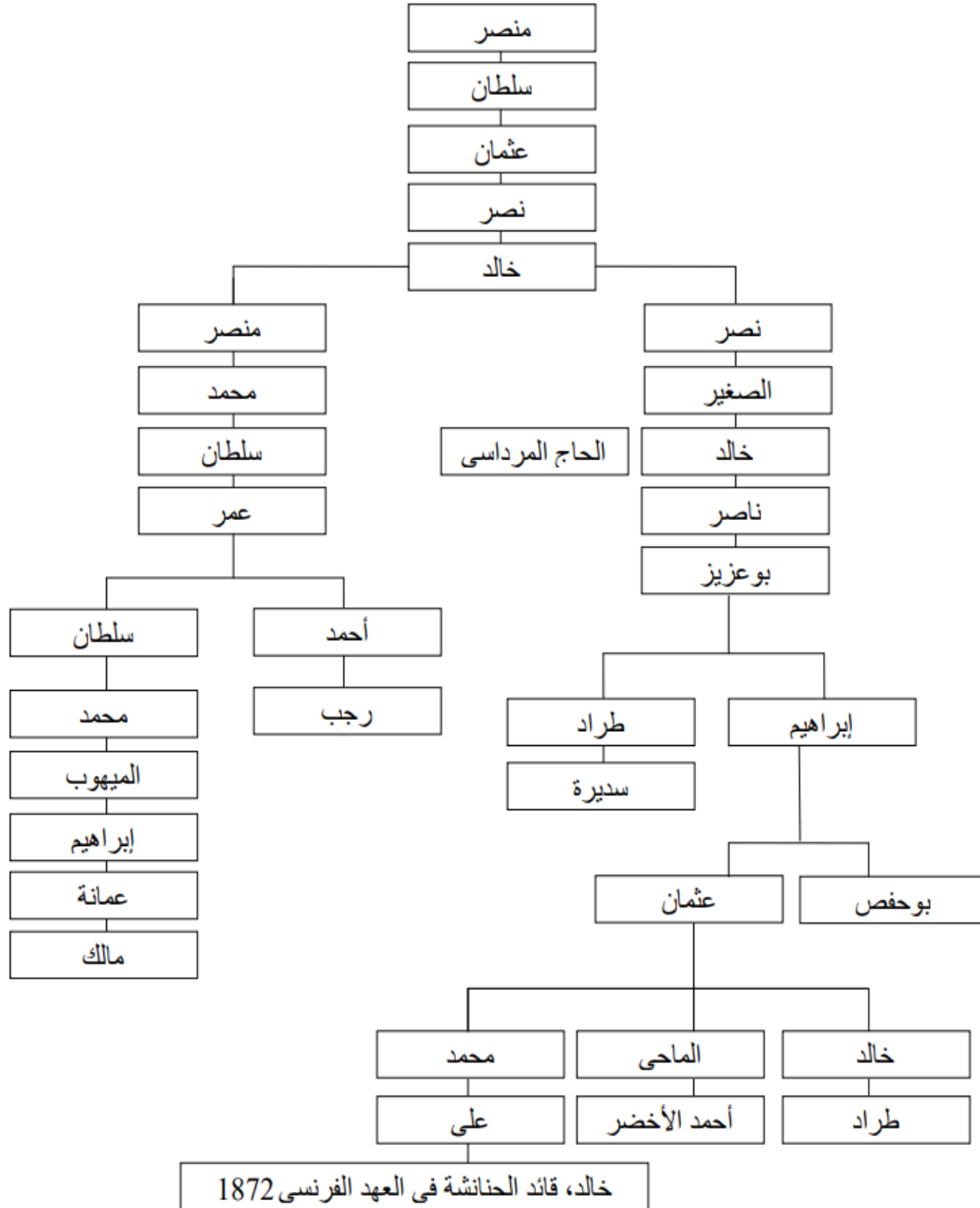
شجرة النسب لأسرة ابن قانة

علي بن أبي طالب- الحسن- عبد الله- إدريس الأكبر- إدريس الأصغر- أحمد عبد الله- سالم-
 عمران- جبار- عبد العزيز- عزوز- موسى- مسعود- مزدي- داوود- يحيى- عيسى- علي- عبد الله-
 إبراهيم- عبد الله- عيسى- عبد الغفار- داوود- محمد- يوسف- خالد- عدنان- يوسف- عيسى- أحمد-
 الحبيب- العبد- عبد المالك- إبراهيم- يونس- خالد- عمر- محمد- عبد العزيز.

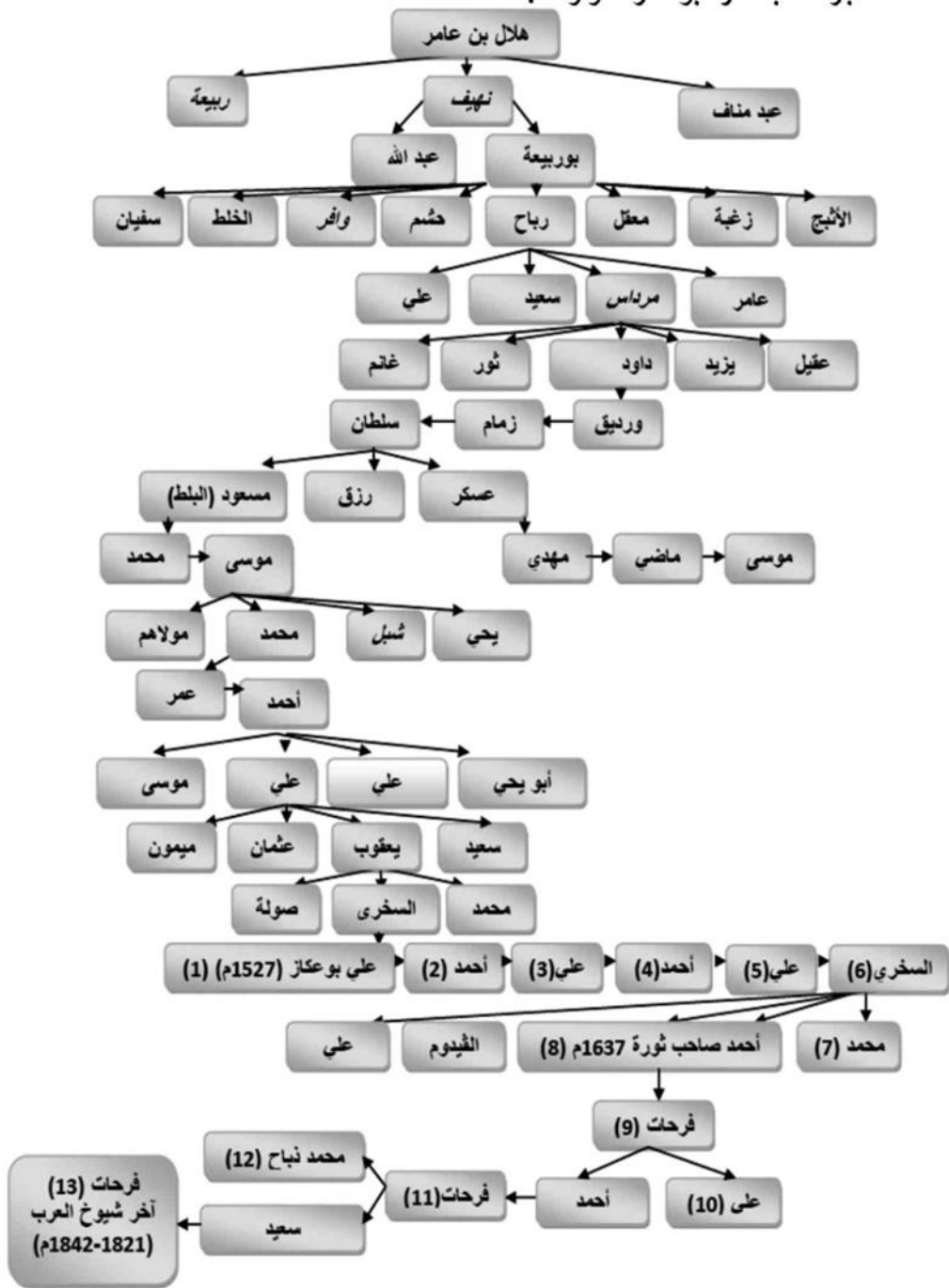


شجرة الأنساب أحرار الحنانشة

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) - عبد الله - حنش - عامر - نصر - جابر - محمد - بكرة - عامر - إبراهيم - جابر - سعد - محمد - أبو بكر - علي - عثمان - نصر - خالد الكبير (بوزرودة 1530).



شجرة نسب أسرة بو عكاز الذواودة



معاشي جميلة: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري المرجع السابق، ص 40

وثيقة توضح أهم الأسر والمشيوخات في بايلك الشرق الجزائري

Voici la nomenclature des kaïds et cheikhs des divers outhans :

1. Les cheikhs des Arabes du Sahara (cheikh el-Arab).
2. Le kaïd El-Aouassi.
3. Le kaïd de Medjanah.
4. Le scheikh de Hanencha.
5. Le scheikh de Ferdjiouah.
6. Le kaïd de Bône.
7. Le kaïd de Bougie.
8. Le kaïd des Abd-el-Nour.
9. Le kaïd d'Oued-el-deheb.
10. Le kaïd d'Oulad Yahïa-AhI-Cheffa.
11. Le kaïd des Oulad-Hadadd.
12. Le kaïd de Rigba.
13. Le kaïd de Belezma.
14. Le kaïd des Amer-Cheragas.
15. Le kaïd des Amer-Gharabas.
16. Le kaïd d'Aouras.
- 17 et 18. Les deux kaïds du Sah-el Babour.
19. Le kaïd des Oulad-Braham.
20. Le kaïd de Milah.
21. Le kaïd de Guerfa.
22. Le kaïd des Oulad-Darradj.
23. Le kaïd de Nemencha.
24. Le kaïd de Tebessa.
25. Le kaïd des Oulad-Draïd.
26. Le kaïd de Telaghma.
27. Le kaïd de Messilah.
28. Le cheikh de Zéinioura.
29. Le kaïd des Zmêlas.
30. Le cheikh de Zoungba.
31. Le cheikh el-Deer ou de Sidi-Yahïa-Bou-Thaleb.
32. Le kaïd du Sahel de Stora.
33. Le kaïd d'Edough.
34. Le kaïd de Biskara.

اسم المشيخة أو القيادة	اسم القيادة أو المشيخة
17-18-قيادة الساحل والبايور	1- مشيخة عرب الصحراء (شيخ العرب)
19- قيادة أولاد براهيم	2- قيادة العواسي
20- قيادة ميله	3- قيادة مجانة
21- قيادة قرفة	4- مشيخة الحناشيه
22- قيادة أولاد الدراج	5- مشيخة فرجيوة
23- قيادة النمامشة	6- قيادة عنابة
24- قيادة تبسة	7- قيادة بجاية
25- قيادة أولاد دريد	8- قيادة أولاد عبد النور
26- قيادة تلاغمة	9- قايد واد الذهب
27- قايد مسيلة	10- قيادة أولاد يحيى أهل الشفة
28- قيادة زنيوره	11- قايد أولاد حداد
29- قايد زماله	12- قايد ريغه
30- قيادة زواغه	13- قايد بالزمة
31- قيادة ساحل سطورة	14- قايد اممر شراقه
32- شيخ الدار وسيدي يحيى بوطالب	15- قايد اممر غرابه
33- قيادة ايدوغ	16- قيادة الأوراس
34 - قايد يسكره	

tableau de la situation établissement français dans l'Algérie, en 1838. P33

نص الوثيقة:

الحمد لله حق حمده صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى اله وسق (كذا) وسلم.
أسعد الله تعالى مقام المعظم الأرفع الصدر الملاذ الأنفع الأكرم الأنجم المهمام الأجدد الأحمد
الأرضي الإرشد ولي نعمتنا سيدنا حسين باشا الدوكاتلي (كذا) اعزه الله ونصره .أمين. السلام
الائم عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه الشامل وتحياته وبعد سيدنا أبديك الله . أبقى لنا وجودك
فالذي يجب إعلامكم به هو خير إنشاء الله أننا غزونا النمامشة أولاد رشاش فصبحنا عليهم بالوطن
المعروف بالمحمل من ناحية القبلة فمنحنا الله نصرا فأخذناهم أخذنا ذريعا وقطعنا منهم ثمانية وثلاثين
(38) رأسا وأخذنا لهم من الغنم (21600) واحد وعشرين ألف وستة وستمائة ومن الإبل 585
خمسمائة وخمس وثمانون وخمس وثلاثون وثلاثة وثلاثون سرى(35) سوى(83) ورجعنا وعسكرنا
وقومنا في أمان الصحة وحفظ واعلم سيدي إن النمامشة كان منهم فرقنا يقال لهم العلاوة
والبرارشة جاءوا لنا عام اول وخدموا وجعلنا لهم قائدا وأعطوا ما عليهم دسم في الأمان والعافية وأما
أسرة الطرفة أولاد رشاش عصاة ومنافقين يقطعون الطريق ويأكلون أموال الناس ظلما لم يعطوا شيا
من المطالب وبعثنا لهم فلم يقبلوا ولم يعطوا ما مكنتنا الله منهم لسموك وساذحاقك المنصور
فأخذناهم وقتلناهم زجرا لهم والحمد لله والشكر لله ونسأله سبحانه وتعالى ان يمد لنا في حياتك
ورعايتك ونصرك وسلامتك فانك ما دمت لنا بصير الحياة جعلني الله عبدك ما عندك الا جميع
الخيرات وقمام المسرات ... هذا سيدنا وقد بلغنا جوابك السعيد ومعه القبطان المجيد وحمدنا الله على
سلامتك حمل الله عيدكم مباركا مبرورا هناء وعافية وسرور وهكذا كل عام يمر واتم طيبون أمنون
فرجون مستبشرون أمين . والسلام من الفقير لي سبحانه المتوكل عليه المفوض أموره إليه.
عيدكم رحاء لكم ومقبل يدكم وقدمكم الحاج احمد باي وقفة الله بقدر وامنه يقوته.

المصدر: المكتبة الوطنية بالحامة، الجزائر، الأرشيف العثماني، المجموعة رقم، 1642 الوثيقة رقم 15

الحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى اله وصحبه وسلم.
اسعد الله تعالى بطول ايامكم وحفظ بعزة ومقامكم ووالي بفضلة بقائكم المعظم واسعد الصدر
الهمام الاحمد الامجد الا ... الا ... الملاذ الاسمى ولي النعم سيدنا حسين باشا الروكاتلي اعزه الله
وايده وحفظه ونصره امين والسلام عليكم ورحمته وبركاته ورضوانه العميم وتحياته ... الله جلت
قدرته وتمرست كلماته الى الخير والعافية ونعم الله المتوالي التي نطلب من المولى الكريم رب العرش
العظيم دوامها وبقائها على سيادتكم العلية بكره وعشية تجاه اشرف البرية سيدنا ومولانا محمد عليه
افضل الصلاة وازكى التحية وبعد سيدنا اعزه الله ونصركم وابقى وجودك وسلمت فالذي يتصل
بشريف علمكم خير انشاء الله اننا لما وصلنا من وض ريقة ونزلنا بغرب زامة غزونا من هنالك على
فرقة العمامرة من جبل اوراس وانها سيدي فرقة عاصية لم يعطو مطالبهم ولم تكن فيهم طاعة
فاصبحنا عليهم في اليوم الحادي عشر من شهر تاريخه في جبلهم فمنحنا الله النصر

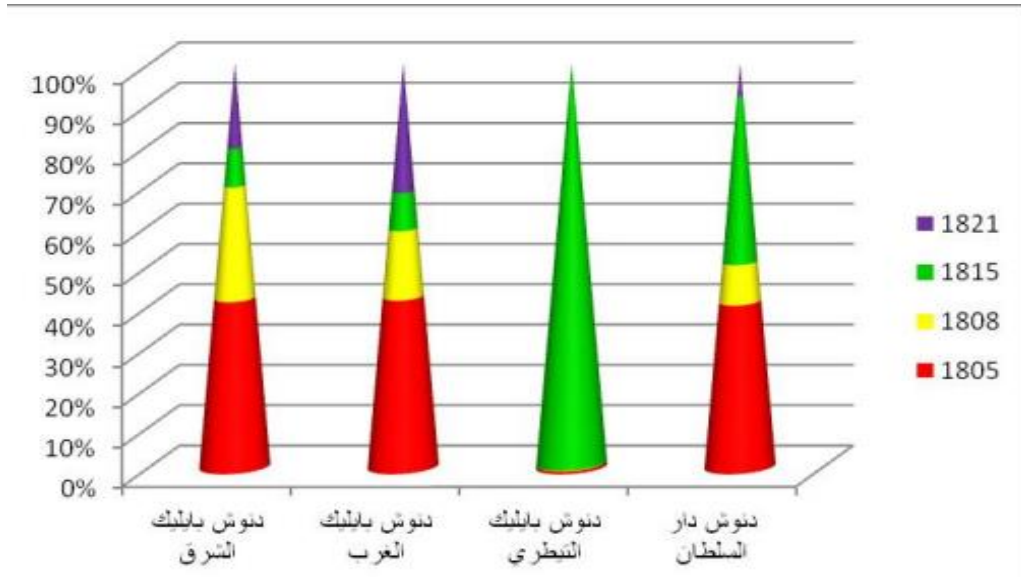
ورزقنا الظفر فقطعنا منهم ستة عشر راسا وجمعنا عما لقسنطينة واخذنا لهم غنائم جيدة
وذلك خمسة عشر الف وستمائة غنم 15600 منها بشر الفان واثنان واخذنا لهم من البقر ستة
عشر مائة وستين راسا 1660 من البقر وسور 32 (كذا) وابل 17 ورجعنا نحن وعسكرنا وقومنا
سالمين غانمين والحمد لله ثم استرحنا نحو يومين وغزونا من هنالك الى بلاد الحنانشة فاخذنا اولاد
شيخ واولاد مسعود في الجبل فنصرنا الله عليهم فقصعنا منهم احد عشر 11 راسا واخذنا لهم اثنين
وعشر مائة وستين راسا 1260 من البقر واخذنا منهم ثلاثه عشر مائة وعشر شياه غنم 1310
ونصيب يقو من ... ولينا في امان الله وحفظه ونزلنا بوطن الحنانشة تقظوا حاجتنا هنالك وفرجعوا
الى محلتنا وبعزا كله من فضل الله تعالى وبركاته ونحمده جل وعلاه ونشكره الذي جعل سانجافك
منصورا حيث حيث ان توجه والمطلوب منه سبحانه ان يمدلنا حياتك ويبارك لنا في سنينك
واعوامك وان يذل ويهلك اعدائك وان يشيد اركان مملكتك ويرفع سلطانك وينصر رايتك
واعلامك ان على ذلك قدير وبالاجابة جدير وهو نعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا
ومولانا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما والسلام من الفقير لربه سبحانه عبدكم وحادمكم
ومقبل قدمكم عبرة الحاج احمد باي وفقه الله

اواخر صفر الخير 1243

المصدر: المكتبة الوطنية بالحامة، الجزائر الأرشيف العثماني، المجموعة رقم، 1642 الوثيقة رقم 20

نقلا عن: عبد الرزاق قشوان: السلطة المحلية في بايلك قسنطينة، المرجع السابق، ص 115-117.

عائدات عملية التدنيش للبايلكات واحتلال بايلك الشرق المرتبة الاولى



شهرزاد شلي: المؤسسات في الجزائر أواخر العهد العثماني المؤسسات المالية أنموذجا 1830/1797، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ وعلم الآثار جامعة باتنة، 2019، ص 227.

مساحة الأراضي المستغلة في زراعة الحبوب وعدد الجابذات الموظفة عليها ومقدار ما يؤخذ منها لفائدة خزينة بايلك قسنطينة حسب تقديرات CALVELLI

مقدار ما يؤخذ عليها بالقناطير	المساحة الاجمالية بالهكتارات	عدد الجابذات	نوعية الأراضي
2.702.400	135.120	13.512	أراضي البايليك
503.000	25.150	2.515	أراضي العرش
300.000	15.000	1.500	أراضي الملوك

فلة القشاعي المولودة موساوي : المرجع السابق، ص 118

جدول يوضح أهم العملات المتداولة في الجزائر خلال العهد العثماني
حسب الظابط الفرنسي روزيه

العملات:	قيمتها بالفرنك:
-الذهبية:	
-سكة سلطاني قديم.	9,60-
-سكة سلطاني جديد.	8,90-
-سكة سلطاني جديد (2/1).	4,45-
-سكة سلطاني جديد (4/1).	2,22-
-الفضية:	
-زوج بوجو.	3,72-
-ريال بوجو.	1,86-
-ربيعة بوجو (4/1).	0,47-
-تيمن بوجو (8/1).	0,23-
-باتاك شيك (3/1).	0,62-
-نصف باتاك شيك (6/1 بوجو).	0,31-
-التحاسية:	
-خرّوبة بيضاء (3/1 موزونة) 5 أسبر.	0,038-
-شيك نحاسية (تساوي 5/29 موزونة).	0,013-
-2 أسبر شيك نحاسية.	0,005-
-أسبر شيك = 1/29 موزونة.	0,0026-

نفسه، ص 330.

تقديرات تعداد سكان الجزائر والريف القسنطيني بين السنوات (1830-1845م)

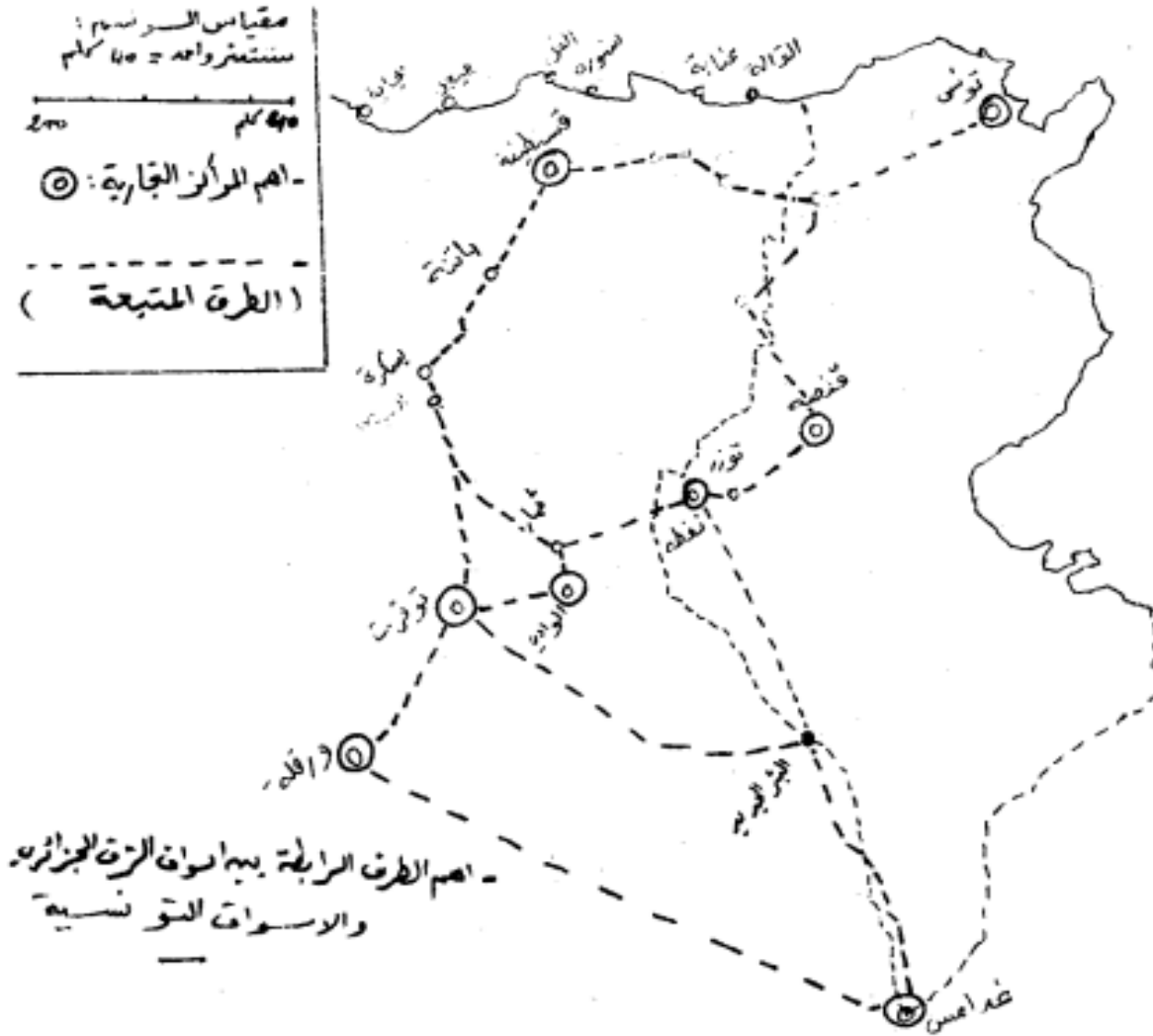
بين المصادر المحلية والأجنبية

تقديرات الريف القسنطيني على أساس 2/5 ساكن	عدد السكان في الجزائر	صاحب التقدير	السكان
760000 إلى 7200000	1.8 إلى 1.9 مليون	ANONYME	1830
2400000 نسمة	تقريب 1 مليون	ANONYME	1833
4 ملايين	10 ملايين	حمدان خوجة	1833
1.2 مليون إلى 1.6 مليون	3 إلى 4 ملايين	De la pinsonnière	1833
800000 نسمة	2 مليون	Volozé	34
10 ملايين	25 مليون	A.Berteuil	36

10 ملايين	25 مليون	Pellissier	1836 - 1830
3.2 مليون نسمة	8 ملايين	Bugeaud	1845 - 1841

جمال الدين سعيدان: الأحوال المعيشية والصحية في الريف القسنطيني في ما بين 1830-1919م، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة قسنطينة، الجزائر، دت، ص ص 65-

أهم الطرق الرابطة بين أسواق الشرق الجزائري والأسواق التونسية



- محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 160.

عمليات التبادل التجاري بين الشرق الجزائري والأسواق التونسية

أهم الأسواق	المقاصد	المواد المصدرة	المواد المستوردة
قسنطينة	تونس	الصوف ، الجلود المدبوغة ، التمور المتمازة ، الشواشي العادية ، ريش النعام	المصنوعات الأوربية ، العطور ، التوابل ، القهوة ، الأقمشة ، القطنية والحريرية .
الوادي	نفطة نفطة	التبغ ، الفوة والتمور	مواد البزازة ، المواد العطرية ، الأقمشة الحريرية ، الأسلحة ، الكبريت .
توقرت	نفطة غدامس	الأقمشة الصوفية العادية ، التمور والمظلات المواد العطرية ، التمور الحبوب ، الزيوت ، الأقمشة .	الأقمشة القطنية ، العطريات والمصنوعات الأوربية . التبر ، العبيد ، جث النعام ، البخور السوداني .
ورقلة	غدامس	الأقمشة الحريرية والقطنية ، التمور ، الحبوب ، الزيوت ، الأسلحة وأنواع من العملة	التبر ، العبيد ، العاج البخور السوداني ، وكثير من المتوجات الإفريقية .

الثروة الحيوانية في أرياف بايلك الشرق حسب إحصاء سنة 1845م

نوع الحيوانات	عدد الرؤوس
الغنم	2310036
البقر	346004
الماعز	3111767
حصان	90626
بغل	76723
جمال	269087

مجمّل الثروة الحيوانية في مقاطعة بيالك الشرق قسنطينة حسب إحصاء André Nouschi

الحيوانات	أعدادهم مضروبة في أسعارهم بالفرنك	الإجمالي بالفرنك
بقر	17.5×539000	9432500
غنم	2.5×3700000	925000
ماعز	3×1100000	3300000
حصان	100×128000	12800000
بغل	150×80000	12000000
جمال	200×80000	16000000
مجموع قيمة الثروة الحيوانية		62850000 فرنك

الملحق: 21

أسعار بعض الحيوانات في بايلك الشرق عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر

الحيوانات	الأسعار
الثور	17.50 فرنك
الخروف	2.50 فرنك
ماعز	3 فرنك
الحصان	100 فرنك
البغال	150 فرنك
الجمال	200 فرنك

⁵⁾ Rapport de M.Fabre sur les ressources financières de Constantine 26 Mai 1838. Op, Cit.

الملحق: 22

معدل الدفع الجبائي في بايلك الشرق بين آواخر العهد العثماني وسنوات:1845-1844م

الضرائب	معدلات الدفع أواخر العهد العثماني	معدلات الدفع 44-1845 حسب TEF
العشور	400000 فرنك	898449.87 فرنك
الحكور	من 360 ألف إلى 720 ألف فرنك	949122.7 فرنك
اللزمة	300000 فرنك	502902.32 فرنك

711

- جمال الدين سعيدان: المرجع السابق، صص 46-47، 75

الملحق: 23

أسعار البيض و الدواجن قبيل 1830 حسب Genty de Bussy الذي نقلها عن الأهالي:

النوع	السعر في الجزائر	السعر في وهران
زوج الحمام	0.30 فرنك	-
زوج الدجاج	0.50 فرنك	0.25 فرنك
100 بيضة	1.20 فرنك	0.50 فرنك

- جمال الدين سعيدان: المرجع السابق، صص 46-47، 75

بعض واردات الشرق الجزائري من الأسواق السودانية – كاتشنة-

اسم المادة	وحدة القبض	ثمن شرائها	ثمن البيع	نسبة الفائدة
الزبد	الوزنة	١٩ فرنكا	٨٠ فرنكا	٪. ٣٢٠
الأقمشة القطنية	القطعة	٣٢٠٥	٩	٪. ١٨٠
أنياب الفيلة	القنطار	٥٠	٦٠٠	٪. ١١٠٠
جثث النعام	الواحدة	٨٠٧٥	٨٠	٪. ٨٠٠
الكورو	القنطار	١٢٠	١٠٠٠	٪. ٧٤٠
العسل	القنطار	٥٢,٥٢	١٤٤	٪. ١٧٠
جلد بقر الوحش	الواحد	٠,٩	٨	٪. ٧٩٠
التبر	غرام	٤٠٢	١١٠٧٠	٪. ١٦٥

صادرات الشرق الجزائري الى الأسواق السودانية – كاتشنة-

اسم المادة	وحدة القياس	ثمن الشراء بالفرنكات	ثمن البيع بالفرنكات	نسبة الفائدة
الابير	المائة	٠,٩	١٠	٪. ١٠٠٠
الخواتم		٣٢٠٤٠	١٠٥	٪. ٢١٥
الشواشي		٢٧	١٣١,٢٥	٪. ٣٨٨
البرانس	الواحد	١٠٠,٨٠	٤٨	٪. ٣٣٢
المقاص		١٠٠,٨٠	٨٧,٥٠	٪. ٦٨٥
المرجان العادي	الوزنة	١٠,٨٠	٢٠	٪. ١٠٠٠
القطنيات	القطعة	١٨	٨٧,٥٠	٪. ٣٨٤
السكاكين		٣	٦	٪. ١٠٠
النحاس	الكلغ	٥٠,٤٠	١٤	٪. ١٦٠
ماء الزهر	الترجاجة	٢٠,٧٠	١٠٠,٥٠	٪. ٢٩٠
الخيط		١	١٢	٪. ١١٠٠
القرنفل	الكلغ	٣٠,٦٠	٣٥	٪. ٨٥٠
الحيالك	الواحد	٩	٢٤	٪. ١٧٠
الحثيت	الكلغ	١٠,٨٠	١٢	٪. ٥٦٠
المكحل	الكلغ	٥٠,٤٠	١٥	٪. ١٨٠
صفائح السيوف	الواحدة	٤ - ٣	١٧,٥٠	٪. ٣٥٠
الليان	الكلغ	٢٥	٥٤	٪. ١١٦
المناديل		١٠٠,٨٠	١٥	٪. ٤٥
المرايا		٦٠,٣٠	٢١	٪. ٢٢٥
المسك	الوزنة	١٩	٨٠	٪. ٣٢٠
الكاغط		٢٧	١٠٠	٪. ٢٧٠
الترعقران	الوزنة	١٠	٣٠	٪. ٢٠٠
الحرير	الكلغ	٧٢	٣٥٠	٪. ٣٩٠

الملحق: 27

عمليات التبادل التجاري بين الشرق الجزائري والأسواق السودانية

المواد المستوردة	المواد المصدرة	المقاصد	أهم الأسواق
التبر ، العبيد ، أنياب القبيلة ، الأقمشة القطنية من كانو ، الكورو ، الزبد ، الحشيش من أحير ، جلود بقر الوحش ، البرنكو ، فول السودان ، التطرون البخور الأسود ، جثث النعام والعسل .	التمور ، الأقمشة الصوفية ، الأقمشة الحريرية ، الأسلحة ، صفائح السوف ريش النعام وبعض المصنوعات الأوربية المستوردة من أسواق المغرب .	أحير أغادس كاتشنة كانو وهاوسة تمبكتو نوفي	ورقلة
	الحبوب ، الزيوت ، المرجان ، الأسلحة التوابل ، المسك ، الشواشي ، الشيشان ، ماء الزهر ، الزعفران ، والكاغط	نفس الأسواق	قسنطينة
	البارود ، التمور ، الأقمشة الحريرية من تونس ، مواد الزينة والمظلات .	نفس الأسواق	الوادي
	التوابل ، والعطريات ومواد البزازة من تونس التمور والبارود والبرانس	نفس الأسواق	توقرت

معاشي جميلة: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري المرجع السابق، ص364

الملحق: 29

رسالة من الشيخ فرحات بن سعيد الى القائد الأعلى للقوات الفرنسية يعرض عليه التعاون ضد
الحاج أحمد باي 1832م.

(1) الْقَمْحُ يَا بَاهِي اللُّوثِ . . مِنْ شَبَعْتِكَ لَا زِيَادَةَ . .
أَنْتَ قُوَّةٌ كُلُّ مِتِّكِينَ . . بِكَ الصَّلَاةُ وَالْعِبَادَةُ

حتى يقول في آخره :

آمَنَ سَيِّبَتُ (2) بِنَاتِ الْحُجْبَةِ وَالْوَسَادَةِ

(1) جَلَّ جَلَالَةٌ . . ذَا الْعَامِ كَادَ الرَّجَالَةَ . .
رَيْثُ الْمَهْجَلَةِ (3) . . تَبْكِي بِالْجُوعِ . .
(2) يَا خَلْفِي حَنَّ عَلَيْنَا هَذَا الْعَامَ الْمَشُومَ . . كَلَّفَ الْخَلَاتِقُ تَهْمُومَ

غيره :

(1) خَيْرُ الْأَعْرَازِ ؟ ن وَسِيَادِي رَاحَتِ الْهَمَةِ (2)
(2) طَشُّوا (3) الْخَيْوُطَ ن جَبِّنُوا التَّنْكِيدَةَ عَلَى النَّعْمَةِ
(3) رَيْثُ النَّسْوَاتِ لَأَحَبَّ الْقَرْمُزِ لَأَحْتَةَ (4)
(4) أَجَبِّنُوا الْفَيْسَانَ ن أَجَبِّنُوا الْفَيْسَانَ الْقَرِيوَا ؟

غيره من كلام بعض اليهود :

(1) شُوقُوا هَذَا الْعَامَ الْكَبِيرَ ن وَالْعِبَادَ مَنْكَبِينَ
(2) رَيْثُ الْبُرْمَةِ وَالْكُنْكَاسِ ن وَالْبَرِيْقَ مَسْوَدِينَ
(3) أَنْغَرَّ عَلَيْنَا هَا يَا جَبْرِيلَ

صالح العنتري: مجاعات فلسطينية، تحقيق وتقديم راجح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، الجزائر، ص ص

44.-43

الملحق: 31

رسالة العقيد "دوفيبي Devivier" إلى قبائل الشرق الجزائري، ردا على إعلان أحمد باي الجهاد، بتاريخ الجمعة 08 جمادي الأولى 1252هـ / 21 أوت 1836م،



توفيق دحماني: قسطينة عشية الإحتلال الفرنسي 1837م من خلال وثائق نادرة، في مجلة الدراسات التاريخية، مجلد 11، العدد 01، السنة 2010، ص 132

الملحق: 32

اتفاقية بين أحمد باي قسنطينة والجنرال فاليه (Valée)،
بتاريخ 24 أكتوبر 1837م.⁽¹¹⁾

-----***-----

بين الجنيرال الكونت "فالاه" (Valée)⁽¹²⁾ أمر المحال الفرنسية،
الكائن الآن في بلد قسنطينة، والحاج أحمد باي قسنطينة.
صار الاتفاق بينهما على الشروط الآتية:

أولاً:

أن الحاج أحمد باي يعترف مقراً على نفسه، أن فرانسه هي
سلطانه.

ثانياً:

أن فرانسه تعطي إلى الحاج أحمد باي منصب الباشا.

ثالثاً:

أحمد باشا يدفع لفرانسه، اللزمة السنوية التي قدرها عشرين
ألف دورو في كل عام.

رابعاً:

أحمد باشا يتصرف بالحكم في بعض وطن قسنطينة: تعريف
أن من جهة قبله، بخط يسير من القل، يجوز على قالمة ومجاز عمار،
لحد سكيكدة. وفرانسه تاخذ الأراضي سكيكدة والقل وجيجل وكولو
وجميع المراسي، التي على البحر بوطن قسنطينة.

خامسا:

أحمد باشا يلتزم أن لا يعطي لأي جنس كان، على أي وجه كان، حتى خطه من بلاده حتى، ولا ياذن لأي جنس غريب كان، أن يقيح (كذا)، ولو برهة زمان في البلاد، التي تحت حكمه.

سادسا:

المتجر يكون مسرح بين الفرنسيين وأهل البلاد، ويتبعوا عادة البلاد بشأن دفع الكمرك وما أشبهه. وأحمد باشا يلتزم بأن لا يدفع يبيع ولا يتجر إلا مع البلاد التي بيد الفرنسيين. والحماريين، الذين يأتون بالسلعة من كل جهة، لا بد أنهم عوض ما يمشيوا يبيعوا سلعهم في تونس من الآن وصاعد، لازم يمشوا على عناية، أو غيرها من البلدات التي بيد الفرنسيين، لأجل يبيعوا سلعهم هناك.

سابعا:

أن الحاج أحمد باشا يلتزم أن لا يشتري سلاح ولا بارود ولا غيره من آلات الحرب إلا من صنعة فرانس.

ثامنا:

الفرنسيين والإفرنج المسرحين من فرانس، فهم يقدروا يسافروا بكل حرية وأمان في وطن قسنطينة، ويقدروا يقطنوا وقيموا أين ما شاؤوا بالوطن المذكور، وأملاكهم التي يملكونها بما لهم، يكونوا مصانين ومضمونين، ويكونوا بكل أمن وحرية، والباشا أحمد هو الضامن والكافل لهم أملاكهم، ويخسر لهم ما يفسد من العرب. وهكذا وعلى هذا النحو، أهل بلاده يقدروا ينالوا هذا الشيء ذاته في البلاد التي بيد الفرنسيين.

تاسعا:

إن الحكام الذين تولوا على يد الفرنسيين في قسنطينة بعد أخذها، وهكذا جميع الذين خدموا الفرنسيين، أو ظهروا أنهم أحبائهم ومعهم واليه، فهؤلاء لابد أن الحاج أحمد باشا يحرمهم ويكرمهم، ولا يضرهم بشيء، ويكونوا محرومين ومصانين هم وأموالهم وأرزاقهم وأولادهم وعيالهم وأملاكهم. وإذا مكثوا في بلاد أحمد باشا زيادة عن ما ذكر، لا يدفعوا الكمرك، إلا حسب ما يدفعوا غيرهم، بدون زيادة البتة، والباشا ضامن وكافل لهذه الناس، أن لا يكن عليهم حتى ضرب، وهكذا وعلى هذا النحو هربوا إلى الفرنسيين من أهل البلاد، فإذا ولو لتحت يد أحمد باشا، فلازم عليه يعاملهم نظير المذكورين أعلاه.

عاشرا:

إن عاملي الفالطة⁽¹³⁾ والذنوب، سيردون من الفريقين لحكامهم وبلادهم.

حادي عشر:

فرانسه تقدر تجعل لها وكيلا عند أحمد باشا، على شان يعضد المتجر، ويكون الوسيط بين فرانسه وأحمد باشا ما يجلبه، وأحمد باشا يقدر يفعل كذلك في البلاد التي بيد الفرنسيين.

ثاني عشر:

هذه الشروط لا تتم ولا يعتمد عليها، إلا بعد قبولها وثبوتها من سعادة سلطان فرانسه، ولازم من إبقاء محله فرنسيه في بلد قسنطينة لحين وصول ثبوت هذه الشروط، وبعده هذه المحلة تسلم البلد التي لأحمد باشا، والباشا يلتزم أن يسهل ما يلزم لحمولة حوايج المحلة

ومأكلها ومرضائها. وهكذا يسهل عليهم كل ما يلزمهم مدة إقامتهم في البلد.

ثالث عشر:

فرانسه تسلّم إلى أحمد باشا بلد قسطنطينة في مدافعها ومهارس وبارود وكل ما يكن فيها من آلات الحرب والمأكلّة، على حسب ما يوجد في البلد بوقت تسليمها.

رابع عشر:

الحاج أحمد باشا يلتزم أن بوقت أن يسلموا له البلد، لا بد أن يعطي لفرانسه مصروف الحرب، مبلغا قدره مائة وعشرين ألف دورو فرانسة.

كتب في الدرب بقسطنطينة ليلة السبت ثامن وعشرين من شهر أوكطوبر [رجب] عام ١٢٥٣هـ، الذي هو بتاريخ النصارى ٢٤ شهر أوكطوبر وعام ١٨٣٧.

الملحق: 33

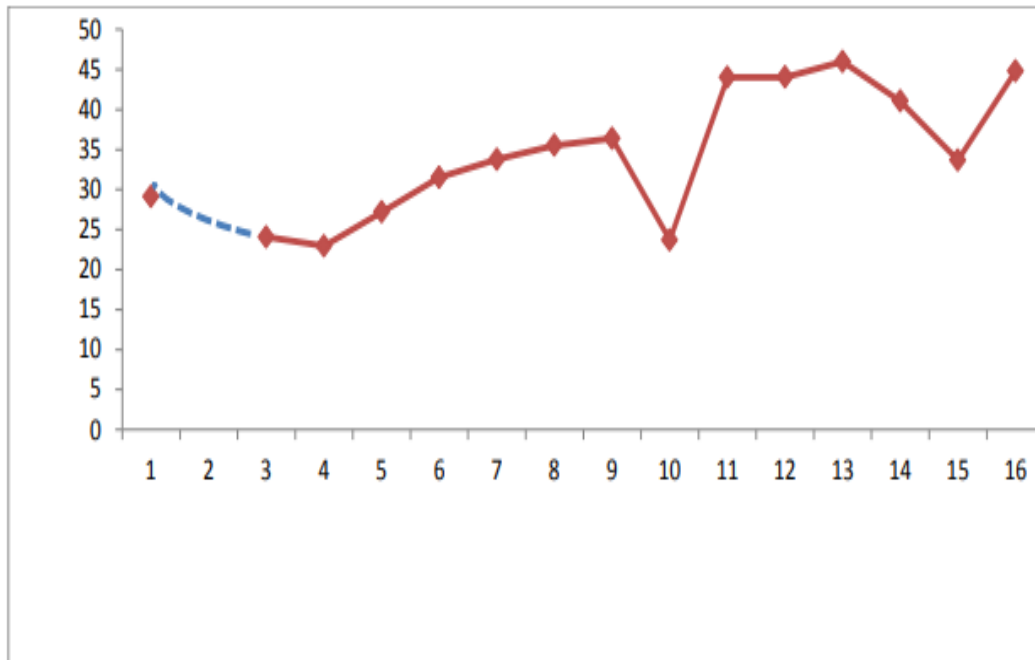
جدول يوضح حركة النشاط التجاري حسب فيليكس أنطوان لأهم الأسواق بالشرق الجزائري سنة 1845.

مدينة	قمح/هكل	شعير/هكل	أغنام/رأس	صوف/كغ	جلود بقر	قماش/م	عرب مترددون
قسنطينة	40130	31193	24284	498911	22087	195577	495899
عنابة	92754	26029	12181	138000	9062	37701	76575
سطيف	2056	4922	7860	12940	14603	14603	118590
المجموع	134949	62144	44325	649851	45752	247881	791064

عمراوي حميدة: آثار السياسة الإستعمارية والإستيطانية في المجتمع الجزائري، منشورات المركز الوطني للدراسات والأبحاث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 2007، 1954، الجزائر، ص ص 36-37.

الملحق: 34

منحني بياني يمثل عدد رؤوس الماعز القادمة من أسواق بايلك قسنطينة الى السوق التونسية في سنة 1768م



وهيبة بولصباغ ، أحمد صاري: التجارة الخارجية لألغام والماعز في بايلك الشرق خلال العهد العثماني، في مجلة للبحوث و الدراسات،المجلد 12، العدد2021،02، ص 200.

الملحق: 35

" توزيع الضرائب بين قرى الزيبان و الواحات التابعة والمطبعة لشيخ العرب بوعزيز بن قانة لسنة 1846"

القبائل التابعة	الزاب الظهر اوي	الزاب القبلي	الزاب الشرقي	القبائل المطبعة
-بسكرة:	بوشقرون:6,835,45:	أوماش 3,858	تهودة:800	-العمور:3,500
23000	ليشانة:8,127,33	مليبي 4,556,50	سريانة:1,250	أولادسيدي،
-كورة:	الزعاطشة:3,903,25	-زاوية	قرطة:4,000 -	صالح:2,137,50
485,75	-فرفار:5,083	مليبي:835,75	زريبة الواد:4,20	
-فلياش:	فوغالة:2,466	-مناهلة:1,554	0 بادس:6,000	
3,850,5	العامري:1,893	-	ليانا:7,000	أولاد
-شتمة:	-طولقة:10,1	أورلال:11,824,25	زريبة أحمد:850	صولة:21,000
20,094,5	البرج:10,630	-		-جبل
-		مخادمة:2,362,50		ششار:12,000
سيدي، عقبة:		-بنطيوس:2,825		
20,094,5		صحيرة:3,817		
		ليوة:3,405,50		

أسماء شمول ، فريدة شرفة: دور بوعزيز بن قانة في دعم الاحتلال الفرنسي في إقليم الزيبان من خلال الكتب العربي. 1844-1864، في مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد8، العدد02 ديسمبر 2023، ص191.

قائمة المصادر والمراجع

1- المخطوطات والوثائق الارشيفية

- الأرشيف العثماني اسطنبول:

- رئاسة دائرة الأرشيف العثماني، أنقرة 2010. D-47971-HAT.

D-61-479 HAT.

- الأرشيف الفرنسي:

22 2H، A.O.M.

04 01H، A.O.M.

- المكتبة الوطنية الجزائرية

- الأرشيف العثماني، المجموعة رقم 1642، الوثيقة رقم 15.

- الأرشيف التونسي:

- السلسلة التاريخية : الصندوق 223-الملف:384

- السلسلة التاريخية : الصندوق 213-الملف:247

2- المصادر والمراجع:

أ- المصادر العربية:

- أبو الحسن علي بن سعيد

• أبو الحسن علي بن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

- أبو الربيع الوسياني

• أبو الربيع الوسياني: سير مشايخ المغرب، ج2، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985م.

قائمة المصادر والمراجع:

-البكري (أبو عبيد الله)

•أبي عبيد الله البكري: المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

-ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)

•ابن حوقل (أبي القاسم النصيبي): المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن،

1872م.

-ابن خلدون (عبد الرحمن)

•عبد الرحمن ابن خلدون: العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم

والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، ط2، تحقيق خليل شحادة،

دار الفكر، بيروت، 1988م.

. العبر، ج7، ط2، بيروت، 1921م.

-الباي أحمد: مذكرات الحاج أحمد باي، وحمدان خوجة، وبوضربة، تقديم وتحقيق

وترجمة محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

-الإدريسي (محمد بن الشريف)

•محمد بن الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق وتعليق

إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

-العدواني (محمد)

•محمد العدواني: الصروف، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب

الإسلامي، ط1، 1996م.

-العنتري (محمد الصالح)

•محمد الصالح العنتري: الفريدة المنسية في حال وصول الترك بلد قسنطينة

واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، تحقيق بوعزيز يحي، د.ط، عالم

المعرفة للنشر، الجزائر، 2009م.

قائمة المصادر والمراجع:

-العياشي (عبد الله بن محمد)

• عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية (1661-1663)، تحقيق وتعليق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ج1، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006م.

-الحموي (ياقوت)

• ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، ط1، لبنان، 1993م؛ ط2، ج4 لبنان، 1995م.

-الزهار (الشريف أحمد)

• الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1980م.
• مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر (1168-1246هـ / 1754-1830م)، د.ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.

-الوزان (الحسن)

• الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ج1، ط2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م.

-خوجة (حمدان بن عثمان)

• حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

-ميمون الجزائري (محمد بن)

• محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

قائمة المصادر والمراجع:

ثانيا: المصادر المعربة

-دي هايدو (فراي دييغو)

•فراي دييغو ديهايديو: تاريخ ملوك الجزائر، ترجمة أبو لؤي عبد العزيز، دار الهدى، الجزائر، 2013م.

-روجر فوزان (أندي)

•أندي روجر فوزان: سوف مونوغرافيا، ترجمة أبو بكر مراد، دار المعرفة، الجزائر، 2016م.

-سبنسر (وليام)

•وليام سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، د.ط، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006م.

-شالر (وليم)

•شالر (وليم): مذكرات، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

-شلوصر (فندلين)

•فندلين شلوصر: قسنطينة أيام أحمد باي (1832-1837)، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، د.ط، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م.

-شوفاليه (كورين)

•شوفاليه، كورين: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541)، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.

قائمة المصادر والمراجع:

-فيرون (ريمون)

• ريمون فيرون: الصحراء الكبرى، ترجمة جمال الدين الدناصوري، مراجعة نصري شكري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963م.

-هابنسترايت (ج. أو.)

• ج. أو. هابنسترايت: رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/1732م)، ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، د.ط، دار الغرب الإسلامي، تونس، د.ت.

-جينيتز (إ. ف.)

• إ. ف. جينيتز: مجموعة من الدراسات العلمية والرياضية - العصر الجليدي، براونشفايغ للطباعة والنشر، ألمانيا، 1906م.

ب-المراجع العربية:

- أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ط2، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1948.
- الأشرف مصطفى: الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- إبراهيم نبيلة: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1974.
- بوضرساية بوعزة وآخرون: الجزائر الفرنسية والإبادة الجماعية خلال القرن 19م، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

قائمة المصادر والمراجع:

- بوعزيز يحي: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1945، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
- (-.-) الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009.
- بوحوش عمار: التاريخ السياسي للجزائر من البداية إلى 1962، ط1، دار الغرب الإسلامي، بتوت، 1997.
- بنور فريد: المخططات الفرنسية تجاه الجزائر (1830-1792م)، مؤسسة كوشكار للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008.
- بلمهدي بشير علي: السياسة العقارية الإستيطانية الفرنسية اتجاه الوقف أو الحبوس في الجزائر"، أعمال الملتقى الوطني الأول والثاني حول العقار في الجزائر إبان الإحتلال الفرنسي 1830-1962، منشورات وزارة المجاهدين، 2007.
- بلاح بشير: تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1989، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2006.
- بن أشنهو عبد اللطيف: تكون التخلف في الجزائر: محاولة لدراسة حدود التنمية الرأس مالية بين 1830-1962، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
- بن داهاة عدة: الإستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الإحتلال الفرنسي للجزائر 1830-1962، ج1، ط1، المؤلفات للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

قائمة المصادر والمراجع:

- بن ونيش فريد: **المجوهرات والحلي في الجزائر**، ط2، فن وثقافة وزارة الإعلام، الجزائر، 1982.
- بيرم محمد الخامس: **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، تحقيق علي بن الطاهر الشنوفي، ج4، ط2، بيت الحكمة، تونس، 1989.
- الجيلالي عبد الرحمن: **تاريخ الجزائر العام**، ج3، دار الثقافة، بيروت، 1982.
- الدالي الهادي المبروك: **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1999.
- زبادية عبد القادر: **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (1493-1591م)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ب.ت.
- (-.-) الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
- هلايلي حنفي: **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2008.
- (-.-) **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2008.
- الزبيري محمد العربي: **التجارة الخارجية للشرق الجزائري**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972.
- زوزو عبد الحميد: **الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي: التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية 1837-1939**، ج1، ط2، دار هومة، الجزائر، 2011.

- قائمة المصادر والمراجع:
- زركشي محمد بن إبراهيم: تاريخ الدولتين، المكتبة العتيقة، تونس، 1966.
 - حشلاف عبد الله: سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، 1929.
 - الحريري محمد عيسى: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، ط3، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987م.
 - حرز الله محمد العربي: منطقة الزاب: قرن من المقاومة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2008.
 - الطويلي أحمد: في الحضارة العربية التونسية، دار المعارف للطباعة والنشر، دت، سوسة، تونس.
 - يحي جلال: السياسة الفرنسية في الجزائر 1830-1960، دار المعرفة، القاهرة.
 - منصوري أحمد بن الطاهر: قيم وعادات وتقاليد المجتمع السوفي قديماً، ط1، منشورات مديرية الثقافة لولاية الوادي، مطبعة مزوار، 2015.
 - منور العربي: تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر، دار المعرفة، الجزائر، 2006.
 - الملي مبارك: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي، ج2، بيروت، لبنان.
 - معاشي جميلة: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10هـ/16-13هـ/19م، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ت.

قائمة المصادر والمراجع:

- مريوش أحمد: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول، 1954، الجزائر.
- نمير عقيل لطف الله: تاريخ الجزائر الحديث، منشورات جامعة دمشق.
- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ج1.
- (-.-) الحركة الوطنية الجزائرية 1838-1900، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1992م.
- (-.-) محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- سعدي عثمان: الجزائر في التاريخ، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- سعيدوني ناصر الدين والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ: الجزائر في العهد العثماني، ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- سعيدوني ناصر الدين: الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أواخر العهد العثماني (1791-1830)، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
- (-.-) النظام المالي في الجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.

- قائمة المصادر والمراجع:
- (-.-) النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830) ، ط3، البصائر الجديدة، الجزائر، 2012.
 - (-.-) النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
 - (-.-) ورقات جزائرية: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2009.
 - (-.-) ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2000.
 - (-.-) الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر (دار السلطان) أو آخر العهد العثماني 1791-1830، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014.
 - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل: دراسات في تاريخ غرب إفريقيا، مكتبة الإسكندرية، مصر، 1989م.
 - عباد صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، د.ط، دار هومة، الجزائر، 2012م.
 - (-.-) المعمرون والسياسة في الجزائر 1870-1900، د.م.ج، الجزائر.
 - (-.-) الجزائر خلال العهد التركي 1514-1830، دار هومة، الجزائر، 2011.
 - عدي الهواري: الاستعمار الفرنسي في الجزائر: سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960، ترجمة جوزيف عبد الله، المطبعة الأولى، دار الحدائث، بيروت، 1983.

قائمة المصادر والمراجع:

- عمورة عمار : موجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة، ط1، القبة، الجزائر، 2002م.
- عميرايي أحميدة :آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري 1830-1954، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، 1954، الجزائر.
- :(-.-) جوانب من السياسة الاستعمارية الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع الشرق الجزائري (بداية الاحتلال)، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، 1984.
- :(-.-) علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، د.ط، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 2002م.
- العربي اسماعيل :الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
- العقبي صلاح مؤيد :الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر: تاريخها ونشاطها، دار اليراق، لبنان، 2002.
- عثمان محمد :قسنطينة ملكة الشرق الجزائري ومدينة الجسور المعلقة، دار المصرية للكتاب، القاهرة، 2012.
- فيلاي عبد العزيز :جرائم الجيش الفرنسي مقاطعتي الجزائر وقسنطينة 1830-1850م، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
- فركوس صالح :الحاج أحمد باي قسنطينة 1826-1850، ديوان المطبوعات الجامعية، 2009.

- قائمة المصادر والمراجع:
- (-.-) محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر 1830-1925، مديرية النشر لجامعة قالم، 2010.
 - (-.-) تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.
 - الصلابي محمد علي: فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح، دار الإيمان، الإسكندرية، 2001.
 - قويدر بشار: القوافل التجارية المغاربية، منشورات المركز الوطني للبحوث، 2001.
 - قنان جمال: التوسع الإستعماري ظاهرة تسلطية عدوانية واستغلالية، أعمال الملتقى الدولي حول الإستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007.
 - قشي فاطمة الزهراء: قسنطينة في عهد صالح باي البايات، ط2، دار مداد يونيفارسيطي براس، قسنطينة، 2013.
 - شويتام ارزقي: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009.
 - شافو رضوان: المقاومة الشعبية بصحرا قسنطينة تقرت وضواحيها أنموذجًا 1844-1875، دار الشرق للطباعة والنشر، الجزائر، 2015.
 - تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

قائمة المصادر والمراجع:

- خير الدين محمد :مذكرات الشيخ محمد خير الدين، ج1، مطبعة دحلب، الجزائر، 1998
- الخطيب مصطفى عبد الكريم :معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، 1996.
- الخروصي خالد بن سليمان بن سالم :الطوبوغرافيا وتطور علم الخرائط، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2006.
- ذهبية بوشيبة : العلوم العقلية والفنون في الجزائر خلال العهد العثماني، في مجلة كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد الرابع، جامعة مولاي الطاهر سعيدة، 2017.
- الجيلالي عبد الرحمن :تاريخ الجزائر العام، ج3، دار الثقافة، بيروت، 1982.
- غنابزية على : مجتمع وادي سوف من الإحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1882-1954، ط1، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2017.
- (-.-) مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية من القرن 13/19م، مطبعة الرمال، الجزائر، 2019.
- (-.-) مجتمع وادي سوف منذ فجر التاريخ إلى آواخر العصور الوسطى، سامي للطباعة والنشر، الجزائر، 2023.
- خير الدين محمد :مذكرات الشيخ محمد خير الدين، ج1، مطبعة دحلب، الجزائر، 1998
- الخطيب مصطفى عبد الكريم :معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، 1996.

قائمة المصادر والمراجع:

- جعيط هشام : تأسيس الغرب الإسلامي، ط2، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2008.

- الغالي الغربي: العدوان الفرنسي على الجزائر، دار هومة، الجزائر، دت.
- غانم محمد الصغير : تراث منطقة بسكرة والتخوم الأوراسية، مطبعة عمار قوقي، باتنة، دت.

3- المجلات والدوريات:

- أو كور عبد الحكيم: طبنة عبر التاريخ، الشواهد الأثرية والأبحاث العلمية، في مجلة الدراسات الأثرية، مجلد 16، عدد 01، 2012.
- أيت بعزیز عبد النور :مساهمة الحسين الورتلاني في كتابة تاريخ الجزائر الحديث، في مجلة المسار، السنة (23) العدد (67)، أبريل 2022م.
- بشاري لطيفة :مكانة تلمسان التجارية في العهد الزياني، في مجلة دراسات تراثية، العدد 1، 2007.
- بلخوص الدراجي :واقع النشاط الحرفي والصناعي ببابيك الشرق من خلال كتب النوازل - نوازل ابن الفكون القسنطيني أنموذجا، مجلة الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، المجلد 07، العدد 4، 2022.
- بلعمري فاتح :الجزائر سنة 1695 من خلال مصدر تاريخي نادر للمستشرق الفرنسي بوتي PETIS DE LACROIX ، في المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 3، العدد 01، جوان 2019.
- بلعيدي عزالدين :التجارة الخارجية للجزائر أواخر العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية والأثرية، تيبازة، الجزائر، المجلد 03، العدد 01، أفريل 2023.

قائمة المصادر والمراجع:

- بلقاسم محمد : المؤسسات الدينية التعليمية في الجزائر خلال الحكم العثماني، في المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة، العدد 03، 2016.
- بن اعمارة زوينه ولونيسي إبراهيم :الحاكم العام الفرنسي في الجزائر الجنرال بيجو وأثر سياسته على الجزائر 1841-1847، في مجلة الإحياء، المجلد 22، العدد 30، جانفي 2022.
- بن بوزيد لخضر :السياسة الاستعمارية تجاه القبائل والعائلات المتنفذة في منطقة الزيبان (1830-1844)، في المجلة التاريخية الجزائرية، العدد 05، ديسمبر 2017.
- بن جبور محمد :الوضع الصحي بالجزائر في أواخر العهد العثماني، في المجلة المغربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، مج 5، العدد 02، 2013.
- بن عتو جليل وقوراري زهاد :الأوضاع المعيشية والصحية والديمغرافية في الجزائر العثمانية من خلال المصادر الغربية، في مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، المجلد 13، العدد 01، 2022.
- بوحوص شهيناز :دور الزعامات المحلية في تحقيق المشروع الاستعماري الفرنسي بالجزائر 1830-1871، في المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة، المجلد 07، العدد 02، ديسمبر 2021.
- بوخلفي جهينة قويدر :منطقة الزيبان دراسة طبيعية جغرافية، في مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 06، العدد 02.
- بوذراع إيمان :حركة التجارة في ميناء بونة خلال الفترة الاستعمارية للجزائر (1830-1914)، في مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 07، العدد 01، 2021.
- بوركنة علي :زراعة التبغ بالجزائر 1843-1930، قراءة في الآليات والنتائج، في مجلة دراسات تاريخية، المجلد 06، العدد 01، 2019.

قائمة المصادر والمراجع:

- بوسليم صالح : الحياة العلمية والثقافية في منطقة توات خلال القرنين 18 و19، مصادرها وبعض مظاهرها، في المجلة الجزائرية للمخطوطات، دت، د.ع.
- بوشنافي محمد :الداي مصطفى باشا وعصره (1798-1805)، في مجلة عصور جديدة، العدد 7-8، 2013.
- بوشنافي محمد :النظام الغذائي في الجزائر خلال العهد العثماني 1520-1830، في المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد 06، العدد 11، جوان 2020.
- بوعالم صفاح :الحياة اليومية للأسرى المسيحيين في الجزائر خلال العهد العثماني، في مجلة الونشريس للدراسات التاريخية، المجلد 01، العدد 02، جويلية 2022.
- بوعزة بوضرساية : سياسة نابليون الثالث نحو الجزائر 1848-1870، في مجلة تاريخ المغرب العربي، مخبر الوحدة المغاربية عبر التاريخ، المجلد 05، العدد 01، جوان 2019.
- بولصباغ وهيبة ، صاري أحمد :نظام الرعي في الريف القسنطيني خلال العهد العثماني، المجلة الجزائرية للأبحاث والدراسات، جامعة جيجل، المجلد 05، العدد 01، جانفي 2022.
- (-.-) التجارة الخارجية للأغنام والماعز في بايلك الشرق خلال العهد العثماني، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، جامعة الجلفة، المجلد 12، العدد 02، جانفي 2022.
- بومخلوف نصيرة ورميته أحمد :العرس كطقس عبور بالمجتمع الجزائري الراهن - مقارنة سوسيو أنثربولوجية، في مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 11، العدد 01، 2022.

قائمة المصادر والمراجع:

- تركي عباس :الأدوار العسكرية والأمنية لفرقة زواوة خلال العهد العثماني 1519-1830، في مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، المجلد الرابع 04، العدد 01، جانفي 2022.
- ثامر مكي علي : الإقطاع، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، قسم التاريخ.
- حارش محمد الهادي :الجزور التاريخية لمملكة نوميديا، في مجلة الاتحاد العام للآثارين العرب، العدد 10.
- خضير عقبة :النشاط الاقتصادي بالجزائر في العهد العثماني ما بين القرن 17-19، في مجلة المعارف التاريخية، العدد 06.
- الخطاري بلقاسم : الوشم كظاهرة سيميوطيقية في الثقافة الأمازيغية، المغرب، منشورات كلية الآداب، 2000.
- خمشون حفيظة :النشاط الزلزالي بالجزائر في العهد العثماني، محاولة لرصد الظاهرة من خلال نصوص الاسطوغرافيا المحلية، في مجلة المعارف، العدد 03، 2023.
- خميس حياة : المنهج الاثنوغرافي واستخداماته في الأبحاث الأنثروبولوجية، في مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري، المجلد 09، العدد 02، ديسمبر 2023.
- دادة محمد : الأرياف الجزائرية في عهد الإمبراطورية الثانية، في مجلة العلوم الإنسانية، المجلد 12، العدد 02، 2024.
- دباب زهية ، بروس وردة :السياسية التعليمية في الجزائر في العهد العثماني قراءة سوسيوتاريخية، مجلة العلوم الإنسانية، مج 21، ع 1، 2021.
- دحدوح عبد القادر :الزوايا بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة دراسات في آثار الوطن العربي، 19.
- دحماني توفيق : الأوضاع الصحية والكوارث الطبيعية في الجزائر عشية الاحتلال، في المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، مج5، العدد 2، الجزائر، 2013.

قائمة المصادر والمراجع:

- (-.-) قسنطينة عشية الاحتلال الفرنسي 1837م من خلال وثائق نادرة، في مجلة الدراسات التاريخية، مجلد 11، العدد 01، 2010.
- دعاس فارس: الدلالة الرمزية لنماذج من العادات التقليدية الجزائرية في اللباس والحلي والزينة وخلفيتها في التاريخ القديم، في المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 08، العدد 01، 2024.
- ديفل سميحة: صناعة الحلي بقسنطينة خلال العهد العثماني، في مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 11، 2016.
- رابح الله عبد القادر: تأثير النظام الاقتصادي على الدولة والمجتمع في فترة الدايات 1617-1830، مجلة الفكر، مج 6، ع 1، جوان 2022.
- روابحي العياشي: الاحتلال الفرنسي لقسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري عام 1837 وردود فعل أعيان الأرياف، قسم التاريخ، جامعة باجي مختار، عنابة، 2010.
- (-.-) الاحتلال الفرنسي لقسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري عام 1837، ورود فعل أريافها، حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، رقم 2010/05.
- (-.-) عائلة المقراني والأمير عبد القادر 1838-1847، في مجلة التواصل في العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد 30، جوان 2012.
- زورقي وردة جيلالي و خالدي بلعربي: جوانب من الحياة الاجتماعية لمدينة الجزائر في كتابات القناصل الفرنسيين خلال القرن 18 "لوجي دي تاسي وسيزار فيليب فاليار" نموذجا، في المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 07، العدد 01، 2023.
- الزويل صالح: أبو الربيع سليمان الوسياني (ت 557هـ / 1161م) - سيرته ومنهجه في سيره، في مجلة الحقيقة، المجلد 22، العدد 02.

قائمة المصادر والمراجع:

- زياني فاتح: سياسة الجيش الفرنسي في دعم الاستيطان الأوروبي في الجزائر خلال حكم المارشالين كلوزيل وبيجو (1830-1847)، في مجلة الإحياء، المجلد 20، العدد 26، سبتمبر 2020.
- الزين محمد: نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات، في مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 17، 2012.
- سراج عاطف وشلاي عبد الوهاب: الاستغلال الاستعماري للغابات الجزائرية وانعكاساته على سكان الأرياف، في مجلة الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، المجلد 02، العدد 09، 2018.
- سريج محمد: المظاهر الاجتماعية للمجتمع الجزائري في العهد العثماني وبداية الاحتلال من خلال الكتب الغربية 1519-1850، في مجلة دراسات في التنمية والمجتمع، المجلد 07، العدد 01، 2022.
- سعودي مراد و قاسي نايت الياس: نماذج من الزراعات الكولونيالية في الجزائر 1830-1918، في مجلة الباحث، المجلد 14، عدد خاص، 2022.
- سعيدوني ناصر الدين: الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي في الجزائر أثناء العهد العثماني، في مجلة ثقافة.
- سعيدوني ناصر الدين: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر- تونس- طرابلس الغرب)، حولية الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 31، 2010.
- سلام جبار منشد: الأوضاع السياسية في بلاد الجريد في عهد الدولتين الموحدية والحفصية، في مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد 02، 2006.
- شافو رضوان لمقدم عمر: ملامح حول التجارة الخارجية للجزائر خلال الفترة الاستعمارية من القرن 19، في مجلة المعارف، العدد 07.

قائمة المصادر والمراجع:

- شافو رضوان: العلاقات السياسية بين الدولة العثمانية والإمارات الصحراوية في الجزائر (إمارة بني جلاب بوادي ريغ أنموذجا 1531-1854)، في مجلة القرطاس، العدد 02، جانفي 2015.
- شدري رشيدة معمر: الزوايا ودورها الديني والثقافي في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة المعيار، مج 24، ع 49، 2020.
- شمول أسماء، فريدة شرفة: دور بوعزيز بن قانة في دعم الاحتلال الفرنسي في إقليم الزيبان من خلال المكتب العربي 1844-1864، في مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 8، العدد 2، ديسمبر 2023.
- شويتام أرزقي: سياسة الإستيطان الفرنسي في الجزائر 1830-1914م، في مجلة التاريخ المتوسطي، المجلد 02، العدد 02، 2020.
- صابري مجمد وفريح لخميسي: دراسة سوسيو تاريخية لعادات وتقاليد المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830، المجلد السابع، العدد الرابع، ديسمبر 2022، في مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، جامعة زيان عاشوري، الجلفة، الجزائر.
- صديقي بلقاسم، عبلة بن يطو: الإدارة المركزية والإقليمية بالجزائر العثمانية، في مجلة المفكر، المجلد السابع، 01.
- طويلب عبد الله: بجاية في عهد بني غانية، في مجلة متيجة للدراسات الإنسانية، المجلد 01، العدد 01، 2014.
- العايب كوثر وعقيب محمد السعيد: استراتيجية الاستعمار الفرنسي في تفكيك القبائل الجزائرية خلال القرن التاسع عشر ميلادي وآثارها، في مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 05، العدد 01، 2021.
- عباس حورية: الإنتاج الحيواني في الجزائر المستعمرة ومساهمته في التجارة الخارجية مع فرنسا خلال الفترة 1870-1914، في المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 06، العدد 01، 2022.

قائمة المصادر والمراجع:

- عبدلي زوبيدة: قبيلة مغراوة الزناتية في ظل الصراع بين الأمويين بالأندلس وبني زيري الصنهاجيين حلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، في مجلة عصور الجديدة، مجلد 11، العدد 02، جوان 2022.
- عثمانى الجباري: منظومة التسمية في مجتمع وادي سوف خلال الفترة 1882-1937، في مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، العدد 02.
- عواد المنور: البيوتات العلمية في قسنطينة - البيت الفكوني أنموذجا، في مجلة الحضارة الإسلامية، المجلد 20، العدد 02، ديسمبر 2019.
- عيساوي مها: عادات وتقاليد ريفية معاصرة في الشرق الجزائري، مجلة الثقافة الشعبية، عدد 23، 2013.
- غرداوي نور الدين: أعراش وقبائل متيجة ودورها في المقاومة الوطنية في بداية الاحتلال الفرنسي، في مجلة متيجة للدراسات الإنسانية، العدد 04، ديسمبر 2015.
- كشرود حسان: بايلك الشرق دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالين بايسونيل ودي فونتتين والدكتور توماس شاو، مجلة قضايا تاريخية، المدرسة العليا بوزريعة، الجزائر، المجلد 02، العدد 06، جوان 2017.
- كعوان فارس: المصطلحات الإدارية العثمانية في الجزائر: الباشا-الدنوش-البايك كنماذج، في مجلة مدارات تاريخية، المجلد 1، عدد خاص، أبريل 2019.
- كعوان فارس عبد الغفور نصرالدين: تأثير التضاريس في علاقة القبائل الممتنعة بالسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني - الجبل أنموذجا، في مجلة عصور الجديدة، المجلد 10، العدد 1، مارس 1441هـ/2020.
- كيم صبيحة وعابر حفيظة: أنثروبولوجيا الاحتفال الديني ببني عباس - المولد النبوي أنموذجا، في مجلة أنثروبولوجية الأديان، المجلد 18، العدد 02، 2022.

قائمة المصادر والمراجع:

- لعبيدي علي وحفيظة زلاط: مجتمع الزيبان من خلال رحلة بول فويللو خلال القرن 19، في مجلة دراسات تاريخية، المجلد 10، العدد 01، 2022.
- مبخوت سهام، طاعة سعد: مشاكل القطاع الزراعي الجزائري وتحديات الاستعمار 1945-1956، زراعة الحبوب نموذجا، في مجلة حوليات جامعة الجزائر 1، العدد 31، الجزء 04.
- مخفي مختار: دور علماء الجزائري اجتماعيا وسياسيا خلال العهد العثماني (1518-1830)، في مجلة متون، المجلد الثامن، العدد الرابع، جانفي 2017.
- مسعودي فتيحة، حمدون بن عتوون فارس العيد: المجاعات بين الآفات السماوية والعوامل البشرية في الجزائر من مطلع القرن الثامن عشر إلى الثلث الأول من القرن التاسع عشر، في المجلة التاريخية، مج 6، ع 1، 2022.
- مسعودي فتيحة: الكوارث الطبيعية في الجزائر خلال القرنين 18-19 بين التأثيرات السياسية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف، 2024.
- مغربي خيرة: اقتصاديات الموارد المائية في الجزائر، في مجلة دفاتر بوادكس، العدد 06، سبتمبر 2016.
- نافل عائشة، ولد النبية كريم: فرق الصبايحية واستغلالها داخل الاستراتيجية الاستعمارية في الجزائر 1830-1845، في المجلة الأكاديمية للدراسات الإنسانية والاجتماعية، جامعة الشلف، الجزائر، مج 12، ع 01، 2019.
- نواري خولة: الحرف والصناعات في أسواق قسنطينة من خلال مخطوط دفتر أحباسها (16-17م)، مجلة روافد، جامعة عين تيموشنت، المجلد 3، العدد 1، جوان 2019.
- هلايلي حنفي: الصحراء الجزائرية خلال العهد العثماني، دورية كان التاريخية، السنة 12، العدد 46، ديسمبر 2019.

قائمة المصادر والمراجع:

- ورتي جمال : آليات السياسة العقارية الفرنسية ودورها في تغير بني المجتمع الجزائري قبيلة الحنانشة نموذجا، في مجلة منتدى الأستاذ، العدد 10، سبتمبر 2011.

- يعقوب خدجية : المترجم العسكري شارل فريو وترجمته لمراسلات ووثائق قبائل بايلك قسنطينة، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2023.

4- الملتقيات والندوات:

- توتة إسماعيل: الممارسة الدينية في الجزائر العثمانية من خلال الكتابات الأجنبية، أعمال الملتقى الدولي حول: تاريخ الجزائر الديني في العهد العثماني من خلال الكتابات الأجنبية والمحلية، جامعة خميس مليانة، 6-7 مارس 2018.

- شفيق أحمد محمد: التواصل الحضاري العريق بين المناطق الإفريقية الواقعة شمال الصحراء الكبرى وجنوبها، أعمال ندوة التواصل.

5- الموسوعات والمعاجم:

- ابن منظور :لسان العرب، مج 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
- أبي الفضل محمد بن مكرم ابن منصور الإفريقي المصري :لسان العرب، 7 مج، ط 1، دار صادر، بيروت، 1997م.
- بن نعيمة عبد المجيد وآخرون :موسوعة أعلام الجزائر 1830-1954، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.

قائمة المصادر والمراجع:

- حساني مختار: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج 2، دار الحكمة، الجزائر، 2007.
- حلاق حسن وصباغ عباس: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، ط 1، دار العلم الملايين، بيروت، 1999.
- رجب عبد الجواد إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس، دار الآفاق العربية، ط 1، القاهرة، 2002.
- صابان سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000.
- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج 1، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، د.ت.

6- الأطاريح والرسائل الجامعية:

- أ- الدكتوراه:

- بختاوي خديجة: التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في عمالة وهران (1830-1914)، أطروحة دكتوراه، في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2012.
- بكاي عبد المالك: الحياة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 13-16م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، قسم العلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، جامعة باتنة، 2014م.
- بكوش عبد الله: واقع مجتمع الجنوب الجزائري خلال الفترة الإستعمارية 1852-1914م، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2023.

قائمة المصادر والمراجع:

- بلعمري فاتح: الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة قسنطينة، 2017، الجزائر.
- بن صحراوي كمال: أوضاع أريف في بايلك الغرب الجزائري، أواخر العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2014.
- بن عتو بلبروات: المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2008.
- بوخلفي قويدر جهينة: تطور النظام . الواحي وعلاقته بالقصور في الصحراء المنخفضة "الزيبان"، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم، كلية علوم الأرض، الجغرافية والتهيئة العمرانية، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2017.
- بوديبة سهام : دور المصاهرات في مدينة قسنطينة في الربع الأول من القرن التاسع عشر من خلال سجلات المحاكم الشرعية، أطروحة دكتوراه، تخصص تاريخ المغرب الحديث، جامعة قسنطينة.
- بوغراة هبة الله: الأوضاع الاجتماعية والثقافية بمنطقة تقرت خلال العهد الاستعماري (1854-1962)"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في التاريخ المعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة بسكرة، الجزائر، 2021.
- بومعزة سهام: الزراعة في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني (1518-1830م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في تخصص التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران 1، الجزائر، دفعة 2020م.
- بيبى عابد: انحصار نشاط المدن العثمانية في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، تخصص تاريخ الجزائر العمراني الحديث والمعاصر، 1519-1962م، جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف، 2022.

قائمة المصادر والمراجع:

- خليفة عبد القادر: تحولات البني الاجتماعية وعلاقتها بالمجال العمراني في مدن الصحراء الجزائرية دراسة سوسيو-أنثروبولوجية لمدينة تقرت (وادي ريغ)، أطروحة دكتوراه في العلوم: في علم الاجتماع، قسم العلوم الاجتماعية، جامعة بسكرة، 2011.
- دحماني توفيق: "الضرائب في الجزائر (1206-1282هـ/1792-1865م) دراسة مقارنة"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، دفعة 2008م.
- دلباز محمد: الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية في الجزائر أواخر العهد العثماني على ضوء دفتر التشريعات، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، دفعة 2015م.
- سعيدان جمال الدين: الأحوال المعيشية والصحية في الريف القسنطيني فيما بين 1830-1919م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر.
- سيساوي أحمد: البعد البايليكي في المشاريع السياسية الإستعمارية الفرنسية من فالي الى نابليون الثالث، 1838-1871، أطروحة دكتوراه، جامعة قسنطينة2، 2014، الجزائر.
- شويتام أرزقي: "المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م"، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006م.
- صابري محمد: "واقع الريف في بايك الشرق خلال العهد العثماني (1519-1830) دراسة اجتماعية اقتصادية"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه الطور الثالث في تخصص تاريخ بلاد المغرب الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة بسكرة، الجزائر، دفعة 2024م.

قائمة المصادر والمراجع:

- طوبال نجوى: الزواج وواقع المصاهرات بمجتمع مدينة الجزائر - الفترة العثمانية - 1710-1830، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، ج1، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، 2014.
- عمرانى معاذ : منطقة وادي ريغ في ظل الاحتلال الفرنسي، 1854-1962 دراسة سياسية، أطروحة دكتوراه العلوم في تخصص التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، الجزائر، 2016.
- قشوان عبد الرزاق: "الواقع الاقتصادي والاجتماعي في الشرق الجزائري (1804-1871م)", أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، دفعة 2018.
- قشي فاطمة الزهراء : قسنطينة المدينة والمجتمع، النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة، دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة تونس، 1998.
- كحول عباس :الزاوية والسياسة بين المقاومة الوطنية والاحتلال الفرنسي في الزيبان (1838-1876)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، 2018.
- لخص الدراجي :الوضعية الاجتماعية ببايك قسنطينة من خلال نوازل ابن الفكون، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، الجزائر، 2019.
- لعربي اسمهان :الحياة الاقتصادية في بايك الشرق في العهد العثماني، دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، شعبة التاريخ، جامعة سيدي بلعباس، 2013.
- مجاهد يمينة :تاريخ الطب في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي، 1830-1962، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، 2018.
- معاشي جميلة : الإنكشارية والمجتمع ببايك قسنطينة في نهاية العهد العماني، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ والآثار، جامعة قسنطينة، 2008.

قائمة المصادر والمراجع:

- هوري مختار: نماذج من القمح الإداري الاستعماري تجاه بعض القبائل في الجنوب القسنطيني 1871-1916م، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: سليمان قريبي، جامعة الحاج لخضر - باتنة 01، 2016-2017م.
- وابل بخته: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للجزائر من خلال حوليات استيطان الجزائر بين 1852-1858م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2020-2021م.
- وادفلي ياسين: الأزمات الاقتصادية والاجتماعية في مقاطعة قسنطينة، 1837-1900، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة باتنة، 2025.

- ب - الماجستير:

- اجرنتي محمد: أسرة بن قانة ومكانتها السياسية والاجتماعية خلال العهد العثماني، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2005، الجزائر.
- بن موسى موسى: الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها 1900-1939، ماجستير في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة قسنطينة، 2006.
- بهلول ربيعة: النظام الإداري العثماني في الجزائر ومراحلها، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 02، الجزائر، 2016.
- بوغزة بوضرساية: أحمد باي رجل دولة ومقاوم، رسالة ماجستير، في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1991.
- بولحبال رياض: "أخبار بلد قسنطينة وحكامها لمؤلف مجهول (دراسة وتحقيق)"، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تخصص علم المخطوط

قائمة المصادر والمراجع:

- العربي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، دفعة 2010م.
- جاجوا حسين: دور غدامس التجاري مابين طرابلس والسودان الأوسط خلال 1850-1881م، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة، (غير منشور)، جامعة الجزائر، 1981.
- حوحو رضا: شبكة السكك الحديدية الفرنسية في الجزائر وأثرها في تدعيم سلطة الإستعمار (1830-1914)، رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006.
- خليل كمال: المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر: التأسيس والتطور (1850-1951م)، مذكرة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008.
- داوس حسن: صورة المجتمع الصحراوي الجزائري، رسالة ماجستير في أدب الرحلة، قسم اللغة العربية وأدابها، جامعة منتوري قسنطينة، 2008.
- ذياب هشام: محمد المكي بن عزوز - حياته، موقفه وآثاره 1824-1916م، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة المسيلة، 2014، الجزائر.
- زقب عثمان: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف 1918-1947 وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة باتنة، 2006.
- سعيدان جمال الدين: "الأحوال المعيشية والصحية في الريف القسنطيني فيما بين (1830-1919)"، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2017م.
- شافو رضوان: مقاومة منطقة تقرت وجوارها للاستعمار الفرنسي 1852-1875، مذكرة ماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر، 2007.

قائمة المصادر والمراجع:

- عقاد سعاد: **الفلاحون الجزائريون والسلطة العثمانية في الجزائر 1519-** 1830 - دار السلطان أنموذجاً - مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، قسم التاريخ وعلم الآثار، السنة الجامعية 2014.
- عمراني معاد: **أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ، من بداية القرن التاسع عشر إلى سنة 1962م**، دراسة سياسية واجتماعية، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2003.
- قرمزلي عيسى: **القلج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، لمدينة، العلم والمعرفة للنشر المجاني، 1988.
- القشاعي فلة المولودة موساوي: **النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني 1771-1837م**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1990.

7- المصادر و المراجع الأجنبية:

- AGERON, C. R. (2005), **Les Algériens musulmans et la France 1871-1919**, 2T. Paris, éd. Bouchène.
- ADRIEN BERBRUGGER: **Le Pénion d'Alger ou les origines du gouvernement turc en Algérie**, imp, Hasnaoui, Alger, 2013.
- Albert Dévoux: **Les édifices religieux de l'ancien Alger**, in RA, V.
- BEN-GANA. (1879). **LES BEN-GANA, depuis La Conquête Française**. Paris: libraire-éditeur.

- Boyer, Pierre: **"l'Espagne et Koukou : les négociations de 1589–1610"**, in **Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée**, 2ème trimestre 1970, N°08, publié avec le concours du CNRC, Aix–en–Provence.
- Bugeaud: **Par l'épée et par la charrue: écrits et discours**. P.U.F, Paris, 1948.
- CHARLES FÉRAUD: **Le Sahara de Constantine, notes et souvenirs**. Adolphe Jourdan, libraire – éditeur imprimeur, libraire de l'Académie, 1887.
- Féraud, L.C.: **Histoire des Sultans de Touggourt et du Sud algérien, notes 1 . historiques sur la province de Constantine, Les Ben–Djellab, Sultans de Touggourt**, Revue African 1878–1886, Editions, Alger, 2006.
- Féraud, L.C.: **Les Ben–Djellab, Sultans de Touggourt. Notes 1 . historiques sur la province de Constantine**.
- Gsell, S. (1927): **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord (T V)**. Paris: Librairie Hachette.
- Kaddaache, Mahfoud: **L'Algérie des Algériens de la préhistoire à 1945**, Alger, 2000.
- Lauger de Tassy: **Histoire du Royaume d'Alger**, chez Henri du Sauzet, Amsterdam, 1724.
- MINISTÈRE DE LA GUERRE: **Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie, 1843–1844**. Paris, Imprimerie Royale, Mai 1845.

قائمة المصادر والمراجع:

- M. Walsin Esterhazy: **De la Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger**, Éditeur: C. Gosselin, Paris, 1840.
- Thomas Shaw: **Voyage dans la Régence d'Alger**, traduit de l'anglais par J. Mac Carthy, Tome 1, Paris.
- William Shaler: **Sketches of Algiers political, historical and civil, containing an account of the geography, population, government, revenues, commerce, agriculture, arts, civil institutions, tribes, manners, languages and recent political history of that country**, Boston, 1826.

1..

8- المواقع الإلكترونية:

- https://www.commune-tabarka.tn/ville_tabarka.php.
- <https://arab-ency.com.sy/ency/details/1149/4>
- <https://www.taraajem.com/persons/15856>
- <https://www.marefa.org>.
- <https://www.almaany.com/ar/dict/ar>
- <https://shamela.ws/book/897/1306>
- <https://arab-ency.com.sy/ency/details/7060/11>
- <https://areq.net/.html>
- <https://www.almaany.com/ar/dict/ar>.
- <https://tribusalgeriennes.wordpress.com/>
- <https://www.almaany.com/ar/dict/ar->
- <https://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/3686>

.....: قائمة المصادر والمراجع

- <https://www.universalis.fr/encyclopedie/le-moniteur-universel>
- <https://qudsnet.com/post/442947>

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
	الإهداء
	شكر وعرقان
14 -1	المقدمة
58-16	الفصل الأول: الإطار الجغرافي والبشري والإداري لبايك الشرق أواخر العهد العثماني
30-18	أولاً: الاطار الجغرافي لقبائل جنوب بايك قسنطينة.
51-30	ثانياً: الإطار البشري لقبائل جنوب بايك قسنطينة.
58-51	ثالثاً: التنظيم الإداري.
119-60	الفصل الثاني: الأسر المحلية المتنفذة جنوب بايك قسنطينة
67-60	1- مشيخة العرب خلال العهد العثماني.
98-67	2- أهم الأسر المتنفذة جنوب البايك.
104-98	3- الصراع بين العائلات المتنفذة.
119-105	4- العلاقة بين البايات والأسر المتنفذة.
176-121	الفصل الثالث: الحياة الاقتصادية 1710-1848م
141-121	أولاً: النشاط الزراعي والثروة الحيوانية.
151-141	ثانياً: النظام الضريبي
154-151	ثالثاً: النشاط الصناعي
166-154	رابعاً: النشاط التجاري: التجارة والاسواق وطرق المواصلات
176-167	خامساً: الكوارث الطبيعية وأثرها على الحياة الاقتصادية
244-178	الفصل الرابع الحياة الاجتماعية 1710-1848م
199-178	أولاً:- العادات والتقاليد
212-199	ثانياً:- المناسبات
224-212	ثالثاً:- الوضع الصحي والأوبئة وطرق العلاج

244-225	رابعا:- المؤسسات الدينية و العلمية ودورها في الحياة الاجتماعية.
345-246	- الفصل الخامس: أثر الكوارث الطبيعية والحروب والثورات على الحياة الاقتصادية والاجتماعية:
252-246	أولاً:- سقوط قسنطينة والتوسع الاستعماري في الجنوب.
254-252	ثانيا: التوسع الاستعماري نحو الجنوب وانعكاساته.
307-254	1- انعكاساته على الحياة الاقتصادية
323-307	2- أثره على الأوضاع الاجتماعية.
329-323	ثالثا: علاقة الأسر الحاكمة بالسلطة الفرنسية.
345-330	رابعا: أثر الكوارث الطبيعية والحروب والثورات على الحياة الاقتصادية والاجتماعية
352-347	الخاتمة
391-354	الملاحق
425-393	قائمة المصادر و المراجع
428-427	فهرس الموضوعات